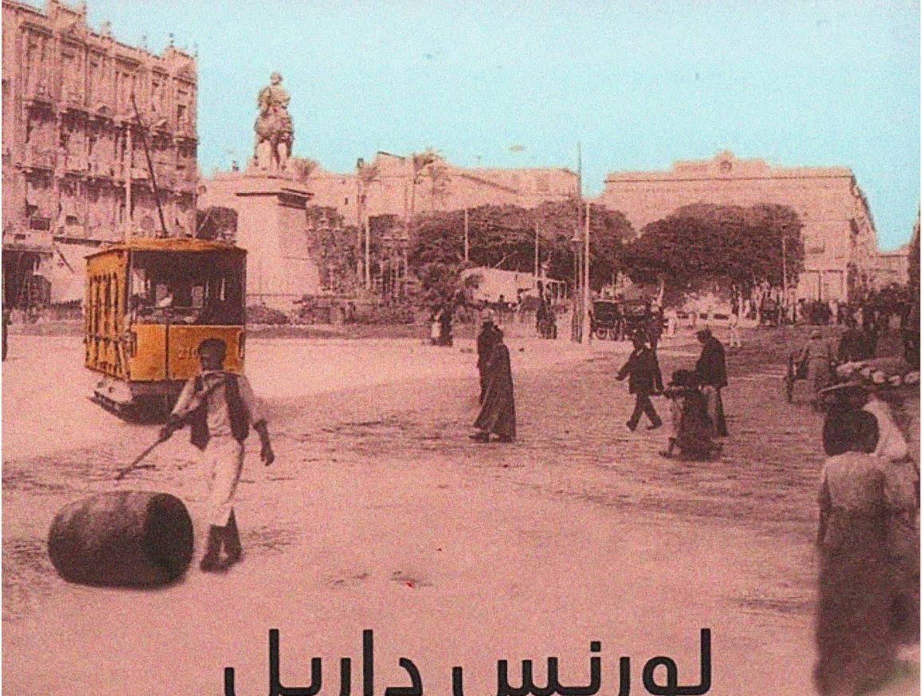


لورنس داريل

رباعيّة الإسكندريّة

كليا

رواية

دار الشروق

لورنس داريل

رباعية الإسكندرية

كليا

رواية

ترجمة

فخري لبيب

دار الشروق

طبعة دار الشروق الأولى ٢٠٠٩

رقم الإيداع ٢٠٠٨/٧٣٦٣

ISBN 978-977-09-2363-8

٨ شارع سيبويه المصرى

مدينة نصر ـ القاهرة ـ مصر

تليفون: ٢٤٠٢٣٣٩٩

فاكس: ٢٤٠٣٧٥٦٧(٢٠٢) +

email: dar@shorouk. com

www. shorouk. com

إلى

أبـــى

إن ما هو أساسى وأكثر جمالا فى طبيعة الطبائع هو المشاعر، والتى تثيرها فى كل الأوقات، غير أن هذه المشاعر، فى بساطة، هى النتيجة الأزلية للجرائم، إن الجرائم وحدها هى التى تصونها.

د.أ.ف. دى ساد

[١]

(١)

ثمار البرتقال، ذاك العام، وافرة، أكثر مما اعتادت أن تكون. تتوهج كالمصابيح فوق أشجارها، بأوراقها الخضراء اللامعة، ترفرف هنالك وسط الغابات المشمسة، تبدو وكأنها تتلهف على الاحتفال بمغادرتنا الجزيرة الصغيرة ـ لقد وصلت أخيرًا رسالة نسيم التى طالما انتظرناها، وكأنها أمر بالحضور إلى العالم السفلى، رسالة سوف تعيدنى، فى عناد، إلى المدينة التى كانت تتراوح، بالنسبة لى، ما بين الوهم والحقيقة، ما بين الواقع والصور الشعرية التى يثيرها اسمها بذاته فى أعماقى. إنها ذاكرة،كما قلت لنفسى، زيفتها الرغبات والوجدانيات فقط، كما تم التعرف عليها نصف تعرف فوق الورق. الإسكندرية، عاصمة الذكرى! كل الكتابة اقتبستها عن الأحياء والأموات، حتى غدوت أنا نفسى حاشية فوق رسالة، لم تنته أبدًا، ولم ترسل أبدًا.

كم طال غيابى؟ إننى لا أستطيع حساب ذاك الغياب، رغم أن التقويم الزمنى لا يقدم إلا قليلًا عن العقبات التى تفصل نفسًا عن نفس، تفصل يوما عن يوم آخر. كنت أحيا حقًا هنالك طوال الوقت، فى الإسكندرية، إسكندرية قلب جنانى. كنت أسلم نفسى صفحة صفحة، ودقة قلب

دقة قلب، إلى هذا الكائن العجيب الذى كنا جميعًا، يومًا ما، جزءًا من انتصاراته وهزائمه على السواء. مدينة عتيقة تتبدل تحت ضربات فرشاة الأفكار التى تحاصر المحتوى، تصرخ من أجل الهوية،هنالك، فى مكان ما، فوق النتوءات الأفريقية السوداء الشائكة الممتدة داخل البحر، تعيش حقيقة المكان ذات النكهة الخاصة، يعيش عشب الماضى المر الذى لا يمضغ، يعيش لب الذاكرة. لقد شرعت ذات مرة فى اختزان الماضى وتصنيعه والتعليق عليه قبل أن يفقد تمامًا ـ كانت تلك، على الأقل مهمة حددتها لنفسى. وفشلت فى تحقيقها (ربما كانت مهمة بلا أمل؟) ـ إذ ما إن أمسك بفكرة، أضمخها فى كلمات، حتى يمزق اقتحام معرفة جديدة ذلك الإطار الذى أرجع إليه. كل شىء ينساب متباعدًا، متنافرًا، لا يتماثل، مرة أخرى إلا فى كونه أمرًا غير متوقع، ونمطًا لا يمكن التنبؤ به.

«حتى تنقح الحقيقة»، كتبت هكذا فى مكان ما. إنها فى الحقيقة كلمات طائشة وقحة، إذ إن الحقيقة هى التى تشكلنا، ثم تنقحنا على دولابها البطىء، ومع ذلك فإننى إن كنت قد اغتنيت بخبرة هذه الفترة الفاصلة فى الجزيرة، فربما يعود ذلك إلى هذا الفشل الكلى فى تسجيل حقيقة المدينة من الداخل. إننى أقف الآن وجهًا لوجه مع طبيعة الزمن، مع ذلك الاغتراب للنفس البشرية. لقد فرض علىّ أن أقر بالهزيمة فوق الورق. ومع ذلك، فإنه من الغريب تمامًا أن عملية الكتابة ذاتها قد أمدتنى بنوع آخر من النماء. إنه الفشل بذاته للكلمات التى غاصت واحدة بعد الأخرى فى كهوف الخيال التى بلا قرار، لتجرى بعيدًا. إنها طريقة باهظة تبدأ بها حياتك. نعم، إلا أننا ندفع حينئذ، نحن الفنانين، نحو حيوات شخصية تغذيها تلك الطرائق الغريبة لملاحقة الذات.

ولكن.. إن كنت أنا قد تغيرت، فماذا عن أصدقائى: بلتازار، نسيم، جوستين، كليا؟ ما هى الرؤى الجديدة التى يمكن أن أراهم بها بعد هذه

الفترة الزمنية، وقد أُمسك بى مرة أخرى، فى محيط مدينة جديدة، مدينة ابتلعتها الحرب الآن؟ كان ذلك هو المحك، وهذا ما لم يكن فى وسعى قوله. الإدراك كان ينتفض فى داخلى أشبه بالنجم القطبى. كان عسيرًا أن أتخلى عن الحدود الصعبة التى كسبتها أحلامى تجسد صورى الجديدة، المدن الجديدة، النزعات الجديدة والحب الجديد. كان علىّ أن أعانق أحلامى الخاصة عن المكان أشبه بممسوس.. أليس من الحكمة، كما أتساءل، أن أظل حيث أنا؟ ربما. ومع ذلك فإننى أدرك ضرورة أن أذهب. حقًا، كان علىّ أن أغادر هذه الليلة بذاتها! كان الإمساك بالفكرة ذاتها عسيرًا حتى إننى أرغمت على الهمس بها لنفسى عاليًا.

لقد أمضينا الأيام العشرة الأخيرة، منذ جاء الرسول حامل الرسالة، فى هدوء ذهبى من الحدس والتوقع، كما كان الطقس صنوا لما نحن فيه، حيث توالت أيام رائعة الزرقة وبحار بلا رياح. ووقفنا بين هذين الوضعين، غير راغبين فى التخلى عن أىّ منهما، كما كنا نعانى الألم، فى ذات الوقت، لتصادم الواحد منهما بالآخر. كنا نرفرف، نحفظ توازننا، أشبه بطيور النورس على حافة جرف صخرى. كانت الصور المختلفة المتباينة قد أخذت بالفعل تختلط، تحبط أحلامى. المنزل فى هذه الجزيرة مثلًا. ما بها من أشجار اللوز والزيتون الفضية الرمادية حيث يهيم طائر الحجل بأقدامه الحمراء، الأرض الفضاء، الغابة ساكنة حيث يمكن أن يظهر، فقط، الإله (بان) بوجه العنزة. لم يختلط كمال أشكالها وألوانها، بما اتسم به من بساطة وشفافية، بكل تلك الهواجس التى تتزاحم، تخيم علينا. (سماء مليئة بنجوم تتساقط، أمواج المد فى لون الزمرد تغسل الشواطئ المهجورة، صرخات النورس فوق طرق الجنوب البيضاء). هذا العالم اليونانى قد

غزته بالفعل روائح مدينة منسية، نتوءات البر فى البحر حيث يسرف قباطنة السفن، الذين يرشحون عرقًا، فى الشراب والأكل حتى تتفجر أمعاؤهم، إنهم ينزحون أبدانهم، كما تنزح براميل صغيرة من كل شهوة. ينغمسون فى عناق جوارى سود لهن عيون اسبانية. (المرايا، القلب يتمزق رقة من أصوات الكناريا وقد أُعميت، بقبقة المياه فى طاسات النرجيلات، رائحة التبثول(*) والبخور).

كانت تأكل بعضها البعض، تلك الأحلام المتضاربة. ورأيت أصدقائى مرة أخرى (ليسوا الآن كأسماء) يشرقون من جديد وقد عرفوا بالرحيل. لم يعودوا بعد ظلالا لما كتبته أنا عنهم، لقد انتعشوا ثانية حتى الموتى منهم. كنت أسير فى الليل، أنا وميليسا، مرة أخرى، فى تلك الشوارع المتموجة (كانت الآن فى وضع يتجاوز كل أسف وندم، إذ كنت أعى، حتى فى أحلامى، أنها قد ماتت) نسير فى راحة، ذراع كل منا فى ذراع الآخر، ورجلاها قصيرتا المدى، أشبه بمقص أضفى عليها مشية مترنحة، وعادتها فى ضغط ركبتها بركبتى عند كل خطوة. كان فى وسعى أن أرى الآن كل شىء فى ود ومحبة، حتى عباءتها القطنية العتيقة وحذاؤها الرخيص الذى كانت ترتديه أيام العطلات. لم تكن قادرة على إزالة طابع الحسن الأزرق الموجود على رقبتها.. ثم اختفت، واستيقظت أصرخ آسفًا. كان الفجر يشق طريقه بين أشجار الزيتون يلون أوراقها الساكنة بلون الفضة.

استعدت سلام عقلى فى مكان ما على الطريق. هذه الحفنة من الأيام الزرقاء قبل أن أقول وادعًا، أيام أدخرها، أنميها بوفرة فى بساطتها: نيران أخشاب الزيتون تشتعل فى المدفأة القديمة والتى عليها لوحة جوستين، آخر ما يحزم من أشياء، الوثب على المنضدة والمقعد وما ترك عليهما

(*) عشب عطرى ـ المترجم.

من آثار دقدقتهما، كذا طاسة بخور مريم(*) الزرقاء المطلية بالميناء. ما علاقة المدينة بكل هذا؟، ربيع إيجي معلق فوق خيط بين الشتاء والنفحات البيضاء الأولى لنوارة اللوز؟ لم تكن غير مجرد كلمة، لا تعنى الكثير، وقد خربشت على حواشى حلم ما، أو ترددت فى العقل موسيقى زمن دارجة، لم تكن غير رغبة عبرت عنها ضربات القلب. حقًا، رغم أننى أحببتها كثيرًا جدًا. إلا أننى كنت عاجزًا عن البقاء فيها، والمدينة التى أعرف الآن أنى كرهتها، تقدم لى شيئًا مختلفًا ـ تقييمًا جديدًا للتجربة التى تركت علىّ آثارها ـ يجب أن أعود إليها حتى يكون فى وسعى مغادرتها إلى الأبد، طرحها ورائى. إن كنت أتحدث عن الزمن فما ذاك إلا لأن الكاتب الذى أصير إليه، كان يتعلم أخيرًا أن يقطن تلك الأماكن المهجورة التى يفتقدها الزمن، وأن يبدأ الحياة بين تكات الساعة، إن جاز القول. إن الحاضر المتصل الذى هو التاريخ الحقيقى لتلك الحكاية المجمعة، إنما هو العقل البشرى عندما يموت الماضى، ولا يتمثل المستقبل إلا فى الرغبة والخوف. فماذا يكون أمر اللحظة العرضية التى لا يمكن قياسها، ولا يمكن الإذن لها بالانصراف؟ إن ما يمسى بالحاضر، بالنسبة للغالبية منا، يختطف بعيدًا مثل وجبة سخية أخذها الجن قبل أن يلمس المرء منها لقمة واحدة. إننى آمل أن أكون، فى القريب، أمينًا مثل بورسواردن الذى مات حتى أصبح أنا قادرًا على القول: إننى لا أكتب لهؤلاء الذين لم يسألوا أنفسهم البتة هذا السؤال: «عند أى نقطة تبدأ الحياة الحقيقية؟».

مرت بخاطرى أفكار لا قيمة لها، وأنا راقد فوق صخرة مسطحة تطل على البحر، آكل برتقالة، تحيط بى عزلة تامة سوف تبتلعها المدينة قريبًا. الحلم الممل اللازوردى لإسكندرية تتشمس مثل حية عجوز، فى

(*) نبات عشبى جميل الزهر ـ المترجم.

الضوء الفرعونى البرونزى للبحيرة الكبيرة. سادة الحسية فى التاريخ، وقد تركوا أجسادهم للمرايا، لقصائد الشعر، لقطعان الصبية والنساء، الرعاة والراعيات، لإبر فى العروق، لأنبوب الأفيون، للموت وهم أحياء من قبلات دون شهية. وعرفت، مرة أخرى، وأنا أسير عبر تلك الشوارع، فى خيالى، أنها تستغرق، ليس التاريخ البشرى فحسب، ولكن كل الميزان البيولوجى لعواطف القلب ـ منذ لوحات كليوباترا الزيتية الصوفية (ومن الغريب أنه كان يجب اكتشاف العنب هنا قرب «تابوزيرس»، إلى التعصب الأعمى لـ «هيباتيا»، أوراق العنب الذابلة، قبلات الشهيد) والزوار الأجانب، «زيمبود» دارس «الطريق الوعر» يسير هنا وقد تمنطق بحزام عامر بالعملات الذهبية، وكل هؤلاء داكنو البشرة، مفسرو الأحلام والسياسيون والخصيان الذين يشبهون سربًا من الطيور براق الريش، ورأيت المدينة تمتد بين أحاسيس الشفقة والرغبة والرهبة، تنتشر أمامى مرة أخرى، تقطنها وجوه أصدقائى وتوابعى، لقد أدركت ضرورة ممارسة الحياة فيها ثانية وإلى الأبد هذه المرة.

ومع ذلك، فقد كان الرحيل غريبًا حافلًا بأدوار غير متوقعة ـ أعنى الرسول الذى حمل الرسالة كان أحدب يرتدى بذة فضية، يضع زهرة فى طية صدر سترته، ومنديلا معطرا فى كمه! وذاك الانطلاق المفاجئ للحياة من القرية الصغيرة التى تجاهلت بلباقة وجودنا ذاته مدة طويلة، باستثناء هدية ما بين الحين والحين من السمك أو النبيذ أو البيض الملون الذى كانت تحضره «أتينا» لنا، وقد لفته فى شالها الأحمر. كانت هى نفسها، أيضًا لا تكاد تتحمل ذهابنا. كان قناعها العجوز الصارم يتفتت دموعًا فوق كل قطعة من متاع سفرنا الهزيل، وهى تكرر فى عناد، «إنهم لن يدعوكما تغادران دون أن يقوموا بواجب الضيافة. إن القرية لن تدعكما تغادران هكذا». كان عليهم أن يعدوا لنا مأدبة غذاء.

أما الطفلة فقد أفضيت إليها بكل تلك الرحلة حكيا وتكرارًا (حقيقة، قصة حياتها كلها) فى صورة حكاية من حكايات الجن الرقيقة الجميلة، التى لم يبتذلها عديد تكرارها، كانت تجلس تحملق فى الصور الزيتية تستمع فى انتباه. كانت أكثر من معدة للأمر كله، تكاد تتوق حقًا إلى أخذ مكانها فى معرض اللوحات التى رسمتها لها. لقد استوعبت وامتصت كل الألوان المعقدة لهذا العالم الخيالى والذى انتمت إليه، ذات يوم، بما لها من حقوق، والذى سوف تستعيده الآن ـ عالم تسكنه تلك الأطياف ـ الأب، أمير ـ قرصان أسمر، وزوجة الأب ملكة داكنة اللون طائشة...

«إنها تشبه أوراق اللعب؟».

«نعم ملكة البستونى».

«واسمها جوستين».

«إنها تدخن فى الصورة. هل ستحبنى أكثر أم أقل من أبى؟».

«سوف تحب كليكما».

لم تكن هنالك من طريقة أخرى لشرح الأمر لها، باستثناء استخدام مصطلحاتها الأسطورية والرمزية، قصائد أطفال شعرية مجهولة. لقد أتقنت ألفاظها وأنا أقدم لها تلك الحكاية الرمزية عن مصر والتى كان عليها أن تعرفها بلوحات أسرتها، أسلافها (وقد كبرت إلى حجم الآلهة أو المجوس) ولكن أليست الحكاية ذاتها حكاية من حكايات الجن نفقد القدرة على إدراكها كلما تقدم بنا العمر؟ لا يهم. إنها بالفعل منتشية بصورة أبيها.

«نعم، إننى أفهم كل شىء»، تقول وهى تومئ متنهدة، تختزن هذه

الصور المرسومة فى صندوق كنوزها، فى عقلها. كانت تتحدث فى بعض الأحيان عن ميليسا، أمها المتوفاة، وعندما كانت تفعل ذلك، كنت أجيب عليها بنفس طريقة كتاب الحكايات، إلا أنها قد غاصت الآن بالفعل، نجمًا شاحبًا، أسفل الأفق فى سكون الموت، تاركة صدارة الصورة لهؤلاء الآخرين، شخصيات أوراق اللعب الأحياء.

كانت الطفلة قد ألقت بيوسفيـة فى الماء ومالت تراقبها وهى تتدحرج فى نعومة إلى أسفل فوق الأرضية الرملية للغار، ورقدت هناك تتدحرج مثل شعلة صغيرة تدفعها برفق حركة الأمواج الصاعدة الهابطة.

«راقبنى الآن وأنا أحضرها».

«ليس فى هذا البحر الثلجى، سوف تموتين بردًا».

«ليس اليوم باردًا، راقبنى».

إلا أنها كانت تستطيع العوم مثل قضاعة(*) صغيرة. جلست هنا فوق الصخرة المسطحة أرى فيها عينى ميليسا المسالمة وقد انحدرت قليلًا عند الأطراف، وفى بعض الأحيان، على نحو متقطع، تبدو فى الأركان بقية من نعاس منسية، النظرة الداكنة (المتوسلة غير المتيقنة) لنسيم والدها. وتذكرت صوت كليا وهى تقول ذات مرة، «لاحظ، إن كانت الفتاة لا تحب الرقص والسباحة،فإنها سوف تعجز عن ممارسة الحب»، وابتسمت وأنا أتساءل إن كانت الكلمات صادقة وأنا أراقب الكائن الصغير يستدير فى الماء فى نعومة تنساب فى رشاقة إلى أسفل، إلى الهدف فى براعة فائقة، وقد ضغطت أصابعها إلى وراء نحو السماء، وكيس أبيض صغير يبرق بين رجليها. استعادت اليوسفية بطريقة جميلة وخرجت إلى السطح بطريقة لولبية وقد أمسكت بها بين أسنانها.

(*) ثعلب الماء ـ المترجم.

«اجرى الآن، وجففى نفسك فى سرعة».

«ليس الجو باردًا».

«افعلى كما يقال لك. ابتعدى وأسرعى».

«وماذا عن الرجل ذى الحدبة؟».

«لقد غادر».

أثار ظهور منمجيان، على غير انتظار، فزعها كما هز مشاعرها أيضًا، فهو الذى أحضر رسالة نسيم. كان من الغريب رؤيته يسير فوق حصباء الشاطئ، يحيط به جو من القلق الذى يثير الضحك، كأنما يسير يحافظ على توازنه فوق فتحات سدادات الفلين. لقد أراد، فى اعتقادى، أن يرينا أنه اعتاد لأعوام ألا يسير إلا على الأرصفة الناعمة. لم يكن معتادًا، من الناحية الواقعية أن يسير فوق البر، كان يشع رقة مفتعلة تتجاوز منبته، يرتدى بذة فضية باهرة، وطماقا لكاحليه، ودبوس رباط عنق لؤلؤى، وقد أثقلت الخواتم أصابعه، فقط لم تتغير ابتسامته، ابتسامته الطفولية، وخصلة الشعر اللولبية المدهونة بالزيت ما زالت مثبتة على جبينه.

«لقد تزوجت أرملة «هاليل». إننى، يا صديقى العزيز أغنى حلاق فى مصر الآن». قال كل ذلك دون تفكير، وفى نفس واحد، وهو يستند إلى عصا للسير، بها عقد فضية، وكان من الواضح أنه غير معتاد عليها. وطوفت عينه البنفسجية، فى ازدراء، على نحو ما، وهو ينظر فى كوخنا البدائى، بصورة ما، ورفض الجلوس على مقعد. كان ذلك، دون شك، خشية أن يتغضن بنطلونه المهيب. «أنت تعيش هنا نمطًا من الحياة عسير، آه؟ ليس فيه الكثير من الترف يا دارلى»، ثم تنهد وقال، «لكنك الآن ستعود إلينا». ثم أتى من عصاه بحركة غامضة، قصد بها أن يشير إلى الضيافة التى نستمتع

بها فى المدينة. «إننى عن نفسى لا أستطيع البقاء هنا. إننى فى طريقى إلى العودة. لقد قمت بهذا خالصًا كمعروف لحصانى». كان يتحدث عن نسيم فى إجلال يتسم بالشفافية، وكأنه الآن نده اجتماعيًا، ثم رأى ابتسامتى، وكان فضلًا منه أن قهقه مرة قبل أن يعود جادًا مرة أخرى. ثم قال وهو ينفض الغبار عن أكمامه، «ليس لدى وقت، على أى حال».

كان لهذا القول فضيلة الحق. إذ إن سفن أزمير لا تبقى هنا إلا لما يكفى لتفريغ البريد والبضائع التى تأتى ما بين الحين والحين، أكياس قليلة من المكرونة، بعض كبريتات النحاس، مضخة. إن احتياجات الجزيرة قليلة. وسرنا معًا عائدين نحو القرية عبر بساتين الزيتون، ونحن نتبادل الحديث. كان منمجيان لا يزال يسير تلك المشية المجهدة البطيئة كالسلحفاة، إلا أننى سعدت بذلك، حيث مكنتنى من أن أسأله بضعة أسئلة عن المدينة، وأن أكتسب من إجاباته بعض اللمحات عما يمكن أن أجده فى حالة أوضاع متغيرة وأوضاع مجهولة.

«هنالك تغييرات كثيرة منذ هذه الحرب. دكتور بلتازار مريض للغاية، وأنت تعرف عن مكيدة حصانى فى فلسطين؟ والانهيار؟ إن المصريين يحاولون فرض المصادرة عليه. لقد أخذوا منه الكثير. نعم إنهما الآن فقراء، وما زالا يواجهان المتاعب. لا إنها لا تزال محتجزة فى المنزل فى كرم أبو جيرج، ولم يرها أحد منذ دهر. إنه يعمل بتصريح خاص سائق سيارة إسعاف فى أرصفة الميناء، مرتين فى الأسبوع،إنه عمل خطر للغاية. لقد كانت هنالك غارة جوية سيئة، فقد فيها واحدة من عينيه وإصبعًا».

«نسيم؟». قلت فزعًا. وأومأ الرجل الضئيل برأسه، وهو يحس بأهميته الذاتية. هذه الصورة، غير المتوقعة لصديقى صدمتنى كطلقة رصاص. قلت. «يا إلهى»، وأومأ الحلاق كأنما يوافق على ملاءمة هذا القسم. قال:

«كان الأمر سيئًا، إنها الحرب يا دارلى»، ثم فجأة واتته فكرة أكثر مدعاة للفرحة فابتسم مرة أخرى ابتسامته الطفولية مرة أخرى والتى لم تكن تعكس غير القيم المادية الحديدية للشرق. وأكمل وهو يمسك بذراعى: «إلا أن الحرب مجال طيب للعمل أيضًا. إن صالوناتى تعمل ليل نهار فى حلاقة شعر الجيوش. ثلاثة صالونات للحلاقة واثنا عشر مساعدًا! سوف ترى.إنـه عمـــل رائـع»، وبومبال يقول على سبيل الدعابة: «أنت الآن تحلق للموتى وهم ما زالوا أحياء». وتثنى ضاحكًا ضحكة مهذبة بلا صوت.

«هل عاد بومبال إلى هناك؟».

«بالطبع إنه الآن رجل عالى المقام فى «الفرنسيين الأحرار». وهو يعقد مؤتمرات مع سير ماونت أوليف، إنه أيضًا لا يزال هناك. هنالك الكثيرون من زملائك. سوف تراهم يا دارلى».

بدا منمجيان مبتهجًا لقدرته على إثارة دهشتى بهذه البساطة. ثم قال شيئًا جعل عقلى يتشقلب مرتين رأسًا على عقب. وقفت ساكنًا وسألته أن يكرر ما قال، ظانًا أننى قد أخطأت السمع: «لقد زرت كابوديستريا منذ قريب». وحملقت فيه غير مصدق لما يقول كابوديستريا! وصرخت مندهشًا: «لكنه مات».

ومال الحلاق إلى الخلف كثيرًا وكأنه يمتطى حصانًا يتأرجح، وضحك طويلًا ضحكة مكتومة. كانت النكتة ظريفة للغاية هذه المرة واستمر يضحك دقيقة كاملة. وأخيرًا أخرج من جيب صدره، وهو يتنهد فى ترف لهذه الذكرى، صورة بطاقة بريدية مثل تلك التى يشتريها المرء من واجهات المدن المطلة على البحر المتوسط، وقدمها لى قائلًا: «إذن من يكون هذا؟».

كانت معتمة إلى حد كبير وعليها آثار التحميض الثقيلة والتى هى سمة للصور الفوتوغرافية التى تؤخذ سريعًا فى الشوارع. كانت تحتوى على شخصين يسيران فى الشارع المطل على البحر، كأن أحدهما منمجيان، وكان الآخر.... أخذت أحملق فيه وأنا أتعرف عليه أكثر فأكثر.

كان كابوديستريا مرتديا بنطلونا أنبوبيا على الطراز الإدواردى، وحذاءين سوداوين مدببين للغاية، وإلى جوار ذلك معطف أكاديمى ذو ياقة وأطراف أكمام من الفرو. وأخيرا قبعة غريبة الشكل كالشمامة، حتى بدا أقرب إلى فأر طويل فى أحد الرسوم الكرتونية الحيوانية. وهو قد ترك شاربه رفيعًا يتدلى قليلا عند ركنى فمه. وكان هنالك فم سجائر طويل بين أسنانه. كان هو كابوديستريا الذى لا يمكن للعين أن تخطئه. «ماذا يجرى فى هذه الدنيا؟»، بدأت القول، إلا أن منمجيان المبتسم أغلق إحدى عينيه، ووضع إصبعه على شفتيه وقال: «هناك دائمًا أشياء غامضة». وحتى يمثل دور من يقوم على حماية تلك الأسرار الغامضة، انتفخ حتى غدا أشبه بضفدع، محملقا فى عينى برضاء يتسم بالخبث، ربما كان سيتفضل علىّ، يشرح لى هذا الأمر إلا أن صفارة انطلقت من ناحية القرية، فأثارت اضطرابه، «فلنسرع». وبدأت مشيته المجهدة. «يجب ألا أنسى إعطاءك رسالة الحصنانى». كانت موضوعة مطوية فى جيب صدره، واستطاع أخيرًا العثور عليها، قال: «إن كل شىء قد أعد ترتيبه. سوف نلتقى ثانية».

حييته مصافحا، ووقفت لحظة أنظر إليه وهو يعود، ينتابنى إحساس بالدهشة وعدم اليقين. استدرت عائدًا إلى طرف بستان الزيتون وجلست على صخرة أقرأ خطاب نسيم. كان مختصرًا، يشتمل على تفاصيل السفر التى أعدها لنا. سوف يأتى إلينا زورق صغير ليأخذنا من الجزيرة. وأعطى مواقيت تقريبية، وتعليمات عن المكان الذى يجب أن ننتظر فيه. كل ذلك كان محددًا بطريقة واضحة. ثم كانت هنالك حاشية، أضافها نسيم بيده

الطويلة، «سوف يكون حسنًا أن نلتقى من جديد، دون تحفظات. إننى لأحسب أن بلتازار قد روى لك كل ما أصابنا من نكبات. وأنت لن تقتضى من أناس يهتمون بك كثير الاهتمام، ندمًا عميقًا فى غير موضعه، آمل ألا تفعل ذلك. دع الماضى كتابًا مغلقًا بالنسبة لنا جميعًا».

هكذا جرى الأمر.

أكرمتنا الجزيرة خلال هذه الأيام الأخيرة القليلة، فى نبل، بأفضل طقس، وبتلك الأعمال الخشنة التى تتسم بالبساطة وسلامة الطوية، والتى كانت تبدو كعناق المحب الواله، والتى أدركت أنى سأتوق إليها، عندما يطبق على رأسى جو مصر الخانق.

خرجت القرية كلها ليلة رحيلنا لتقدم لنا عشاء الوداع الذى وعدت به، حملًا فى سيخ شواء ونبيذ «رزينا» الذهبى. مدوا الموائد ووضعوا المقاعد على امتداد الشارع الرئيسى الصغير، وأحضرت كل أسرة ما سوف تقدمه فى هذه الوليمة. حتى هاتان الشخصيتان المختالتان ـ العمدة والقسيس ـ جلس كل واحد منهما عند طرف من طرفى المائدة الطويلة. كان الجو أبرد من أن يجلس المرء فيه هكذا فى ضوء المصابيح، متظاهرًا بأن الأمسية حقًا أمسية صيفية. وتعاون القمر مشاركًا، صاعدًا بطريقة عشوائية من البحر لينير أغطية المناضد البيضاء ويصقل زجاجات النبيذ. ودفئت الوجوه العجوزة اللامعة بالشراب، وتوهجت كالأوانى النحاسية. البسمات الغابرة وأنماط الأردية المهجورة لقدمها والمسرات التقليدية ومجاملات العالم العتيق، والذى كان يتلاشى بالفعل، كانت كلها ترتد عنا إلى الوراء. كان قباطنة أساطيل صيد الإسفنج القدامى يرشفون نصيبهم من النبيذ من أقداح زرقاء مطلية بالميناء، وحضناتهم الدافئة تشع برائحة تفاح برى متغضن، وشواربهم الضخمة التى صبغها الطباق تتلوى تحت آذانهم.

لقد تأثرت فى البداية، معتقدا أن كل هذا الحفل كان من أجلى. إلا أننى اكتشفت أنه كان من أجل بلدى. عندما تكون إنجليزيًا وقد سقطت اليونان، فأنت هدف محبة وامتنان كل يونانى. وفقراء هذه القرية الصغيرة المتواضعة يحسون بذلك، بما لا يقل حدة عن اليونانيين فى كل مكان. إن سيل الأنخاب كان يتردد مدويا فى الليل، وانسابت كل الكلمات كالطيور الجوارح، بأسلوب يونانى جليل، رنان، طنان، كانت تبدو وكأنها تحمل نغم القصائد الشعرية الخالدة ـ أشعار ساعات اليأس ـ لكنها بالطبع كانت كلمات فقط. الكلمات العاصفة التعسة التى تولدها الحرب فى يسر وسهولة والتى سوف تمحو بلاغة السلم استخدامها.

لكن الحرب أشعلت الليلة عجائز الرجال، مثل شمعة مستدقة الطرفين، وقد أسبغت عليهم جلالا ملتهبًا. فقط لم يكن الشباب هناك ليلزموهم الصمت أو يصيبوهم بالخجل بنظراتهم المروعة ـ كانوا قد ذهبوا إلى ألبانيا ليموتوا هنالك وسط الثلوج. وتحدثت النسوة فى أصوات ثاقبة جعلتها الدموع الحبيسة خشنة مرتعشة. وبين الضحكات المتفجرة والأغانى كان الصمت المطبق يهبط، مثل كثير من القبور المفتوحة.

لقد سارت الحرب نحونا ناعمة عبر المياه، تدريجيًا مثل سحابات ملأت الأفق من منتهاه، ورغم ذلك فإنها لم تتوقف بعد. فقط أمسكت الإشاعات بالقلب تتنازعه الآمال والمخاوف. لقد بدت فى البداية نذيرًا بنهاية ما يسمى بالعالم المتحضر، إلا أن هذا التوقع سرعان ما تبدد. كلا، إنها، فى بساطة، نهاية الرقة والأمان والأساليب الوسطية، نهاية آمال الفنانين، نهاية عدم المبالاة، نهاية الفرح والبهجة. وما خلا ذلك، فإن كل شىء آخر ذا علاقة بالأحوال البشرية سوف يثبت ويتأكد. ربما بدأت تبزغ مصداقية ما من وراء المظاهر القائمة، حيث يزيد الموت من كل توتر ويسمح لنا بالقليل من نصف الحقائق التى نعيش عليها عادة.

كان هذا هو كل ما عرفناه هنا، حتى تاريخه.هذا التنين الذى أنشب مخالبه بالفعل فى كل مكان آخر. كل ما عرفناه؟ نعم. دون شك، فقد انتفخت السماء مرة أو مرتين بلطخ من قاذفات قنابل غير مرئية، إلا أن أصواتها لم تستطع إغراق طنين نحل الجزيرة، الأقرب إلينا، إذ إن كل عائلة كانت تمتلك عددًا قليلًا من خلايا النحل المدهونة بالجير الأبيض. وماذا أيضًا؟ دفعت غواصة ذات مرة (وهذه تبدو أكثر حقيقية) ببرسكوبها(*) فى الخليج وأخذت تمسح لدقائق خط الساحل بالتتابع. هل رأتنا ونحن نستحم فى الموقع؟ ولوحنا لها، إلا أن البيرسكوب ليس له أذرع يمكن أن يلوح بها، يرد علينا تحيتنا. ربما اكتشف على الشطآن الشمالية شيئًا آخر أكثر ندرة، عجل بحر فى غفوة تحت الشمس، يشبه مصليًا على حصيرة الصلاة، إلا أن هذا لم يكن له أدنى علاقة بالحرب.

لكن الأمر كله غدا أكثر حقيقية عندما أثار «الكيك»(**) الصغير الذى أرسله نسيم ضجيجا فى المرفأ المعتم ذلك المساء، وبه ثلاثة رجال مقطبو الجبين مسلحون بالرشاشات. لم يكونوا يونانيين، رغم أنهم يتحدثون اللغة بطريقة متسلطة لاسعة. كانوا يروون حكايات عن الجيوش التى دمرت والموت تحت الجليد. إلا أن الوقت، على نحو ما كان متأخرًا للغاية حيث أفقد النبيذ عواجيز الرجال فطنتهم سكرًا. وسرعان ما ذبلت حكايتهم التى تركت رغم ذلك آثارها فى نفسى، هؤلاء الرجال الثلاثة الأشبه بعينات جلدية الوجه، من حضارة غير معروفة تدعى «الحرب». جلسوا قلقين وسط الصحبة الطيبة. كان اللحم مشدودًا بقوة فوق عظم وجناتهم غير المحلوقة، كأنما حل بهم الإرهاق. إنهم يدخنون فى نهم

(*) منظارها ـ المترجم.

(**) زورق طويل تتميز به منطقة البوسفور ـ المترجم.

وشراهة، ينفثون الدخان الأزرق من أنوفهم وأفواههم على حد سواء مثل من أصابه شبق. وعندما تثاءبوا بدوا وكأنهم يستحضرون تثاؤبهم من أكياس خصياتهم بذاتها، وأمناهم على أنفسنا للرعاية بنا والهواجس تنتابنا، فقد كانت تلك أول وجوه، لا تحمل ودًا، نراها منذ زمن طويل.

وانسبنا عند منتصف الليل منحرفين عن الخليج، والقمر فى تمامه، كان الظلام الأكثر بعدًا، أكثر نعومة، وأكثر مدعاة للثقة بتحيات الوداع الدافئة التى انهمرت علينا عبر الشواطئ البيضاء. كم هى جميلة كلمات التحايا والوداع اليونانية!

وتحركنا كالملوك للحظة على امتداد خط الجروف الصخرية بظلالها السوداء كالحبر، حيث كانت ضربات قلب الماكينة تخفق ثم ترتد إلينا ثانية، دفعة واحدة، مثل الطلقات النارية. وأخيرًا خرجنا إلى المياه العميقة الأساسية، ونحن نحس بالمسحة المتزايدة الناعمة لإيقاع المياه وقد أخذت تهدهدنا على صدرها، تأرجحنا، تطلقنا، كأنما فى لعبة.كانت الليلة دافئة رائعة بصورة فائقة. وظهر دولفين مرة أو مرتين عند مقدم القارب. كان المجرى قد تحدد.

وسيطر علينا الآن خليط من البهجة والحزن العميق. من الإرهاق والسعادة فى ذات الوقت. كان فى مقدورى أن أتذوق طعم الملح فوق شفتى. شربنا قليلًا من شاى نبات القصعين دون كلام. كانت جماليات الرحلة قد أسرت الطفلة فلم تنطق، الأثر الذى يخلفه القارب وراءه فى الماء يرتعش بوميض فوسفورى، وقد مشط خلفنا كشعر نجم مذنب يطفو منتعشًا. وانسابت، أيضًا، فوقنا فروع السماء مكسوة بالريش، النجوم متناثرة كثيفة كثافة أزهار اللوز فى السماء الغامضة.وهكذا، أخيرًا، سعيدة بهذه النذر والبشائر، تهدهدها خفقات المياه، واهتزازات الماكينة المنتظمة،

سقطت نائمة وابتسامة فوق شفتيها المنفرجتين وقد ضغطت عروستها المصنوعة من خشب الزيتون إلى وجنتها.

كيف كان فى مقدورى إلا أن أفكر فى الماضى الذى نعود إليه عبر أدغال الزمن الكثيفة، عبر ممرات البحر اليونانية المألوفة؟ ومضى الليل كشرائط ظلام مبسوطة ممدودة، ومست رياح البحر الدافئة وجنتى مسا خفيفا، كانت ناعمة مثل فرشاة من شعر ثعلب. ورقدت ما بين اليقظة والنوم، أحس بشدات الذاكرة الثقيلة كالرصاص: شدات مدينة كورقة شجر مليئة بالعروق، والتى جعلتها ذاكرتى آهلة بأقنعة خبيثة وجميلة فى ذات الوقت. يجب أن أرى الإسكندرية ثانية بمنهج طيف يراوغ الزمن،إذ إنك ما إن تغدو مدركًا لعملية الزمن، التى هى ليست تقويمًا زمنيًا، حتى تصبح طيفًا ما. إن فى وسعى أن أسمع، فى هذا النطاق الآخر أصداء كلمات قالتها أصوات أخرى منذ زمن بعيد. كان بلتازار يقول: إن هذا العالم يمثل وعدًا بسعادة لا نظير لها، سعادة لسنا معدين بما يكفى للإمساك بها. إن الاستدعاء المخيف الذى تمارسه المدينة على الحميمين إليها، يصيب العاطفة بالشلل، ويغمس كل شىء فى دنان عواطفها المرهقة. القبلات تغدو عاطفية إن صاحبها تبكيت الضمير وتأنيبه. الإيماءات التى تجرى فى الضوء العنبرى للحجرات الموصدة. أسراب الحمام الأبيض تطير عاليًا بين المآذن. إلا أننى كنت مخطئًا؛ إذ إن كل مدخل جديد يختلف عن سابقه. إننا نخدع أنفسنا، فى كل مرة باعتبار أن الوضع ثابت كما هو. إن الإسكندرية التى أراها الآن، من أول نظرة من البحر، كانت شيئًا ما كان فى وسعى أن أتخيله..

كان الوقت لا يزال ظلامًا عندما توقفنا خارج المرفأ غير المرئى بكل ما فيه من تحصينات القلاع التى أتذكرها،والشبكة المانعة للغواصات. حاولت رسم معالمها بعقلى فوق العتمة. الضجيج لا يثور إلا فجر كل

يوم. ويسود ظلام يطمس كل شيء. في مكان ما أمامنا يرقد ساحل أفريقيا غير المرئي بقبلته الشائكة، كما يقول العرب. كان أمرًا يتجاوز القدرة على الاحتمال أن تكون واعيًا بها هكذا، أبراج المدينة ومآذنها، ومع ذلك عاجز عن أن تفرض عليها الظهور، لم يكن في مقدوري أن أرى أصابعي أمام وجهي، لقد غدا البحر غرفة انتظار خالية واسعة، فقاعة من الظلام مجوفة.

ومرت فجأة نسمة، نفحة أشبه بريح تمر عبر طبقة من جمرات، وتوهج المكان الأكثر قربا بلون قرنفلي، أشبه بمحارة بحرية، يغرق تدريجيًا في لون وردة حمراء أكثر كثافة. وجاء أنين مخيف عبر الماء نحونا، يخفق مثل ضربات جناح طائر من طيور ما قبل التاريخ. صفارات تعوي عواء سجين حكم عليه بالهلاك. و اهتزت أعصاب المرء كفروع شجرة. وبدأت الأنوار وكأنها تستجيب لهذا الصوت، تنطلق من كل مكان، بصورة مشتتة متفرقة في البداية، ثم في شرائط وأحزمة ومربعات من الكريستال... وفجأة حدد المرفأ معالمه بوضوح فوق لوحة السماء المظلمة، بينما بدأت أصابع بيضاء طويلة ذات ضوء أبيض ناعم تجوب السماء بطريقة خرقاء وكأنها أقدام حشرة بلهاء تجاهد أن ترفع نفسها على ظهر زلق. وبدأ سيل كثيف من صواريخ ملونة يصعد من بين ضباب السفن الحربية، يفرغ في السماء عناقيد من نجوم متلألئة، وحطام علب، سعوط لؤلؤية، في إسراف رائع. واهتز الجو بالضربات. وارتفعت سحابات قرنفلية وصفراء من أتربة مع الأسهم النارية وصواريخ الإنذار لتضيء المؤخرات اللزجة الملوثة بالشحم للبالونات، التي تشكل غلالة ضد الطائرات، والتي كانت تطير في كل مكان. وبدا أن البحر ذاته ينتفض. لم يكن لديَّ أدنى فكرة أن المدينة يمكن أن تكون جميلة إلى هذا الحد في عيد ميلاد ساتورن(*)، في الحرب

(*) إله من آلهة روما تميز بالقصف والعربدة ـ المترجم.

المجردة. كانت قد بدأت تنتفخ، تتمدد أشبه بوردة ظلامية غامضة. واستمر إلقاء القنابل يفيض على عقولنا. ولدهشتنا وجدنا أنفسنا نصرخ فى بعضنا البعض. كنا نحملق فى الجمرات المشتعلة لقرطاجنة أوجستين. وقلت لنفسى: إننا نشاهد سقوط إنسان المدينة.

كان الأمر جميلًا للغاية، كما كان صاعقًا يفقد الإنسان رشده. كانت الأنوار الكاشفة، فى الركن العلوى الشمالى للوحة، وقد بدأت تتجمع، ترتعش، تنزلق بطريقتها الفظة الخرقاء مثل ساقى والدى الطويلتين. كانت تتقاطع، تتلاصق بطريقة محمومة، وكان واضحًا أن إشارة ما قد بلغتهم تخبرهم عن مقاومة حشرة ما أمسك بها فى بيت العنكبوت الخارجى للظلام. ومرة بعد أخرى كانت تتقاطع، تتحسس، تبزغ، تنقسم. ثم رأينا، أخيرًا ما كانوا يحاصرونه. ست فراشات فضية دقيقة تتحرك عبر الممرات الجوية فى بطء لا يطاق كما بدا. وجنت السماء حولهم، ومع ذلك فإنهم يتحركون بذلك الاسترخاء القاتل، وفى تراخ أيضًا تجعدت الخطوط الملتوية المنحنية للماسات المنطلقة من السفن، أو النفثات الباهتة للقنابل شديدة الانفجار بسحاباتها التى تحدد مسارها.

كان فى مقدورى، رغم الزئير الذى ملأ آذاننا الآن بالصمم، أن أعزل العديد من الأصوات المنفردة التى تشكل أوركسترا الضرب بالقنابل. فرقعة الشظايا التى تعود تسقط كزخة البرد والمطر فوق الأسقف المضلعة للمقاهى قرب البحر، الأصوات الأشبه بالخدوش لإرسال إشارات من السفن وهى فى صدى أشبه بالدمى التى تتحدث من بطنها، عبارات شبه واضحة مثل: «الساعة الثالثة، أحمر. الساعة الثالثة، أحمر». ومن الغريب للغاية أيضًا صدور موسيقى من مكان ما فى هذه الجلبة فى ربع نغم غير مستو حتى إنها كانت كالوخزات، وهنالك أيضًا ذلك الهدير الأساسى

لسقوط المبانى. وقطع من ضوء تختفى تاركة وراءها كوة من ظلام. ربما يخرج منها لهيب أصفر داكن يلعق ما حوله كحيوان ظمآن. وفى القرب منا (كانت المياه تطقطق بالصدى) كان فى وسعنا سماع المحصول الوفير لقنابل المدافع الطائشة وهى تنهال فوق ظهر المراكب كمعزوفة من شيكاغو، طرطشة تكاد تكون متصلة للمعدن اللامع وهو يقع من خزائن المدافع الموجهة إلى السماء.

هكذا جرى الأمر، العين مثبتة والوهن ينبعث من الفقرات أمام هذا الإعصار الذى يكشف عن قوى لا معنى لها. لم أدرك من قبل، إلى من تنسب الحرب. ليس فيها من مكان للبشر أو الاهتمام بهم تحت مثل هذه المظلة الواسعة من الموت الملون، لقد غدا كل نفس يسحبه المرء مجرد ملاذ مؤقت إلى حين.

ثم فجأة، انتهى المشهد تقريبًا كما بدأ. اختفى المرفأ فى مفاجأة مسرحية، انطفأ خيط الأحجار الكريمة، فرغت السماء. أحاط الصمت بنا ليتمزق، فقط مرة أو أكثر بتلك الصفافير الصارخة الجائعة التى كانت تثقب أعصابنا، ثم لا شىء. درجات من كثافة ظلام عدمى، تنمو من خلالها أصوات محدودة مألوفة للماء يلعق حواف السفن. وزحفت ريح قصيرة واهنة لتغلفنا ومعها الروائح الغرينية لمصب نهر غير مرئى. هل كان ذاك مجرد خيال حين سمعت من البعد أصوات طرائد من بط وأوز فى البحيرة؟

وانتظرنا هكذا فترة من الزمن طويلة، فى حيرة شديدة. إلا أن الفجر، فى تلك الأثناء كان قد بدأ من الشرق يباغت السماء، المدينة والصحراء. وارتفعت فى نعومة أصوات بشرية ثقيلة كالرصاص، تثير الدهشة والعاطفة. أصوات أطفال. وظهر فى الغرب هلال ينفث ألوانًا فوق الأفق ـ وتثاءبنا.

كان الجو باردًا. انتفضنا ونحن نستدير كل منا نحو الآخر، وقد أحسسنا فجأة باليتم فى هذا العالم الداهم ما بين النور والظلام.

إلا أن الفجر الذى آلفه بدأ ينمو تدريجيًا من التخوم الشرقية: هذا الفيض الأول من الليمونى والوردى الذى سوف يمنح مياه مريوط الميتة بريقًا. كان ناعمًا كالشعر، ورغم ذلك كان غامضًا إلى حد أنه كان على المرء أن يوقف تنفسه حتى يتعرف عليه. وسمعنا (أو فكرت أنى سمعت) النداء الأول للصلاة من بعض المآذن والتى لا تزال غير مرئية.

هل لا تزال توجد إذن، آلهة يتضرع الناس إليها؟ وما إن ولج السؤال رأسى حتى انطلقت ثلاثة قوارب صيد صغيرة ذات أشرعة فى لون الصدأ والكبد والخوخ الأخضر وتمايلت فوق سيل الماء وانحنت عبر مقدم قاربنا مثل الصقور. كان فى وسعنا أن نسمع وقع الماء يدق مقدمات تلك القوارب. وحافظت القوارب على توازنها مثل فرسان يمتطون الجياد. حيونا باللغة العربية وأخبرونا أن القصف والهدير قد انتهى وأنه فى وسعنا دخول الميناء.

وبدأنا فعل ذلك فى حرص وحذر، تغطينا البطاريات التى تبدو مهجورة فى ظاهرها. وأخذ مركبنا يخب فى القناة الرئيسية بين خطوط السفن الطويلة، أشبه «بفابوريتو» فى الـ«جراندكانال». حملقت حولى. كل شىء كما كان ومع ذلك، فإنه مختلف، فى ذات الوقت، بطريقة لا يصدقها العقل. نعم، كان المسرح الرئيسى (لعواطف القلب، للذكرى، للحب) هو ذاته. ورغم ذلك فإن اختلاف التفاصيل، اختلاف الديكور صدمنى فى عناد. كانت سفن الركاب قد دهنت الآن بطريقة باهرة، بلطخات تكعيبية باللون الأبيض والكاكى ورماديات بحر الشمال. مدافع تعى وجودها تكمن فى أوكار خرقاء كأوناش فى أعشاش من خيش مشبع بالقار والشمع

ونسيج عنكبوتى، البالونات المشحمة عالقة فى السماء كأنها تتدلى من مشانق. وأخذت أقارنها بالسحابات الفضية القديمة للحمام. والذى قد بدأ بالفعل صعوده فى مجموعات يلهث بين أشجار النخيل، يغطس صعودا فى الضوء الأبيض ليلقى الشمس، لحن يثير الحيرة، يضاف إلى ما هو معروف وغير معروف. القوارب، مثلا، مشدودة على امتداد المرسى عند «نادى اليخت»، وعليها ما أتذكره من ندى كثيف بالعرق فوق صواريها وحبال مراسيها. الأعلام والتندات الملونة تتدلى جافة متماثلة وكأنها قد نقعت فى النشا. (كم عدد المرات التى لم نبحر فيها من هناك، فى نفس هذه الساعة، فى قارب كليا الصغير، المحمل بالخبز والبرتقال وزجاجات النبيذ المغلفة بجدائل الأغصان؟) كم عدد أيام الإبحار القديمة التى قضيناها فوق ذلك الشاطئ المفتت، ودلائل عواطف منسية؟ كنت مندهشًا وأنا أرى بأى شعور عاطفى يمكن لعينى المرء أن تسافر عبر خط من أشياء عديمة الحياة مشدودة إلى مرفأ طحلبى، تمتع نفسها بذكريات ما كانت تعى اختزانها، حتى السفن الحربية الفرنسية (رغم أنها تعانى الآن الخزى والعار، وقد أغلقت مؤخرات خزائن مدافعها، واعتقل طاقم بحارتها اعتقـالا اعتباريا) كانت فى أماكنها بالضبط التى رأيتها فيها آخر مرة من تلك الحيـاة الغابرة الفانية،ترقد على بطونها فى دجى الفجر. إنها ما زالت كما كانت دائمًا، مغلفة بغلاف رقيق من سراب المدينة والتى كانت مآذنها،الأشبه بثمرة التين، تغير ألوانها مع كل صعود للشمس.

وعبرنا فى بطء الممر الطويل الأخضر بين السفن الضخمة، وكأننا نشارك فى استعراض شعائرى. كانت الأشياء المفاجئة قليلة، بين الكثير المألوف لنا، وإن كانت منتقاة: سفينة حربية مدرعة ترقد بكماء، على جانبها طراد تلطخت وتسطحت أجزاؤه العليا بإصابة مباشرة، مواسير مدافع مشقوقة كما يشق الجزر، استحكامات ومتاريس ملتوية على نفسها

كأنما تعانى آلام احتراق مبرحة. حزمة كبيرة من الصلب الرمادى هصرت فى ضربة واحدة، مثل حقيبة ورقية، البقايا البشرية محشورة على امتداد ثقوب جوانب السفن فى أعداد قليلة فى صبر هائل، لا تحس على الإطلاق ولا تتألم. كان ذلك مثيرًا للدهشة، أشبه بسير المرء فى مدافن جميلة، ثم يفاجأ بقبر حفر حديثًا. («إنها جميلة»، هكذا قالت الطفلة). ولقد كانت كذلك حقيقة. الغابات الهائلة من الصوارى والأبراج المستدقة الأطراف تتمرجح، تتمايل مع أقل ارتفاع للماء تسببه حركة النقل البحرى، والمواء الناعم للكلاكسات، والصور المنعكسة تذوب ثم تستعيد أشكالها. وهناك موسيقى جاز منهوكة تنساب فوق المياه كأنما تأتى من ماسورة صرف فى مكان ما. كانت بالنسبة إليها هى الموسيقى المناسبة لدخولها الظافر لمدينة الطفولة. «الحياة أبدًا»(*) ووجدت نفسى أدندن فى عقلى فى رقة، وقد أدهشنى كم كان صدى اللحن قديمًا، كم هو عتيق الطراز، كم هو بعيد عن العقل لا يثير اهتمامى! كانت تنظر إلى السماء تبحث عن أبيها، الصورة التى تتشكل كسحابة خيرة تعلونا وتحيط بها هى، تغلفها.

وظهرت عن بعد، عند نهاية الرصيف، دلائل تشير إلى عالمنا الجديد الذى نحن قادمون إليه: صفوف طويلة من عربات نقل البضائع، سيارات الإسعاف، حواجز وعوائق، حراب جند وعسكر من سلالة زرقاء وكاكية من الرجال أشبه بالأقزام الخرافية، هنا نشاط بطىء وإن كان له هدف، مستمر ومسيطر. وبزغت شخوص من سكان الكهوف من أقفاص حديدية وتجاويف على امتداد الرصيف منهمكة فى جولة متباينة الأغراض. هنا أيضًا سفن شقت جزئيًا فى قطاعات هندسية، أخرجت أحشاؤها البخارية، سفن ترقد مفتوحة بعملية قيصرية؛ ويزحف عبر هذه الجروح

(*) بالفرنسية فى الأصل.

خيط لا ينتهى، أشبه بخيط النمل، من جنود وسترات زرقاء يحملون على ظهورهم قنابل وبالات وضلوع ثيران فوق أكتاف صبغتها الدماء. أفران مفتوحة ورجال يرتدون أغطية بيضاء يتعرضون لنور النار، يسحبون بطريقة محمومة صوانى الخبز. كانَ كل ذلك النشاط بطيئًا إلى درجة لا تصدق، على نحو ما، ومع ذلك فقد كان، على امتداده، عملًا هائلًا. كان ينتمى إلى غريزة سلالة ما، أكثر من انتمائه إلى شهية الطعام عندها. وبينما كان للسكون هنا قيمة نسبية فقط، فإن بعض الأصوات الصغيرة غدت محددة، ملحة ـ الديدبانات يدقون أحذية ذات نعالِ حديدية فوق الحصى، عواء زورق سحب السفن أو طنين صفارة باخرة أشبه بصوت ذبابة زرقاء عملاقة أمسك بها فى نسيج عنكبوتى. كل هذا كان من مكتسبات المدينة الجديدة والتى كان علىّ أن أنتمى إليها منذ الآن فصاعدًا.

واقتربنا أكثر وأكثر ونحن نستكشف مرسى بين القوارب الصغيرة فى حوض السفن. وأخذت المنازل تعلو وتعلو. كانت أيضًا لحظة من الرقة الرائعة. كان قلبى فى فمى (كما يقول المثل) فقد رأيت بالفعل الشخص الذى أعرف أنه لا بد أن يكون فى انتظارنا هنالك بعيدًا عبر رصيف رسو السفن، كان يستند إلى سيارة إسعاف، يدخن. إن شيئًا ما فى هيئته أصاب منى وترا وعرفت أنه نسيم، رغم أنى لم أجرؤ بعد على التيقن من ذلك. فقط عندما أُلقيت الحبال ورسونا، إننى رأيت، وقلبى يدق، أنه كان حقًا صديقى، نسيم! (تعرفت عليه بصورة غامضة من خلال تنكره، كما تعرفت من قبل على كابوديستريا).

كان يضع فوق إحدى عينيه عصابة سوداء غريبة. كان يرتدى معطف خدمة أزرق فضفاضًا له أكتاف محشوة غير متقنة وطويل للغاية عند الركبتين، وغطاء رأس مشدود إلى أسفل فوق عينيه. بدا أطول بكثير وأكثر نحافة مما كنت أتذكره. ربما كان هذا الزى الذى يرتديه يشبه، إلى حد

ما الرداء الخاص بالسائقين، وإلى حد ما رجال الطيران. أعتقد أنه لا بد أحس بقوة تعرفى تضغط عليه لأنه وقف فجأة منتصبًا،واستطاع أن يميزنا بعد أن حملقت فيه قليلًا. ألقى بالسيجارة بعيدًا، سار على امتداد المرسى بمشيته السريعة الرشيقة، يبتسم فى عصبية. لوحت له، إلا أنه لم يرد علىّ، رغم أنه أومأ على نحو ما وهو يتحرك نحونا. قلت وأنا مدرك للوضع: «انظرى، ها هو والدك قد جاء أخيرًا». ووقفت تنظر بعينين مفتوحتين على اتساعهما، تتابع الشخص الطويل حتى وقف يبتسم لنا، على بعد يقل عن ستة أقدام. كان البحارة مشغولين بالحبال، وانزلقت سقالة فى صوت مدو. ولم أستطع تقرير إن كانت العصابة السوداء المشئومة على عينه قد أضافت أو أسقطت من وسامته القديمة. وخلع غطاء رأسه وهو لا يزال يبتسم، خجلًا وحزنًا بصورة ما. ثم مسح شعره يسويه قبل أن يعيد غطاء الرأس ثانية، وناديت «نسيم» فأومأ رغم أنه لم يرد علىّ. وبدا أن صمتًا يهبط فوق عقلى عندما خطت الطفلة فوق السقالة. سارت يحيط بها جو من سرور مفرط مرتبك، مأخوذة بالصورة أكثر من الحقيقة (هل الشعر إذن أكثر حقيقية من الحقيقة المرئية؟). ومدت ذراعيها، كالسائر فى نومه، سائرة إلى أحضانه وهى تضحك ضحكة خافتة. ولحقت بها فى صعوبة، ومد نسيم يده لى، وهو لا يزال يضحك ويضمها إلى صدره، يده التى فقدت إصبعًا، غدا مخلبًا، انغرس فى يدى. وأطلق تنهيدة جافة قصيرة غلفها بصوت كأنما يسعل. وكان ذلك كل شىء. وزحفت الطفلة إلى أعلى وكأنها حيوان الكسلان على جذع شجرة وقد لفت ساقيها قرب ردفيه. لم أدر بالضبط ماذا علىّ أن أقول وأنا أحملق فى تلك العين الواحدة الداكنة المتفهمة. كان شعره عند فوديه أبيض تمامًا، لا يمكنك أن تضغط يدا، فقدت إصبعًا، بالقوة التى تريد.

«وهكذا نلتقى ثانية».

ورجع إلى الوراء فى رشاقة، ثم جلس فوق العمود الذى تشد إليه الحبال، يتلمس علبة سجائره ليقدم إلىّ سيجارة فرنسية شهية المذاق بصورة غريبة. كان كلانا صامتا كالأخرس. كان الثقاب رطبًا فلم يشتعل إلا بصعوبة. قال أخيرًا: «كانت كليا تزمع الحضور، إلا أنها اعتذرت فى اللحظة الأخيرة، لقد ذهبت إلى القاهرة. جوستين فى كوم أبو جيرج!» ثم أحنى رأسه فى سرعة، وقال فى صوت هامس: «أنت تعرف الأمر كله إه؟» أومأت برأسى، فبدا عليه الارتياح، «هنالك القليل الذى يحتاج إلى إيضاح. لقد أنهيت عملى منذ نصف ساعة مضت وانتظرتك لآخذك إلى الخارج، إذ ربما»...

أحاطت بنا، فى تلك الأثناء، مجموعة من الجنود، تفحص أوراق هويتنا وتراجع معنا وجهتنا. كان نسيم مشغولا بالطفلة، ففردت أوراقى للجنود الذين قاموا بدراستها فى وقار وبنوع ما من التعاطف دون تحيز، وبحثوا عن اسمى فى صحيفة ورقية طويلة قبل أن يخبرونى بأنه يجب علىّ أن أقدم نفسى إلى القنصلية حيث كنت مواطنًا يقيم فى دولة أجنبية. عدت إلى نسيم ومعى تصاريح الدخول وأخبرته بما حدث: «حقيقة، ليس الأمر سيئًا. كان علىّ الذهاب إلى هناك على أى حال، وذلك لإحضار حقيبة كنت قد تركتها وبها كل بذاتى المحترمة... إننى أتساءل كم من الوقت مضى على ذلك؟».

وابتسم «عمر».

«كيف سننظم هذا الأمر؟».

وجلسنا جنبًا إلى جنب نفكر مليًا. كان غريبًا أن أسمع لهجات كل المقاطعات الإنجليزية. وجاء إلينا أمباشى عطوف يحمل صينية مليئة بأكواب تتصاعد منها تلك الأبخرة المخمرة التى ينفرد بها الجيش مع

شرائح من الخبز الأبيض المكسو بالمرجرين(*). وعلى مسافة متوسطة منا سارت فى تبلد فرقة من حاملى النقالات مبتعدة عن الأنظار ومعها حمل يتدلى من بناية ضربت بالقنابل. أكلنا وقد أمسك الجوع بنا. بدأنا نتنبه فجأة إلى ركبنا المهتزة. قلت أخيرًا: «لماذا لا تذهب وتأخذها معك؟ يمكننى أن آخذ الترام من عند بوابة الميناء وأزور القنصل. أحلق وأتناول غذاء ما، وآتى هذا المساء إلى الكرم إن أنت أرسلت لى جوادًا عند مخاضة النهر».

«حسنًا جدًا». قال وقد بدا عليه نوع من الارتياح، وهو يعانق الطفلة ويقترح عليها هذه الخطة همسا فى أذنها، ولم تبد اعتراضا. بدت فى الحقيقة متلهفة على مصاحبته؛ مما جعلنى أحس بالامتنان. وهكذا سرنا، يغمرنا إحساس بافتقاد الحقيقة، عبر الحصى الموحل إلى حيث كانت تقف سيارة الإسعاف الصغيرة، وصعد نسيم ومعه الطفلة إلى مقعد السائق. ابتسمت وصفقت بيديها،فأبعدتهما وأنا مبتهج لإتمام الانتقال فى نعومة هكذا.

كان غريبًا أن أجد نفسى، على أى حال، وحيدًا هكذا فى المدينة، كشارد فوق صخور البحر السطحية المألوفة - «مألوفة» - نعم! إذ ما إن يترك المرء شبه دائرة الميناء، حتى يجد شيئًا، أيا كان، لم يتغير. كان الترام الصفيحى الصغير يئن، يتسلل فوق قضبانه الصدئة، يتلوى عبر تلك الشوارع المألوفة والتى كانت تنتشر على جانبى صورى الوفية لذكرياتى وفاء مطلقًا. دكاكين الحلاقين بشباكها المانعة للذباب تُتدلى على الأبواب تنتفض من وخزات الخرز الملون الخفيفة، المقاهى بزبائنها الكسالى يقعون إلى موائد من صاج (إلى جوار الباب مازال هنالك الحائط المتساقط ونفس المنضدة التى جلسنا إليها بلا حراك، يرهقنا الغسق الأزرق).

(*) المسلى النباتى - المترجم.

ما إن بدأ نسيم تشغيل جهاز تعشيق تروس السيارة حتى حدق فىّ بحدة قائلًا: «دارلى، لقد تغيرت كثيرًا». رغم أنى لم أستطع تحديد إن كان ما قاله تأنيبًا أم مديحًا؟ نعم، لقد تغيرت! وابتسمت عندما رأيت القوس قرب الباب، متذكرًا قبلة فوق أصابعى، ترجع الآن إلى ما قبل التاريخ تذكرت الإجفالة الخفيفة للعينين السوداوين بينما تقول الحقيقة الشجاعة الحزينة: «إن المرء لا يتعلم شيئًا من هؤلاء الذين يردون حينًا». كلمات ألهبت المرء كما يلهب كحول العمليات جرحا مفتوحا، لكنها كانت مطهرة، كما تفعل الحقيقة كل الحقيقة. ورأيت وأنا مشغول هكذا بتلك الذكريات، رأيت بجانب آخر من عقلى، الإسكندرية كلها تتمدد مرة أخرى على جانبى بتفاصيلها التى تأسر الألباب، بغطرستها اللونية، بفقرها الساحق وجمالها. الحوانيت الصغيرة، تحميها من الشمس قطع من تندات مهلهلة، حيث كومت فى ظلامها كل أنواع السلع من السمان الحى إلى أقراص الشهد ومرايا الحظ، أكشاك الفاكهة بهياكلها الخشبية المتألقة والتى يتضاعف تألقها بنشر أوراق ساطعة عليها لون البرتقال الذهبى الدافئ يرقد على شرائح تتألق بالأحمر الأرجوانى والقرمزى. وبريق دخان كهوف صانعى النحاس، وسروج الجمال بشراشيبها المبهجة. الخزف والخرز الأزرق المصنوع من حجر اليشم ضد العين الشريرة. كل ذلك قد اتسم بوميض منشورى حاد بحشود الناس السائرة جيئة وذهابا. وهدير أجهزة المذياع فى المقاهى، ونداءات الباعة الجائلين الأشبه بالنواح، ولعنات عرب الشوارع، والولولة المجنونة لنائحين بعيدين يهتزون وراء جثمان أحد الشيوخ المرموقين. ويجىء هنا الأحباش، فى مقدمة الصورة، كمن استحوذ عليها تمامًا فى وقاحة، يتجولون بلونهم الأرجوانى المائل للزرقة الداكنة، وعماماتهم ثلجية البياض، والسودانيون بلونهم البرونزى وشفاههم المنتفخة فى لون الفحم، واللبنانيون بجلودهم فى لون الزنك، والبدو بمناظر وجوههم الجانبية الأشبه بالصقور البلدية، كل ذلك منسوج

فى خيوط متألقة فوق السواد الرتيب للنسوة المحجبات، الحلم المعتم للمسلم، والذى لا يمكن الإمساك به إلا من خلال فتحة ثقب العين البشرية. وتسير الجمال تتمايل عبر تلك الشوارع الضيقة، تحتك وما عليها من حزم، بالجدران الطينية التى تندفع فيما بينها، الجمال بأحمالها من البرسيم الأخضر، وهى تنزل بأخفافها فوق الأرض فى رشاقة لا حد لها. وفجأة تذكرت سكوبى وهو يعطينى درسًا فى أولويات التحية: «يجب أن تعرف أنها مسألة شكل. إنهم، يا ولدى، بريطانيون نظاميون فى أدبهم. ليس هنالك من قيمة لإلقاء تحيتك «السلام عليكم»(*) على من حولك بأى صورة من الصور إنها تلقى أولًا من راكب الجمل إلى راكب الحصان، ومن راكب الحصان إلى راكب الحمار، ومن راكب الحمار إلى السائر على قدميه، ومن السائر إلى الجالس، ومن مجموعة من الناس صغيرة إلى مجموعة كبيرة، ومن الأصغر إلى الأكبر سنًا... إنها المدارس الكبرى فى المنازل التى تعلم مثل تلك الأشياء. إلا أن كل صبى سائق سيارة هنا يضع التحية على أطراف أصابعه. والآن كرر ورائى ترتيب هذه المعركة».

كان من الأيسر علىّ تكرار عبارة التحية، من تذكر هذا النظام، فى هذه الفترة من الوقت. وأخذت أجاهد، وأنا أبتسم لهذه الفكرة، كى أعيد تثبيت هذه الأولويات المنسية من الذاكرة، بينما أتفرس فى نفسى. كان صندوق دُمى الحياة المصرية كلها لا يزال هنالك، كل شخصية فى مكانها، من يرش الشوارع، الناسخ والنائح، البغى والكاتب والقسيس، كلها تبدو وكأن الزمن أو الحرب لم تمسسها. وأحسست بالكآبة تغزونى وأنا أرقبهم، فقد غزوا الآن جزءًا من الماضى، لقد اكتشف تعاطفى عنصرًا جديدا فى داخله: التجرد.

لقد اعتاد سكوبى على القول: «لا تبتئس يا ولدى. فأنت كى تنمو

(*) بالعربية فى حروف لاتينية.

تحتاج إلى عمر بأكمله. الناس لم يعد لها قدرة على الصبر. لقد صبرت أمي تسعة أشهر من أجلى». فكرة فريدة.

وتذكرت وأنا أعبر جامع الجوهرى أننى وجدت هنا حميد الأعور بعد ظهر ذات يوم يحك شريحة ليمون فوق قرش صاغ قبل أن يمصها. هذه، قال: «علاج ناجع للكلى التى يصيبها الحصى». كان معتادًا أن يعيش فى مكان ما فى هذا الحى المليء بمقاهيه التى تعبق بالروائح المحلية مثل ماء الشراب الذى يفوح برائحة الورد، وخروف بأكمله يُقلب فوق الأسياخ وقد حشى بالحمام والأرز والبندق والجوز. كل الوجبات التى تتلهى بها الكروش والتى تدخل البهجة على باشوات المدينة ذوى البطون الفحلة القادرة!

فى مكان ما، هنا، على تخوم الحى العربى يقفز الترام، يصدر فجأة صريرًا، كمن يطحن، وهو يلف ويدور. يمكنك للحظة أن تنظر، عبر إفريز الأبنية المضعضعة المبعثرة، إلى ركن الميناء المخصص للقوارب التى تعمل فى المياه الضحلة. إن مخاطر الحرب فى البحر قد تضخمت إلى فيضان وطوفان. الفلوكة ترقد هنالك تحيط بها قباب ملونة، ومراكب ذات أشرعة مثلثة الشكل، وزوارق نبيذ شرقية كتلك التى تستخدم فى بوغاز البسفور، ومراكب شراعية من كل أنحاء المشرق. باقة من الصوارى والساريات والعيون الإيجية المتأملة، من الأسماء والأشكال والمقاصد. إنها كلها ترقد هنالك، وقد غدت كل واحدة منها اثنتين بصورتها المنعكسة فى مياه البحر العميقة الساجية، عندما تسقط الشمس عليها.ثم تنتزع كلها فجأة ليبدأ الكورنيش الكبير فى الامتداد، عرض البحر الطويل الرائع الذى يحيط بالمدينة الحديثة، العاصمة الهيلينية لرجال البنوك والحالمين بالأقطان، كل هؤلاء التجار المتنقلين من الأوروبيين الذين أعادوا إشعال حلم الإسكندر فى الفتح وأجازوه، بعد قرون من التراب والصمت الذى فرضه عمر عليها.

هنا، أيضًا، كان كل شىء دون تغيير نسبيًا، باستثناء سحابات الجند الكاكية الكئيبة تتحرك فى كل مكان،والبارات الجديدة الأشبه بالطفح الجلدى والتى بزغت فى كل مكان لتقوم على تغذيتهم. خارج فندق سيسيل صفوف طويلة من لوريات النقل وقد طغت على سيارات التاكسى. خارج القنصلية حارس من البحرية غريب يحمل بندقية مزودة بحربة. إننى لا أستطيع القول: إن كل شىء قد تغير بصورة يستعصى علاجها. فهؤلاء الزوار كانوا يتسمون بالرؤية الوقتية لمن فقد القدرة على التدبر. كانوا أشبه بقرويين يزورون العاصمة فى مناسبة سوق موسمى. سرعان ما يفتح باب يُسحبون منه إلى الخزان الهائل لمعارك الصحراء. إلا أنه كانت هنالك مفاجآت. ففى القنصلية، مثلًا، هنالك رجل بدين للغاية يجلس إلى مكتبه كملك برغوث البحر، يضغط راحتيه معًا وأظافره الطويلة التى تشبه البندق مصقولة، ذاك الصباح، بعناية، تحدث إلىَّ فى ألفة: «إن مهمتى تبدو مثيرة للاستياء». تحدث فى صوت كصوت الفلوت، ورغم ذلك فهى ضرورية، إننا نحاول وضع يدنا على كل شخص ذى قدرة خاصة قبل أن تصل يد الجيش إليه. لقد أرسل السفير اسمك إلىّ، وهو الذى دل عليك إدارة الرقابة، التى افتتحت لتوها، والتى لا يزال طاقمها دون المستوى بصورة غريبة.

«السفير؟»، أثار الأمر حيرتى.

«إنه صديق لك. أليس كذلك»؟

«إننى بالكاد أعرفه».

«إننى، على أى حال، مقيد بقبول توجيهه، رغم أننى المسئول عن هذه العملية».

كانت هنالك أوراق رسمية يجب أن تملأ.كان هذا البدين، والذى لم

يكن يثير النفور واسمه كنيلورث ميالًا لمساعدتى. قلت: «هنالك شىء ما غامض فى هذا الأمر». هز كتفيه وفرد يديه البيضاوين: «أقترح أن تناقشه فى هذا الأمر عند ما تلقاه».

قلت: «ليس فى نيتى».. إلا أنه بدا من الحمق مناقشة الأمر أكثر من ذلك قبل أن أكتشف ماذا هنالك، كيف يمكن لماونت أوليف...؟ إلا أن كنيلورث كان يتحدث مرة أخرى: «أعتقد أنك قد تحتاج إلى أسبوع حتى تجد لنفسك مأوى هنا تستقر فيه. هل أخبر الإدارة بذلك؟».

«إن شئت». قلت وأنا فى حيرة. سمح لى بالانصراف لأقضى بعض الوقت فى القباء أنبش فى صندوق ملابسى البائد، أنتقى منه قليلًا من الملابس التى تليق بالمدينة. لففتها فى ورق أصفر، وخرجت أسير فى بطء على امتداد الكورنيش نحو فندق سيسيل حيث انتويت أن آخذ حجرة، آخذ حمامًا، وأحلق ذقنى، وأعد نفسى لزيارة المنزل الريفى، كان هذا قد بدأ يلوح فى عقلى، ليس بالضبط مثيرًا للحيرة، ولكن للقلق الذى يأتى به التوتر دائمًا. وقفت للحظة أحملق إلى أسفل فى الماء الساكن. وحدث وأنا واقف هكذا أن وقفت سيارة الرولز الفضية بقممها الصفراء، وقفزت منها شخصية ضخمة ملتحية، جاءت نحوى مهرولة ممدودة الذراعين، ولم أشعر إلا وهذان الذراعان يطوقان كتفى واللحية تحك وجنتى فى تحية غالية. وحينئذ تعرفت فى هذه الشخصية على «بومبال».

«دارلى». وسـحبنى وهـو لا يـزال ممسكًا بيدى فى رقة، والدموع لا تزال فى عينيه، إلى جانب حيث جلس ثقيلًا فوق أحد الدكك الحجرية التى تحيط بحد البحر. كان مظهر بومبال على قدر من الأناقة، وطرفا كُميه المنشيين يخشخشان وقد تجعدت حواشيهما. وأضفى عليه شعر ذقنه وشاربه الداكنين جوا مهيبا وإن كان بائسًا.. بدا أنه لم يتغير وسط كل

تلك الزخارف. لقد لاح من خلالهما وكأنه «تيبريوس» فى رداء خيالى. وحملقنا بعاطفة فى بعضنا البعض وقتا طويلا صامتا. كان كلانا يدرك أن الصمت الذى لاحظه كل منا على الآخر كان صمتا أليما لسقوط فرنسا، وهو حدث رمز فى وضوح تام إلى الانهيار الروحى لأوروبا ذاتها. كنا مثل نذابين عند نصب تذكارى غير مرئى خلال دقيقتى الصمت واللتين أحيتا ذكرى سقوط يستعصى علاجه على الإرادة البشرية. وأحسست فى قبضة يده بكل الخجل واليأس من هذه المأساة السمجة، وبحثت فى يأس عن العبارة التى يمكن أن تواسيه، يمكن أن تؤكد له أن فرنسا ذاتها لا يمكن أن تموت حقا لمدى طويل، مثلها مثل الفنانين الذين يولدون فى هذا العالم، إلا أن هذا العالم من الجيوش والمعارك كان كثيفا، متماسكا، مما جعل الفكرة تبدو ذات أهمية ثانوية، حيث إن الفن يعنى الحرية حقا. وتلك هى التى كانت على كف عفريت. وأخيرًا واتتنى الكلمات «لا تغتم. لقد رأيت اليوم صليب اللورين الصغير يزدهر فى كل مكان».

وتمتم وهو يعصر يدى مرة أخرى: «أنت تفهم، أعرف أنك لابد ستفهم، حتى وأنت فى أشد حالاتك نقدًا لها، كنت تدرك أنها تعنى الكثير لك، كما تعنى الكثير لنا». ومخط أنفه فجأة، فى ضجيج مفزع، فى منديل نظيف. واستند إلى الخلف وهو فوق الدكة الحجرية.وعاد، فى فجائية مذهلة، ليغدو ذاته القديمة ثانية، بومبال الماضى الهياب، البدين الذى يتعذر كبحه أو السيطرة عليه.

«هناك الكثير الذى أخبرك به. سوف تأتى معى الآن وفى الحال، دون كلمة. نعم، إنها سيارة نسيم. لقد اشتريتها لأنقذها من المصريين. لقد أعد لك ماونت أوليف وظيفة ممتازة. إننى ما زلت فى سكنى القديم، لكننا أخذنا الآن كل المبنى، يمكنك أن تستخدم الطابق العلوى كله، سوف تصبح الأمور كما كانت فى الماضى مرة أخرى». وقفزت على قدمى

لهذه الفصاحة ولهذا التنوع المحير من الآمال والتوقعات التى وصفها فى سرعة وثقة دون انتظار تعليق واضح. لقد بلغت إنجليزيته، من الناحية العملية، حد الكمال.

قلت متلعثمًا: «الأيام القديمة».

إلا أن تعبيرًا بالألم عبر تقاطيع وجهه السمينة، وأنّ وهو يضغط بين ركبتيه بينما يقول، «فوسكا!»، ولوى وجهه بطريقة كوميدية وهو يحملق فىّ: «أنت لا تعرف». وكاد أن يكون فزعًا: «إننى أحبها».

وضحكت. هز رأسه فى سرعة: «لا تضحك».

«يجب أن أضحك يا بومبال».

«إننى أتوسل إليك». ثم مال إلى الأمام، وقد ارتسم اليأس فى تقاطيعه. خفض صوته وهو يستعد لائتمانى على شىء ما. تحركت شفتاه. كان من الواضح أن هنالك أمرًا له أهمية مأساوية. استطاع أخيرًا أن ينطقه وقد طفرت الدموع من عينيه، بينما يقول: «أنت لا تفهم. إننى مخلص رغم أنفى». ثم لهث كسمكة وكرر: «رغم أنفى(*). إن هذا لم يحدث لى من قبل. لم يحدث أبدًا». ثم انفجر فجأة فى صهيل بائس، وعلى وجهه نفس نظرة الحيرة الواجفة. كيف يمكننى منع نفسى من الضحك؟ لقد أعاد إلىّ الإسكندرية فى نفسٍ واحد ـ تامة وكاملة ـ إذ لا يمكن أن تكتمل ذكرياتها دون أن يفكر المرء فى بومبال واقعًا فى الحب. وأصابه ضحكى بالعدوى فأخذ يهتز مثل الجيلى. «كُف». أخذ يتوسل أخيرًا فى شجن كوميدى، وقد حشرت ضحكاته المكتومة كلماته فى غابة لحيته. «لم أنم معها أبدا، ولو لمرة واحدة. ذلك هو الشىء الذى يثير الجنون». وضحكنا لما قال أكثر مما ضحكنا فى أى وقت.

(*) بالفرنسية فى الأصل.

إلا أن السائق استخدم بوق السيارة فى رقة، مما جعله يستعيد نفسه فجأة، مذكرا إياه أن لديه واجبات عليه أداؤها، صاح: «تعال. علىّ أن آخذ خطابًا إلى «بوردر» قبل التاسعة، ثم أوصلك إلى المسكن، يمكننا تناول الغداء معًا. إن حميد، بالمناسبة، يعمل معى. سوف يسعد لمجيئك. أسرع». مرة أخرى، لم أعط لهواجسى الوقت الكافى لتشكل نفسها. أمسكت بلفافتى أصحبه إلى العربة المألوفة، وقد انتابتنى غصة وقد لاحظت أن تنجيدها تفوح منه الآن رائحة السيجار الثمين والدهان المعدنى. كان صديقى يتحدث فى سرعة طوال الطريق إلى القنصلية الفرنسية. ودهشت إذ وجدت أن موقفه كله، نحو الرئيس، قد تغير. كل المرارات والحنق القديم قد تلاشى. كان كلاهما، كما يبدو، قد هجر موقعه الوظيفى فى عاصمتين مختلفتين (كان بومبال فى روما) حتى يلحق بفرنسا الحرة فى مصر. كان يتحدث الآن عن بوردر فى عاطفة حانية: «إنه، بالنسبة إلىّ مثل أبى. إنه رائع». قال صديقى وهو يدور بعينيه الداكنتين المعبرتين. وقد حيرنى هذا الأمر، إلى حد ما، حتى رأيتهما معا وأدركت فى سرعة البرق أن سقوط بلدهما قد خلق بينهما رباطا جديدا. لقد ابيض شعر بوردر تماما، وأفسحت سهولة انقياده ورقته الذاهلة مكانها للإصرار الهادئ لامرئ تُمسك به المسئوليات التى لا تترك مكانا للعواطف. كان كل منهما يعامل الآخر فى كياسة وعاطفة، جعلتهما فى الحقيقة أشبه بأب وابن أكثر منهما زميلين. إن اليد التى وضعها بوردر، فى حب ومودة، فوق كتف بومبال، والوجه الذى كان ينظر به إليه، كانا يعبران عن زهو تشوبه الوحشة والشوق الكئيب.

إلا أن الوضع الجديد للقنصلية كان وضعا تعسا إلى حد ما. النوافذ العريضة تطل على الميناء، حيث يرسو الأسطول الفرنسى مثل رمز لكل ما هو مؤذ من النجوم التى تحكم مصير فرنسا. كان فى وسعى أن

أتبين أن مجرد رؤياه راقدا، خاملا، كان تبكيتا وتأنيبًا أبديًا لهم. ولم يكن فى مقدورهم تفادى ذلك. كانت كل لفتة ما بين المكاتب العالية قديمة الطراز والحائط الأبيض، توقع بأعينهم فوق صفوف هذه السفن المصفوفة النافرة. كانت أشبه بشظية تسكن العصب البصرى. كانت عينا بوردر تتوهجان بتأنيب الذات والرغبة الحارة المتعصبة فى إصلاح هؤلاء التابعين الجبناء للشخصية التى كان يشير إليها بومبال دوما (بأقل تعبيراته دبلوماسية): «ألف لعنة». كان مما يبعث على الراحة أن ينفس المرء عن مشاعره الحادة، باستبدال حرف بآخر. وقفنا نحن الثلاثة ننظر إلى الميناء، إلى هذا المنظر الاستفزازى. وفجأة انفجر الرجل العجوز: «لماذا أيها البريطانيون لا تأسرونهم، وترسلون بهم إلى الهند كما أرسلتم الإيطاليين؟ إننى لن أستطيع استيعاب ذلك أبدًا. سامحنى. ولكن هل تعرف أنه مسموح لهم بالاحتفاظ بأسلحتهم الخفيفة، وديدبانات فوق الأسطح والحصول على إجازات ينزلون فيها إلى الشاطئ، وكأنهم مجرد أسطول محايد؟ إن الأدميرالات يتعشون ويشربون النبيذ فى المدينة.الكل يخادع لحساب «فيشى». إن هنالك مشاجرات بين أولادنا وبحارتهم». كان فى وسعى أن أتبين أنه موضوع قادر على استشاطة غضبهم. وحاولت أن أغير دفة الحديث، حيث لم يكن فى وسعى أن أقدم من المواساة غير القليل.

استدرت إلى مكتب بومبال الذى كانت تنتصب عليه صورة فوتوغرافية كبيرة داخل إطار لجندى فرنسى، وتساءلت من يكون، وأجاب كلاهما على الفور: «إنه منقذنا». وعرفت فيما بعد، بالطبع، أن هذا الرأس اللابرادورى الحزين، المعتز بنفسه، إنما هو ديجول بذاته. أوصلتنى سيارة بومبال إلى المسكن. تحركت الهمسات المنسية فى أعماقى وأنا أدق الجرس. فتح لى حميد الأعور. وأقدم، بعد لحظة من الدهشة، على قفزة صغيرة غريبة

فى الهواء. إن النبض الأصلى لهذه القفزة، كان يجب أن يكون عناقًا كَبحَه فى حينه. إلا أنه وضع إصبعين فوق معصمى وقفز كطائر بنجوين وحيد فوق كتلة من الجليد، قبل أن يتراجع معطيا لنفسه فسحة تمكنه من ممارسة التحية الرسمية كما يجب أن تكون. وصحت: «يا حميد». وأنا مبتهج قدر ابتهاجه. وتماسكنا فى تحية احتفالية.

كان المكان كله قد تبدل مرة أخرى، أعيد دهانه وكسى بالورق، وأثث بأثاث ثقيل ذى طراز رسمى. وقادنى حميد وهو يحدق فى إعجاب، من حجرة إلى حجرة، بينما حاولت أنا عقليًا أن أعيد بناء مظهره الأصلى من ذكريات غدت الآن باهتة وفى غير موضعها. كان من العسير، مثلًا، رؤية ميليسا صائحة أو زاعقة. يقف الآن فى نفس المكان الذى كانت تقف فيه، بوفيه أنيق مزدحم بالقوارير. (كان بورسواردن يقف، ذات مرة، مشيرا بيديه من الركن البعيد) وعادت إلى ذاكرتى قطع من الأثاث القديم: «هذه الأشياء القديمة لا بد أنها تتجول فى مكان ما». هكذا فكرت فى هذا الاقتباس من شاعر المدينة(ф). كان الشىء الوحيد الذى يمكن التعرف عليه هو مقعد النقرس القديم الذى يستخدمه بومبال الذى عاد يظهر بطريقة غامضة فى نفس موضعه تحت النافذة. ربما طار عائدا معه من روما، إنه يشبه بومبال. الحجرة، الصندوق حيث كنت أنا وميليسا... قد غدت الآن حجرة حميد الخاصة. إنه ينام على نفس السرير غير المريح والذى نظرت إليه بشعور يشوبه الانقباض، محاولا أن أمسك بشذا وجو بعد الظهر الطويل لتلك الأيام الساحرة عندما... إلا أن الرجل الضئيل كان يتكلم. يجب أن يعد الغذاء. ثم نبش فى أحد الأركان ودفع فى يدى بصورة مجعدة لابد أنه سرقها فى وقت ما من ميليسا. كانت من تلك الصور التى يجرى تصويرها فى الشارع وقد بهتت تمامًا. كان وجهها يستدير نصف استدارة بعيدًا عنى، تبتسم

مقسمة انتباهها بين ما أقول، فى جدية تامة، ونوافذ الحوانيت المضاءة التى تمر بها. لا بد أن هذه اللقطة قد أخذت فيما بعد ظهر شتوى، حوالى الساعة الرابعة. ما الذى كنت أقوله بهذه الجدية؟ لم يكن فى وسعى، فيما يخص حياتى. أن أستعيد الزمان والمكان. ومع ذلك، فها هى هناك فى اللونين الأبيض والأسود، كما يقولون. ربما كانت الكلمات التى أقولها مهمة ذات مغزى، أو ربما كانت بلا معنى! كانت هنالك كومة من الكتب تحت ذراعى، وكنت أرتدى المعطف الواقى من المطر، القذر العتيق، والذى أعطيته أخيرًا لزولتان. كان فى حاجة إلى تنظيفه تنظيفًا جافًا. وشعرى كان فى حاجة إلى قصه من الخلف. كان من المستحيل أن يستعيد العقل مثل ما بعد الظهر هذا، والذى اختفى وتلاشى! وحملقت فى دقة وعناية، فى تفاصيل الظروف التى صاحبت الصورة كما ينحنى امرؤ ما فوق لوحة مرسومة على الجص بصورة لا يرجى علاجها، يحاول استعادتها. كانت ترتدى معطفها التترى المصنوع من جلد عجل البحر، تحمل حقيبة يد لم أرها البتة فى حوزتها. «ذات مرة فى أغسطس، هل كان أغسطس حقًا؟» اقتبست بعقلى لنفسى، مرة أخرى، من شاعر المدينة(*).

واستدرت إلى الفراش التعس الأشبه بآلة التعذيب، وأنا أهمس اسمها فى رقة مرة أخرى. واكتشفت فى دهشة وكدر أنها قد تلاشت تمامًا. كانت المياه قد غمرت رأسها. بدا الأمر كأنها أبدًا لم تبعث فىّ الألم والشفقة والتى كنت أقولها لنفسى دائمًا، سوف تعيش. ربما وقد تحولت إلى أشكال أخرى تعيش ظافرة إلى الأبد، لقد أبليتها كما يبلى المرء زوجًا من الجوارب القديمة. إن مسلك هذا الاختفاء قد أدهشنى وصدمنى. هل يمكن «للحب» أن يبلى هكذا؟ «ميليسا»، قلت مرة أخرى، وأنا أسمع صدى الكلمة المحببة فى الصمت. اسم عشب عطرى حزين، اسم حاج

إلى اليوسيس. هل تَقل هى الآن عن أريج أو شذى؟ هل كانت مجرد صلة أدبية، صلة بكتاب أو فهرس كتاب، صلة كالخربشة على حواشى قصيدة من الدرجة الثانية؟ وهل ذوبها حبى فى هذا النمط الغريب، أم هل كان الأدب فقط هو ما حاولت استخلاصه منها؟ الكلمات. حَمّام الكلمات اللاذع! وأحسست بالجرم. بل حاولت (بهذا الخداع الدفين للنفس، والذى هو أمر طبيعى للغاية عند من تتحكم فيهم عواطفهم) أن أفرض عليها عودة الظهور بفعل إرادى، أن أعيد استدعاء قبلة واحدة من قبلات بعد الظهر تلك، والتى كانت بالنسبة لى، ذات مرة، حصيلة معانى المدينة العديدة. بل حاولت عامدًا أن أعصر الدموع من عينىّ، أن أنيم ذاكرتى مغناطيسيًا، بتكرار ذكر اسمها كالتعويذة. ولم تثمر التجربة شيئًا. كان اسمها قد بلى تمامًا! كان مثيرا للخجل حقا ألا أكون قادرا على إغداق أضأل قدر من العطاء على هذه التعاسة الغامرة. نعم سمعت صوت بورسواردن اللاذع كقرع جرس بعيد وهو يقول: «إلا أن تعاستنا قد أرسلت إلينا كوليمة،كان علينا أن نعربد فيها، وأن نستمتع بها حتى الثمالة». كانت ميليسا، فى بساطة، واحدة من أردية الحب العديدة!

استحممت، وغيرت ثيابى، عندما وصل بومبال على عجل لغذاء مبكر، وقد امتلأ بسرور متقطع بسبب حالته العقلية الجديدة العجيبة. كانت فوسكا، وهى سبب تلك الحالة، لاجئة متزوجة من ضابط بريطانى. «كيف حدث مثل ذلك التفاهم العاطفى المفاجئ؟». إنه لا يعرف. ووقف لينظر إلى وجهه فى المرآة المعلقة: «إننى من آمن بأشياء كثيرة عن الحب». استمر يخاطب صورته فى المرآة بكآبة بينما يمشط لحيته بأصابعه، «إلا أننى لم أؤمن أبدا بشىء كهذا. ولو حدث منذ عام، أن قلت أنت ما أقوله أنا الآن لقلت لك بوف، إنها فى بساطة بذاءة إيطالية ـ نفاية من العصور

الوسطى. لقد اعتدت أن أفكر أن كبح الشهوة غير صحى من الناحية الطبية، حتى إن ذلك الشيء الملعون يمكن أن يضمر أو يتساقط إن لم يستخدم كثيرًا. والآن انظر إلى صديقك الشقى، الصديق الذى يفتقد السعادة! إننى أحس بنفسى مقيدًا مكممًا بوجود ذات فوسكا. اسمع، لقد جاء كيتس من الصحراء وخرجنا معًا وشربنا حتى ثملنا. أخذنى إلى حانة جولفو. كانت فى أعماقى رغبة ـ نوع من التجربة ـ أن أضاجع غانية. لا تضحك. فقط لأرى ماذا حل بمشاعرى. وشربت خمسًا من كئوس الأرماجناك(*) لأنعشها. وأحسست أننى قد حققت ما أردت نظريًا. حسنا قلت لنفسى، سوف أشرخ هذه العذرية. سوف أزيل بكارة(**) هذه الصورة الرومانسية مرة وإلى الأبد، وإلا أخذ الناس فى الكلام والحديث بأن بومبال العظيم إنما هو خصى. ولكن ماذا حدث؟ أمسك الذعر بى. كانت مشاعرى صماء عمياء مثل برميل من دم. إن منظر كل هؤلاء الفتيات قد جعلنى أتذكر فوسكا بالتفصيل. كل شيء حتى يداها فى حجرها وهى تحيك. أصابنى البرود كمن وضعت دندرمة فى ياقته. أفرغت ما فى جيوبى فوق المائدة وهربت فى سرعة، وسيل من نداءات القطط يلاحقنى من أصدقائى القدامى. كنت بالطبع أسب. لم يكن ذلك ما تتوقعه فوسكا. كلا، إنها تقول لى. اذهب مباشرة واحصل على فتاة إن كان عليك أن تفعل ذلك. ربما كانت هذه الحرية بذاتها هى التى تحتفظ بى داخل السجن؟ من يدرى؟ إن هذا لغز تام بالنسبة إلىّ. إنه لمن الغريب أن هذه الفتاة تجذبنى من شعرى إلى سبل الشرف، هكذا، وهى أماكن غير مألوفة لى».

وهنا خبط نفسه برقة فوق صدره فى حركة تأنيب وتبكيت ممزوجة

(*) براندى فرنسى ـ المترجم.

(**) بالفرنسية فى الأصل.

بنوع من الشعور بالصواب المشكوك فيه. وجاء ليجلس مرة أخرى وهو يقول فى كآبة:

«أنت ترى أنها حبلى من زوجها، ويمنعها إحساسها بالشرف من خداع رجل فى الخدمة العامة، رجل يمكن أن يموت فى أى وقت، خاصة أنها تحمل طفله فى أحشائها».

وأكلنا معًا لدقائق معدودة، ثم انفجر: «ولكن ماذا علىّ أنا أن أفعل بمثل تلك الآراء؟ أخبرنى لو سمحت. إننا فقط نتحدث معًا ومع ذلك ففى هذا ما يكفى». كان يتكلم وفى صوته لمسة احتقار لذاته.

«وماذا عنه؟».

وتنهد بومبال: «إنه رجل طيب وعطوف للغاية، له تلك الرقة التى هى سمة قومية، والتى اعتاد بورسواردن أن يقول عنها: إنها نوع من الاضطراب العصبى الجبرى، والذى نتج عن حالة الضجر التى تثيرها الحياة الإنجليزية، التى تبعث على الانتحار! إنه أنيق، مرح يتحدث لغات ثلاثًا. ومع ذلك فإنه ليس بالضبط باردًا، لكنه فاتر (*)، أعنى فى مكان ما من طبيعته الداخلية. إننى لست متأكدًا إن كان نموذجيًا فى ذلك أم لا؟ إنه يجسد، على أى حال، تصورات عن الشرف يمكن أن تكون مفخرة لتروبادور (**) إن هذا لا يعنى بالطبع، أننا نحن الأوروبيين نفتقد الشرف، لكننا لا نشدد على الأشياء بطريقة غير طبيعية. أعنى أن الانضباط الذاتى يجب أن يكون أكثر من الإذعان لنمط ما من السلوك. إننى أبدو مرتبكًا. نعم، إن أفكارى مرتبكة قليلًا فيما يختص بعلاقتهما. أعنى شيئًا ما كالتالى:

(*) بالفرنسية فى الأصل.

(**) شاعر ينشد الشعر الوجدانى، ظهر فى القرن ١١ حتى القرن ١٣ فى جنوب فرنسا وشمال إيطاليا ـ المترجم.

إنه يؤمن حقًا فى أعماق خيالاته القومية أن الأجانب غير قادرين على أن يكونوا أوفياء فى الحب. ومع ذلك فهى صادقة وأمينة مع نفسها. إنها لا تقدم على فعل إلا إن كان مواتيًا لها بصورة طبيعية، دون انفعال زائف بالشكل. إنها تتصرف طبقا لأحاسيسها. إننى أعتقد أنه لو كان يحبها حقا بالمعنى الذى أقصده، لما ظهر دوما كمجرد متفضل بإنقاذها من وضع يصعب احتماله. إننى أعتقد، أنه فى مكان ما فى داخلها، رغم أنها لا تعى ذلك، هنالك إحساس بالظلم يتأجج إلى حد ما، إنها مخلصة له... كيف؟ فى كبرياء إلى حد ما؟ لا أدرى. لكنها تحبه بالفعل بهذا النمط الوحيد الذى يسمح به. إنها فتاة رقيقة المشاعر. لكن ما هو غريب أن حبنا، الذى لا يشك فيه أىّ منا، والذى تبادلنا الاعتراف به وقبوله، قد تلون بطريقة غريبة بهذه الأوضاع. وإن كان هذا الحب قد جعلنى سعيدًا، إلا أنه جعلنى أيضًا غير متيقن من نفسى إلى حد ما. إننى أغدو غاضبًا ثائرًا فى بعض الأحيان. إننى أحس أن حبنا قد بدأ يحيطه الجو الذى يحيط بالتكفير والتوبة. إننى أتساءل إن كان حب فتاة لبقة لطيفة يجب أن يكون هكذا. إنه أيضًا فارس(*) من الطبقة الوسطى، عاجز عن إيقاع الألم، كما هو عاجز عن منح المتعة الجسدية كما يجب القول. ومع ذلك فهو أيضًا رقيق يفيض حنانا واستقامة. إلا أن هذا هراء فالمرء لا يستطيع أن يحب شرعا دون إحساس بالعدالة، هل يمكن للمرء أن يفعل ذلك؟ إنه فى مكان ما، على امتداد علاقتهما، يخيب ظنها دون أن يعى هذه الحقيقة. كما أعتقد أنها لا تدرك ذلك بأى حال، بعقلها الواعى. إلا أنهما عندما يكونان معًا، فأنت تحس أنك فى حضرة شىء ما غير مكتمل، غير متماسك، مجرد اثنين تلحمهما التقاليد والأخلاق الحميدة. إننى أدرك ما لكلامى من صدى قاس، لكننى أحاول وصف ما أراه بالضبط. وما خلا ذلك، فنحن صديقان جيدان، كما أننى

(*) بالفرنسية فى الأصل.

فى الحقيقة أحبه بالفعل. وهو عندما يأتى فى إجازة، فإننا نخرج معًا نحن الثلاثة نتعشى ونتحدث فى السياسة! أوف!».

واستند إلى الخلف فى مقعده، مرهقًا من جراء العرض الذى قدمه. تثاءب فى قوة قبل أن ينظر فى ساعته. استمر مستسلما، «إننى أعتقد أنك سوف تجد كل ذلك غريبا للغاية، أعنى الرؤى الجديدة للناس، إلا أن كل شىء هنا يبدو غريبًا، ؟! ليزا، شقيقة بورسواردن، مثلا، أنت لا تعرفها؟ إنها ضريرة. يبدو لنا جميعا أن ماونت أوليف يجن بها حبا. لقد جاءت أساسا لتجمع أوراقه، ولتجد مادة لكتاب يكتب عنه. هذا ما يقال ويدعى. لقد أقامت، على أى حال، فى السفارة منذ ذلك الحين. إنه عندما يكون فى القاهرة، أداء لأعماله، يزورها فى نهاية كل أسبوع! إنه يبدو الآن تعسًا، بصورة ما، ربما أكون أنا أيضًا كذلك؟» ثم نظر إلى المرأة مرة أخرى، وهز رأسه فى حسم. كان يبدو عليه أنه ليس كذلك. «حسنا»، قال فى تواضع: «من المحتمل أن أكون مخطئًا».

دقت الساعة الموضوعة فوق رف المدفأة، فوقف فى عجلة. قال: «يجب أن أعود إلى المكتب، فهنالك مؤتمر سينعقد. ماذا عنك؟». أخبرته عن مشروعى إلى كرم أبو جيرج. صفر ناظرًا إلىّ فى حدة: «سوف ترى جوستين ثانية، إه؟». فكر للحظة ثم هز كتفيه مرتابًا: «إنها معتكفة الآن، أليست كذلك؟ لقد حدد «ممليك» إقامتها فى المنزل، لم يرها أحد منذ سنين. إننى لا أعرف ما الذى أوقع بنسيم أيضًا؟ لقد تقطعت علاقتهما بماونت أوليف تمامًا، وباعتبارى موظفا فإننى يجب أن أتبع موقفه. وهكذا فإننا لا نحاول حتى التلاقى، أعنى حتى لو كان مسموحًا بذلك. إن كليا تراه فى بعض الأحيان. إننى آسف لنسيم. عندما كان فى المستشفى لم تستطع الحصول على تصريح لزيارته. إن الأمر يبدو أشبه بأرجوحة الملاهى. أليس كذلك؟ أشبه بما يجرى فى بول جونز. زملاء رقص جدد حتى تتوقف الموسيقى! إلا أنك سوف تعود، وتشاركنى هذا المكان، أليس

كذلك؟ إذن سأخبر حميد. يجب أن أذهب. حظًا طيبًا» كان فى نيتى أن أنام قيلولة قصيرة قبل أن تأتى السيارة، إلا أن إرهاقى كان قد بلغ حدا جعلنى أغرق فى نوم ثقيل لحظة أن لمست رأسى الوسادة. ربما كنت أنام طوال يوم لو لم يوقظنى السائق. جلست نصف فاقد الوعى فى السيارة المألوفة لى أراقب أراضى البحيرات، كما أتصورها، تنمو حولى بأشجار النخيل والسواقى، مصر التى تعيش خارج المدن، قديمة، خلوية، خلف خمار من سراب وضباب. وأخذت تتحرك الآن الذكريات القديمة، بعضها رقيق يبعث السعادة، والبعض قاس مثل آثار جراح، ندوب العواطف القديمة التى يجب علىّ أن أطرحها جانبا فى القريب العاجل. كانت الخطوة الأولى الآتية هى مواجهة جوستين مرة أخرى. هل ستساعدنى أم تعوق مهمتى للتحكم فى تلك «الذخائر الحساسة» الثمينة وتقييمها، كما يسميها «كوليردج»؟ كان من الصعب معرفة ذلك. وأخذت أشعر بالقلق والترقب يتسابقان كفرسى رهان مع كل ميل تقطعه السيارة. إنه الماضى!

* * *

(٢)

أراض عتيقة على حالها، لم تمس منذ كانت فيما قبل التاريخ - بحيرات في خلوتها، بالكاد مستها خطا القرون المتعجلة، حيث سلالات البجع وإيبس والبلشون الأصيلة المتصلة تبسط أقدارها البطيئة في عزلة تامة. وقطع من رقع برسيم أخضر في لون الجوخ تموج بالحيات وسحابات الناموس. مساحة أرض خالية من الطيور المغردة، ورغم ذلك مليئة بالبوم والهدهد والقاوند الذي يصيد بالنهار، يتغذى، يمتلئ باللحم على ضفاف الممرات المائية السمراء النحاسية. قطعان من كلاب نصف وحشية تبحث عن زادها. الجاموس معصوب العينين يدير السواقي في ظلام أبدي. المقامات والزوايا الصغيرة القائمة في الأراضي على جانبي الطريق والمبنية من الطين، وقد فرشت أرضياتها بالقش الطازج حيث يستطيع المسافر التقي الورع أن يجد مكانا للصلاة أثناء ترحاله. مصر! الأوزة المجنحة تبحر في سرعة وسط طوفان المياه. وصوت آدمي يغني في تلكؤ مقطعا من أغنية. وفرقعة الريح في الأذرة الشامية تنقر أوراقها الخشنة. والطين السائل تفجره عواصف الأمطار، في جو مشحون بالتراب، فيلقي بالسراب في كل مكان، مما يسلب القدرة على الرؤية. كتلة طين تنتفخ إلى حجم رجل، والرجل إلى حجم كنيسة. وفلقات كاملة من السماء والأرض تتزحزح، تتفتح كما ينفتح الغطاء، أو تميل على جانبها حتى تنقلب رأسا

على عقب. قطعان ماشية تسير داخلة خارجة، من تلك المرايا الملتوية، تظهر، تختفى، تستحثها صرخات مرتعشة صادرة عن ألوف من رعاة غير مرئيين. ملتقى هائل لصور خلوية ريفية من التاريخ المنسى للعالم القديم والتى لا تزال تعيش جنبا إلى جنب مع تلك التى ورثناها. سحابات نمل فضى الأجنحة تطفو لتلتقى، تتوهج، فى ضوء الشمس. صدى قعقعة حوافر الخيل على الأرضيات الطينية لهذا العالم المفقود، تبدو أشبه بنبضات عقل يسبح بين تلك الحجب وأقواس قزح الذائبة.

وهكذا أخيرا فإنك وقد سرت تتبع منحنيات الجسور الخضراء، تصل إلى منزل مبنى بالعرض فوق تقاطع القنوات البنفسجية، وقد ثبتت بقوة ضلف شبابيكه الخشبية المشققة الباهتة. حجراته معلق على جدرانها تذكارات دراويش، دروع وتروس، رماح مخضبة بالدماء، وطنافس رائعة. الحديقة موحشة، ليس هنالك من يرعاها. فقط الشخوص الصغيرة تتحرك بأجنحتها السيلوليدية ـ خيالات هائمة تحرس المكان من العين الشريرة. صمت عادات أوقف استعمالها تماما. إلا أن كل ريف مصر يشارك حينئذ فى هذا الاكتئاب النفسى بسبب كونه مهجورا، مسموحا له أن يبذر البذور، أن يخبز ويتشقق، أن يتعفن تحت الشمس النحاسية.

استدرنا أسفل قوس نقرقع فوق حصى الباحة المظلمة. هل ستكون تلك نقطة فراق جديدة، أو عودة لنقطة البداية؟

من العسير أن يعرف المرء ذلك.

* * *

(٣)

وقفت على أعلى نقطة فى السلم الخارجى تنظر إلى أسفل فى الباحة المظلمة، أشبه بخفير أو حارس، تمسك فى يدها اليمنى بشمعدان يلقى بدائرة من الضوء الباهت حولها. وقفت ساكنة تماما وكأنها تمثل دورًا فى لوحة حية. بدا لى أن النغمة التى نطقت بها أسمى، من البداية، كانت مسطحة مترددة عن عمد. ربما يعكس ذلك حالة ما عقلية غريبة فرضتها هى على نفسها، أو ربما لأنها لم تكن متيقنة أنه أنا. كانت تسائل الظلام. تحاول أن تستخرجنى من داخله مثل ذكرى ما، عنيدة ومرهقة، انسابت بعيدا عن المكان. أحسست كما يحس امرؤ استيقظ أخيرا من نوم دام قرونا. أحسست وأنا أسير فى بطء وحذر أصعد السلم الخشبى الذى كان يقرقع أن نسمة جديدة من السيطرة على الذات تحوم فوقى. كنت قد بلغت منتصف السلم عندما تكلمت ثانية، وبحدة فى هذه المرة، يشوب نغمة صوتها شىء ما يكاد يكون نذيرًا. «لقد سمعت الخيل ـ أخذت على حين غرة. نثرت عطرا على ردائى. إننى كريهة الرائحة يا دارلى. عليك أن تسامحنى».

بدت أنها قد نحلت كثيرا. تقدمت خطوة إلى رأس السلم وهى تحمل الشمعدان. وضعت بعد أن حملقت فى عينىّ فى قلق قبلة على وجنتى اليمنى. كانت باردة برودة النعى، جافة جفاف الجلد. شممت، عندما

فعلت هى ذاك، رائحة العطر المراق. كانت تطلق منه، حقيقة، موجات نافذة. أوحى شىء ما فى سكون منحاها الذى أرغمت نفسها عليه، بعدم استقرارها داخليا. جالت بعقلى فكرة أنها ربما كانت تشرب الخمر. صدمت، أيضًا، صدمة ضئيلة وأنا أرى أنها قد وضعت بقعة متألقة من الأحمر فوق عظمتى وجنتيها، بدت حادة فى مقابل وجه أبيض بياض الموتى، عليه كمية وافرة من المساحيق. إنها إن كانت لا تزال جميلة فذاك جمال سلبى هامد لمومياء طليت بطريقة خرقاء حتى تعطى وهما بالحياة، أو صورة لونت بألوان خفيفة بطريقة لا مبالية.

«يجب ألا تنظر فى عينىّ» ـ قالت فى حدة بعد ذلك، وبطريقة آمرة. رأيت أن جفن عينها اليسرى يتدلى قليلا، مهددا بتحويل تعبير وجهها إلى شىء أشبه بمن ينظر شزرا بمؤخرة عينه. كان الشىء الأكثر وضوحا هو ابتسامة الترحيب التى حاولت تبنيها فى هذه اللحظة، «هل تفهم؟» وأومأت برأسى. تساءلت إن كان المسحوق الأحمر قد صمم خصيصا لجذب الانتباه بعيدا عن ذلك الجفن المتدلى؟ «لقد أصابتنى ضربة»، قالت هامسة وكأنها تشرح الأمر لنفسها. وبدت وهى واقفة ساكنة أمامى، تحمل الشمعدان، كأنما تستمع إلى صوت آخر. أخذت يدها، ووقفنا معا هكذا لحظة طويلة، يحملق الواحد منا فى الآخر.

«هل تغيرت كثيرا؟».

«أبدًا».

«بالقطع تغيرت لقد تغيرنا جميعًا». كانت تتحدث الآن فى صراخ يفيض بالازدراء. رَفَعَت يدى ووضعتها على وجنتها. أومأت حائرة. استدارت تشدنى إلى الشرفة، تسير فى خطا متيبسة متعالية. كانت ترتدى ثوبا من التفتاه الداكنة، يصدر هسيسًا عاليًا، عند كل حركة تتحركها.

كان ضوء الشموع يقفز، يتراقص فوق الجدران. ووقفنا أمام باب قاتم ونادت: «نسيم»، فى نغمة حادة صدمتنى. كانت النغمة التى ينادى بها المرء خادما، وظهر نسيم بعد لحظة من حجرة النوم التى تكتنفها الظلال، مطيعا كجنى.

«دارلى هنا»، قالتها بطريقة من يقوم بتسليم ربطة من الربطات، وهى تضع الشمعدان فوق منضدة واطئة واضطجعت فى سرعة فى مقعد طويل من أغصان مجدولة واضعة يدها فوق عينيها.

كان نسيم قد غير ملابسه، وارتدى بذة مفصلة بطريقة أكثر ألفة. جاء يومئ برأسه ويبتسم لى بذلك التعبير العاطفى القلق الذى اعتدته منه، ومع ذلك فقد كان، مرة أخرى، مختلفا بصورة ما. كان يحيط به جو من يروعه تهديد ما، يصوب نظرات جانبية وتحتية نحو شخص جوستين، تحدث فى رقة كما يتحدث المرء فى وجود شخص نائم.

هبط الارتباك علينا فجأة ونحن نجلس فى تلك الشرفة الظليلة، نشعل السجائر. وأمسك بنا الصمت إمساكة ترس لا يعمل.

«إن الطفلة فى السرير، مبتهجة بالقصر كما تدعوه، وبوعد منى أن أحضر فرسا تمتلكه، أعتقد أنها سوف تكون سعيدة».

وفجأة تنهدت جوستين فى عمق دون أن تزيح يدها من فوق عينيها. قالت فى بطء «إنه يقول إننا لم نتغير».

ابتلع نسيم ريقه واستمر، كأن لم يسمع مقاطعتها، بنفس الصوت الخفيض، «لقد كانت تريد البقاء مستيقظة حتى تأتى، إلا أنها كانت متعبة للغاية».

ومرة أخرى قاطعت المضطجعة فى الركن الظليل، قالت: «لقد

عثرت على غطاء رأس ختان ناروز فى الصوان، رأيتها تحاول ارتداءه». وأطلقت ضحكة قصيرة حادة أشبه بالنباح. ورأيت نسيم يجفل فجأة ويدير وجهه بعيدًا.

«لدينا نقص فى الخدم»، قال فى صوت منخفض، وفى سرعة، كأنما ليسد ثقوب الصمت التى صنعتها ملاحظتها الأخيرة.

اتسم الجو الذى يحيط بارتياح واضح تماما، عندما ظهر «على» ودعانا إلى العشاء. تناول الشمعدان وقادنا إلى المنزل. كان لهذا المشهد نكهة الجناز ـ الخادم فى المقدمة بجلبابه الأبيض وحزامه القرمزى، يمسك عاليا بالشمعدان حتى ينير طريق جوستين والتى كانت تسير يحيط بها جو من الاستغراق الذهنى، من النأى والبعد، كنت أتبعها، ونسيم خلفى عن كثب: هكذا سرنا فى طابور مفرد عبر الطرقات غير المضاءة، خلال حجرات عالية الأسقف، وقد غطيت جدرانها بالسجاد المترب، وأرضياتها بألواح خشب خشنة تزيق تحت أقدامنا. وأخيرا وصلنا إلى حجرة منسية، يمكن القول إنها كانت فى قصر عبد الحميد الشتوى، ستائر نوافذها المنقوشة مزينة بخيوط فضية وذهبية، تطل على حديقة زهور مهجورة. هنا كان ضوء الشموع بظلاله المثيرة نموذجيا كإضافة لما بها من أثاث، كان فى ذاته لافتا للانتباه. كان يمكن للألوان الذهبية والحمراء والبنفسجية أن تبدو غير محتملة إن رؤيت فى الضوء الكامل، إلا أنها بدت فى ضوء الشموع رائعة بصورة قاهرة.

جلسنا إلى مائدة العشاء وتنبهت مرة أخرى للتعبير الذى يكاد يكون روعا على وجه نسيم، بينما يحملق حوله. ربما لم تكن تلك هى الكلمة المناسبة. كان كأنه يتوقع انفجارا مفاجئا. يتوقع تعنيفا لا يمكن التنبؤ بمحتواه ينفجر من شفتيها. كان عقليا معدا لرده وصده، لاتقائه بأدب

رقيق. إلا أن جوستين تجاهلتنا. كانِ همها الأول أن تصب كأسا من النبيذ الأحمر، ترفعه إلى الضوء كأنما تتثبت من لونه، ثم تصوبه نحو كل منا بدوره مثل علم، وتحتسيه فى دفعة واحدة قبل أن تضع الكأس على المنضدة. إن لمسات المسحوق الأحمر أضفت عليها نظرة مشتعلة، بالكاد تضاهيها نظرتها نصف الناعسة المخدرة. كانت أصابعها مدهونة بالذهبى المصقول، وقد وضعت كوعيها فوق المائدة، وسندت ذقنها للحظة طالت وهى تتفحصنا فى حدة، الواحد منا تلو الآخر. تنهدت وكأنها مفعمة بالقرف والاشمئزاز قالت: «نعم لقد تغيرنا جميعًا»، ثم استدرات كمن يوجه اتهاما، ودفعت بإصبعها كالطعنة نحو زوجها وقالت: «لقد فقد إحدى عينيه».

وتجاهل نسيم هذا عمدا، دافعا نحوها بنوع مما على المائدة من طعام، ليشدها بعيدا عن هذا الموضوع الموجع. تنهدت ثانية وقالت: «دارلى، أنت تبدو أفضل بكثير، إلا أن راحتيك مشققتين متصلبتين لقد أحسست بهما فوق وجنتى».

«أعتقد من قطع الأخشاب».

«أه، هكذا! إنك تبدو بحالة جيدة. جيدة جدًا».

(تحدثت بعد أسبوع إلى كليا قالت لها: «يا إلهى لقد غدا خشنا للغاية. إن القدر الضئيل من الإحساس والشعور الذى كان لديه، قد غرق فى وحل الفلاح»).

وسعل نسيم، فى هذا الصمت فى عصبية، متحسسا العصابة السوداء فوق عينه. كان من الواضح أنه يشمئز من النغمة التى تشوب صوتها، يرتاب فى ثقل الجو الذى يمكن أن يحس المرء به، يتنامى تحته فى بطء مثل تموج الأمواج، ضغط كراهية غدا أحدث العناصر التى استجدت

فى حديثها وسلوكها. هل تحولت حقا إلى امرأة سليطة؟ هل غدت مريضة؟ كان من العسير أن تنبعث من الماضى صورة تلك العشيقة السمراء الساحرة، والتى كانت كل حركة منها أو إيماءة، مهما كانت غير سديدة أو أسىء تقديرها، تطن بروعة كرم فياض متجدد لا ينضب. كانت تقول فى صوت أجش، «إذن فأنت تعود لتجدنا جميعا محبوسين فى كرم أبو جيرج، مثلنا مثل أرقام فى دفتر حسابات الديون السيئة، يا دارلى، نحن فارون من العدالة. إه، يا نسيم؟».

لم يكن هناك ما يقال ردًا على مثل تلك الهجمات المرة. تناولنا الطعام فى صمت فى ظل خدمة الخادم العربى الهادئة. خاطبنى نسيم مبديا ملاحظة عابرة عاجلة عن موضوع لا علاقة له بشىء، ملحوظة قصيرة وحيدة المقطع. وأحسسنا، لتعاستنا، بالصمت ينزح من حولنا يفرغ مثل خزان هائل. قريبا سوف نترك هناك مغروسين مثل صور منحوتة على نصب تذكارى. عاد الخادم ومعه ترموسان ولفة طعام وضعها عند نهاية المنضدة. واشتعل صوت جوستين فى سخرية وهى تقول، «إذن فأنت خارج الليلة مرة أخرى؟».

وأومأ نسيم خجلا، قال: «نعم فأنا فى الوردية الثانية». وجلى زوره وهو يتحدث إلى مضيفا، «إنها فقط أربع مرات فى الأسبوع. إنها تمنحنى شيئا ما أؤديه». «شىء ما يؤديه» قالت فى سخرية واضحة، «إن فقده عينه وإصبعه يمنحه شيئا ما يؤديه. قل الحقيقة يا عزيزى. قل الحقيقة يا عزيزى، إنك سوف تفعل أى شىء لتذهب بعيدًا عن هذا المنزل». ثم قالت وهى تستند إلى الأمام نحوى، «ليذهب بعيدًا عنى يا دارلى، إننى أكاد أدفعه بمشاجراتى إلى الجنون. هذا ما يقول». كانت، وهى فى سوقيتها تلك، مثيرة للإرباك بصورة بشعة.

أحضر الخادم ملابس عمله وقد ضغطت وكويت بعناية. نهض نسيم معتذرا بكلمة وابتسامة. تركنا بمفردنا. صبت جوستين لنفسها كوبا من النبيذ. أثارت دهشتي عندما غمزت بعينها. قالت وهي ترفعه إلى شفتيها: «سوف تكتشف الحقيقة».

«كم مضى عليكم وأنتم محبوسون هنا»؟ تساءلت.

«لا تتحدث في هذا الأمر».

«ولكن أليس هنالك من سبيل؟»).

«إنه يدبر لهرب جزئي، لست أنا جزءا منه. اشرب يا دارلي، اشرب يا دارلي».

واحتسيت النبيذ في صمت. وظهر نسيم، مرة أخرى، بعد وقت قليل، وقد ارتدى زيه الخاص بالعمل. بدا واضحا أنه على استعداد لنوبته الليلية. ووقفنا جميعا كأننا على اتفاق بذلك. وقادنا الخادم، مرة أخرى، عودة إلى الشرفة في موكب كئيب. كان أحد الأركان أثناء غيابنا، قد فرش بالسجاجيد والدواوين، بينما وضعت فوق المناضد شمعدانات أخرى ومواد تصدر دخانا. كان الليل ساجيا ساكنا، يكاد يكون فاترا. شعلات الشموع لا تكاد تتحرك. أصوات البحيرة الكبرى تفيض علينا آتية من الظلام الخارجي، قال نسيم في عجلة: «وداعا». وسمعنا الوقع المتضائل لحوافر الجواد وهي تتلاشى تدريجيا بينما يأخذ الطريق إلى مخاضة النهر. أدرت رأسي، نظرت إلى جوستين كانت ترفع معصميها نحوي، وعلى وجهها تقطيبة منحوتة، وقد أبقتهما ملتصقين معا كأنهما مقيدان بأصفاد غير مرئية. ظلت تعرض هذه الأغلال الخيالية للحظة طويلة قبل أن تسقط يديها ثانية في حجرها. وفجأة عبرت، في سرعة الحية، إلى الديوان حيث كنت أرقد، لتجلس عند قدمي ، وهي تقول، بينما تفعل ذلك، وفي صوت مرتعش يتسم بالندم

والاستياء، «لماذا يا دارلى؟ أوه، لماذا؟» بدت وكأنها لا تستجوب القدر أو المصير فقط، ولكن أفعال الكون ذاتها، فى تلك النغمات المثيرة اللاذعة. وكاد يبرق بعض من جمال قديم فى هذا الشوق ليركبنى كالصدى. إلا أن هذا العطر الذى تستخدمه! كان العطر المنثور، على مثل هذا القرب، قويا متسلطا يكاد يكون مقززا.

ومع ذلك، تلاشى فجأة ما نحسه من توتر. فى النهاية، أصبحنا قادرين على تبادل الحديث. بدا وكأن هذا الفوران العاطفى قد فجر فقاعة الفتور التى كانت تحيط بنا جميعا هذا المساء. صاحت فى صوت يكاد يكون ظفرا، «أنت ترانى واحدة مختلفة، «إلا أن الاختلاف يكمن، مرة أخرى، فيك أنت، فيما تتخيله، فيما تراه!» وخشخشت كلماتها مثل زخة تراب ألقى بها فوق تابوت فارغ. «كيف بك لا تحس بالامتعاض منى؟ أن تغفر مثل تلك الخيانة بمثل هذه البساطة ـ لماذا ـ إن هذا موقف يتسم بالتخنث. ألا تكره مصاصة الدماء تلك؟ ذاك أمر غير طبيعى. إنك لم تدرك أبدا حاسة الإذلال عندى وأنا غير قادرة على أن أمتعك، أمتعك أنت يا عزيزى بكنوزى الداخلية التى جبلت عليها كعشيقة. ومع ذلك، فإننى فى الحقيقة، كنت أستمتع بخداعك، يجب ألا أنكر ذلك. لكن كان هنالك أيضا شعور بالأسف، فقط لتقديم صورة زائفة لحب يرثى له. (ها! تلك الكلمة مرة أخرى) والذى قوضه الغش والخداع. إننى أعتقد أن هذا، مرة أخرى، خيانة لزهو الأنثى الذى لا قرار له، أن ترغب فى أسوأ ما فى عالمين، فى كلمتين ـ الحب والخداع. ومع ذلك، فإنه من الغريب الآن، وقد عرفت أنت الحقيقة، أننى غدوت حرة فى أن أقدم لك عواطفى، أن أحس فقط بمزيد من احتقار الذات. هل أنا امرأة بحق لأحس أن الإثم الحقيقى ضد الروح القدس هو عدم الوفاء فى الحب؟ ولكن أى ادعاء هذا الأشبه بالقمامة؛ فالحب بطبيعته الخاصة لا يسمح بالوفاء».

وهكذا استمرت، لاتكاد تضع وجودى فى اعتبارها، تناقش حياتى بعيدًا عنى، تنتقل فى استغراق أعلى وأسفل خيوط عنكبوت سخريتها الخاصة، تخلق صورا تضرب، فى الحال، أعناقها أمام عينىّ. ما الذى تأمل فى إثباته؟ ثم وضعت رأسها فوق ركبتى لفترة قصيرة وقالت، «والآن وأنا حرة فى أن أكره أو أحب، فإنه يبدو من الهزل أن أغضب فقط لقدرتك الجديدة على امتلاك ذاتك. لقد أفلت منى فى مكان ما، ولكن ماذا على أن أتوقع غير ذلك؟».

كان ذلك حقيقيا، يتسم بالغرابة، على نحوما. إذ إننى لدهشتى أحس الآن بالقدرة على جرحها وإيلامها لأول مرة، أو حتى إخضاعها تماما بما أبديه من لا مبالاة. قلت «إننى رغم ذلك، لا أحس، حقيقة، بأى استياء من الماضى، بل على عكس ذلك، أحس بالامتنان، إذ إن تجربة ربما كانت عادية ومألوفة(وربما كانت مقززة بالنسبة إليك)، كانت بالنسبة لى إثراء بلا حدود»! واستدارت بعيدًا. قالت فى صوت أجش: «إذن، فكلانا يجب الآن أن يضحك».

جلسنا معًا نحملق فى الظلام مدة طويلة. انتفضت، أشعلت سيجارة، استعادت خيط مونولوجها الداخلى، «إجراءات الفحص الطبية، لجثة مالم ينجز من أشياء! إننى أتساءل، ماذا كان فى وسعك أن ترى فى كل ذلك؟ إننا رغم كل شىء، نجهل بعضنا البعض تماما. إننا نقدم لبعضنا البعض قصصا خيالية منتقاة! إننى أعتقد أننا جميعا نراقب بعضنا البعض بنفس القدر الهائل من الجهالة. لقد اعتدت فى لحظات إحساسى بالذنب، فيما بعد بمدة طويلة، محاولة تصور أنه فى مقدورنا أن نصبح، يوما ما، عشاقا مرة أخرى، ولكن على أسس جديدة. أية مهزلة! لقد تصورت نفسى أعوضك، أكفر عن خداعى وأدفع دينى لكننى كنت أعرف أنك تفضل دوما صورتك الخيالية الخاصة تأطرها الحواس الخمس، تفضل ذلك

عن أى شيء أكثر صدقا. أخبرنى الآن إذن من منا كان الكذوب الأكبر؟ لقد خدعتك وخدعت أنت نفسك».

هذه الملاحظات، والتى كان يمكن، فى وقت آخر، وفى سياق آخر، أن تسحقنى سحقا، كانت الآن، وعلى نحو جديد، غاية فى الحيوية بالنسبة لى. «مهما كان الطريق شاقا، فالمرء مجبر فى النهاية على الوصول إلى اتفاق مع الحقيقة»، كتب بورسواردن فى مكان ما. نعم لقد اكتشفت، على غير توقع، أن الحقيقة تزدهر. الرذاذ البارد لموجة تقرب المرء دوما من التعرف على ذاته. إننى أرى الآن جوستين الخاصة، كانت فى الحقيقة خلقًا وهميا، قام على درع واق باطل من الكلمات والأفعال والإيماءات التى أسيء تأويلها. حقا، ليس هنالك من يلام هنا. كان الآثم الحقيقى هو حبى الذى ابتكر صورة يتغذى عليها، كما لم يكن هنالك أى تساؤل عن عدم الوفاء، إذ لونت الصورة طبقا لحاجيات الحب الذى اخترعها. العشاق، مثل الأطباء، يلونون دواء كريه المذاق حتى يجعلوا ابتلاعه أيسر على من يسهل خداعه. كلا لم يكن هنالك من وسيلة أخرى. لقد أدركت هذا تماما.

هنالك شيء آخر أشبه بالاستيعاب التام. لقد رأيت أيضا أن العشاق والمعشوقين، المراقِبون والمراقَبون يلقى كل منهم بنطاق حول الآخر. «إن القدرة على الفهم تتشكل مثل العناق والسم يدخل مع العناق»، كما كتب (بورسواردن). إنهم يستخلصون بعد ذلك خصائص حبهم، يحكمون عليه من خلال هذا النطاق الضيق بحواشيه الهائلة عن المجهول (انكسار ـ الضوء)، ثم يتقدمون ليحولوه إلى وجهة نظر معممة لشيء ثابت فى مناقبه وسجاياه، عالمى فى فعاليته وقوته. كم كان هذا الدرس ذا قيمة لكل من الفن والحياة! لقد كنت أشهد فقط، فى كل ما كتبت، على صحة قوة الصورة التى ابتدعتها أنا لا إراديا، بتأثير مجرد رؤية جوستين. لم يكن

هنالك تساؤل عما هو حقيقى أو باطل. حورية؟ إلهة؟ مصاصة دماء؟ نعم، لقد كانت كل ذلك معا، كما لم تكن أى شىء منها. كانت مثلها مثل كل امرأة، مثل كل شىء شاء عقل الرجل أن يتخيله (دعونا نعرف «الرجل» بأنه مثل الشاعر، يتآمر بصورة أبدية على ذاته). كانت هنالك إلى الأبد، ولم تكن هنالك أبدا. كان هنالك، فقط تحت كل هذه الأقنعة امرأة أخرى، هى كل امرأة، مثل المانيكان الموجودة فى حانوت صانع الثياب، فى انتظار الشاعر الذى يكسوها بالملابس، وينفخ فيها أنفاس الحياة. وبدأت أتعرف فى رهبة، وقد فهمت كل ذلك لأول مرة، على القوة الهائلة الانعكاسية للمرأة ـ الاستكانة المثمرة التى تستعيد بها، مثلها فى ذلك مثل القمر، ضوءا سبق استعماله من شمس الذكر. كيف يمكننى أن أكون أى شىء غير كونى ممتنا لمثل تلك المعلومات الحيوية؟ وماذا تهم الأكاذيب وأعمال الغش والخداع والطيش والرعونة، إن قورنت بهذه الحقيقة؟

ومع ذلك، وبينما هذه المعرفة الجديدة تجبرنى على الإعجاب بها أكثر من أى وقت مضى باعتبارها رمزا للمرأة، كما يمكن القول ـ فقد حرت فى تفسير ذلك العنصر الجديد الذى زحف إلىّ: نكهة تقزز من شخصيتها وسجاياها، العطر! كثافته التى تثير الغثيان، والتى جعلتنى أكاد أكون نصف مريض. لمسة الرأس الداكن لركبتى أثارت فى مشاعرى اشمئزازا غامضا وأحسست بما يكاد يكون إغراء أن أعانقها مرة أخرى حتى أستكشف هذا الشىء الجديد الذى يستبد بها والذى لا تفسير له، حتى أحس بما يمكن أن يكون أبعد من ذلك! هل يمكن أن تكون بعض نقاط المعلومات، التى هى مجرد حقائق أشبه بالرمال التى تنثال فى ساعة العقل الرملية، لتغير بصورة لا رجعة فيها، صفات الصورة ـ محولة إياها من شىء كان مرغوبا ذات يوم إلى شىء يثير التقزز الآن؟ نعم، إنها نفس العملية، نفس عملية الحب بذاتها، هكذا قلت لنفسى كان ذلك هو التحول المخيف الذى

جاء به الحمام ـ اللاذع للحقيقة ـ كما كان يمكن لبورسواردن أن يقول. كنا لا نزال جالسين فى تلك الشرفة بظلالها، سجناء الذكريات، لا نزال نتحدث: وظلت هذه النزعات الجديدة للأنفس، ذلك التضاد لحقائق العقل الجديد، دون تغيير.

أخيرا تناولت مصباحا وعباءة مخملية. سرنا معا، فى تلك الليلة الساكنة حتى بلغنا شجرة نبق(*) كبيرة، فروعها محملة بالنذور. هنا وجد شقيق نسيم ميتا. رفعت المصباح عاليا لتنير الشجرة، وهى تذكر لى أن شجرة النبق هى التى تشكل السياج الدائرى الأكبر من الأشجار التى تحيط بجنة المسلمين. «أما بالنسبة لناروز، فإن موته يعلق ثقيلا فوق نسيم، إذ يقول الناس إنه هو بنفسه الذى أمر بذلك، ويقول القبط كذلك أيضا. لقد غدا هذا الموت بمثابة لعنة أسرية حلت به. إن والدته مريضة، إلا أنها لن تعود أبدا إلى هذا المنزل، هكذا تقول. كما أنه لا يريد عودتها أيضا إنه يغضب بشدة عندما أتحدث عنها إنه يقول: إنه يتمنى موتها! وهكذا فإننا محبوسان هنا معًا. إننى أجلس أقرأ طوال الليل، خمن ماذا أقرأ؟ حزمة كبيرة من رسائل الحب إليها. تركتها خلفها! خطابات حب ماونت أوليف! مزيد من الحيرة والإرباك، مزيد من النواحى التى لم تستكشف بعد!» رفعت المصباح ونظرت عن كثب فى عينىّ: «إلا أن هذه التعاسة ليست مجرد سأم ونكد! هنالك أيضا رغبة فى ابتلاع العالم. لقد كنت أجرب العقاقير أخيرا، تلك المنومة منها».

ثم عودة فى صمت إلى المنزل الكبير بما فيه من حفيف وخشخشة، بروائحه المتربة. «إنه يقول إننا سنهرب ذات يوم ونذهب إلى سويسرا حيث لا يزال لديه هنالك، على الأقل، نقود، ولكن متى، متى؟ والآن

(*) بالعربية فى حروف لاتينية.

ها هى الحرب! لقد قال بورسواردن: إن إحساسى بالذنب ضامر. إن ذلك ببساطة يعنى أننى لا أملك القدرة على تقرير الأمور الآن ولا فى المستقبل. إننى أحس كأن إرادتى قد انتزعت منى، إلا أن ذلك سوف يزول وينتهى». وفجأة أمسكت فى نهم بيدى، قالت: «لكن شكرا لله، فأنت هنا فقط لنتحدث مما يخفف(*) عنى. إننا نقضى معًا أسابيع كاملة دون أن نتبادل كلمة واحدة».

جلسنا مرة أخرى، فى الدواوين التى تنقصها دقة الصنع، فى ضوء الشموع. أشعلت سيجارة ذات طرف فضى، أخذت تسحب أنفاسا قصيرة قاطعة، بينما انساب المونولوج يتمدد عبر الليلة، يتلوى فى الظلام مثل النهر.

«عندما انهار كل شىء فى فلسطين، اكتشفت كل مستودعاتنا وأمسك، بها، واستدار اليهود للتو إلى نسيم يتهمونه بالخيانة، لصداقته لماونت أوليف. كنا فى وضع مخز بين ممليك واليهود المعادين. وطردنى اليهود. حدث هذا عندما رأيت كليا مرة أخرى. كنت فى حاجة ملحة للأخبار، ومع ذلك فإننى لم أستطع أن أثق بها. وجاء نسيم إلى الحدود لأخذى، وجدنى كامرأة مجنونة. كنت يائسة! واعتقد هو أن ذلك يرجع إلى فشل مخططاتنا. كان ذلك بالطبع صحيحا، كان كذلك إلا أنه كان هنالك سبب آخر أكثر عمقا عندما كنا متآمرين، مرتبطين بعملنا، وما يحيق به من مخاطر، أحسست بحق نحوه بالعاطفة، لكن أن أكون سجينة المنزل، مجبرة على أن أقضى معه بمفردى وقتا غبيا، أن أكون فى صحبته... فذلك أمر أعرف أنه سيقتلنى مللا وضجرا. إن دموعى ونحيبى إنما هو أشبه بذلك الذى لامرأة فرض عليها رغم إرادتها، أن ترتدى الخمار إلا

(*) بالفرنسية فى الأصل.

أنك لن تفهم ذلك، فأنت شمالى كيف يمكنك ذلك؟ كيف تقدر على حب رجل حبا كاملا، فى وضع واحد، وحالة نفسية واحدة، هكذا يمكن القول أنت ترى، أنه عندما لا يقوم نسيم بمهمة ما، فإنه لا طعم له البتة، ليس هنالك من تماس بينه وبين نفسه عند أية نقطة. ثم إنه لا يملك نفسا حقيقية حتى يمتع امرأة، حتى يستحوذ عليها. وفى كلمة، فإنه شخص مثالى تماما، يبدو، عندما تستغرقه فكرة القضاء والقدر، رائعا حقا. لقد جذبنى جاذبية ممثل مسرحى ـ جعلنى أستثير لذاتى. ولكن كزميل سجن، فى الهزيمة، فإنه عرضة للضجر، للصداع النصفى، لأفكار مبتذلة تماما مثل الانتحار! وهذا هو السبب فى أننى أنشب، مابين والحين، مخالبى فى لحمه، فى يأس».

«وبورسواردن؟».

«آه، بورسواردن إنه مرة أخرى شىء مختلف. إننى لا أستطيع أن أفكر فيه دون أن أبتسم. هناك كان فشلى من نسق مختلف تمام الاختلاف. لقد كانت مشاعره نحوى ـ كيف يمكننى قول ذلك؟ ـ تكاد تكون فسقا فى المحارم، إن شئت القول، مثل عشق الأخ العزيز الأكبر الفاسد الذى لا يرجى صلاحه. لقد حاولت جاهدة أن أخترق ثقته إلا أنه كان ذكيا للغاية، أو ربما محبا لذاته للغاية. لقد كان يحمى نفسه من حبى، بإثارة ضحكى. ومع ذلك، فقد حققت معه إنجازا، وإن كان محدودا للغاية، لمحة من التعذيب بالأمانى الكاذبة من أنه يمكن أن تكون هنالك سبل أخرى للحياة مفتوحة أمامى، إن استطعت، فقط، أن أعثر عليها إلا أنه كان مخادعا. لقد اعتاد القول: «إن الفنان الذى تمتطيه امرأة كالسرج، يشبه كلبا إسبانيوليا(*) فى أذنه قرادة صغيرة، إنها تسبب له أكلانًا، تسحب دمه، وهو لا يستطيع

(*) كلب صغير طويل الشعر والأذنين ـ المترجم.

الوصول إليها. هل تتفضلين ببعض التلطف وتبلغين سن النضج، إن سمحت...؟» ربما كان محبوبا تماما لأنه كان بعيد المنال؟ من العسير قول مثل تلك الأشياء. إن كلمة واحدة هى (الحب) يمكن أن تكون نافعة لعديد من الأنواع المختلفة غاية الاختلاف، لذات الحيوان. إنه هو أيضا الذى جعلنى أتصالح مع نفسى حول مسألة الاغتصاب كلها هل تتذكر؟ كل ذلك الهراء الذى كتبه أرناؤوطى فى «عادات»(*)، كل علماء النفس هؤلاء! لقد انغرزت ملحوظته الوحيدة فىّ مثل الشوكة قال: «من الواضح أنك استمتعت بما حدث، كما يمكن لأى طفل أن يفعل، بل ربما أنت التى أغريته بذلك. لقد أهدرت كل هذا الوقت تصرخين محاولة الوصول إلى توافق مع تصور خيالى عن ضرر فعل بك. حاولى إسقاط هذا الإثم الذى ابتدعته. أكدى لنفسك أن الأمر كان ممتعا وبلا معنى أيضا. إن لكل اضطراب عصبى إجراء يمكن اتخاذه» كان غريبا أن لمثل هذه الكلمات القليلة، وضحكة مكتومة تهكمية أن تحقيق ماعجز الآخرون عن تحقيقه معى. لقد بدأ كل شىء ينقشع فجأة، يصبح أكثر يسرا وسهولة. يتحرك بعيدا، مثل شحنة تنتقل فى سفينة. أحسست بالوهن والمرض مما أثار حيرتى ثم وضح الأمر فى بطء، فيما بعد، خلال فسحة من الوقت. كان الأمر أشبه بإحساس من يتسلل راجعا، مرة أخرى إلى قبضة مشلولة».

صمتت لحظة قبل أن تستمر: «إننى ما زلت لا أعرف بالضبط كيف كان ينظر إلينا ربما باحتقار ـ باعتبارنا مختلقى بلايانا الخاصة ـ من العسير أن يلومه المرء لتمسكه بأسراره مثل حلزون بحرى(**) ومع ذلك فإنه نادرا ماكان يحافظ عليها، إذ كان ما يسمى بالزاجر، يكاد أن يكون لديه أقل مهابة مما لدىّ، شىء اقتلع ودمر كل إحساس به. وهكذا من الناحية

(*) بالفرنسية فى الأصل.

(**) حلزون صدفى بحرى يلتصق بالصخور ـ المترجم.

الواقعية، كانت قوته، بطريقة ما، هى فى الحقيقة ضعفا هائلا! أنت صامت هل آذيتك؟ آمل ألا أكون قد فعلت ذلك. آمل أن يكون تقديرك لذاتك من القوة بحيث تواجه هذه الحقائق عن علاقتنا القديمة. إننى أود أن أستخرجها كلها من صدرى، حتى أصفى ما بيننا. هل فى وسعك أن تفهم؟ إننى أعترف بكل شىء لأزيل ما فى اللوح، حتى يغدو نظيفا. انظر، تلك المرة الأولى، بعد ذاك الظهر بذاته، عندما أتيت إليك، هل تتذكر؟ لقد اختبرتنى ذات مرة، كم كانت تلك المرة ذات شأن! حدث ذلك عندما كنت مريضا تلازم الفراش وقد أصابتك ضربة شمس، هل تتذكر؟ حسنا، كنت قد طردت لتوى من حجرته بالفندق رغما عنى. كنت فى حالة من الغضب الشديد كان غريبا أن كل كلمة وجهتها إليك، كانت فى عقلى موجهة إليه، إلى بورسواردن! كان هو فى عقلى من أعانقه فى سريرك وأخضعه. ومع ذلك، كان كل ما أحسسته وفعلته حينذاك إنما هو، مرة أخرى، وببعد آخر، من أجل نسيم حقا. كان فى أعماق قلبى أشبه بكومة نفاية، نسيم حقا والخطة. كانت أعمق أعماق حياتى قد ارتبطت بقوة بهذه المغامرة المجنونة. اضحك الآن يادارلى! دعنى أراك ضاحكا على سبيل التغيير. أنت تبدو حزينا ولكن لماذا تحزن؟ إننا فى قبضة مجال عاطفى ألقى بنا فيه الواحد حول الآخر. أنت نفسك قلت ذلك. ربما كانت علتنا الوحيدة هى أننا كنا ننشد حقيقة ما كان فى وسعنا احتمالها، إذ كنا نرتاح راضين بالقصص الخيالية التى نختلقها عن بعضنا البعض».

وضحكت فجأة ضحكة ساخرة. سارت إلى طرف الشرفة لتلقى فى الظلام بعقب سيجارتها المحترق بلا لهب. عادت لتقف أمامى بوجه حاد، كأنما تلعب لعبة ما مع أحد الأطفال. ربتت راحتيها معا فى نعومة وهى تترنم بالأسماء، «بورسواردن وليزا، دارلى وميليسا، ماونت أوليف وليلى، نسيم وجوستين، ناروز وكليا.. هنا شمعة تضىء لهم فراشهم.. وهنا ساطور ليقطع رقابهم. كان لا بد للنمط الذى صنعناه أن يثير اهتمام

أحد ما، أم أنه كان مجرد عرض، لا معنى له، لصواريخ نارية ملونة. أفعال بشر أم مجموعة من الدمى يغطيها التراب، والتى يمكن أن تعلق فى ركن كاتب ما؟ أعتقد أنك تسأل نفسك هذا السؤال».

«لماذا ذكرت ناروز؟».

«لقد اكتشفت بعد موته بعض الخطابات إلى كليا. كانت هنالك فى الصوان إلى جوار طاقية الختان القديمة باقة زهور شمعية ضخمة وشمعة فى ارتفاع رجل. إن القبط، كما تعرف، يقدمون مثل هذه الأشياء، عندما يتقدمون بطلب للزواج، إلا أنه لم يملك شجاعة إرسالها أبدا! كم ضحكت من ذلك!».

«أنت ضحكت من ذلك؟».

«نعم، ضحكت حتى سالت دموعى فوق وجنتىّ، إلا أننى، فى الحقيقة، كنت أضحك من نفسى، منك، منا جميعا. إن المرء ليقع على مثل تلك الأشياء عند كل انحناءة فى الطريق، أليس كذلك؟ نفس الجثة تحت كل أريكة، ونفس الهيكل العظمى فى كل صوان؟ ماذا فى وسع المرء أن يفعل غير أن يضحك؟».

كان الوقت قد تأخر. أضاءت لى الطريق إلى حجرة نوم الضيوف الشاحبة، حيث وجدت سريرا معدا من أجلى. وضعت الشموع فوق صوان ثياب قديم الطراز. وللحال سقطت نائما. لا بد أن الوقت لم يكن يبعد عن الفجر كثيرا، عندما استيقظت لأجدها واقفة إلى جوار الفراش عارية وقد ضمت يديها فى توسل مثل شحاذ عربى، أشبه بامرأه متسولة فى الشوارع وجفلت، قالت: «إننى لا أطلب منك شيئا، لا شىء البتة، فقط أرقد بين ذراعيك عزاء وسلوى. إن رأسى ينفجر الليلة، والعقاقير لم تجلب لى النوم. إننى لا أود أن أترك تحت رحمة خيالاتى فقط من أجل العزاء والسلوى يا

دارلى، بعض الربتات والملاطفات، بعض التحبب، ذاك هو كل ما أرجوه منك». أفسحت لها مكانا فى فتور، وأنا لا أزال نصف نائم. أخذت تبكى وتنتفض وتتمتم طويلا قبل أن أستطيع تهدئتها، إلا أنها نامت أخيرا ورأسها الداكن إلى جانبى فوق الوسادة. رقدت مستيقظا فترة طويلة أتذوق، فى تساؤل وحيرة، ذلك التقزز الذى أخذ يجيش فى أعماقى يمحو كل مشاعر أخرى، من أين جاء ذلك؟ إنه العطر! العطر الذى لا يحتمل ولا يطاق، ورائحة جسدها. وانسابت عبر عقلى بعض أبيات من شعر بورسواردن:

«أسلمتنى إلى ملاطفات سكرى

وأفواهها مقطوعة مثل فاكهة طرية

يأخذ المرء منها قضمة واحدة

يأخذ المرء منها قطعة واحدة

ملء فم من ظلام تنزف فيه دمًا»

صورة حبى التى كانت، ذات يوم، رائعة ترقد الآن فى خواء ذراعى، بلا حول ولا طول، كمريض فوق منضدة العمليات، تتنفس فى صعوبة. كان من العبث حتى أن أكرر اسمها الذى كان يحمل ذات يوم قدرًا كبيرًا من السحر المخيف إلى حد يبطئ الدم فى عروقى. لقد غدت أخيرا، مجرد امرأة ترقد هنالك، ملطخة مهلهلة، مثل طائر ميت فى مزراب وقد تغضنت يداها كالمخالب. كان الأمر وكأن بابا حديديا هائلا قد أوصد فى قلبى، وإلى الأبد.

انتظرت بالكاد حتى الفجر البطىء ليطلق سراحى. انتظرت بالكاد حتى أذهب.

* * *

(٤)

بينما أسير، مرة أخرى، فى شوارع العاصمة الصيفية، أسير فى ضوء شمس الربيع، وبحر أزرق يناوش بلا سحب ـ نصف نائم، نصف يقظان ـ أحسست كما أحس آدم فى أساطير القرون الوسطى: جسد هو مزيج العالم لرجل لحمه من تراب، عظامه من أحجار، دماؤه من ماء، شعره من عشب، بصره ضوء الشمس، أنفاسه الريح وأفكاره السحب. كنت خفيفا كأنما بعد مرض طويل أتلف صحتي. وجدت نفسى أطوف، مرة أخرى، أطفو فوق مياه مريوط الضحلة، بعلامات مدها وجزرها القديمة الدالة على ميولها الفطرية ورغباتها وقد تحولت إلى شكل جديد فى تاريخ المكان، مدينة قديمة، بكل أعمالها الوحشية، كما هى لم تمس، مستقرة فوق صحراء وبحيرة. أسير، وأنا أتذكر أخاديد الشوارع تمتد على كل جانب، تتفرع مثل أذرع نجم البحر، تبدأ من محور قبر مؤسسها. وقع أقدام تدوى فى الذاكرة، مشاهد وأحاديث منسية تقفز نحوى من الجدران، من مناضد المقاهى، من الحجرات بنوافذها الموحدة وجدرانها المشققة المقشرة. الإسكندرية أميرة وغانية. المدينة الملوكية والشرج المتطهر. إنها لن تتغير أبدا طالما استمرت الأجناس تموج هنا كالخمر فى دن من الدنان، طالما ظلت الشوارع والميادين تنثال، تتدفق بتلك العواطف والمكائد المتضاربة، بالرغبات العارمة والسكون المفاجئ، حمراء خصبة بالحب

البشرى المفروش بعظام المغتربين التى ابيضت. أشجار نخيلها ومآذنها الطويلة تتراوح فى السماء، خلية نحل من منازل بيضاء تتاخم تلك الشوارع الضيقة المهجورة الطينية والتى تنهكها، طوال الليل، الموسيقى العربية وصرخات فتيات تخلصن فى يسر من أعمال أجسادهن المرهقة (والتى كانت تزعجهن) وقدمن لليل قبلاتهن العاطفية التى لم تفقدها النقود نكهتها. إن حزن وغبطة هذا التوحد الإنسانى، الذى يخلد نفسه إلى الأبد، إنما هو حلقة متصلة من التجدد والإبادة، يمكنها وحدها بقوتها المدمرة أن تعلم وتعيد الصياغة من جديد. («إن المرء يمارس الحب فقط، ليؤكد وحدته» قال بورسواردن، وأضافت جوستين فى مرة أخرى، مثل مقطع ختامى لأحد الألحان: «إن أفضل خطابات حب امرأة هى دائما تلك التى تكتبها إلى الرجل الذى تخونه»، بينما كانت تستدير برأسها المغرق فى القدم من شرفة عالية، تتسكع فوق مدينة مضادة، حيث تبدو أوراق الشجر وكأنها قد طليت بعلامات كهربية، وحيث يتشقلب الحمام كأنما يتساقط من فوق أرفف...) قرص شهد هائل من الوجوه والإيماءات.

«إننا نصبح ما نحلم به»، قال بلتازار، وهو لا يزال يفتش بين أحجار الرصف الرمادية بحثا عن مفتاح الساعة الذى هو الزمن. «إننا ننجز فى الحقيقة، فى الجوهر، صور الخيال فقط». المدينة لا تقدم إجابات على مثل تلك الطلبات. إنها تلتف بغير وعى منها حول الأنفس النائمة كما تلتف أناكندة(*) هائلة تلتهم وجبتها. ويسير عالم الإنسان المثير للشفقة وسط تلك اللغات البراقة، غافل وغير مصدق. يكرر إلى ما لانهاية حركاته اليائسة النادمة والمعبرة عن الحب. لقد قال الفيلسوف ديموناكس: «ليس هنالك من يبغى أن يكون شريرا»، وسمى «كلبى»(**) فيما بعد لما كان

(*) أفعى من فصيلة البوا توجد بجنوب أمريكا ـ المترجم.

(**) نسبة إلى الفلاسفة الكلبيين ـ المترجم.

يعانيه من آلام، وجاء بورسواردن فى جيل آخر، ليجيب بلسان آخر، «أن تكون نصف يقظ بين قوم يسيرون وهم نيام، لأمر مخيف فى البداية، إلا أن المرء يتعلم، فيما بعد كيف ينافق!».

كان فى وسعى أن أحس بجو المدينة يحيط بى، مرة أخرى، بجمالياتها الذابلة، تنشر قرون استشعارها لتمسك بكمى. أحسست بقدوم المزيد من صيف وراء صيف، وكلها تحمل عوامل يأس جديدة، وانقضاضات «لحراب الزمن» جديدة.

سوف تتعفن حياتى من جديد، فى مكاتب خانقة بمراوح كهربية فاترة الدوران، وضوء لمبات متربة بلا أغطية، معلقة فى سقوف مشققة، لشقق مجددة. وفى مقهى الأقطار، وأنا جالس أمام النعناع(*) الأخضر، أستمع إلى البقبقة البرمة من النرجيلات. كان لدىّ الوقت لأتمعن الصمت الذى يعقب صيحات الباعة الجائلين وقرقعة رقعات النرد. ما زالت تمر نفس الأطياف، ثم تعود تمر فى شارع النبى دانيال. سيارات رجال البنوك الليموزين اللامعة تحمل شحناتها المنتقاة من السيدات المطليات إلى موائد البريدج، إلى المعبد اليهودى، إلى قارئى الطالع، إلى المقاهى الرشيقة. كان لكل ذلك، ذات يوم، قوة أصابت المرء بالجراح، والآن؟ شذرات من جوقة موسيقية رباعية تنطلق من مقهى ذى تندات قرمزية تذكرنى بكليا تقول ذات مرة: «لقد ابتدعت الموسيقى لتؤكد عزلة الإنسان». لكننى إن كنت أسير هنا وأنا يقظ، بل حتى برقة معينة، فما ذاك إلا لأن المدينة كانت بالنسبة لى شيئا قطفت أنا زهوره، تعلمت على يديه كيف أعزو معنى معينا للحظ والطالع. تلك الحوائط الباهتة المرقعة المرممة، وغطاء الجير وقد تشقق فى مليون رقعة بلون المحار الذى يشبه جلود المجذومين الذين يعوون

(*) بالفرنسية فى الأصل.

هنا عند طرف الحى العربى، إنه فى بساطة جلد المكان ذاته، وقد تقشر وتحمص تحت الشمس.

حتى الحرب، وصلت والمدينة إلى اتفاق. لقد أنعشت حقا تجارتها مع زمرات جنود بلا هدف، يسيرون بهذا الجو المتجهم ليأس رابط الجأش، والذى يمارس به الأنجلو ساكسون مسراتهم، وكل نسائهم اللائى زالت عنهن كل جاذبية، فى زى يضفى عليهن جو الكواسر، كأنما فى وسعهن أن يشربن دم الضحايا البريئة وهى لا تزال دافئة. كانت المواخير قد فاضت وأطبقت ظافرة على حى من المدينة بكامله، يحيط بالميدان القديم. إن كانت الحرب قد جاءت بأى شىء فهو جو كرنفال نشوان مترنح أكثر من أى شىء آخر، حتى ضرب الميناء بالقنابل ليلا يمحوه النهار، ينفض عن الأكتاف كالكوابيس، لا يذكر بأكثر من شىء مرهق يثير الضيق، أما بالنسبة لما بقى، فلا شىء قد تغير تغيرا جوهريا. لا يزال السماسرة على درج نادى محمد على يرتشفون الصحف والمركبات التى تجرها الخيول العجوزة لا تزال تقوم بجولاتها القصيرة الكسولة. الكورنيش الأبيض لا يزال مزدحما بالناس الذين يسعون يحظون بضوء شمس الربيع الواهنة. الشرفات تزدحم بالملابس التيلية المبتلة والفتيات يقرقرن ضحكا. السكندريون ما زالوا يتحركون داخل تصاوير حياتهم التى يتخيلونها بلون الأصواف الأرجوانية (الحياة أكثر تعقيدا مما نعتقد، ومع ذلك هى أكثر بساطة مما يتجاسر أى امرئ على تصورها). أصوات الفتيات تنطلق أنغاما من الحى العربى ومن المعبد اليهودى، فى دندنة رنانة تقطعها خشخشة الصلاصل(*) بصورة منتظمة وفوق أرضية البورصة كانوا كحيوان هائل واحد يعانى الألم، والذين يبدلون النقود يرتبون عملاتهم مثل الحلوى فوق طاولات كبيرة ذات

(*) آلة موسيقية قديمة تصدر خشخشة كان يستخدمها قدماء المصريين فى عبادتهم لإيزيس ـ المترجم.

خانات مربعة، والباشوات بطرابيشهم القرمزية الأشبه بأصص الزهور فى سيارات فارهة مثل أكلة اللحوم. وقزم يلعب على الماندولين، وخصى ضخم مصاب بجمرة حميدة فى حجم البروش يأكل الحلوى، ورجل بلا ساقين يرتكز على تروللى، يقطر بولًا. ووسط كل تلك العجالة المثيرة للعقل فكرت فجأة، فى كليا فى أهداب عينيها الكثيفة والتى تحول كل نظرة من عينيها الرائعتين إلى شظايا، وتساءلت فى حيرة متى تظهر، إلا أن خطا قدمى الشاردتين قادتنى فى تلك الأثناء، مرة أخرى، إلى المدخل الضيق لشارع ليبسيوس، إلى الحجرة التى نخرها السوس، ومقعد الخيزران الذى يزيق، حيث ألقى شاعر المدينة العجوز، ذات مرة، قصيدة «البداية». وأحسست بالدرج يزيق ثانية تحت نعل حذائى. كان على الباب إشعار بالعربية يقول، «الهدوء» وكان المزلاج مفتوحا.

بدا صوت بلتازار، وهو يسمح لى بالدخول نائيا رفيعا، بصورة غريبة. كان شيش النوافذ مغلقا والحجرة مكفنة فى نصف إظلام. كان يرقد فى الفراش. صدمتنى تماما رؤية شعره وقد ابيض تماما حتى بدا أشبه بنسخة أثرية من ذاته. مضت لحظة أو لحظتان لأدرك أنه ليس مصبوغا. ولكن كيف تغير إلى هذا الحد! إن المرء لا يستطيع أن يصرخ فى وجه صاحبه قائلا: «يا إلهى كم تقدمت بك السنون!» ومع ذلك فإن ذلك بالفعل يكاد يكون ما فعلته بصورة لا إرادية تماما.

«دارلى!»، قال فى وهن، مادا يدين منتفختين بالأربطة الملفوفة عليهما إلى حجم قفاز الملاكمة، مرحبا «ماذا بالله فعلت بنفسك؟».

سحب تنهيدة كمد طويلة وأومأ نحو المقعد. كانت الحجرة فى فوضى عارمة. جبل من الكتب والأوراق على الأرض إلى جوار النافذة، مبولة لم يفرغها أحد. طاولة شطرنج وقد رقدت كل قطعها متداخلة، إحدى

الصحف، لفة جبن فى طبق وتفاحة، حوض الغسيل ملىء بأطباق قذرة، وإلى جواره زوجان من الأسنان الصناعية البراقة فى كوب معتم، وعينه المحمومة تطل عليهما، من حين لآخر، فى ارتباك واضطراب: «أنت لم تسمع بأى شىء؟ إن هذا ليثير دهشتى، فالأخبار السيئة، أخبار الفضائح تنطلق سريعا، بعيدا، إلى حد أننى اعتقدت أنك لا بد قد سمعت بها. إنها قصة طويلة. هل أخبرك بها لأستثير فيك نظرة المواساة اللبقة التى ينظر بها ماونت أوليف، وهو يجلس يلعب الشطرنج معى بعد ظهر كل يوم؟».

«ولكن ماذا حدث ليديك؟».

«سوف أعرض لذلك فى حينه. كانت فكرة بسيطة استخرجتها من مخطوطك، لكن المجرم الحقيقى، كما أعتقد هما هاتان، هاتان السنتان فى الكوب ألا يبرقان بطريقة سحرية؟ إننى متأكد أن السنتين هما اللتان أظهرتا الأمر لى عندما وجدت أننى أكاد أفقد سنتى، بدأت أتصرف فجأة مثل امرأة بلغت نقطة تغير فى حياتها. كيف يمكنني أن أشرح لك، بصورة أخرى، سقوطى فى الحب وكأنى عدت شابا؟» ألقى بالسؤال كاويا حارقا وهو يضحك ضحكة من أصابه الدوار.

«أولا، القابال، والذى تم الآن تسريحه. لقد سلك الطريق الذى تسلكه كل الكلمات. ظهر معلمو أسرار الدين، وعلماء اللاهوت وكل التعصب الذى يلاذ به والذى يتكدس حول طائفة تتخذ من الجمود تعويذة إلا أن الأمر بالنسبة لى، كان له معنى خاص، معنى خاطئ غير واع، إلا أنه رغم كل شىء كان معنى واضحا. فكرت أننى فى بطء، وعلى مراحل، يجب أن أتحرر من قيد شهوات الجسد. يجب أخيرا أن أفعل ذلك. وأحسست أننى عثرت على الهدوء الفلسفى الذى يمكن أن يمحو الطبيعة العاطفية، ويطهر أفعالى. فكرت بالطبع، إننى لا أملك مثل ذلك الحكم المسبق فى ذلك الوقت، حتى إن بحثى عن الحقيقة كان بحثا خالصا تماما إلا أننى

كنت أستخدم القابال، دون وعى منى، للوصول إلى هذه النهاية المحدودة الصحيحة بدلا من جعل القابال يستخدمنى وكان ذلك أول حساباتى الخاطئة! أعطنى قليلا من الماء من الإبريق هناك. «وشرب كالظامئ عبر لثته الوردية الجديدة»، ثم وقع ذلك الأمر السخيف. وجدت أننى لا بد أفقد سنتى وقد سبب لى هذا أكثر ما عانيت من اضطراب مخيف. بدا الأمر وكأنه حكم بالموت، بمثابة تأكيد للشيخوخة، ببلوغ مرحلة تغدو فيها الحياة ذاتها أبعد منالا. لقد كنت على الدوام شديد الحساسية لما له علاقة بالأفواه، أكره دوما الأنفاس النتنة، والألسنة التى يكسوها غطاء، إلا أن الأسنان الصناعية كانت أشد ما أكره، وحينئذ، ودون وعى منى، لا بد أننى دفعت بنفسى بصورة ما، نحو هذا الشىء المضحك السخيف، وكأنه المحاولة اليائسة الأخيرة قبل أن تستقر الشيخوخة فوقى. لا تضحك. لقد وقعت فى الحب وبطريقة لم تحدث لى من قبل، على الأقل، منذ كنت فى الثامنة عشرة «القبلات حادة كشوك القنفذ»، يقول المثل، أو كما كان يمكن أن يقول بورسواردن، «مرة أخرى فإن الغدد التناسلية الماكرة، عبر طوافها خلسـة تبحث عن فريسة، تنصب شباكها لصيد البذور، ذلك الرعب البيولـوجـى التليد»، ولكن يا عزيزى دارلى لم يكن الأمر مزاحا كنت لا أزال أحتفظ بأسنانى.

«إلا أن من وقع عليه اختيارى كان ممثلا يونانيا، كان أشد ما يقع عليه المرء من نوائب أن يكون أشبه بإله، أن تكون وسامته كوابل من رماح فضية، ومع ذلك يكون فى بساطة وضيع النفس، قذرا، فاسدا، فارغ الشخصية، ذلك بناجيوتيس! الذى أعرفه. بدا لى أنه ليس هنالك من فارق أيا كان. رأيت فيه شخصية سيليوشيا التي كتب عنها كافافي قصيدته(ф) ولعنت نفسى وأنا أنظر فى المرآة، إلا أننى كنت عاجزا عن أى تصرف غير ذلك. وللحقيقة، كان من الممكن أن أعبر كل ذلك كما مر الكثير، لو

لم يدفعنى إلى غيرة عنيفة لا تحتمل، وانفجارات مفزعة من الاتهامات المضادة. إننى أتذكر أن بورسواردن اعتاد القول: «آه منكم أيها اليهود، إنكم تمتلكون موهبة المعاناة». واعتدت أن أجيب عليه باقتباس عن السلتيين الدمويين: لقد هزوا كل الدول، ولم يؤسسوا أية دولة. إنهم لم ينشئوا دولة كبرى فى أى مكان، أو يطوروا ثقافة متميزة لهم. كلا، لم يكن ذلك مجرد تعبير عن حمى الأقلية، كان هذا نوعا من العاطفة القاتلة التى قرأ المرء عنها، والتى اشتهرت بها مدينتنا. وغدوت خلال شهور مدمنا بلا أمل. كنت أتسكع دوما فى المواخير. حصلت له على عقاقير بناء على روشتات طبية كى يبيعها، أى شىء إلا أن يتركنى. غدوت ضعيفا كامرأة. فضيحة بشعة، أو بالأحرى سلسلة من الفضائح، جعلت ممارستى لعملى تتضاءل حتى تلاشت الآن. إن أماريل يقوم الآن بالحفاظ على العيادة من باب الشفقة حتى أستطيع أن أنهض من فوق الأرض مستعيدا صحتى. لقد سحبت عبر أرضية النادى، وأنا ممسك بمعطفه، أتوسل إليه ألا يتركنى! لقد أوقعت أرضا فى شارع فؤاد، وضربت بخيزرانة ضربا شديدا خارج القنصلية الفرنسية، ووجدت نفسى محاطا بأصدقاء قلقين طويلى الوجوه، فعلوا كل ما فى وسعهم لتفادى وقوع كارثة، دون جدوى. غدا التعامل معى أمرا عسيرا! جرى كل هذا ـ كل هذه الحياة الضارية ـ وأنا حقيقة أستمتع بالحط من قدرى بطريقة غريبة. كنت أجلد بالسوط وأزدرى، وانحط بى الحال إلى حطام! بدا وكأنى أبغى ابتلاع العالم، أنزح مرارة الحب حتى يلتئم. لقد دفعت إلى أقصى ما فى نفسى، ومع ذلك كنت أنا نفسى الذى يقوم بعملية الدفع تلك، أم هل كانت سنتاى هما اللتان تفعلان ذلك؟» وألقى بنظرة غاضبة متجهمة فى اتجاههما وتنهد، وهو يحرك رأسه كأنما يعانى كربا داخليا لذكرى تلك الفعال الشريرة.

«ثم بلغ الأمر بالطبع نهايته، شأنه شأن كل شىء حتى الحياة المفترضة

ذاتها! لم يكن هنالك من فضيلة فيما أعانيه، فيما أقدمت عليه من صمت أخرس مثل حيوان من حيوانات الحمل، ابتلى بمرارات لا تطاق، لا يمكنه الإفصاح عنها بلسانه. كان ذلك فى الوقت الذى تذكرت فيه ملحوظة قرأتها فى مخطوطك عن قبح يدىّ. لماذا لا أبترهما وألقى بهما فى الماء كما أوصيت أنت بذلك فى كثير من الاهتمام؟ كان هذا هو السؤال الذى ثار فى عقلى. كنت فى ذلك الوقت فاقد الحس بما أتناوله من عقاقير وشراب حتى لم أتخيل أننى سوف أحس بأى شىء وقمت، على أى حال، بالمحاولة، إلا أنها كانت أشق مما تتصور، كل ذلك الغضروف! كنت مثل هؤلاء الأغبياء الذين يقطعون حلوقهم ثم يتوقفون عبر البلعوم. إنهم يظلون أحياء على الدوام إلا أننى أتغاضى عن الألم وأفكر فى كاتب آخر، بترونيوس (الجزء الذى يلعبه الأدب فى حياتنا!) رقدت فى حمام ساخن، إلا أن الدم لم يسل، أو ربما لم يكن لدى المزيد منه. كان لون النقاط القليلة الغليظة التى أغريتها بالنزول فى قطرات، فى لون القار. كنت على وشك محاولة وسائل أخرى لتسكين الألم عندما ظهر أماريل، فى أشد حالته سوءا وبذاءة، وأعادنى إلى صوابى بمنحى هدوءًا عميقا مدة عشرين ساعة قام خلالها بهندمة جثتى وكذا حجرتى ومرضت للغاية من الخجل كما أعتقد، كان أساسا من الخجل، رغم أننى بالطبع ضعفت كثيرا بسبب الأعمال المفرطة السخيفة التى كنت أدفع نحوها واستسلمت لبيير بالبز الذى خلع سنتىّ وزودنى بهذه المجموعة من القواطع البراقة، إنه فن جديد (*)! وحاول أماريل بطريقته الخرقاء أن يحللنى، لكن ماذا يقول المرء فى علم تقريبى للغاية، أفاض فى غير اكتراث فى علم الأجناس البشرية من ناحية وعلم اللاهوت من ناحية أخرى؟ إن هنالك الكثير مما

(*) بالفرنسية فى الأصل.

لا يعرفونـه حتى الآن: مثـال ذلك أن المـرء يركع فى الكنيسة لأن المرء يركع عندما يلج المرأة، أو أن الختان مشتق من جز شجرة العنب، والذى بدونه تتحول الشجرة إلى أوراق ولا تنتج ثمرا! إننى لا أملك نمطا فلسفيا أستند إليه كما يفعل داكابو. هل تتذكر الشرح الذى قدمه كابوديستريا عن طبيعة الكون؟ «العالم ظاهرة بيولوجية لن تصل إلى نهاية إلا عندما ينال كل رجل بمفرده كل النساء، وكل امرأة بمفردها كل الرجال. إن هذه العملية، كما هو واضح تستغرق بعض الوقت، وفى تلك الأثناء ليس هنالك من فعل غير معاونة قوى الطبيعة، بأن نطأ الأعناب بقوة قدر ما نستطيع أما عما بعد الحياة فمم يتكون غير الامتلاء حتى البشم؟ ولعبة الأطباق فى الجنة، سوف تطير الهوانم(*) اللطيفات عبر شاشات الذاكرة، إنهن لم يعدن مرغوبات، ولم يعدن راغبات فى أن يكن مرغوبات. كلا الطرفين قد خمد فى النهاية إلا أن ذلك لن يحدث بوضوح دفعة واحدة. الصبر! أولًا! حقا، لقد فكرت كثيرا فى عناية وبطء، وأنا راقد هنا، أتسمع إلى تزييق الكرسى الخيزرانى والضوضاء القادمة من الشارع. لقد كان أصدقائى طيبين معى للغاية. إنهم كثيرا ما يأتون لزيارتى ومعهم الهدايا والأحاديث التى تصيبنى بالصداع. وكذا بدأت أسبح تدريجيا، أصعد إلى السطح مرة أخرى، فى بطء لا نهائى. قلت لنفسى: «الحياة هى السيد لقد عشنا ضد ما فينا من فطنة وذكاء. إن المعلم الحقيقى هو الجلد والاحتمال لقد تعلمت شيئا، ولكن أى ثمن دفعت؟».

«لو كنت فقط أملك شجاعة التصدى لحبى فى عزم صادق لخدمت أفكار« القابال» على نحو أفضل. أنت تعتقد أن ذاك أمر متناقض؟ ربما إننى بدلا من ذلك تركت حبى يسمم فطنتى، وعقلى يتحفظ على حبى. إننى رغم استردادى لمكانى واستعدادى لدخول العالم مرة أخرى، فإن

(*) بالعربية فى حروف لاتينية.

كل شىء فى الطبيعة يبدو وكأنه قد اختفى! إننى لا أزال أستيقظ صارخا: «لقد ذهب إلى الأبد. إن المحبين الصادقين يعيشون من أجل الحب». وشهق شهقة ناعقة وزحف خارجا من بين الملاءات، ينظر فى سخرية إلى مجموعته الخشبية الطويلة بحثا عن منديل فى صوان الملابس. قال للمرآة: «ربما كانت أشد الأوهام رقة وفجيعة هى الإيمان بأن أفعالنا يمكن أن تضيف أو تنقص من القدر الكلى للخير والشر فى العالم». ثم هز رأسه فى اكتئاب وعاد إلى الفراش ليضع الوسائد خلف ظهره ويضيف قائلا: «يتحدث الأب بول البدين البهيمى عن الرضا والقبول! إن الرضا والقبول بالعالم لا يتأتى إلا من خلال معرفة كاملة بامتدادات الخير والشر غير المحدودة، أن تعايشها بالفعل، أن تستكشفها إلى أقصى مداها غير الممنوع، فى حدود الفهم البشرى المحدود. هذا هو كل الضرورى لقبولها والرضا بها. ولكن أى مهمة تلك! إن المرء يرقد هنا والزمن يمر، وهو يتساءل عنه. إن كل أنواع الزمن تتساقط فى ذرات، فى قطرات عبرساعة رملية (الزمن الأزلى). زمن الشاعر الفيلسوف، المرأة الحبلى، التقويم، حتى الزمن، مال ونقود، يأتى فى الصورة أيضا. إنك لو اعتقدت أن المال، بالنسبة لمن يؤمن بفرويد، إنما هو غائط وبراز، فإن فهمك للزمن لا بد أن يكون كذلك! دارلى لقد جئت فى الوقت المناسب. سوف أسترد غدا مكانتى بواسطة أصدقائى. إنها فكرة تمس شغاف القلب. كانت كليا أول من قال بها. لقد كان الخجل من الظهور أمام الناس، مرة أخرى، بعد كل تلك الأعمال الشريرة، يرزح فوقى ثقيلا. إنك فقط، فى مثل تلك اللحظات، يمكنك معرفة من هم أصدقاؤك. غدا ستأتى مجموعة صغيرة لتجدنى مرتديا ثيابى، ويداى مربوطتان بصورة أقل وضوحا، وسنتاى الجديدتان فى موضعهما. سوف أضع بالطبع نظارة داكنة. ماونت أوليف، أماريل، بومبال وكليا، كل اثنين منهما فى جانب سوف نسير

بطول شارع فؤاد، ثم نتناول القهوة علنًا فوق الرصيف أمام باسترودى. لقد حجز ماونت أوليف أكبر منضدة غذاء فى محمد على واقترح أن يقدم لى غداء يكفى عشرين شخصا احتفالا ببعثى من الموت. إنها لمحة رائعة من التضامن، سوف تلجم بالتأكيد الألسنة الحقودة والهازئة. وقد دعانى آل سرفونى إلى العشاء فى المساء. إننى بمثل هذا العون الميمون قد أستطيع فى المدى الطويل تدارك ثقتى فى نفسى التى أصابها الضرر، كذا ثقة مرضاى القدامى. أليس هذا عملا لطيفا منهم وفى إطار تقاليد المدينة؟ ربما أعيش لأبتسم مرة أخرى، إن لم أعش لأحب، وابتسامة ثابتة براقة لا يمكن أن تصدر إلا عن بيير فقط وهو يحملق نحوى فى ود ومحبة، الصانع الماهر لما صنعته يداه». ورفع قفازيه الأبيضين مثل بطل يدخل الحلبة ويحيى، فى عبوس، جمهورًا خياليًا ثم ارتمى متراخيا فوق الوسائد ثانية، وحملق فىّ فى أسى تشوبه الشفقة.

«أين ذهبت كليا؟»، تساءلت.

«لم تذهب إلى أى مكان. لقد كانت هنا، بعد ظهر الأمس، تسأل عنك».

«لقد قال نسيم إنها ذهبت إلى مكان ما».

«ربما ذهبت إلى القاهرة فيما بعد الظهر. أين كنت أنت؟».

«ذهبت إلى الكرم حيث قضيت الليلة».

وخيم صمت طويل كان ينظر الواحد منا للآخر فى أثنائه، كان من الواضح أن هنالك أسئلة تدور بخلده، ولا يرغب، فى لياقة، أن يضعنى فى محنة بطرحها، وشعرت من ناحيتى أن هنالك القليل الذى فى وسعى شرحه. تناولت تفاحة وقضمتها.

«وماذا عن الكتابة؟» قال بعد صمت طويل.

«لقد توقّفْت. يبدو أننى غير قادر على مواصلتها أكثر من ذلك فى وقتنا هذا. إننى بصورة ما، لا أستطيع أن ألائم بين الحقيقة والأوهام الضرورية للفن دون أن تظهر تلك الفجوة ـ أنت تعرف ذلك مثلها مثل شق لا يرتق. كنت أفكر فيها وأنا فى الكرم تواجهنى جوستين مرة أخرى، أفكر كيف أنه رغم الأكاذيب الواقعية التى جاءت فى المخطوط الذى أرسلت لك صورة منه، فإنه كان، على نحوما، حقيقيا بصورة شاعرية. كان معبرا عن الحالة النفسية الجغرافية إن شئت وإلا فإن الفنان الذى يعجز عن لحم عناصره معا، يكون مقصرا فى مكان ما. إننى أسير وراء الأثر الخاطئ».

«إننى لا أتبين لماذا يحدث ذلك. إن هذا الاكتشاف بالذات يجب، فى الحقيقة، أن يحفزك لا أن يثبطك. أقصد ما يختص بتقلب الحقيقة وعدم ثباتها، إذ من الممكن أن يكون لكل حقيقة ألف دافع وباعث، وكلها صحيحة بنفس القدر، ولكل حقيقة ألف وجه. وهكذا فإن حقائق كثيرة لها علاقة محدودة بالواقع، وعليك أنت اقتناصها. إن كل أشكال التعددية تنتظر على مقربة من مرفقك، فى كل لحظة زمنية لماذا، يادارلى، تروعك هذه المسألة، وتُحنى كتابتك مثل امرأة حبلى؟».

«على العكس، لقد أصابتنى فى الوقت الراهن، على أى حال، بصدع داخلى، والآن، وقد عدت إلى هنا، إلى الإسكندرية الحقيقية التى استخرجت منها الكثير جدا من لوحاتى، لا أحس بالحاجة إلى مزيد من الكتابة، أو الكتابة التى لا تفى، بأى حال، بالمعايير التى أراها تكمن وراء الفن. أنت تتذكر ماكتبه بورسواردن «يجب أن تكون الرواية عملا من أعمال الحدس الصادر من الأحشاء، وليست سجلا دقيقا للعبة الكرة الخفيفة فى مرج الأبرشية».

«نعـــم».

«يجب أن تكون حقا هكذا. إلا أننى مواجه الآن، مرة أخرى، بنماذجى التى أخجل من أنى لزقتها دون اتفاق. إننى لو بدأت ثانية، فسوف يكون ذلك من زاوية أخرى، إلا أن هنالك الكثير الذى لا أزال أجهله،والذى أظن أنى لن أعرفه أبدا، عنكم جميعا كابوديستريا مثلا، أين موضعه؟».

«يبدو أنك عرفت أنه كان حيا».

«لقد أخبرنى منمجيان بذلك».

«نعم إنه لغز ليس بهذا القدر من التعقيد. لقد كان يعمل لحساب نسيم وعرض نفسه للظنون بارتكابه زلة خطيرة. كان من الضرورى إبعاده. حدث ذلك لحسن الحظ فى وقت كان هو فيه مفلسا تماما من الناحية المالية. كانت نقود التأمين أشد الأشياء ضرورة، ودبر نسيم الأمر، ووفرت أنا الجثة. أنت تعرف أننا نحصل على عدد كبير من الجثث من هذا النوع أو ذاك، متسولون. هنالك من يهبون أجسادهم أو من يبيعونها، فى الواقع، مقدما بقدر محدد من المال. إن مدارس الطب تحتاجها. ولم يكن عسيرا أن نحصل على واحدة خاصة بنا وأن تكون طازجة نسبيا. لقد حاولت أن ألمح لك بالحقيقة ذات مرة إلا أنك لم تلتقط ما كنت أقصده. لقد جرت الأمور على أى حال فى سهولة ويسر. ويعيش داكابو الآن فى طابية ساحلية تم قلبها وتحويلها، مقسما وقته مابين دراسة السحر الأسود والعمل فى خطط تابعة لنسيم، لا أدرى عنها شيئا. إننى، فى الحقيقة، نادرا ما أرى نسيم، أما جوستين فلا أراها البتة. ورغم أنه يسمح للضيوف برؤيتهما بأمر خاص من الشرطة، إلا أنهما لم يدعوا أحـدا البتـة إلى الكرم. إن جوستين تتصل بمن تشاء هاتفيا من وقت لآخر، من أجل المسامرة، هذا كل ما فى الأمـر. لقـد منحـت امتيـازا يا دارلى. لا بد أنهما حصلا على تصريح.

إلا أننى سعيد بأن أراك مبتهجا لم تقطع الرجاء والأمل لقد أحرزت تقدما فى مكان ما، أليس كذلك؟».

«لا أعرف إلا أننى أقل قلقًا».

«إلا أنك سوف تكون سعيدا هذه المرة. إنى أحس بذلك. لقد تغير الكثير، لكن الكثير أيضا لا يزال على حاله. لقد أخبرنى ماونت أوليف أنه قد رشحك لوظيفة رقابية، وأنه يحتمل إقامتك مع بومبال، حتى تأخذ فرصة للنظر فيما حولك قليلا».

«هناك لغز آخر. إننى بالكاد أعرف ماونت أوليف. لماذا نصب نفسه فجأة ولى نعمتى؟».

«لا أعرف ربما كان ذلك بسبب ليزا».

«شقيقة بورسواردن؟».

«إنهما معا فى المفوضية الصيفية لبضعة أسابيع. إننى أتوقع أن تسمع منه أو منهما معًا».

كانت هنالك خبطة على الباب، ودخل خادم ليرتب الشقة. رفع بلتازار نفسه ليعطى أوامره، ووقفت لأنصرف فقال: «هنالك مشكلة واحدة تشغل بالى، هل أترك شعرى كما هو؟ إننى أبدو وكأن عمرى مائتان وسبعون عاما، إلا أننى أعتقد عامة أنه من الأفضل تركه كما هو رمزا لعودتى من الموت بباطل عاقبتنى به التجربة. أه؟ نعم، سوف أتركه كما هو. إننى أعتقد يقينا أننى سوف أتركه كما هو».

«اقترع على ذلك باستخدام العملة».

«ربما أفعل ذلك. يجب أن أنهض هذا المساء مدة ساعتين وأتدرب على المشى. إن المرء ليحس بالضعف، على نحو غريب، لمجرد افتقاده

التدريب. إن المرء يفقد، بعد رقاد أسبوعين، قوة رجليه. يجب ألا أسقط غدا، وإلا اعتقد الناس أننى ثمل مرة أخرى. إن ذلك لن يكون مناسبا أبدا. أما بالنسبة إليك، فعليك أن تجد كليا».

«سوف أذهب إلى الاستوديو وأرى إن كانت تعمل هناك».

«إننى سعيد بعودتك».

«وأنا أيضا كذلك، وإن كان على نحو غريب».

وفى الحياة المتألقة المتقلبة فى الطريق العام، كان من الصعب ألا أحس إحساس مقيم قديم بالمدينة، يعود من الجانب الآخر، من القبر لزيارتها. أين يمكننى العثور عليها؟

* * *

(٥)

لم تكن فى مسكنها، رغم أن صندوق بريدها كان فارغا، مما يوحى بأنها قد جمعت، لتوها، مافيه من رسائل، وذهبت لقراءتها بينما تحتسى فنجان قهوة بالقشدة، كما هى عادتها فى الماضى. لم يكن هنالك، من أحد فى الاستوديو أيضا. كان ملائما لمزاجى أن أحاول تتبعها حتى العثور عليها فى أحد المقاهى المألوفة لنا. أخذت أسير، قياما بالواجب، فى شارع فؤاد نحو «بودروت» المقهى الذى يعمل فيه زولتان «والكوكين»، إلا أنه لم يكن لها من أثر هناك. تذكرنى فى «الكوكين» نادل عجوز كان قد رآها تسير فى شارع فؤاد مبكرا هذا الصباح تحمل محفظة أوراق. تابعت طوافى أتفرس فى واجهات المحلات، أتفحص الدكاكين الصغيرة التى تبيع الكتب المستعملة، حتى بلغت الـ «سلكت» عند واجهة البحر، إلا أنها لم تكن هناك. استدرت أعود إلى الشقة حيث وجدت ورقة منها تقول فيها: إنها سوف تمر علىّ هناك. أثار ذلك ضيقى، فقد كان يعنى ضرورة قضائى الجزء الأكبر من اليوم بمفردى، ومع ذلك فقد كان مفيدا لى، إذ مكننى من زيارة محل منمجيان، الذى جددت زخرفته، والاستمتاع بحلاقة شعر رأسى وذقنى، فيما بعد الزمن الفرعونى («حمام النطرون»، كما اعتاد بورسواردن أن يدعوه)، كما منحنى ذلك وقتا لأقضى حاجياتى.

إلا أننا التقينا مصادفة، دون تخطيط. ذهبت أشترى بعض الأدوات

الكتابية، واتخذت طريقا مختصرا عبر ميدان «باب الفدان»، عندما ترنح قلبى نشوان، إذ كانت تجلس، حيث كانت تجلس ميليسا (فى ذلك اليوم الأول). تحملق فى فنجان القهوة فى تأمل فكه ساخر،ويداها تسند ذقنها. نفس الموقع بالضبط، مكانا وزمانا، حيث وجدت ميليسا ذات يوم. أخيرا، استجمعت، فى صعوبة شديدة، ما يكفى من الشجاعة لدخول المكان والحديث إليها. منحنى ذلك شعورًا غريبًا بافتقاد الحقيقة وأنا أكرر هذا الفعل المنسى، بعد كل ذلك الذى انقطع، أشبه بفتح مغاليق باب ظل مغلقًا متربسًا لجيل كامل، ومع ذلك كانت هى فى الحقيقة كليا وليست ميليسا. كان رأسها الأشقر محنيًا فى تركيز طفولى فوق فنجان القهوة. كانت تقوم برج الثمالة مرات ثلاث، وتفرغها فى الطبق لتفحصها عندما تجف فى خطوط يمكن لقارئ الطالع أن يقرؤها، إنها حركة مألوفة.

«إذن فأنت لم تتغيرى. ما زلت تقرئين الطالع».

«دارلى». وقفزت صارخة فى سعادة، وتعانقنا فى حرارة. كانت هزة داخلية غريبة، تكاد تكون أشبه بمعرفة جديدة، عندما أحسست بفمها الضاحك الدافئ فوق فمى وذراعيها فوق كتفى كأن نافذة تحطمت فى مكان ما، مما سمح للهواء النقى أن يتدفق فى حجرة طال غلقها. ووقفنا هكذا متعانقين، نبتسم زمنا طويلا.

«لقد أخفتنى! كنت أوشك على الذهاب إلى المسكن لأجدك».

«لقد جعلتنى أطارد ذيلى طوال اليوم».

«كان لدىّ عمل لأنجزه. إلا أنك تغيرت كثيرًا يا دارلى! لم تعد تخضع أو تخنع. ونظارتك...».

«لقد تحطمت مصادفة منذ زمن طويل، ثم اكتشفت أننى فى الحقيقة فى غير حاجة لها».

«إننى سعيدة من أجلك. برافو! أخبرنى، هل لاحظت تجعيداتى؟ أخشى أن البعض منها قد بدأ فى الظهور. قل لى هل تغيرت كثيرًا؟».

إنها، بقدر ما أتذكر، أكثر جمالا مما كانت، أكثر نحافة، تمتلك إيماءات وتعبيرات جديدة، توحى بنضج جديد يثير القلق.

«لك ضحكة جديدة».

«حقًا؟».

«نعم إنها أكثر عمقا وموسيقية. يجب علىّ ألا أتملقك. ضحكة عندليب، إن كان العندليب يضحك».

«لا تجعلنى أراقب نفسى، إذ إننى أود أن أضحك معك كثيرًا. إنك ستحول ضحكتى إلى نقيق».

«كليا، لماذا لم تحضرى لمقابلتى؟».

وجعدت أنفها للحظة، واضعة يدها فوق ذراعى، أحنت رأسها مرة أخرى تنظر فى بقايا القهوة التى كانت تجف فى سرعة إلى خطوط صغيرة حلزونية ومنحنيات أشبه بالكثبان الرملية. قالت متوسلة: «أشعل لى سيجارة».

«لقد قال نسيم إنك وليت الأدبار فى اللحظة الأخيرة».

«نعم لقد فعلت ذلك يا عزيزى».

«لمـــاذا؟».

«أحسست فجأة أن حضورى ربما كان فى غير الوقت المناسب. ربما عقد الأمر بصورة ما. إن لديك اعتبارات قديمة يجب تسويتها، حسابات قديمة عليك تصفيتها، وعلاقات جديدة عليك استكشافها. لقد أحسست

أننى بلا قوة لفعل أى شىء معك حتى... حسنًا، حتى ترى جوستين. لا أدرى لماذا. نعم هكذا فكرت. لم أكن متيقنة أن الدائرة سوف تتغير. أنت مرسل خطابات لعين. لم يكن لدىّ أى وسيلة للحكم على ما يدور بخلدك. لقد مضى وقت طويل منذ كتبت إلىّ، أليس كذلك؟ ثم الطفلة وكل تلك المسائل. إن الناس، رغم كل شىء، يلتصقون، فى بعض الأحيان، مثل أسطوانة قديمة، ولا يستطيعون الخروج من الأخدود. كان من الممكن أن يكون ذلك مصيرك مع جوستين. لذا لم يكن من واجبى أن أتدخل، إذ إن وضعى من جهتك... هل تدرك ما أعنى؟ كان علىّ أن أترك لك متنفسًا».

«ولنفترض أننى التصقت مثل أسطوانة قديمة».

«كلا، المسألة لم تصبح هكذا».

«كيف يمكنك معرفة هذا؟».

«من وجهك يا دارلى. فى وسعى معرفة ذلك فى لمح البصر».

«إننى لا أدرى البتة كيف يمكننى شرح الأمر».

«لست فى حاجة إلى ذلك»، قالت وقد تهلل صوتها فرحًا وبهجة. وابتسمت عيناها البراقتان: «إن لنا قِبل الواحد منا للآخر مطالب أخرى تمامًا. إننا أحرار فى أن ننسى! أنتم الرجال أغرب المخلوقات. اسمع، لقد أعددت لهذا اليوم الأول معًا، كما أعد للوحة، أشبه باللغز. لقد كنت أسعى كى أعمل كمرشد.. ولكن كلا، لن أخبرك. فقط دعنى أدفع ثمن هذه القهوة».

«ماذا كان طالعك فى قاع الفنجان؟».

«لقاءات تقع مصادفة».

«أعتقد أنك تخترعين مثل هذه الأقاويل».

كان بعد الظهر معتمًا، وقد هبط الغسق مبكرًا. شعاعات الشمس القرمزية تتلاعب مع مناظر الشوارع على امتداد واجهة البحر. أخذنا عربة حنطور كانت تقف فى وحشة فى موقف سيارات الأجرة فى محطة الرمل. السائق العجوز، بوجهه المليء بالندوب، يسأل فى أمل إن كنا نريد: «عربة حب» أو «عربة عادية»، وكليا تقرقر ضاحكة. اخترت النوع الأخير باعتباره الأرخص أجرًا. قالت: «لماذا يابنى، تأخذ امرأة، زوجها قوى البنية، فى مثل هذا الشيء، فى حين أن لديها فراشا فى منزلها لا يكلف شيئًا».

قال العجوز فى استسلام مهيب: «الله رحيم».

وهكذا انطلقنا عبر الميدان الأبيض المنحنى بتنداته التى تخفق وترفرف، والبحر الهادئ يمتد إلى يميننا بعيدا حتى الأفق الشاحب. كنا، فى الماضى، كثيرا ما نأخذ هذا الطريق لزيارة القرصان العجوز فى حجراته الرثة فى شارع التتويج.

«كليا، إلى أين نحن ذاهبان بحق الشيطان؟».

«انتظر وسترى».

كان فى وسعى أن أرى الرجل العجوز بوضوح للغاية. تساءلت للحظة إن كان شبحه الرث لا يزال يهيم فى تلك الحجرات الموحشة، يصفر للببغاء الأخضر، وينشد: «صمتًا أيها القرد الصغير»(*) أحسست بذراع كليا يضغط ذراعى ونحن ننحرف إلى اليسار. ندخل كومة النمل التى يتصاعد منها الدخان فى الحى العربى. الشوارع يخنقها دخان أكوام القمامة المحترقة، أو اللحم المطبوخ الغنى بالتوابل ونفحات الخبز المخبوز فى المخابز.

(*) بالفرنسية فى الأصل.

«لماذا بالله تأخذيننى إلى حجرات سكوبى؟»، قلت، مرة أخرى، عندما بدأ صوت الحوافر، كليب ـ كلوب فوق امتداد الشارع المألوف. لمعت عيناها ببهجة متخابثة وهى تضع شفتيها على أذنى وتهمس: «الصبر سوف ترى».

كان بالفعل نفس المنزل. عبرنا المدخل الطويل المعتم، كما كنا نفعل كثيرا فى الماضى. بدا، فى عمقه، فى الغسق، أشبه بصورة شمسية باهتة على لوح نحاسى. كان فى وسعى أن أرى الباحة الصغيرة وقد تم توسيعها كثيرًا. دعامات حائطية عديدة أزيلت من المنازل المجاورة أو سقطت مما زاد من مساحة المكان ما يقرب من مائتى متر مربع. كانت مبعثرة أشبه بآثار مرض الجدرى، أرض حمراء ليست ملكا لأحد، مفروشة بالفضلات والنفايات. وفى أحد الأركان انتصب ضريح صغير لا أتذكر أنى لاحظت وجوده من قبل. كان محاطا بشبك حديث من صلب مشغول ضخم قبيح المنظر. كان الضريح يزهو بقبة صغيرة بيضاء وشجرة ذابلة، وكلاهما أسوأ من أن يُتشح به. تعرفت فيما أمامى على واحدة من المقامات(*) العديدة التى تتزين بها مصر. أماكن تغدو مقدسة بموت ناسك أو قديس، حيث يصبح ملاذ المؤمنين المخلصين للصلاة أو التماس العون بتقديم النذور. وبدا الضريح الصغير، مثل العديد من أمثاله، رثا للغاية، موحشا وكأن وجوده قد أغفل وأهمل وضرب النسيان عليه قرونا. وقفت أنظر حولى. سمعت صوت كليا واضحا ينادى: «يا عبده!». كان فى صوتها نغم يوحى بلهو تكبته، إلا أننى لم أستطع، طوال حياتى، أن أعرف لماذا. تقدم نحونا رجل يحملق عبر الظلال «إنه يكاد يكون أعمى. إننى أشك فى أن يتعرف عليك». ولكن من هو؟، قلت وأنا أحس بالغيظ من كل هذا اللغز:

(*) بالعربية فى حروف لاتينية.

«إنه عبده سكوبى». قالت فى إيجاز هامس. واستدارت بعيدًا لتقول: «عبده، هل لديك مفتاح مقام السكوب(*)؟».

حياها تحية من يعرفها وهو يأتى بحركات متقنة من يديه فوق صدره. أحضر حزمة من المفاتيح الطويلة قائلًا فى صوت عميق: «حالا يا سيدتى».

أخذ يخشخش المفاتيح معا كما يجب أن يفعل خادم الضريح ليخيف الجن الذين يحومون حول الأماكن المقدسة.

«عبده!»، صحت فى دهشة هامسة، «لكنه كان شابًا». كان من المستحيل التعرف عليه بهذا التركيب البنيوى المعوج وتلك الحدبة، بمشيته المطأطئة، وكأنه يبلغ من العمر قرنا، وصوته المشروخ: «تعال». قالت كليا فى عجلة: «الشرح فيما بعد. فقط تعال وانظر فى الضريح».

وتبعت ذاهلا خطا الخادم. فتح البوابة الصدئة، بعد صلصلة وجلجلة، ودقات وطرقات متقنة للغاية ليخيف الجن. قاد الطريق إلى الداخل. كان الجو حارا خانقا فى هذا القبر الصغير عديم الهواء. كانت هنالك فتيلة واحدة فى مكان ما فى طاقة أضيئت فأعطت نورا أصفر مرتعشًا، ورقد فى الوسط، ما افترضت بالضرورة أن يكون قبرا لقديس. كان مغطى بقماش أخضر عليه رسوم ذهبية متقنة الصنع. وأزاح عبده الغطاء فى إجلال وخشوع، حتى أتفحص وأعاين، كاشفا عن شىء ما تحته، أثار دهشتى إلى حد أنى صرخت دون إرادة منى. كان مغسلا حديديا مطليا بالزنك له ساق واحدة عليها نقش حفر بارز، «المغسل التافه، الكئيب. لوتون». كان قد ملئ برمل نظيف وقد طليت بكثافة أقدامه الأربع البشعة

(*) سكوبى كما ينطقها العامة ـ المترجم.

الأشبه بأقدام التمساح باللون الذى يستخدم ضد الجن، اللون الأزرق. كان شيئًا يثير دهشة لها جلالها والمرء يتعثر فى تلك الأجواء. وسمعت فى مزيج من المتعة والخوف عبده الذى لم يعد فى الإمكان التعرف عليه البتة الآن، والذى كان خادم هذا الشىء، يتمتم الصلوات المتعارف عليها باسم السكوب. ويتحسس، بينما يفعل ذلك، النذور التى تتدلى من كل ركن فى الجدار مثل ذؤابات صغيرة بيضاء. كانت تلك، بالطبع قطعًا من قماش انتزعتها النسوة من ملابسهن التحتية وعلقنها كتقدمات للقـديس الذى يعتقدن أنه يشفى العقم ويجعلهن قادرات على الحمل. يا للشيطان! هنا مغسل سكوبى العجوز، كما هو واضح، تتوسل النسوة إليه ليهب الخصوبة لمن بلا أطفال ـ وبنجاح، كما يمكن الحكم على ذلك من هذا العدد الكبير من التقدمات.

«السكوب كان رجلًا مقدسًا؟»، قلت فى لغتى العربية العرجاء، وأومأت الحزمة البشرية المتعبة المعقوفة برأسها الملفوف فى شال ممزق، وانحنى الرجل وهو ينق قائلا:

«لقد جاء من أبعد مكان فى سوريا، هنا وجد راحته، وأضاء اسمه العدالة. لقد تتلمذ على فعل الخير!».

وأحسست كأنى أحلم، كأنى أكاد أسمع صوت سكوبى وهو يقول: «نعم ضريح صغير مزدهر، كما كل الأضرحة. خذ بالك، إننى لا أسعى إلى تكوين ثروة، إننى أقدم خدمة!». وأخذ الضحك يتجمع داخلى، عندما أحسست بأصابع كليا فوق كوعى. وتبادلنا ضغطات مبتهجة ونحن ننسحب من ذاك الثقب الصغير ردىء التهوية إلى الباحة وقد غمرها الغسق، بينما يعيد عبده فى إجلال وخشوع وضع القماش فوق المغسل ويهتم بالفتيل الزيتى ثم يلحق بنا. وأغلق الشباك الحديدى فى عناية، مقبلا

ما أعطته له كليا من بقشيش، وهو يردد وافر الشكر والامتنان فى صوت أجش، ثم سار متثاقلا إلى الظلال، وقد تركنا نجلس فوق كومة من بناء حجرى متداع.

«لم أدخل فى الموضوع مباشرة»، قالت: «كنت أخشى أن تأخذ فى الضحك، وأنا لا أرغب فى إثارة ما يكدر عبده».

«كليا، إنه مغسل سكوبى!».

«أعرف ذلك».

«كيف، بحق الشيطان، حدث هذا».

وضحكت كليا ضحكتها الناعمة.

«يجب أن تخبرينى».

«إنها قصة رائعة عجيبة، لقد كشف عنها بلتازار. إن سكوبى الآن هو (اليعقوب) رسميًا. إن هذا، على الأقل ما هو مسجل بخصوص هذا الضريح فى كتب الكنيسة القبطية. لكنه، كما سمعت الآن، هو السكوب حقيقة! أنت تعرف كيف يطوى النسيان والإهمال مثل تلك المقامات(*). إنهم يموتون، وينسى الناس تماما، عبر الزمن، من كان القديس الأصلى، وتدفن الكثبان الرملية الضريح فى بعض الأحيان. إلا أنهم يهبون أحياء ثانية. يحدث فجأة ذات يوم أن يشفى هنالك مصاب بالصرع، أو يوحى الضريح لامرأة مجنونة بنبوءة ما، وللحال ينهض القديس ويحيا من جديد. حسنا، لقد كان اليعقوب هنالك عند نهاية الحديقة، طوال وقت قرصاننا العجوز فى هذا المنزل دون أن يعرف أحد بذلك ـ غطاه الطوب وأحاطت

(*) بالعربية فى حروف لاتينية.

به الجدران العشوائية ـ أنت تعرف كيف يبنون هنا بطريقة مجنونة، لقد نُسى تمامًا. وغدا سكوبى، فى تلك الأثناء، وقد مات، شخصيةتتمتع بذكرى عاطفية فى الجوار. بدأت الحكايات تدور حول مواهبه العظيمة. كان فطنا ذكيا فى إعداد المشروبات السحرية (الويسكى الوهمى؟). وبدأ يزهر حوله إعجاب يقارب العبادة. قالوا: إنه كان يستحضر الأرواح لمعرفة المستقبل. وأقسم المقامرون باسمه. إن عبارة «بصق السكوب فوق ورقة اللعب هذه»، غدت مثالا يتردد فى الحى. قالوا عنه أيضا إنه كان قادرا على تغيير نفسه إلى إمرأة متى أراد! وأنه بنومه مع الرجال العاجزين جنسيا كان يجدد لهم قواهم. كما أنه قادر أيضا على أن يحيل العاقر إلى حبلى، حتى إن بعض النسوة أطلقن اسمه على أبنائهن. حسنا، لقد لحق بالفعل، فى زمن قصير، بكتاب أقاصيص قديسى الإسكندرية، لكن لم يكن له بالطبع ضريح حقيقى؛ إذ إن كل امرئ يعرف بنصف عقله أن الأب بول قد سرق جسده ولفه فى عالم ودفنه فى مقابر الكاثوليك. إنهم يعرفون، فالكثيرون منهم كانوا هناك أثناء القداس واستمتعوا كثيرا بالموسيقى البشعة لفرقة الشرطة،والتى أعتقد أن سكوبى كان عضوا بها ذات يوم. إننى كثيرا ما أتساءل إن كان يعرف اللعب على أى آلة، وإن كان ذلك قد حدث، فأى آلة؟ الترمبون(*) المنزلق؟ إنه، على أى حال، فى ذلك الوقت الذى يمكن القول: إن قدسيته كانت فى انتظار إشارة فقط، دلالة، تأكيد، سقط ذلك الحائط رغما عنه وكشف عن اليعقوب (ربما فى غضب وأنفة). حسنا، إلا أنه لم يكن هنالك قبر فى الضريح. حتى الكنيسة القبطية، والتى كانت قد قبلت أخيرا وعلى مضض، أن يوضع اليعقوب فى كتبها لم تكن تعرف عنه شيئا غير أنه قدم من سوريا. لم يكونوا حتى متأكدين إن كان مسلما أم لا! إن لاسمه، بالنسبة لى، رنينا يهوديا. إنهم، على أى حال، سألوا سكان

(*) آلة موسيقية نحاسية كبيرة ـ المترجم.

الحى القدامى بجدية، واعترفوا باسمه، على الأقل، ولكن لا شىء آخر. وهكذا وجد الجيران أنفسهم، ذات يوم، ولديهم ضريح فارغ خالص لسكوبى. لا بد كان له وجود محلى يضارع قوة اسمه. وأقيم احتفال عفوى استودع فيه المغسل الذى كان مسئولا عن عدد كبير من الميتات (الله أكبر) فى وقار وقدسية بعد ملئه بعناية برمال نهر الأردن المقدسة. لم يستطع الأقباط التسليم رسميا بالسكوب وأصروا على التمسك بـ يعقوب لأغراض رسمية، إلا أن السكوب ظل هو الاسم الذى تمسك به المؤمنون. كان يمكن للأمر أن يصبح ورطة ما، إلا أن رجال الإكليروس وهم دبلوماسيون بارعون، غضوا الطرف عن تجسد السكوب مرة ثانية، وتصرفوا كأنهم يعتقدون أنه اليعقوب حقيقة، لكن التغيير جاء بسبب النطق المحلى. وهكذا أنقذ ماء وجه الجميع.

لقد قاموا فى الحقيقة بتسجيل تاريخ ميلاد سكوبى رسميا ـ هنا يظهر ذلك التسامح الرائع الذى لا يوجد فى أى مكان آخر ـ وذلك كما أعتقد لأنهم لم يكونوا يعرفون تاريخ ميلاد اليعقوب. هل تعرف أنه يقام على شرفه مولد(*) سنوى، يوم عيد سانت جورج؟ لا بد أن عبده تذكر تاريخ ميلاده، حيث كان سكوبى يعلق فى هذا اليوم، فى كل ركن من أركان فراشه، خيطا به أعلام ملونة لكل الأمم، كان يستعيرها من بائع الصحف. كان معتادا أن يثمل، كما أخبرتنى أنت ذات مرة، ويغنى أهازيج البحارة، وينشد «المنفضة الحمراء القديمة»، حتى تسيل دموعه»!

«أى خلود رائع يستمتع به».

«أى سعادة تلك التى لا بد أن تغمر القرصان العجوز».

«أى سعادة! أن يكون الولى الحامى لحيه! أوه دارلى، كنت أعرف

(*) عربية بحروف لاتينية.

أنك ستستمتع بذلك إننى كثيرا ما آتى إلى هنا، فى مثل هذا الوقت من الغسق، وأجلس فوق أحد الأحجار وأضحك من أعماقى، فرحة وابتهاجا للرجل العجوز.

«وهكذا جلسنا معا وقتا طويلا، بينما الظلال تنمو حول الضريح، نضحك ونتحدث فى هدوء، كما يجب أن يفعل الناس عند ضريح قديس! نحيى ذكرى القرصان العجوز بعينه الزجاجية، والذى لا يزال طيفه يتجول فى تلك الحجرات الرثة فى الطابق التالى. كانت أنوار شارع التتويج تتلألأ غامضة. لم تكن تضوى بتألقها القديم المعتاد ـ ولكن بصورة مظلمة ـ إذ كان حى الميناء كله قد خضع لإطفاء الأنوار خشية الغارات الجوية، وكان أحد قطاعاته يشتمل على الشارع الشهير وأصابتنى الحيرة قلت فجأة: «وعبده، ماذا عنه؟»».

«نعم لقد وعدت أن أخبرك، لقد أسس له سكوبى، كما تتذكر، دكان حلاق. حسنا، لقد أنذره لأنه لم يكن يحافظ على أمواسه نظيفة، مما تسبب عنه نشره لمرض الزهرى إلا أنه لم يلتفت إلى تلك التحذيرات، ربما لأنه كان يعتقد أن سكوبى لا يمكن أن يبلغ عنه رسميا إلا أن الرجل العجوز فعلها، وكانت النتائج رهيبة لقد ضرب عبده فى قسم الشرطة حتى كاد يموت، وفقد إحدى عينيه وأمضى أماريل قرابة العام يحاول أن يرممه ويهندمه. ثم أصيب، فوق كل ذلك، بمرض أشبه بمرض السل، دمر كل قواه، وكان عليه أن يترك دكانه، ذلك الرجل المسكين إلا أننى لست متيقنة إن كان هو الرجل غير المناسب لحماية مزار سيده».

«السكوب! يالعبده المسكين!».

«إلا أنه يجد عزاءه الآن فى الدين. إنه يقوم بعمليات وعظ خفيفة كما يتلو من السور ما تقتضيه وظيفته. هل تعرف أننى أعتقد أنه قد نسى سكوبى الحقيقى. لقد سألته ذات مرة إن كان يتذكر العجوز اللطيف الذى كان

يسكن الطابق العلوى، إلا أنه نظر إلى نظرة غائمة،وتمتم شيئا ما، وكأنه يحاول الوصول بذاكرته إلى الوراء من أجل شيء أنأى من أن يمسك به. لقد اختفى سكوبى، كما اختفى يعقوب تماما، وأخذ السكوب مكانه».

«إننى أحس كما كان يجب أن يحس أحد الحواريين، أقصد أن يكون مولدك يوم مولد أحد القديسين، فتصبحى أسطورة. فكرى، إننا نعرف بالفعل السكوب الحقيقى! لقد سمعنا صوته».

وفرحت، إذ بدأت كليا تقلد الرجل العجوز بطريقة تثير الإعجاب حقا، تحاكى سلوكه المتناثر المتقطع عند حديثه عن الحياة، كانت تكرر الكلمات من الذاكرة.

«نعم، خذ بالك، كان الطرب يستخفنى، إلى حد ما، فى يوم عيد سانت جورج، من أجل إنجلترا ومن أجلى أيضا. كنت أتناول دوما رشفة أو اثنتين من «الحمراء الخجولة»، كما كان يقول توبى، ويمكن أن تكون من «ذات الفقاقيع»، إن جاءت فى طريقى لكننى، باركك الله، لست ممن توصلهم العربات التى تجرها الخيل، إننى دائما باق فوق مسمارىّ. إن الكأس هو الذى يبعث البهجة ولا يسك.. يسك يسكرنى، إنها واحدة أخرى من عبارات توبى. كان يفيض بالصور الأدبية كان يمكن أن يكون كذلك، لماذا؟ لأنه لم يكن يظهر البتة دون كتاب تحت إبطه. كان يعتبر، فى البحرية غريبا للغاية. وكثيرا ما كان لديه صفوف منها «ماذا لديك هناك؟»، هكذا اعتادوا أن يصيحوا فيه. واعتاد توبى، الذى كان يمكن أن يكون وقحًا فى بعض الأحيان، أن يغيظهم ويجيب فى الحال، «ماذا تعتقدون أيها المختالون؟ إننى بالطبع متزوج من الأسطر والكلمات»، إلا أنه كان هنالك دوما كتاب ثقيل، يصيب رأسه بالدوار رغم أنى أحب القراءة. كان فى أحد الأعوام، «مسرحيات سترينج باج»، وهو مؤلف سويدى كما فهمت. وكان

فى عام آخر «فروست جويتر» كان توبى يقول: إن ذلك تعليم حر. لم يكن تعليمى يرقى إلى مستواه. مدرسة الحياة، كما يمكن أن تقول لقد قتل أبى وأمى مبكرا، وتركنا نحن أيتاما ثلاثة صغارا للتلف والهلاك. كانا يعدوننا لعالى الأقدار، كان أبى يعد واحدًا منا للكنيسة،وواحدًا للجيش، وواحدًا للبحرية ودهس القطار الخاص لأمير ريجنت شقيقى قرب سيد كوب، بعد وفاة والدى بفترة قصيرة ونشرت كل الصحف الحادثة، وأرسل الأمير إكليلًا من الزهور، لكننى تركت بمفردى تماما. وكان علىّ أن أشق طريقى دون الاعتماد على نفوذ أحد، وإلا كنت الآن، كما كنت أتوقع، أدميرالا».

كان وفاؤها للعطاء أمينا بصورة مطلقة وخطا الرجل العجوز الضئيل من قبره مباشرة، وأخذ يمشى مشيته غير المتوازنة فى حذر أمامنا. كان يعبث مرة أخرى بتلسكوبه فوق حامل الكعكة، ويفتح إنجيله، الذى يكاد يفنى، ويغلقه، أو يركع على ركبته وهى تزيق، لينفخ النار بمنفاخ صغير للغاية يوم عيد ميلاده! إننى أتذكر العثور عليه فى أحد أمسيات عيد ميلاده وهو فى أسوأ حال رغبة فى البراندى، إلا أنه يرقص عاريا تماما على موسيقى من صنعه مستخدما مشطا وورقة.

عندما استعدت ذكرى هذا الاحتفال بعيد قديسه، بدأت أقلده لكليا حتى أسمع ثانية هذه الضحكة المثيرة الجديدة التى اكتسبتها: «أوه إنه أنت يادارلى!» لقد فاجأتنى تماما بطرقاتك على الباب. ادخل. لقد كنت أرقص رقصة ما، حتى أتذكر الأيام الخوالى، إنه عيد ميلادى نعم، إننى دوما أمعن النظر قليلا فى الماضى، بهذه المناسبة. لقد كنت فى شبابى غندورا حقيقيا. إننى لا أبالى الاعتراف بذلك، كنت فى شبابى بارعا بحق فى «الفيلوتا» هل تريد مشاهدتى؟ فقط افترض أننى فى باريس اجلس على المقعد هناك وراقب. الآن تقدموا ليأخذ كل رفيقته، هزوا الأكتاف، انحنوا، تراجعوا! تبدو الرقصة سهلة، لكنها ليست كذلك. إن النعومة خادعة. كان

فى وسعى يا بنى، فى وقت من الأوقات، أن أرقص كل الرقصات، الفرسان حملة الرماح، الأسكتلنديون، حلقة القوقازيين أنت لم تر نصف السلسلة الإنجليزية(*)، كما أضمن؟ كانت كما أعتقد قبل زمانك. خذ بالك، لقد أحببت الرقص وظللت محافظا على ذلك حتى يومنا. كنت أنهض فى سرعة الهوتشى - كوتشى هل رأيت ذلك أبدا؟ نعم، إن الهاتيش تمارس كما فى الفندق بعض الحركات الصغيرة الجذابة الفاتنة، والتى يطلقون عليها إغراءات شرقية. إنها أشبه بالتموجات، إنك ترفع خمارا وراء الآخر حتى تتكشف جميعا. إن الإثارة تفوق الحد، عليك أن تهتز وأنت تنساب هل تحب رؤية ذلك؟

«هنا! اتخذ وضع إغراء شرقى لا يعقل أبدا. وأخذ يدور فى بطء يرجرج مؤخرته، ويدمدم لحنا مناسبا، يعكس بأمانة تامة قصور وهبوط الربع نغم العربى. أخذ يدور ويدور فى الحجرة حتى بدأ يحس بالدوار، فارتمى متراخيا منتصرا فوق السرير يضحك ضحكة مكتومة ويومئ برأسه راضيا عما فعل، مهنئا ذاته، ثم تناول جرعة كبيرة من العرقى، التى كانت صناعته أيضا واحدا من أسراره. لا بد أنه وجد وصفته فى صفحات كتاب جيب «بوستلثويت»، والذى كتب خصيصا لمن يرتحلون فى بلاد أجنبية، كتاب كان يحتفظ به جيدا فى حافظة ملابسه، والذى كان يقسم به قسمه الأعظم. كان يحتوى، كما يقول، على كل ما يجب أن يعرفه إنسان، وضعه مثل وضع روبنسون كروزو، حتى كيفية إشعال النار بحك عصوين معا. كان منجما رائعا من المعلومات (كى تصنع عرقى بومباى بنجاح، أذب ثلثى درهم من زهور جاوه فى ربع جالون من الروم الجيد إن هذا سيضفى على المشروب عبير العرقى). كان ذلك نموذجا لما يحتويه».

(*) بالفرنسية فى الأصل.

نعم، هكذا يضيف فى وقار، «لا يمكن لأحد أن يتفوق على العجوز بوستلثويت. إن به شيئا لكل العقول وكل الحالات. يمكننى القول، إنه كان عبقريا».

مرة واحدةفقط، فشل بوستلثويت فى الارتقاء إلى سمعته. كانت تلك المرة عندما قال توبى: إنه يمكن جمع ثروة من الذباب الإسبانى، إن استطاع سكوبى الحصول على كمية كبيرة منه لتصديره. إلا أن القائل لم يوضح ماكنهه أو كيف يكون؟ كانت تلك هى المرة الوحيدة التى خذلنى فيها بوستلوثويت. هل تعرف ماذا يقول عنه تحت عنوان الذباب الهندى؟ لقد كان تذكر هذه النبذة غامضا للغاية وأنا أعيدها على مسامع توبى عندما جاء فيما بعد. إن بوستل العجوز يقول: «إن استخدم الذباب الهندى من الداخل مهيج ومدر للبول، وإن استخدامه من الخارج يسبب التشنج واحمرار الجلد. والآن، ماذا يقصد بذلك، بحق الشيطان آه؟ وكيف يمكن أن يتسق ذلك وفكرة توبى عن تجارة مزدهرة من مثل تلك الأشياء؟ لا بد أن تكون نوعا من الديدان لقد سألت عبده، إلا أننى لم أعرف المسمى العربى المرادف».

أما وقد انتعش بهذا الفاصل، فإنه يتقدم مرة أخرى إلى المرآة ليتأمل فى إعجاب هيكله المتجعد الأشبه بسلحفاة عجوز. وغشت فكرةمفاجئة ملامحه بالقتامة. أشار إلى جزء من أعضائه المتغضنة وقال: «ذلك هو الجزء الذى يصفه بوستلثويت بأنه النسيج الوحيد الذى له «خاصية الانتصاب». إننى أتساءل دوما لماذا هذا الجزء وحده ولا غيره. إن لغة رجال الطب هؤلاء، تبدو فى بعض الأحيان كالأحاجى والألغاز حقا. إنه مسمار من نسيج له خاصية الانتصاب. فكر أيضا فى كل المتاعب التى يثيرها. اسألنى، فإنك لو رأيت ما رأيته أنا، فإنه ما كان فى وسعك أن تظفر بنصف الطاقة المنفعلة التى ظفرت أنا بها اليوم».

وهكذا أطال القديس احتفالات عيد ميلاده، يرتدى منامات، ينغمس فى دور غنائى قصير يتضمن الكثير مما هو قديم أثير لديه، يغنى قصيدة قصيرة، لم يكن يشدو بها إلا فى أعياد ميلاده، كانت تدعى، ربان السفينة القاسى القاسى، وهنالك لازمة موسيقية تنتهى بـ:

هكذا كان نبتا سماويا عجوزا، توم، توم.

هكذا كان قرص لحم عتيق، توم، توم.

هكذا كان عجوزا شكسا.

والآن وقد أرهق ساقيه بالرقص وصوته الشادى بالأغنية، بقيت أحاج قليلة قصيرة كان يطرحها على السقف وذراعاه خلف رأسه.

«أين تناول جلاد الملك شارل عشاءه، وماذا طلب من طعام؟».

«لا أعرف».

«هل تستسلم؟».

«نعم».

«حسنا، لقد تناول شريحة لحم فوق رأس الملك».

قوقات مبتهجة وضحكات مكتومة.

«متى يمكن لأملاك رجل نبيل المحتد أن توصف بأنها أشبه بالريش؟».

«لا أعرف».

«هل تستسلم؟».

«نعم».

«عندما توقف كل أملاكه وعقاراته (مثل ذيل دجاجة ـ هل ترى؟)».

وتلاشى الصوت تدريجيا، توقفت الساعة، أغلقت العينان، تمددت الضحكات مكتومة مسترخية إلى نعاس، هنا نام القديس أخيرا، مفتوح الفم، فى يوم عيد سانت جورج.

عدنا يتأبط كل منا ذراع الآخر، عبر البوابة الظليلة، ونحن نضحك ضحكة إشفاق تستحقها صورة الرجل العجوز. ضحكة كانت على نحوما تعيد طلاء الأيقونة طلاء خادعا، تعيد ملأ المصابيح بالوقود حول الضريح. بالكاد كان لوقع خطانا صدى فوق أرضية الشارع بتربتها المدكوكة. الإظلام الجزئى للمنطقة قطع الضوء الكهربى الذى كانت تتلألأ فى نوره، فى الأحوال العادية، وقد استبدل الآن بمصابيح زيتية ترفرف شاحبة فى كل مكان، حتى إننا كنا نسير فى غابة مظلمة فى ظل ضوء متوهج دافئ، جعل الأصوات والنشاطات فى المنازل حولنا أكثر غموضا من أى وقت مضى. وهبت، فى نهاية الشارع، حيث كانت تقف عربة الحنطور الكسيحة المترنحة فى انتظارنا، أنفاس بحر الليل الباردة المثيرة والتى سوف تتغلغل بالتدريج فى المدينة، تبدد رطوبة البحيرة الخانقة.

«والآن، يجب، ياكليا، أن أدعوك للعشاء، احتفالا بضحكتك الجديدة!» «كلا لم أنته بعد مما أعددت، هنالك لوحة أخرى، من نوع مختلف، أود منك أن تراها. إننى وددت، يادارلى، كما ترى، أن أعيد تركيب المدينة، بصورة ما، حتى يمكنك أن تعود إلى اللوحة من زاوية أخرى، تحس أنك فى بيتك تماما ـ رغم أن هذه الكلمة بعيدة عن أن تكون مناسبة لمدينة من المنفيين، أليس كذلك؟ على أى حال...». ومالت إلى الأمام (فأحسست بأنفاسها فوق وجنتى)، وقالت للسائق، «خذنا إلى الأوبرج بلو!».

«لمزيد من الأسرار».

«كلا سوف تظهر الليلة، سميرة العفيفة على الملأ لأول مرة. إن هذا

الأمر بالنسبة لى أقرب إلى أن يكون افتتاحا لمعرض صور، أنت تعرف، أولا تعرف أننى وأماريل مبدعا أنفها المحبب؟ لقد كانت مغامرة هائلة: خلال شهور طويلة وكانت هى صبورة شجاعة، تحت الضمادات والغرز والتطعيم والآن اكتملت العملية. لقد تزوجا بالأمس،ولسوف تكون الإسكندرية كلها الليلة هناك لتراها. يجب ألا تغيب عن هذا الحفل أليس كذلك؟ إنها تجسد شيئا نادرا للغاية فى هذه المدينة، ولسوف تقدره أنت حق قدره، باعتبارك دارسا متحمسا لهذا الموضوع. إنه إعلان للحب الرومانسى بحروف كبيرة. لقد شاركت فى هذا الأمر مشاركة هائلة، دعنى أحس بالزهو قليلا. لقد كنت قهرمانة حينا، وممرضة حينا، وفنانة حينا. كان كل ذلك من أجل أماريل الطيب. إن سميرة، كما ترى، ليست ذكية تماما. وكان على أن أقضى الساعات معها كى أعدها لهذا العالم، كذلك لصقل قدراتها على القراءة والكتابة، أى فى إيجاز محاولة تعليمها قليلا. ومن الغريب أن أماريل لم ينظر إلى هذه الفجوة الهائلة بين تعليمهما المتفاوت كقضية. إنه يحبها أكثر الحب بسبب ذلك. أنه يقول: «أنا أعلم أنها أقرب إلى أن تكون ساذجة، وذلك ما يجعلها رقيقة للغاية».

«إن هذا هو أنقى خلاصة للمنطق الرومانسى، كلا؟ لقد أقدم على ابتداعات واختراعات شتى من أجل إعادة تأهيلها. لقد اعتقدت أنه من الخطورة بمكان أن تلعب، على نحو ما، لعبة بيجماليون. إلا أننى بدأت أدرك الآن فقط مدى قوة التصور. هل تعرف مثلا، ماذا استنبط لها، من أجل أن تكون لها مهنة، مهارة خاصة بها؟ إن ما فعله يكشف عن ذكاء متألق كانت محدودة العقل جدا لا تستطيع القيام بعمل متخصص للغاية، لذا قام بتدريبها، بمعاونتى، كى تكون جراحة دُمى. كانت هدية عرسه لها غرفة عمليات جراحية لدمى الأطفال، والتى غدت مألوفة لها تماما رغم أنها لن تفتتح رسميا إلا بعد عودتهما من شهر العسل. إن سميرة قد أمسكت

حقا بهذه الوظيفة الجديدة بكلتا يديها. لقد قضينا الشهور نقطع الدمى معًا ونرممها إعدادا لذلك! ما كان من الممكن لدارس طب أن يجتهد أكثر مما اجتهدت. يقول أماريل: «إنها الطريقة الوحيدة للإمساك حقا بامرأة غبية، أنت تهيم بحبها. امنحها شيئا لتؤديه على مسئولياتها».

ترنحت بنا العربة على امتداد الكورنيش عودة إلى المنطقة المضاءة من المدينة، حيث بدأت المصابيح الزرقاء تحملق فينا واحدا بعد الآخر ونحن نتحدث فى العربة. فجأة بدا أن الماضى والحاضر قد اتحدا مرة أخرى، دون أية فواصل أو تقسيمات، وأن كل ذكرياتى وانطباعاتى قد فرضت على نفسها غطاء واحدا متكاملا، كانت المدينة المضيئة هى دوما التعبير المجازى عنه، مدينة من حرموا الميراث، مدينة تحاول الليلة أن تنشر فى رقة الجناحين المنشوريين اللزجين لفراشة حديثة الولادة الحب الرومانسى! لقد اعتاد بورسواردن دعوته بـ «الشيطان الماجن».

لم يتغير الأوبرج البتة. ظل كما كان جزءا من متاع أحلامى، وهنا (كوجوه فى حلم). كان السكندريون أنفسهم يجلسون إلى مناضد تزينها الزهور، بينما فرقة موسيقية تقطع فى رقة ماهم فيه من تكاسل فى ظل تلك الألوان الزرقاء. وأعادت صرخات الترحيب ما فى المدينة القديمة من أشكال كرم تلاشى. أثينا تراشا بحلقها الفضى فى أذنيها تطن مع بيير باليز الذى يتعاطى الأفيون. إذ يجعل العظام تزهر، آل سيرفونى الأجلاء وبنات آل مارتيننجو الحاذقات وطفحهن الجلدى، كان الجميع هناك. الجميع دون نسيم وجوستين، حتى بومبال الطيب كان هنالك فى لباس المساء الكامل وقد تم كيه وتنشيته جيدا ليضفى عليه جو أثر تذكارى بارز تم إعداده خصيصا لقبر فرانسوا الأول، وكانت فوسكا معه، دافئة سمراء لم أكن قد رأيتها من قبل.

جلسا وقد تماست أصابعهما فى نشوة غريبة. كان يومبال يجثم منتصبا

تماما، متنبها كأرنب، وهو يحملق فى عينيها، عينى ربة المنزل الوسيمة الشابة. كان يبدو مضحكا.

«إنها تدعوه ـ جورج ـ جاستون، وهو اسم يبهجه لسبب ما». قالت كليا.

أخذنا طريقنا، ننتقل فى بطء، من مائدة إلى أخرى نحيى أصدقاءنا القدامى كما كنا نفعل فى الماضى حتى بلغنا المائدة الصغيرة الركنية بما عليها من بطاقة حجز سليوليدية قرمزية، تحمل اسم كليا. ولدهشتى برز النادل زولتان فجأة أمامى، من لا شىء، ليهز يدى فى دفء. إنه الآن «الميتردوتيل» المتألق فى أكمل عدة وقد قص شعره ومشطه. كان يبدو أيضا منغمسا تماما فى سر ما إذ أشار همسا لكليا، إن كل شىء قد أعد فى سرية تامة، بل لقد ذهب بعيدا فغمز بعينه: «إن أنسلم، يراقب فى الخارج، سوف يعطى إشارة بمجرد أن يرى عربة دكتور أماريل، وحينئذ تبدأ الموسيقى عزفها، لقد طلبت مدام تراشا عزف «الدانوب الأزرق» العتيق».

وصفق راحتيه معًا فى نشوة، وابتلع ريقه مثل ضفدع. صاحت كليا: «يالفكرة أثينا الرائعة، برافو».

كانت إيماءة عاطفية بحق فقد كان أماريل أفضل راقص فالس، من فينا، فى الإسكندرية. ورغم أنه لم يكن مغرورا، إلا أنه كان يبتهج دائما، بطريقة غير معقولة، بمهارته كراقص. إنها لا بد أن تدخل المسرة إلى نفسه.

لم يطل انتظارنا. التوقع والإثارة. لم يكن أمامها ما يكفى من وقت لإثارة الملل. توقفت الفرقة التى كانت تؤدى أنغاما ناعمة، بينما أذنها منتصبة، كما يمكن القول، لسماع صوت السيارة. ظهر «أنسلم» عند ركن الممر يلوح بفوطة مائدة. إنهما قادمان! أطلق الموسيقيون أنغاما

متتالية طويلة مرتعشة، لا بد أن يأتى ختامها عادة فى نغم غجرى. ما إن ظهرت سميرة الجميلة بين أشجار النخيل، حتى أخذوا يعزفون موسيقى الفالس ناعمة رصينة، موسيقى «الدانوب الأزرق».. فجأة تأثرت تماما وأنا أرى الطريقة الخجولة التى ترددت بها سميرة عند عتبة حجرة الرقص المزدحمة، إذ رغم روعة ردائها فإن العيون التى كانت ترقبها، تثير الرعب فى قلبها، قد أفقدتها تحكمها فى ذاتها. رفرفت فى حيرة ناعمة ذكرتنى بالطريقة التى تتدلى بها مقدمة قارب مبحر عندما تحل حباله، ويهتز شراع ساريته ـ كأنما تتأمل، تفكر فى بطء للحظة طويلة قبل أن تستدير وهى تتنهد تنهيدة تكاد تكون مسموعة، تستقبل الأنفاس فوق وجنتها. إلا أنه فى تلك اللحظة من التردد والحيرة الفاتنة الساحرة جاء أماريل خلفها وأخذ ذراعها وبدا هو ذاته،كما اعتقدت، يكاد يكون شاحبا عصبيا رغم التأنق الشديد المألوف لملبسه. بدا وقد أمسك به هكذا فى لحظة تكاد تكون ذعرا، شابا بصورة غريبة. تنبه إلى موسيقى الفالس، فتمتم لها بشىء ما، وشفتاه ترتعشان. قادها، فى نفس الوقت، فى وقار بين المناضد حتى طرف باحة الرقص حيث استدارا ليبدآ الرقص فى حركة بطيئة متقنة. انثالت الثقة فى كليهما عند أول حركة كاملة لرقصة الفالس. كان فى وسع المرء أن يرى ذلك. صارا هادئين ساكنين مثل أوراق الشجر. أغلقت سميرة عينيها بينما استعاد أماريل مرحه المعتاد، وبابتسامته الواثقة تفجر التصفيق حولهما من كل مكان، من كل ركن فى غرفة الرقص، حتى النُدل بدوا متأثرين، وتلمس زولتان منديله، فقد كان أماريل حبوبا للغاية.

بدت كليا أيضا وقد هزتها العاطفة هزا شديدا قالت: «أوه، دعنا نأخذ، فى سرعة شرابا. هنالك ثقل هائل فى حلقى، وإن حدث وبكيت، فسوف تفسد زينتى».

انطلقت مدفعية زجاجات الشمبانيا وهى تفتح الآن من كل الأركان.

امتلأت باحة الرقص براقصى الفالس، وألوان الضوء المتغيرة، الآن زرقاء الآن حمراء الآن خضراء. رأيت وجه كليا المبتسم فوق حافة كأس الشمبانيا الذى تحتسيه وعليه تعبير فرحة عابثة، وهى تلتفت نحوى.

«هل يضايقك إن أنا ثملت الليلة قليلا احتفالا بأنفها الناجح؟ أعتقد أنه فى وسعنا الشرب دون تحفظ، فإنهما لن يترك الواحد منهما الآخر أبدا، إنهما ثملان بالحب الفروسى الذى يقرأ المرء عنه فى أساطير الملك آرثر وحاشيته، الفارس والسيدة التى أنقذها. وفى القريب العاجل سوف يكون هنالك أطفال يحملون جميعا أنفى الظريفة اللطيفة».

«لا يمكن أن تكونى على يقين من هذا».

«دعنى أعتقد بذلك».

«دعينا نرقص قليلا».

لحقنا بحشد الراقصين فى الدائرة الكبيرة التى كانت تتأجج بالضوء المنشورى الدوار، نسمع دقات الطبل الناعمة تتخلل دماءنا، تنتقل إلى إيقاعات بطيئة رصينة، أشبه بأكاليل زهور كبيرة من أعشاب بحر ملونة، تتمايل فى بركة ضحلة، مرة مع الراقصين، ومرة كل مع الآخر.

لم نمكث إلى وقت متأخر. ما إن خرجنا إلى الهواء البارد الرطب حتى ارتعشت كليا وسقطت نحوى ممسكة بذراعى.

«ماذا بك؟».

«أحسست بالإغماء فجأة. وقد انتهى ذلك الإحساس».

عدنا إلى المدينة عبر واجهة البحر الخالية من الرياح يخدرنا وقع حوافر الجواد فوق الحصباء، وخشخشة عدته ورائحة التبن وأنغام الموسيقى

الخابية وهى تنساب من غرفة الرقص، تتلاشى بعيدا بين النجوم. دفعنا أجر العربة عند فندق سيسيل. قطعنا الشارع المهجور المتعرج إلى مسكنها وقد تأبط كل منا ذراع الآخر، نسمع خطانا البطيئة وقد ضخمها الصمت. كانت هنالك مجموعة قليلة من الروايات، فى واجهة إحدى المكتبات، وكانت إحداها لبورسواردن. وقفنا لحظة نحملق فى المتجر المظلم، ثم عاودنا سيرنا على مهل إلى مسكنها. قالت: «سوف تدخل لحظة؟».

كان جو الاحتفال، هنا أيضا، واضحا، يتجلى فى الزهور ومنضدة العشاء الصغيرة التى انتصب عليها دلو الشمبانيا. «لم أكن أعرف أننا سنبقى حتى العشاء فى الأوبرج فأعددت ما أطعمك به هنا، إن لزم الأمر»، قالت كليا، وهى تغمس إصبعها فى الماء المثلج. تنهدت فى ارتياح. «يمكننا على الأقل، أن نشرب معًا قبل النوم».

لم يكن هنا، على الأقل، أى شىء يمكن أن يفقد الذاكرة إحساسها بالزمان والمكان أو يشوهها. كان كل شىء كما أتذكره تماما. لقد عدت إلى الغرفة اللطيفة ثانية، كما يلج المرء لوحة أثيرة لديه. هنا كل شىء كما كان، أرفف الكتب المزدحمة، لوحات الرسم الثقيلة، البيان الصغير، مضارب التنس وسيوف لعبة الشيش فى الركن. وانتصب على المكتب بالإضافة إلى الخطابات المختلطة بغير نظام، والرسومات والفواتير، الشمعدان الذى كانت تشعله الآن، وحزمة من لوحات زيتية تقف إلى جوار الحائط. ودرت مرة أو اثنتين، أحملق فيها فى فضول.

«يا إلهى يا كليا، لقد نحوت منحى تجريديا».

«أعرف ذلك! إن بلتازار يكرهها لكنها مجرد مرحلة كما أتوقع، ولذا لا تنظر إليها باعتبارها نهائية أو لا رجعة فيها. إنها طريقة مختلفة يعبئ المرء فيها مشاعره فى الرسم. هل تشمئز منها؟».

«كلا، إنها تبدو أقوى كما أعتقد».

«هوم، إن ضوء الشموع يضفى عليها توزيعا كاذبا للضوء والظلال».

«ربما».

«تعال اجلس، لقد صببت لك شرابا».

جلسنا، كأنما هنالك اتفاق مشترك، نواجه الواحد منا الآخر، فوق السجادة، كما كنا نفعل، فى الغالب، فيما مضى. جلسنا القرفصاء مثل خياطى الثياب الأرمن كما قالت ذات مرة: تبادلنا الأنخاب فى الضوء الوردى للشموع القرمزية التى انتصبت لا تطرف فى الهواء الساكن، تحدد بأشعتها الطيفية فم كليا المبتسم وملامحها الصريحة الصادقة. أخيرا، هنا أيضا فوق تلك البقعة التى لا تنسى، فوق السجادة الباهتة، احتضنا بعضنا البعض بـ ـ كيف يمكن قول ذلك؟ بهدوء باسم جليل، كأن كأس اللغة قد فاض فى صمت، فى تلك القبلات البليغة التى حلت محل الكلمات، أشبه بما يجازى به الصمت ذاته من عطايا، يكمل الفكر والإيماء. كان الوضع أشبه بتكوينات سحابية ناعمة تنساب قطرات من براءة رواية وطهرها، الألم الحقيقى لانتفاء الشهوة وأدركت أن خطاى قد قادتنى، تعود بى ثانية، أتذكر ليلة مضت منذ زمن طويل، عندما رقدنا بلا أحلام كل منا بين ذراعى الآخر، خلف الباب المغلق الذى رفض أن يسمح لى بالدخول إليها. قادتنى، مرة أخرى، إلى تلك النقطة من الزمن، إلى تلك العتبة، التى كان ظل كليا يتحرك خلفها مبتسما، لا يحسب للعواقب حسابا كما زهرة، قادتنى بعد التفاف متعرج مجدب فى تيه خيالاتى، لم أكن أعرف حينئذ كيف يمكننى العثور على مفتاح ذلك الباب. والآن تفتح الباب طوعا فى بطء، بينما الباب الآخر، الذى قدم لى المزيد ذات يوم مع جوستين، قد أغلق إلى غير رجعة. ألم يقل بورسواردن شيئا ما عن «الرسوم

المنزلقة؟» إلا أنه كان يتحدث عن الكتب لا عن القلب البشرى. لم يكن يعكس وجهها الآن أى فكر أو سابق تدبير، لكن فقط، نوعا من التخابث الرائع الذى أمسك بعينيها البديعتين، معبرا عن نفسه فى الطريقة الثابتة الحانية وهى تشد ذراعى داخل كمها لتقدم نفسها لأحضانى، بإيماءة امرأة تتدله حبا، تقدم جسدها إلى عباءة ثمينة لا تقدر بمال. أو أن تمسك بيدى وتضعها فوق قلبها وتهمس، تحسس! لقد توقف عن الخفقان! وهكذا تباطأنا وأطلنا، حتى إننا ظللنا مثل شخوص ذاهلة فى لوحة زيتية منسية، نستطعم، دون عجلة، نكهة السعادة التى تمنح لهؤلاء الذين يمتعون بعضهم البعض دون تحفظ أو ازدراء للذات، دون أردية أنانية مسبقة، دون الحدود المصطنعة للحب البشرى: إلا أن جو الليلة المظلم فى الخارج، امتلأ بصوت شبحى متضخم، مثله مثل خفقات أجنحة هائجةلطائر من زمان ما قبل التاريخ، ليبتلع الحجرة كلها والشموع والشخوص. وارتعشت للعواء الأول البشع لصفارات الإنذار، إلا أنها لم تتحرك. وماجت المدينة بالحياة حولنا كأنها عش نمل. أخذت تلك الشوارع التى كانت غاية فى الظلمة والسكون، تردد الآن صدى وقع الأقدام والناس وهى فى طريقها إلى مخابئ الغارات الجوية. أصوات أشبه بلفحة أوراق خريف تدور فى دوامة صنعتها الرياح، وارتفعت إلى نافذة الحجرة الصامتة الصغيرة شذرات من أحاديث نائمة، صرخات و ضحكات. امتلأ الشارع فجأة كما يمتلئ مجرى نهر جاف عندما تسقط أمطار الربيع.

«كليا، يجب أن تلجئى إلى المخبأ».

إلا أنها ضغطت نفسها أكثر قربا، هازة رأسها كامرئ خدره النوم، أو ربما من الانفجار الناعم للقبلات التى تنبثق مثل فقاقيع الأوكسجين فى دم مريض. وهزهزتها فى رقة فهمست: «إننى شديدة الحساسية للغاية من أن أموت مع جمع من الناس فى مخبأ أشبه بجحر جرذان عجوزة. دعنا نذهب معا إلى الفراش ونتجاهل حقيقة العالم الفظة».

وهكذا غدت المضاجعة نفسها نوعا من تحدى الإعصار الذى يجرى فى الخارج، والذى يطرق ويسحق مثل عاصفة رعدية من المدافع والصفارات، تؤجج السماوات الشاحبة للمدينة بروعة ومضات صواعقها. غدت القبلات ذاتها مشحونة بتأكيدات مقصودة يمكن أن تصدر فقط عن الإدراك المسبق بالموت وحضوره. كان يمكن، حينئذ، أن يكون موت المرء فى أية لحظة، أمرا طيبا، فقد تماسكت أيدى الحب والموت فى مكان ما. كان رقادها هنالك فى حنية ذراعى مثل طائر برى أرهقته نضالاته مع شرك من غصون، حيث العالم كله أشبه بليلة صيف عادية من السلام تعبيرا عن اعتزازها بذاتها أيضا. وتذكرت وأنا أرقد يقظا إلى جوارها، أستمع إلى الضوضاء الجهنمية لطلقات المدافع، وأرى طنات الضوء وقفزاته خلف الستار، كيف أنها ذكرتنى ذات مرة، فى الماضى البعيد، بالقيود التى يثيرها الحب فينا. قالت شيئا ما عن أن قدرته فى كل نفس مقيدة إلى حدود حصة الجندى فى الميدان، مضيفة فى وقار:

«إن الحب الذى تكنه لميليسا، هو ذات الحب الذى يحاول أن يعبر عن نفسه عبر جوستين».

«هل لى تمديدا لهذه الفكرة، أن أجد ذلك حقيقيا أيضا مع كليا؟».

لم أرحب بالتفكير هكذا ـ فتلك الأحضان الطوعية العذبة الغضة كانت فطرية طاهرة مثلها مثل إبداع ما، وليست مثل نسخات رديئة الرسم لأفعال ماضية. كانت هنالك تلك الفلتات المرتجلة للقلب ذاته، أو هكذا قلت لنفسى، وأنا أرقد هنالك، محاولا أن أقبض بشدة من جديد على عناصر المشاعر التى نسجتها ذات يوم حول تلك الوجوه الأخرى. نعم، الفلتات التى تهبط على الحقيقة ذاتها، والمجردة، لمرة واحدة على الأقل، من نبضات الإرادة المرة.

لقد أبحرنا كلية فى تلك المياه الهادئة دون تدبير سابق. تزاحمت كل الأشرعة، ولأول مرة يكون إحساسى طبيعيا بوجودى حيث كنت، أنجرف إلى النوم وجسدها الهادئ يرقد إلى جوارى. إن كل رشق المدافع بتموجاته الطويلة،والذى يهز الدور هكذا، بل وحتى وابل الشظايا الذى يكنس الشوارع، لم يستطع أن يثير قلق الصمت الحالم الذى كنا نجنيه معا. أوقدت ـ عندما استيقظنا لنجد كل شىء صامتا ـ شمعة واحدة. ورقدنا فى ظل ضوئها المرتعش، ينظر الواحد منا للآخر ونتحدث همسا.

«إننى دوما رديئة فى المرة الأولى، لماذا يحدث هذا الأمر هكذا؟».

«وأنا كذلك».

«هل أنت خائف منى؟».

«كلا ولا من نفسى».

«هل تصورت حدوث ذلك أبدا؟».

«كان على كلينا أن يفعلها، وإلا ما كانت تحدث».

«صمتا! اسمع».

كان المطر يتساقط فى ستائر، كما يفعل فى الغالب قبل فجر الإسكندرية، يثير قشعريرة الهواء، يغسل أوراق النخيل التى تطقطق متيبسة فى حدائق البلدية، يغسل الحواجز الحديدية للبنوك والأرصفة. وتفوح الشوارع المتربة فى المدينة العربية برائحة تشبه رائحة مقبرة حديثة الحفر وباعة الورد لا بد قد أخرجوا ما لديهم من زهور حفاظا على نضارتها. إننى أتذكر نداءهم: «القرنفل، طيب الرائحة كأنفاس فتاة!». وانسابت من الميناء روائح القار والأسماك والشباك المليئة عبر الشوارع المهجورة، لتلتقى بتجمعات هواء الصحراء عديمة الرائحة، والتى يمكن

فيما بعد، مع أول شعاع ضوء للشمس أن تدخل المدينة من الشرق، تجفف واجهات بيوتها الرطبة. وفى مكان ما، ولفترة قصيرة، كانت لوعة الماندولين الناعسة تنخس صوت المطر الخافت، تنقش فوقه جوا محدودا يشوبه التأمل والكآبة. وخشيت دخول فكرة أو هاجس يقحم نفسه وسط تلك اللحظات من السلم الباسم، أن يثبطها، أن يحيلها إلى أدوات للحزن. فكرت أيضا فى الرحلة الطويلة التى قطعناها من هذا الفراش بذاته، منذ رقدنا هنا معا آخر مرة، يأسرنا ثانية مجال جاذبية المدينة. دورة جديدة تتفتح بما تعد به مثل تلك القبلات وربتات التحبب التى تبعث الدوار، والتى فى وسعنا الآن تبادلها، إلى أين يمكن أن تحملنا؟ فكرت فى بضع كلمات لأرناؤوطى، كتبت عن امرأة أخرى، وفى سياق آخر: «أنت تقول لنفسك إن تلك التى بين ذراعيك امرأة. لكنك وأنت تراقبها نائمة، سوف ترى نموها الكلى فى ذات اللحظة، تفتح خلاياها الذى لا يخطئ. إنها تتجمع، تنظم نفسها فى ذلك الوجه المحبوب والذى سوف يظل دوما غامضا وإلى الأبد، تكرر إلى ما لا نهاية تلك الحدبة الطرية للأنف البشرية، وأذن استعيرت من صدفة حلزون بحرى، وحاجب عينى تراه وقد تشكل على منوال السراخس، أو شفتان ابتدعتا من محارة ذات مصراعين وقد اتحدا فى نومها. إن كل هذه العملية عملية إنسانية، تحمل اسما يخترق قلبك، وتقدم لك حلما مجنونا عن الخلود الذى يدحضه الزمن مع كل نفس يدخل الإنسان. ماذا لوكانت الشخصية البشرية وهما؟ وماذا لو كانت تحل محل كل خلية فى أجسادنا،كما يخبرنا علم الأحياء، خلية أخرى كل سبعة أعوام؟ المسألة على أكثر تقدير، أننى أمسك بين ذراعى شيئا ما أشبه بينبوع من لحم، دائم اللهو والتلاعب، وفى عقلى أنا قوس قزح من تراب». وسمعت صوت بورسواردن الحاد، يجىء كالصدى من الطرف الآخر للبوصلة، قائلا، ليس هنالك من شخص آخر، هنالك ذات المرء فقط وهو يواجه إلى الأبد مشكلة اكتشاف نفسه.

وانجرفت مرة أخرى إلى النوم ، وعندما استيقظت مجفلا كان الفراش خاليا، والشمعة ذابت وانطفأت. كانت تقف عند الستائر وقد أزاحتها لتراقب ظهور الفجر فوق الأسطح المختلطة للمدينة العربية، عارية ونحيلة مثل زنبقة عيد الفصح. وتلقفت مع مشرق شمس الربيع، بنداء الكثيف المرسوم فى خطوط فوق الصمت الذى يغلف المدينة كلها قبل أن توقظها الطيور، الصوت العذب للمؤذن الأعمى من الجامع ينشد العبد(*) صوت معلق كشعرة فى أجواء الإسكندرية العليا بنخيلها البارد: «أسبح بكمال الخالق، الموجود إلى الأبد، الإله الكامل، المبتغى، الواحد، الأسمى، كمال الخالق الواحد الأحد».... وأدارت الصلاة العظمى نفسها فى لفات متألقة عبر المدينة، بينما أراقب وقار وحدة عاطفتها وهى تدير رأسها من حيث كانت تقف لتشاهد الشمس المتسلقة تلمس بالضوء المنائر وأشجار النخيل: مستغرقة ومسيتقظة. وشممت، وأنا أستمع، رائحة شعرها الدافئة إلى جوارى فوق الوسادة. وتملكتنى فرحة بحرية جديدة أشبه بجرعة مما كان القابال يقول عنها ذات يوم: «ينبوع كل ما هو موجود» وناديت «كليا»، فى رقة، إلا أنها لم تتنبه إلى، وهكذا نمت مرة أخرى. كنت أعرف أن كليا سوف تشاطرنى كل شىء، دون أن تحتجز شيئا ـ ولا حتى نظرة الرفقة التى تحتفظ بها النساء لمراياهن فقط.

* * *

(*) بالعربية بحروف لاتينية.

[٢]

استدعتنى المدينة ثانية، نفس المدينة التى غدت الآن أقل صرامة وأقل إثارة للرعب، على نحو ما، عما كانت عليه فى الماضى، وذلك بسبب بعض الإحلالات الزمنية الجديدة. كانت بعض أجزاء النسيج القديم قد بليت، إلا أن أجزاء أخرى تجددت. كان لدىّ، فى الأسابيع القليلة الأولى لعملى فى وظيفتى الجديدة، ما يكفى من الوقت كى أمارس كلّا من إحساسى بالألفة والاغتراب، أن أقيس الاستقرار فى مواجهة التغيير والماضى فى مواجهة الحاضر ـ وإن كان مجتمع أصدقائى قد ظل نسبيا كما كان، فإن مؤثرات جديدة قد دخلت، رياح جديدة قد هبت. لقد بدأنا جميعا، مثلنا مثل تلك الشخوص الموجودة فوق الأقراص الدوارة فى متاجر تجار المجوهرات، ندير وجوها جديدة نحو بعضنا البعض. إن الظروف قد ساعدت أيضا على توفير لحن جديد يصاحب اللحن القديم. كان من الواضح أن الجزء الذى لم يتغير من المدينة قد دخل الآن تحت مظلة الحرب. لقد جئت لأراها كما يجب دوما أن تكون، ميناء بحريا صغيرا رثا، بنى فوق شعاب رملية، جدول مياه راكدة بلا روح، يشرف على الموت. إن هذا العامل المجهول، «الحرب» قد منحها، حقيقة نوعا خادعا من القيمة العصرية، إلا أن هذا ينتمى إلى العالم الخفى للاستراتيجيات والجيوش، وليس إلينا نحن قاطنى المدينة. لقد تضخم سكانها بآلاف

عدة من اللاجئين الذين يرتدون زيا خاصا، جذبتهم تلك الليالى الطويلة المشحونة بالكرب والألم الكئيب، والتى كانت خطرة نسبيا، حيث قصر العدو عملياته بدقة على منطقة الميناء. كانت منطقة صغيرة فقط من الحى العربى هى التى وقعت تحت النيران مباشرة، وظل الجزء العلوى من المدينة دون مساس نسبيا، إلا من خطأ فى التحكم، تحكمه المصادفة. كلا، كان الميناء فقط هو الذى يخمشه العدو، ويخمشه مثل كلب اشتعل بالجرب. كان رجال البنوك يصرفون أعمالهم، خلال النهار، على بعد ميل من الميناء كأنهم يتمتعون بمناعة نيويورك. كان اقتحام عالمهم أمرا نادرا وعرضيا. كانت رؤية واجهة متجر جرى نسفها تبدو كمفاجأة مؤلمة، كذا رؤية منزل آهل بالسكان وقد تفجر داخله إلى خارجه، وكل ملابس سكانه تتدلى قلائد من الأشجار المجاورة. لم يكن هذا جزءا مما هو متوقع للأشياء باعتباره أمرا طبيعيا. كان له وقع الصدمة التى تحدث فقط، وبصورة نادرة، عند وقوع حوادث الشوارع المفزعة.

كيف تغيرت الأمور؟ لم يكن ذلك هو الخطر حينذاك، لكن كانت هنالك خاصية أخرى أيسر تحليلا هى التى جعلت فكرة الحرب أكثر تميزا، إنه الإحساس بتغير ما فى الكثافة النوعية للأشياء. كان الأمر وكأن الأوكسجين المحتوى فى الهواء الذى نتنفسه يتناقص باطراد، يوما بعد يوم وبطريقة غير مرئية. وجاءت، جنبا إلى جنب، مع هذا الإحساس، بتسمم الدم الذى لا تفسير له، ضغوط أخرى مادية خالصة تسببت فيها الأعداد المتغيرة الهائلة من الجنود، وقد أطلق الموت المزدهر فيهم العواطف والفجور المدفونة فى كل قطيع. إن مرحهم العنيف إنما هو محاولة مستميتة لمجاراة ثقل الأزمة التى وضعوا فيها. كانت ثوراتهم الهائجة التى تتفجر عن ضغينة مستترة وضجر وسأم ترهق المدينة وتتلفها، فى بعض الأحيان، حتى يشحن الجو بروح الكرنفال المجنونة. الباحثون

عن المتعة الحزينة البطولية، يثيرون الاضطراب والتمزق فى كل التآلف والتوافق القديم، الذى كانت تقوم عليه العلاقات الشخصية، ينهكون ويرهقون الصلات التى تربطنا ببعضنا البعض. كنت أفكر فى كليا وما يثير اشمئزازها من الحرب وكل ما كانت تناصره. كانت تخاف، كما أعتقد، أن تسمم هذه الحرب العالمية المنتشرة حولها، وحقيقتها الفظة المغموسة فى الدماء، قبلاتنا وتلوثها، ذات يوم.

«إنه من الصعوبة بمكان أن يحتفظ المرء برأسه، أن يتفادى هذا الاندفاع الجنسى الغريب للدم إلى الرأس، والذى يجىء مع الحرب، يستثير النساء بما يتجاوز قدرتهن على الاحتمال، لم أكن أتصور أن رائحة الموت يمكن أن تستثيرهن هكذا!

«دارلى، إننى لا أود أن أكون جزءا من هذه الخلاعة العقلية المريضة، ذلك الفيض من المواخير، وكل هؤلاء الرجال البؤساء يتزاحمون هنا. لقد غدت الإسكندرية ملجأ هائلا للأيتام. كل امرئ يغتصب الفرصة الأخيرة فى حياته. أنت لن يمضى عليك طويل وقت هنا حتى تحس بهذا الإنهاك، الذى يفقد المرء معرفته بوجهته. لقد كانت المدينة دوما محافظة، تمارس متعها بطريقة تتمسك بالسير على الوقع القديم، حتى فى مسألة السرر المؤجرة، إلا أنها لم تمارسها أبدا مستندة إلى حائط أو شجرة أو سيارة نقل! الآن تبدو المدينة، فى بعض الأحيان، أشبه بمبولة عامة كبيرة. إنك تتعثر فى أجساد السكارى وأنت عائد إلى منزلك ليلا. إننى أعتقد أن الظلمة قد سلبت منها حتى القدرة على تحقيق الشهوة، فكان الشراب هو العوض عن هذه الخسارة! إلا أنه ليس لى مكان فى كل هذا. إننى لا أستطيع أن أرى هؤلاء الجنود كما يراهم بومبال. إنه يتأملهم منتشيا كطفل، وكأنهم جنود من رصاص لامع، إنه يرى فيهم الأمل الوحيد لتحرير فرنسا. إننى أحس فقط بالخجل من أجلهم، كما يحس المرء وهو يرى أصدقاءه فى لباس

المجرمين. إننى أحس، إن استبعدنا الخجل والإشفاق، أننى أدير وجهى بعيدا. أوه دارلى! إن الأمر لا يبدو مقبولا تماما من الناحية العقلية، فأنا أدرك أننى أوقع بهم ظلما غريبا. من المحتمل أن يكون ذلك مجرد أنانية، لذا فإننى أفرض على نفسى تقديم الشاى لهم فى المقاصف المختلفة، ألف لهم الضمادات، أنظم الحفلات الموسيقية. إلا أننى أحس فى أعماقى أننى أتضاءل كل. يوم لقد آمنت دوما، رغم ذلك، أن حب البشر يمكن أن يزدهر بقوة أكبر، إن انبثق من نكبة مشتركة. ليس هذا صحيحا. إننى أخشى الآن أن تبدأ أنت أيضا فى التقليل من حبك لى، بسبب هذا الفكر الذى يتسم بالسخف، هذه المشاعر المنفعلة التى تثير النفور. أن نجلس هنا، أنا وأنت فقط، فى ضوء شمعة، يكاد يكون معجزة فى هذا العالم. ليس فى مقدورك أن تلومنى لمحاولتى ادخار هذه اللحظة وحمايتها فى مواجهة العالم الخارجى الذى يقتحم حياتنا. هل فى مقدورك أن تفعل ذلك؟ وللغرابة، فإن أكثر ما أكرهه فى كل ما يجرى، هو الإفراط فى رقة العاطفة والتى يصدر العنف عنها فى النهاية»!

فهمت ما كانت تعنيه، وما كانت تخافه، ومع ذلك، ففى أعمق أنانيتى الداخلية كنت سعيدا بهذه الضغوط الخارجية، إذ إنها حددت معالم عالمنا بدقة، دفعتنا معا أقرب وأقرب، عزلتنا! كان على أن أقبل، فى الزمن الماضى، بأن يشاركنى فى كليا مضيف آخر من الأصدقاء والمعجبين، أما الآن، فلا.

ومن الغريب أيضا، أن بعض تلك العوامل حولنا، والتى تدخلنا فى شباك نضالاتها الميتة، قد منحت عاطفتنا الجديدة أداء لا يقوم على اليأس، لكنه يقوم، على أى حال، وبالتأكيد أيضا، على إحساس بالوقتية فقط وعدم الدوام، كانَ من نفس طراز ذلك الهياج التناسلى للجيوش المختلفة، والذى يتسم بالخلاعة والتهتك الكئيب، وإن كان مختلفا فى النوع. كان

من المستحيل تماما إنكار حقيقة أن الموت، على وجه التحديد (والذى ليس فى القرب منا، وإن كان فى الجو حولنا) يشحذ القبلات ويضيف توقدا يتجاوز القدرة على الاحتمال لكل ابتسامة وضمة يد. لم أكن جنديا، ورغم ذلك، فإن علامة الاستفهام القاتمة كانت تحوم فوق أفكارنا، إذ إن الموضوعات التى تشغل القلب كان متأثرة بشىء ما، نحن جميعا جزء منه، مهما كان ذلك على مضض: إنه عالم بأكمله، إن الحرب مالم تكن تعنى طريقة للموت، فإنها تعنى طريقة للشيخوخة، لتذوق الابتذال البشرى، ولتعلم مواجهة التعبير فى شجاعة. لا أحد يستطيع التكهن بما يرقد خلف الباب المغلق لكل قبلة. كنا نجلس فى تلك الأمسيات الهادئة الطويلة، قبل أن يبدأ القصف بالقنابل، فوق السجادة المربعة الصغيرة، فى ظل ضوء الشموع، نناقش تلك القضايا، نقاطع صمتنا بالأحضان، والتى كانت هى الإجابة الوحيدة غير الوافية التى يمكن أن نقدمها لما عليه البشرية من وضع. كنا ونحن نرقد كل فى حضن الآخر، خلال تلك الليالى الطويلة بنومها المتقطع، تحطمها صفارات الإنذار، لا نتحدث عن الحب أبدا (كأنما باتفاق سابق)، ربما كان نطق الكلمة اعترافا منا بنوع من الحالات الأكثر ندرة وإن كانت أقل كمالًا من تلك الحالة التى تأخذ الآن بألبابنا، تكمل تماما هذه العلاقة التى حدثت دون تدبير سابق هناك، فى مكان ما، فى كتاب «عادات»(*) تنديد عاطفى بهذه الكلمة. إننى لا أستطيع تذكر على لسان من وضع هذا القول، ربما على لسان جوستين: «يمكن تعريفه كنمو سرطانى مجهول الأصل، اتخذ موضعه فى أى مكان دون معرفة من أصيب به أو رغبته. كم حاولت أنت عبثا أن تحب الشخص «الصحيح»، حتى بعد معرفة قلبك أنه قد عثر عليه بعد طول بحث؟ كلا، إن هدب عين، عطر، مشية كالطيف، حبة كرز فوق الرقبة، رائحة اللوز

(*) بالفرنسية فى الأصل.

فى الأنفاس، إنما تشكل كلها العناصر المتواطئة التى تبحث الروح عنها لتخطط لسقوطك وهزيمتك».

إننى عندما أفكر فى تلك المقاطع، وهى كثيرة فى ذلك الكتاب، بما تحتويه من فراسة وحشية، أستدير إلى كليا النائمة، أتأمل المنظر الجانبى الهادئ لوجهها حتى... حتى أستوعبها، أنهلها كلها، دون أن أريق منها قطرة واحدة، أن أمزج نبضات قلبى بنبضاتها «إننا إن أردنا أن نكون قريبين بأية وسيلة، فإننا سنظل بعيدين تماما عن بعضنا البعض»، هكذا كتب الأرناؤوطى.

بدا أن هذا ليس صحيحا بعد بالنسبة لظروفنا. أم هل كنت، فى بساطة، أخدع نفسى مرة أخرى، أحرف الحقيقة بما ورثته رؤياى من فوضى واضطراب؟ إننى، وياللغرابة الشديدة، لم أعد أعرف الآن أو أبالى. أوقفت عقلى عن البحث والتدقيق، تعلمت أن آخذها كما آخذ جرعة صافية من نبع ماء.

«هل كنت تراقبنى وأنا نائمة؟».

«نعم».

«هذا ظلم! ولكن فيم كنت تفكر؟».

«أشياء كثيرة».

«من الظلم أن تراقب امرأة نائمة، فى حالة من اللاوعى».

«لقد غيرت عيناك لونهما مرة أخرى. هل تدخنين؟».

(فم تلطخ أحمر شفاهه قليلا تحت القبلات، الشولتان الصغيرتان اللتان تكادان تكونان نتوءين، متأهبتين للتحول إلى غمازتين، عندما تأخذ البسمات

الكسولة طريقها إلى السطح. إنها تتمطى، تضع ذراعيها تحت رأسها، تدفع إلى الخلف بقمة شعرها الأشقر الذى يمسك ببريق ضوء الشمعة. لم تكن تمتلك فى الماضى هذا السلطان على جمالها. لقد أصبحت تمتلك إيماءات جديدة وحركات جديدة، واهنة ضعيفة، لكنها كافية للتعبير عن هذا النضج الجديد. حسية صافية لا يشتتها التردد، أو ما تلقيه على نفسها من أسئلة. تحولت الأوزة الساذجة القديمة إلى هذه الشخصية اللطيفة، المؤثرة حقا، المنسجمة الروح والجسد تماما كيف حدث هذا؟).

أنا: «كيف استطعت بحق الشيطان الحصول على كتاب بورسواردن المبتذل ذاك؟ لقد أخذته اليوم معى إلى مكتبى».

هى: «ليزا، لقد طلبت منها شيئا يذكرنى به. إنه أمر سخيف، كأنما يمكن للمرء أن ينسى هذا الوحش. إنه فى كل مكان. هل أفزعتك مذكراته؟».

أنا: «نعم. لقد بدا الأمر وكأنه قد ظهر إلى جوارى. إن أول ما وقعت عليه كان وصفا لرئيسى الجديد، ماسكيلين بالاسم. يبدو أن بورسواردن قد عمل معه ذات يوم. هل أقرؤها لك؟».

هى: «إننى أعرفها».

(كان مثل الغالبية من مواطنىّ يحمل شعارا يدويا كبيرا مزخرفا يتدلى على مقدمة عقله، يقول، لا إقلاق مهما كان السبب، كان يضبط، فى وقت ما فى الماضى البعيد، مثل ساعة من كوارتز. سوف يواصل طريقه ثابتا لا يتردد «مثل آلة ضبط الزمن لا تجعل غليونه يثير فزعك، فالمقصود به إعطاء جو من يحكم بالعدل والحق. الرجل الأبيض يدخن نفخات فى نفخات، الرجل الأبيض يمعن التفكير فى نفخات. والحقيقة أن الرجل الأبيض نائم فى عمق تحت شعارات المكتب، الغليون، الأنف، المنديل المنشى حديثا والبارز من كم قميصه»).

هى: «هل قرأتها لماسكلين؟».

أنا: «بالطبع كلا».

هى: «هنالك فيها، عنا جميعا، أشياء جارحة. ربما كان ذلك هو سبب استحسانى لها! كان فى وسعى أن أسمع صوت الوحش وهو ينطقها. إننى أعتقد أننى الوحيدة، كما تعرف يا عزيزى، التى أحبت بورسواردن العجوز لذاته، بينما كان حيا. كنت أعرف ما يقصد. إننى أقول: إننى أحببته لذاته، لأنه تحديدا لم يكن له ذات. بالطبع كان فى وسعه أن يكون متعبا، صعبا، قاسيا، مثله فى ذلك مثل أى شخص آخر. إلا أنه تمثل شيئا ما ـ قبضة من شىء ما. ذلك هو السبب فى أن عمله سوف يبقى حيا، يمضى قدمًا، يبعث ضوءا، هذا ما يمكن قوله. أشعل لى سيجارة. لقد نحت لنفسه موطن قدم فى جرف الجبل، أعلى قليلا مما كنت أجرؤ على الذهاب إليه، النقطة التى ينظر المرء منها إلى القمة لأنه يخاف النظر إلى أسفل! لقد قلت لى إن جوستين قالت شيئا كهذا. أعتقد أنها قد توصلت إلى نفس الشىء بطريقة ما، إلا أننى أظن أنها كانت ممتنة له، مثلها مثل حيوان أخرج له سيده شوكة من كفه. لقد كانت فراسته أنثوية للغاية، وأشد حدة من فراستها ـ أنت تعرف أن النساء يحببن بالغريزة، ذلك الرجل الذى يتمتع بكثير من الأنوثة. إنهن يظنن بأن هنالك فقط، يوجد المحب الذى فى استطاعته أن يحقق هويته معهن لـ... يخلصهن من مجرد كونهن نسوة، وسيط كيميائى، مسن أمواس، مسن زيت. إن كثرتهن تحب لعب دور أداة اللذة(*)!».

أنا: «لماذا تضحكين فجأة هكذا؟».

«كنت أتذكر كيف تصرفت بطريقة حمقاء مع بورسواردن. إننى أعتقد بضرورة أن أخجل مما فعلت! سوف ترى ماذا كتب عنى فى مفكرته. إنه

(*) بالفرنسية فى الأصل.

يدعونى بالأوزة الهانوفرية الريانة، الفتاة الوحيدة الجميلة بحق. إننى لا أستطيع تذكر ما الذى سيطر علىّ، غير أنى كنت قلقة على ممارستى لفن الرسم بالزيت، لقد نضب منى. لم أعد أستطيع التقدم بصورة ما، أصبح قماش الرسم يصيبنى بالصداع. وأخيرا قررت أن مسألة عذريتى، التى تعصف بى، هى السبب الجذرى لهذه المشكلة. أنت تعلم أنها مسألة رهيبة أن تكون الفتاة عذراء؛ إنها أشبه بعدم دخول المرء إحدى الكليات، أو حصوله على البكالوريوس، أنت تتوق إلى التخلص منها، ومع ذلك.. وفى نفس الوقت، يجب أن تكون تلك التجربة مع شخص تهتم أنت به، وإلا فإنها سوف تكون بلا قيمة لك فى داخلك. حسنا، هنا توقفت. وقررت بضربة من تلك الضربات الخيالية المتميزة والتى كانت تؤكد، فى الماضى، غبائى لكل امرئ. خمن ماذا قررت؟ أن أقدم نفسى جادة إلى الفنان الوحيد الذى كنت أعرف أننى أستطيع الثقة به، حتى يخلصنى من شقائى. فكرت أن بورسواردن سوف يدرك حالتى وبعض التقدير لمشاعرى. إننى أحس البهجة وأنا أتذكر ارتدائى حلة ثقيلة للغاية من قماش التويد وحذاء مسطحا ونظرات داكنة. كنت وجلة خجولة، كما ترى، وإن كنت أيضا مستميتة بنفس القدر. وأخذت أسير جيئة وذهابا، فى ممر الفندق خارج حجرته، فى يأس وتوجس، والنظارة القاتمة مشدودة إلى أنفى. كان هنالك فى الداخل. كان فى وسعى أن أسمعه يصفر كما يفعل دائما عندما يرسم بالألوان المائية، صفارة بلا نغم، تثير الجنون. وأخيرا اقتحمت عليه الحجرة مثلما يفعل رجل الإطفاء منقضا على بناية تحترق، مما أثار فزعه. قلت وشفتاى ترتعشان: «لقد جئت أسألك أن تزيل بكارتى (*) أرجوك، إننى لن أستطيع التقدم فى عملى، أكثر من ذلك، مالم تفعلها».

(*) بالفرنسية فى الأصل.

قلتها بالفرنسية. فقد كانت فى الإنجليزية ذات جرس قذر. وجفل. كل أنواع العواطف المتصارعة مرقت عبر وجهه مدة ثانية. ثم، وقد انفجرت دموعى جلست فجأة فوق مقعد. ألقى برأسه إلى الوراء وأخذ يزأر ضاحكا حتى سالت دموعه على وجنتيه، بينما جلست أنا هنالك بنظارتى القاتمة ألتقط أنفاسى.

«أخيرا انهار مرهقا فوق سريره، ورقد يحملق فى السقف. ثم نهض، وضع ذراعيه على كتفىّ، أزاح نظارتى، قبلنى، أعادها ثانية، وضع راحتيه على ردفيه وأخذ يضحك ثانية، قال: «عزيزتى كليا، إنه حلم أى إنسان أن يأخذك إلى الفراش، وإنى لأعترف أننى قد سمحت كثيرا لهذه الفكرة بالتواجد فى ركن من عقلى أتساءل حولها ولكن.. يا أعز ملاك، لقد أفسدت كل شىء. ليست هذه هى طريقة التمتع بك، كما أنها ليست الطريقةالتى تمتعين نفسك بها. اغفرى لى ضحكاتى! لقد أفسدت حلمى بطريقة فعالة. إن تقديم نفسك إلىّ بهذه الطريقة، دون أن تكونى راغبة فىّ، إنما هو إهانة لاعتزازى بذكورتى، حتى إننى لا أستطيع، فى بساطة، الإذعان لمطلبك. إن اختيارك لى، دون غيرى، إنما هو تكريم لى، كما أعتقد إلا أن اعتزازى بذاتى أكبر من ذلك! إن مطلبك، إنما هو فى الحقيقة أشبه بدلو أفرغ فوق رأسى! سوف أعتز دوما بهذا التكريم. وآسف على الرفض، ولكن... لو أنك تخيرت طريقة أخرى لفعلها، لأسعدنى قيامى بها سعادة فائقة! لماذا كان عليك أن تدعينى أرى أنك لا تهتمين بى حق الاهتمام(*)؟

«مخط فى وقار فى ركن الملاءة. أخذ نظارتى، وضعها على أنفه ليرى نفسه فى المرآة. عاد يحملق فىّ حتى فاضت التمثيلية الهزلية مرة أخرى، وأخذنا نضحك نحن الاثنين. وأحسست بشعور فظيع بالراحة. وافق،

(*) بالفرنسية فى الأصل.

عندما أخذت أصلح زينتى التى تلفت فى المرآة، على أن آخذه إلى العشاء لنناقش مشكلة الرسم بالزيت فى أمانة رائعة كريمة. استمع المسكين فى صبر لما قلته من هراء! قال: «فى وسعى أن أخبرك فقط بما أعرف، وهو ليس بالكثير. أولا يجب أن تعرفى وتفهمى، ذهنيا وفكريا، ما الذى تودين فعله، ثم عليك أن تمارسى قليلا من المشى، وأنت نائمة لتصلى إليه. إن العقبة الأساسية هى المرء ذاته. إننى أؤمن أن الفنانين يتكونون من الاعتداد والاعتزاز، البلادة والتنبلة والإعجاب بالذات. إن عوائق العمل إنما تتأتى من تضخم الأنا على واحدة من تلك الجبهات أو عليها كلها. أنت تفزعين قليلا لما تتخيلينه من أهمية لما تقومين به من أعمال! إنها عبادة المرآة. إن الحل الذى أراه هو أن تضعى كمّادة فوق تلك الأجزاء المتلهبة، أن تقولى للأنا الخاصة بك، اذهبى إلى الجحيم، ولا تكونى مصدر شقاء، لما يجب أن يكون أساسا، مصدر مرح وفرح» قال فى ذلك المساء أشياء أخرى كثيرة، إلا أننى نسيت البقية. إلا أن مجرد الحديث إليه كان شيئا مثيرا للضحك، مجرد أن يتحدث إليك، أوضح الطريق أمامى ثانية وفى اليوم التالى أرسل لى ورقة من الملاحظات التنبؤية عن الفن(ф). وبدأت العمل، مرة أخرى، فى صبيحة اليوم التالى، صافية مثل ناقوس. ربما كان، بطريقة ما تثير الضحك، قد نزع بكارتى (*) وأسفت أننى لم أكن مستطيعة مكافأته بما يستحق، لكننى أدركت أنه كان على صواب. كان علىّ أن أنتظر عودة المد. ولم يحدث ذلك إلا مؤخرا، وأنا فى سوريا، فيما بعد. كان فيه، عندما جاء، شىء مر وحاسم. وارتكبت نفس الأخطاء المعتادة التى يرتكبها المرء لانعدام الخبرة، والتى عليه أن يدفع بسببها، هل أخبرك بما حدث؟».

أنا: «إن أردت أنت ذلك فقط».

(*) بالفرنسية فى الأصل.

هى: «لقد وجدت نفسى فجأة، وبلا أمل، قد ارتبطت بشخص كنت قد أعجبت به منذ سنوات عدة مضت، إلا أننى لم أتصوره أبدا فى مقام المحب، لقد ألقت بنا المصادفة معًا لشهور قليلة قصيرة. إننى لا أعتقد أن أيًا منا قد تنبأ بهذه الصاعقة.

«أمسكت النار بكلينا، وكأن كأسا خفية مشتعلة كانت تصلينا بنارها، فى مكان ما هناك، دون أن نعى ذلك. كان غريبا أن تكون تجربة جارحة هكذا، تجربة جيدة أيضا هكذا. إيجابية الخصوبة هكذا كنت، كما أعتقد، أتلهف، إلى حد ما، كى أجرح ـ وإلا ما كنت فعلت الأخطاء التى فعلتها. كان شخصا مرتبطا بالفعل بأخرى. وهكذا لم يكن هنالك البتة، منذ البداية، ادعاء أو دوام لارتباطنا. ومع ذلك (وهنا يجىء غبائى المشهود مرة أخرى) رغبت فى أن أحصل على طفل منه. إن التفكير للحظة فقط كان كفيلا بأن يوضح لى استحالة هذا الأمر، إلا أن التفكير للحظة، ذاك، جاء فقط بعد أن غدوت حبلى بالفعل. واعتقدت أننى لن أبالى، إن كان لا بد أن يذهب بعيدا، وتزوج من واحدة أخرى، فأنا على الأقل، أحمل طفله، بين جنباتى! إلا أننى ما إن اعترفت بذلك، وفى ذات اللحظة التى خرجت فيها الكلمات من شفتى، استيقظت فجأة وقد أدركت أن ذلك سوف يخلق بينى وبينه رباطًا أبديًا ليس لى الحق فيه. وحتى أضع الأمر جليا واضحا، فقد كان ذلك يعنى حصولى منه على مزية، أخلق له مسئولية، لا بد أن تعيقه وتقيده خلال زواجه. هبطت على الفكرة فى لمح البصر، فابتلعت لسانى. كان حسن حظى كبيرا فلم يسمع كلماتى. كان يرقد هكذا مثلك الآن، نصف نائم، ولم تلتقط أذناه همسى قال، «ماذا قلت؟» واستبدلت ما قلت بشىء آخر، جاء عفو الخاطر وغادر سوريا بعد شهر من ذلك. كان يوما مشمسا مشحونا بطنين النحل، وأدركت أنه يجب على أن أتخلص من الطفل لقد أسفت لذلك أسفا مريرا، إلا أنه، على ما يبدو، لم يكن هنالك من وسيلة

شريفة أخرى لمعالجة الأمر. سوف تعتقد، على الأرجح، أننى كنت مخطئة، لكننى سعيدة إذ اتخذت هذا السبيل، حيث كان من الممكن أن يخلد شىء ليس له حق الوجود خارج هذه الشهور الذهبية القليلة. إننى، بغض النظر عن ذلك، ليس لدى ما آسف عليه. لقد نموت نموًا لا حد له بسبب هذه التجربة. لقد أفعمت بالامتنان ومانلت كذلك. وإن كنت أنا الآن سخية فى مضاجعتى، فما ذاك إلا لأنى أرد ما على من دين. وأحيل حبا قديما اقترضته، فيما مضى، إلى حب جديد.

«دخلت أحد المستوصفات لأنهى هذا الأمر. وفيما بعد نادانى الرجل العجوز الحنون طبيب التخدير إلى بالوعة قذرة ليرينى القزم الصغير الشاحب بأظفاره وأعضائه الدقيقة، وبكيت فى مرارة. بدا مثل صفار بيض وقد سحق سحقا. وقلبه العجوز فى فضول، بشىء أشبه بسكين الصيدلى، كما يمكن للمرء أن يقلب شريحة رقيقة من لحم الخنزير المقدد فى مقلاة، وعجزت عن مجاراة فضوله العلمى المجرد. ابتسم وقال، «لقد انتهى الأمر لا بد أنك تحسين بالراحة!» كان ذلك حقيقيا، إذ رغم حزنى، كان هنالك ارتياح حقيقى بالفعل لأنى فعلت ما كنت أراه صوابا. كان هنالك، كذلك شعور بالضياع أحس قلبى وكأنه عش عصفور الجنة وقد سطا عليه من سرقه.

«وهكذا عدت مرة أخرى إلى الجبال، إلى نفس الحامل وقماش الرسم الأبيض. كان الأمر مثيرا للضحك، إذ أدركت بدقة أن أكثر ماجرحنى كامرأة، هو أكثر ما أنعشنى كفنانة. إلا أننى افتقدته بالطبع لزمن طويل. مجرد كائن مادى يفرض صلته دون إدراكى، مثل قطعة من ورق السجائر على الشفة. إن جذبها موجع، يسلخ أجزاء من الجلد! تؤلم أو لا تؤلم، أمر تعلمت احتماله، بل وحتى التعلق به. إذ مكننى من الوصول إلى تفاهم مع تخيل آخر، أو بالأحرى رؤية العلاقة بين الجسد والروح على

نحو جديد، حيث إن بنية الجسد ليست إلا السطح الخارجى، الخطوط المحيطة بالروح، جزؤها الصلب إذ عبر الشم والمذاق والملمس نفهم بعضنا البعض، نشعل عقل بعضنا البعض. التعريف تنقله رائحة الجسد بعد رعشة الجماع، النفس، مذاق اللسان، رغم أن المرء «يعرف» كل تلك الأشياء بطريقة بدائية ، هنا كان يوجد رجل عادى تماما دون مواهب استثنائية، إلا أنه كان بالنسبة لى، حسنًا جدًا، فى مجاله ومحيطه، هكذا يمكن القول، كان يفوح بشذا الأشياء الطبيعية الجيدة. مثل الخبز حديث النضج، البن المحمص، البارود وخشب الصندل. إننى أفتقده، عند تناول هذا المجال من الحديث، كما أفتقد وجبة لم أشبع منها. إننى أعرف أن لقولى هذا جرسا سوقيا!

«إن بارا سلسيوس يقول: «إن الأفكار إنما هى أفعال». وأنا أعتقد أن الجنس، منها كلها، هو أكثر الأفعال أهمية، أكثر فعل تكشف فيه أرواحنا عن ذواتها. ومع ذلك، فإن المرء يحس به كنوع من التعبير الشعرى، العقلى، الفكرى، على نحو آخر أخرق، يشكل نفسه فى قبلات وعناق الحب الجنسى معرفة فى مجالى علم اشتقاق اللغة والحقيقة المجردة، «لقد عرفها»، هكذا يقول الإنجيل! الجنس هو الرابطة أو الاقتران الذى يوجد. مجرد نهايات المعرفة عند الذكر والأنثى، سحابة من المجهول! عندما تسير الثقافة نحو الأسوأ فى مجال الجنس، فإن المعرفة كلها تثبط وتعوق، نحن النساء نعرف ذلك. لقد حدث ذلك عندما كتبت إليك إن كان فى وسعى الحضور لزيارتك فى جزيرتك. كم أنا ممتنة لك أنك لم تجب على رسالتى. كان تصرفا خاطئا منى فى ذلك الوقت. لقد أنقذنى صمتك! آه، اغفر لى، يا عزيزى، إن أنا أثقلت عليك بتساؤلاتى، إذ أرى أنك تبدو ناعسا على نحو ما! إلا أن الثرثرة معك، فيما بين مضاجعة وأخرى، متعة غامرة! إنها بدعة استحدثتها ففيما عداك، ليس هنالك غير بلتازار العزيز،

والذى يجرى بالمناسبة، إعادة تأهيله فى خطى سريعة. لكنه أخبرك؟ لقد غرق فى الدعوات منذ مأدبة ماونت أوليف، ويبدو أنه سيواجه صعوبة محدودة حتى يعيد عيادته إلى العمل ثانية».

أنا: «لكنه بعيد عن التوافق مع سنتيه».

هى: «أعلم ذلك. إنه لا يزال مهزوزا وعصبيا، وكان يجب ألا يكون كذلك. إلا أن كل شىء يسير إلى الأمام بثبات، وفى اعتقادى أنه لن يسقط».

أنا: «ولكن ماذا عن شقيقة بورسواردن هذه؟».

هى: «ليزا! أعتقد أنك ستعجب بها، وإن كنت لا أستطيع القول إنك ستحبها. إنها رائعة، وربما كانت، فى الحقيقة، مخيفة بعض الشىء. إن العمى لا يبدو مصدر عجز لها، إنه أقرب إلى أن يضفى عليها تعبير يقظة مضاعفة. إنها تستمع إلى المرء، وكأنها تستمع إلى موسيقى، إنه تركيز يثير فى المرء، على الفور، إحساسا بتفاهة غالبية ما ينطق به. إنها مختلفة عنه، وإن كانت جميلة للغاية، رغم شحوبها شحوب الموت. حركاتها سريعة وواثقة بصورة مطلقة، خلافا لغالبية المصابين بالعمى. إننى لم أرها البتة تخطئ فى مقبض باب أو تتعثر فى حصيرة أو تتوقف لتحدد اتجاهها فى مكان غريب عنها. إن كل الأخطاء الصغيرة التى يقع فيها فاقد البصر، مثل الحديث إلى مقعد خلا لتوه ممن كان يشغله، غير موجودة. إن المرء ليتساءل، أحيانا، إن كانت عمياء حقا. لقد جاءت إلى هنا لتجمع إنتاجه، ولتحصل على مادة عنه من أجل سيرته الشخصية».

أنا: «لقد ألمح بلتازار إلى سر ما».

هى: «هنالك شك ما أن دافيد ماونت أوليف يحبها بلا أمل. لقد بدأ

الأمر فى لندن كما أخبر هو بلتازار. إنه بالتأكيد ارتباط غير عادى، يقدم عليه شخص سليم تماما، ومن الواضح أنه يعود على كليهما بقدر كبير من الألم. إننى كثيرا ما أتخيلهما، والثلج يسقط فى لندن، وقد وجدا نفسيهما، وجها لوجه، مع «الشيطان الهازل»! يالدافيد المسكين! ومع ذلك، لماذا أنطق مثل تلك العبارة المتعطفة؟ يالدافيد المحظوظ! إن فى وسعى إخبارك بالقليل الذى يقوم على نتفة من حديث لبلتازار، فجأة، وفى سيارة أجرة تترنح، تسرع بعيدا نحو الضواحى، أدارت وجهها نحوه وقالت: إنه قد قيل لها: إن عليها توقع قدومه منذ سنوات عديدة مضت، وإنها لحظة أن سمعت صوته، عرفت أنه الغريب النبيل الأسمر الذى قالت به النبوءة. إنه لن يتركها أبدا ـ وطلبت منه، فقط، إذنا بالتيقن من ذلك، ضاغطة أصابعها الباردة على وجهه تتحسسه كله، قبل أن تغرق ثانية فى الوسائد الباردة وهى تتنهد! نعم، كان هو بالفعل. لا بد أنه كان غريبا، أن يحس المرء أصابع فتاة عمياء تضغط ملامحه بلمسة نحات ـ وقال دافيد: إنه أحس برعشة تسرى عبره، وإن كل الدم قد غادر وجهه، واصطكت أسنانه! فأمسك بها معا، وهو يئن أنينا عاليا. وهكذا جلسا هنالك، يدا فى يد، يرتعشان بينما ضوء الجليد المحيط بهما يتحرك فى سرعة على النوافذ، ووضعت، فيما بعد، إصبعه فوق الخط الدقيق فى يدها والذى ينبئ عن حياة مختلفة، وعن بزوغ تلك الشخصية غير المتوقعة لتسيطر عليها! إن بلتازار، مثلك أنت، يشكك فى مثل تلك النبوءات، ولا يستطيع تفادى تعليقا عليها فيه تورية تهكمية فكهة وهو يستعيد القصة. إلا أن الافتتان قد دام، كما يبدو، حتى الآن. ولذا فإنك، وأنت المتشكك، ربما ستسلم بإرجاع شىء ما إلى قوة النبوءة!

«حسنا، بموت أخيها جاءت إلى هنا. أخذت فى فرز أوراق ومخطوطات، كما عقدت بالمثل لقاءات مع هؤلاء الذين كانوا يعرفونه.

لقد جاءت إلى هنا مرة أو اثنتين كى تتحدث معى. لم تكن المسألة برمتها، بالنسبة لى، سهلة، رغم أننى أخبرتها بكل ما استطعت أن أتذكره عنه. إلا أننى أعتقد أن السؤال الذى كان يشغل بالها حقا، هو ذلك الذى لم تنطقه بالفعل. إنه تحديدا هل كنت فى أى وقت من الأوقات عشيقة بورسواردن؟ إننى أعتقد، كلا، إننى واثقة أنها اعتبرتنى كاذبة، إذ إن ما قلته لها كان غير منطقى أبدا. ربما، فى الحقيقة، بسبب الغموض الذى أوحى بأن لدى شيئا أداريه. إن قناع الموت الأصلى، المصنوع من الجص، والذى بينت لبلتازار كيف يصنعه، لا يزال لدى فى المرسم. لقد حملته إلى صدرها للحظة كأنما لترضعه، وقد اكتسى وجهها بتعبير ألم ممض بدت عيناها الكفيفتان وقد اتسعتا أكثر فأكثر حتى غمرتا الوجه كله، وتحولتا إلى كهف من الاستفهام والتساؤل. أحسست بضيق مرعب وحزن عندما لاحظت، فجأة أن نتفا صغيرة، قليلة، من شاربه تلتصق بالجص. وعندما حاولت أن تضم القناع وتطابقه مع قسماتها هى، أمسكت بيدها تقريبا خشية أن تحس بها. إنه لأمر سخيف! إلا أن سلوكها أفزعنى وأثار كدرى. أحاطت بى أسئلتها. كان هنالك شىء ما يثير الخجل، بصورة غير قاطعة، حول هذه اللقاءات. كنت أعتذر طوال الوقت عقليا لبورسواردن، لأننى لم أقدم عرضا أفضل. إن على المرء رغم كل شىء، أن يكون قادرا على استخراج شىء ما معقول يقوله عن رجل عظيم عرفه تماما خلال فترة حياته، وليس مثل أماريل المسكين الذى استشاط غضبا عندما رأى قناع موت بورسواردن يرقد قريبا من ذلك الذى لكيتس وبلاك فى معرض الصور الوطنى. كان ذلك كل ما فى وسعه فعله، هكذا قال ليمنع نفسه من لطمه بيده. إنه بدلا من ذلك سب الشىء قائلا: «لماذا لم تخبرنى أنك كنت رجلا عظيما مر عبر حياتى؟ أحس أننى قد غبنت لأنى لم ألاحظ وجودك مثل طفل نسى أحدهم أن يخبره

بمرور فخامة العمدة فى عربته، فضاع منه الحدث». لم يكن لدىَّ مثل هذا العذر، ومع ذلك فما الذى كان فى وسعى أن أجده لأقوله؟ إننى أعتقد، كما ترى، أن هنالك عاملا أساسيا فى كل هذا، إن ليزا تفتقد الإحساس بالفكاهة والمزاح، إذ عندما قلت: إننى ما إن أفكر فى بورسواردن حتى أجد نفسى أبتسم تلقائيا، بدت عليها تقطيبة حائرة متسائلة ولا غير. من المحتمل أنهما لم يضحكا البتة معا، هكذا قلت لنفسى، ومع ذلك فإن تماثلهم الوحيد الحقيقى كان فى الصحة البدنية، فى اصطفاف الأسنان ومقطع الفم. إنها عندما تكون متعبة، تضع على وجهها تعبير البراءة الذى ينبئ عن سرعة الخاطر إلا أننى أتوقع رؤيتك لها، وإخبارها بما تعرف، وبما فى وسعك أن تتذكر. ليس الأمر سهلا، أن تواجه هاتين العينين الكفيفتين ، وأن تعرف من أين تبدأ!

«أما عن جوستين، فقد كانت محظوظة، إنها قادرة حتى الآن على الإفلات من ليزا. إننى أعتقد أن القطيعة ما بين ماونت أوليف ونسيم قد قدمت عذرا كافيا وفعالا، أو ربما أقنعها دافيد بأن أى اتصال بها قد يعرضه للخطر، من الناحية الرسمية. إننى لا أعرف إلا أننى أستطيع تأكيد أنها لم تر جوستين. ربما سيكون عليك أن تمدها بصورة ما، إذ إن المراجع الوحيدة فى مذكرات بورسواردن قاسية ولا مبالية. هل لم تبلغ بعد تلك الفقرات فى كتابه المبتذل؟ كلا، سوف تبلغها إننى أخشى أن أحدا منا لم يفلت منه! أما عن أى سر حقيقى له أعماقه البالغة، فإننى أعتقد بخطأ بلتازار. إننى أعتقد أن المشكلة الأساسية التى تحيط بهما، هى فى بساطة تأثير كونها عمياء كلية. إننى فى الحقيقة متيقنة من الدليل الذى رأته عيناى، خلال تلسكوب نسيم القديم... نعم نفس التلسكوب! كان من المعتاد وجوده فى القصر الصيفى، هل تتذكر ذلك؟ عندما بدأ المصريون تجريد نسيم من ممتلكاته، انشغلت الإسكندرية كلها فى الدفاع عن عزيزها ـ

اشترينا جميعا أشياء منه، وقد انتوينا الاحتفاظ بها حتى ينتهى كل شىء. ابتاع آل سيرفونى حصته العربية، وجانزو السيارة التى عاد فباعها إلى بومبال، وبيير بالبز التلسكوب. ولما لم يكن لديه مكان يضعه فيه فإن ماونت أوليف سمح له بأن يضعه فى شرفة المفوضية الصيفية. إنها موقع مثالى. إن فى وسع المرء، أن يمسح من خلاله، الميناء والجزء الأكبر من المدينة، كما أنه فى وسع الضيوف، وقت العشاء، أن يحملقوا فى النجوم حملقة خفيفة. حسنا، لقد ذهبت إلى هنالك فيما بعد ظهر ذات يوم، حيث أخبرت أن كليهما قد خرج للنزهة، والتى كانت، بالمناسبة، عادة يومية لهما طوال الشتاء. كانا يقصدان الكورنيش بالسيارة، ثم يسيران، مدة نصف ساعة، أمام واجهة «ستانلى باى»، وذراع كل منهما فى ذراع الآخر. أخذت أعبث بالتلسكوب، إذ كان لدى ما يكفى من الوقت لقتله كان اليوم عاصفا، ومياه البحر عالية، والأعلام السوداء مرفوعة تنذر من خطر الاستحمام. كان هنالك عدد قليل من السيارت عند تلك النهاية من المدينة، ويكاد ألا يوجد هنالك من سائر على قدميه. سرعان ما رأيت سيارة السفارة تستدير عند الزاوية وتقف أمام واجهة البحر، وهبطت ليزا ودافيد منها، وأخذا يسيران بعيدا نحو نهاية الشاطئ. كانت رؤيتهما بهذا الوضوح أمرا مدهشا. كان لدى إحساس بقدرتى على لمسهما إن مددت يدى. كانا يتجادلان فى حدة وقد ارتسم على وجهها تعبير حزن وألم. رفعت من قوة التكبير، وأصابتنى صدمة إذ اكتشفت أنه فى وسعى أن أقرأ بدقة ما بينهما من حديث عبر حركة شفاههما! كان أمرا مخيفا، مخيفا حقا إلى حد ما لم أستطع «سماعه»، إذ كان وجهه مستديرا، إلى جانب، نصف استدارة، إلا أن ليزا كانت تنظر فى تلسكوبى وكأنها صورة عملاقة على شاشة السينما. كانت الريح تُطَيّر شعرها الأسود إلى الخلف مثل الشوشة عند فوديها، وبدت بعينيها الكفيفتين أشبه بتمثال يونانى قديم

يعود إلى الحياة. كانت تصرخ من خلال دموعها: «كلا، لا يمكن أن تكون لديك سفيرة ضريرة» كانت تدير رأسها من جانب إلى آخر وكأنها تحاول العثور على مخرج من هذه الحقيقة المخيفة، والتى يجب الاعتراف بأنها ما كانت تخطر ببالى حتى قيلت الكلمات. وأمسك بها دافيد من كتفيها. كان يقول شيئا ما بطريقة جادة تماما، إلا أنها لم تكن تلتفت لما يقول. حررت نفسها فى حركة مفاجئة، وعبرت فى قفزة واحدة، مثل الوعل، الحاجز غير المرتفع لتهبط فوق الرمال. وأخذت تجرى نحو البحر، ودافيد يصرخ شيئا ما. وقف مدة ثانية يشير نحو قمة الدرج الحجرى الذى يقود إلى الشاطئ. استطعت أن أراه الآن فى صورة واضحة، فى تلك الحلة السمراء البيضاء، جميلة التفصيل، فى لون الفلفل والملح، ووردة فى عروة الزر، والصديرى البنى القديم الذى يحبه بأزراره المصنوعة من خليط النحاس والقصدير والتوتيا. بدا شخصا عاجزا محنقا بصورة غريبة، كان شاربه يتطاير من الريح بينما وقف هناك. انطلقت تجرى فى سرعة كبيرة إلى الماء مباشرة، فتناثر حولها، وقتم لون جونلتها حتى الفخذين، وتعطل اندفاعها. توقفت فى حيرة مفاجئة واستدارت إلى الخلف، بينما اندفع هو خلفها ممسكا بها من كتفيها، يحتضنها، ووقفا للحظة. كان المنظر غريبا للغاية والأمواج تلطم أرجلهما، ثم عاد بها إلى الشاطئ وعلى وجهه نظرة امتنان وفرحة غريبة، وكأنه، فى بساطة، كان مبتهجا بهذه الحركة الغريبة منها. راقبتهما وهما يعودان إلى السيارة فى عجلة كان السائق القلق واقفا على الطريق وغطاء رأسه فى يده. كان من الواضح أنه يحس بالراحة لعدم استدعائه كى يقوم بأى عمل يتطلبه إنقاذ الحياة. وحينئذ قلت لنفسى: «سفيرة عمياء؟» ولماذا لا؟ إذن لو كان دافيد معتدل المزاج، فربما كان يفكر بينه وبين نفسه بأن «الأصالة وحدها يمكن أن تساعد مستقبلى، أكثر مما تعوقه، وذلك بخلق تعاطف مصنوع، يحل محل الإعجاب المشوب بالاحترام، والذى أستطيع الادعاء فقط بأن

الفضل فيه إنما يرجع إلى مكانتى!» ولكن، حتى تدخل مثل تلك الأفكار فى عقله، فلا بد أن يكون سليم الطوية تماما.

«ومع ذلك، فإنهما ما إن عادا من البحر مبللين بالمياه، حتى بدا جذلا بصورة غريبة». لقد وقعت لنا حادثة صغيرة صاح فى سعادة وهو ينسحب معها ليستبدلا ملابسهما ـ وبالطبع لم تكن هنالك أية إشارة إلى تلك الفلتة، مرة أخرى، خلال ذلك المساء. وقد سألنى فيما بعد إن كنت أقوم برسم صورة لليزا، وقد وافقت على ذلك. لم أدر بالضبط لماذا شعرت بالتوجس من هذا الموضوع. ما كان فى وسعى أن أرفض، ومع ذلك وجدت الكثير من الأساليب لتعطيل هذا الموضوع والعمل على إرجائه إلى مالا نهاية إن استطعت. كان غريبا أن أشعر بما شعرت لا سيما أنها سوف تكون موضوعا رائعا، حتى إن اقتضى الأمر جلسات وأوضاع عدة، إذ ربما كنا نتعرف على بعضنا البعض أكثر من ذلك، كما أخفف التوتر الذى أحسه فى وجودها. كنت بالإضافة إلى ذلك، أود حقا القيام بهذا العمل من أجله، فقد كان دوما صديقا طيبا. لكن هنالك.. فضولى فى أن أعرف ماذا سوف تسألك عن أخيها، وفضولى فى أن أرى ما الذى سوف تجده لتقوله عنه».

أنا: «إنه يبدو وقد تغير شكله سريعا عند كل انحناءة فى الطريق، حتى إن المرء يكاد يجبر على مراجعة كل فكرة عنه بمجرد صياغتها. لقد بدأت أتساءل عن حق المرء فى الحكم بهذه الطريقة على أناس غير معروفين».

هى: «إننى أعتقد، يا عزيزى، أنك مصاب بهوس الدقة ونفاد الصبر، ارتباطا بمعرفة جزئية. وفى ذلك ظلم للمعرفة ذاتها، كيف يمكن أن يكون هذا، أى شىء، غير التصور؟ إننى لا أفترض أن يحمل الواقع البتة أى تشابه مع الحقيقة البشرية مثل السكوب ويعقوب. إننى أحب أن ترضينى الرمزية الشعرية بما تمثله، شكل الطبيعة ذاتها كما كانت.

ربما كان هذا ما حاول بورسواردن أن ينقله فى تلك الهجمات الغاضبة عليك، هل بلغت فى قراءتك الفقرات المعنونة بـ «أحاديثى الصامتة مع أخى الحمار»؟

أنا: «لم أبلغها بعد».

هى: «لا تدعها تصيبك كثيرا بالجراح. يجب أن تبرئ الوحش بضحكة دمثة. لقد كان، على أى حال، واحدا منا، واحدا من القبيلة. إن الحجم النسبى للكمال لا يهم، كما كان يقول هو نفسه، «ليس هنالك ما يكفى من الثقة والبر والرقة لإمداد هذا العالم بشعاع أمل واحد، ومع ذلك، فلطالما جلجلت هذه الصرخة الحزينة فوق العالم، آلام ميلاد فنان، فإنه لا يمكن فقدان كل شىء! إن هذه الزقزقة الحزينة الصغيرة للولادة من جديد إنما تدل على أن كل شىء ما زال معلقا فى الميزان. انتبه إلى ما أقول أيها القارئ: «فالفنان هو أنت. كلنا هذا التمثال الذى يجب أن يخلص نفسه من كتلة الرخام التى كانت تؤويه ليبدأ الحياة، ولكن متى؟ متى؟» وفى مكان آخر يقول، «الدين، فى بساطة، إنما هو فن جُرد من كل معرفة»، فكرة خاصة مميزة. كانت تلك هى النقطة المحورية فى خلافه مع بلتازار والقابال. لقد قلب بورسواردن الوضع المحورى كله رأسا على عقب».

أنا: «ليلائم أغراضه الخاصة».

هى: «كلا، ليلائم احتياجاته الخالدة. لم يكن هنالك غش فى كل ذلك. إذ لو أنك ولدت فى قبيلة الفنانين، فإن محاولتك التصرف كقسيس إنما هى إهدار للوقت. يجب أن تكون أمينا لزاوية رؤيتك الخاصة، وأن تعرف فى ذات الوقت ما الذى تنحاز إليه. هنالك نوع من الكمال يمكن تحقيقه إذا تطابقت ذات المرء وقدراته، على كل المستويات. إن هذا ـ كما أتخيل ـ يجب تحقيقه بكل جهد وبكل تخيل

أيضا. لقد أعجبت أنا نفسى على الدوام بسكوبى العجوز كمثال ناجح تماما لهذا الإنجاز على طريقته الخاصة. إننى أعتقد، أنه هو ذاته، كان ناجحا تمامًا».

أنا: «نعم، أعتقد ذلك لقد كنت أفكر فيه اليوم. لقد برز اسمه فى المكتبة، على غير توقع مرتبطا بموضوع ما. كليا، حاكية مرة أخرى. إنك تفعلين ذلك بإتقان تام، حتى إن الإعجاب يلجمنى».

هى: «لكنك تعرف كل حكاياته».

أنا: «هراء إنها لا تنتهى».

هى: «أود لو أستطيع محاكاة نظرته! تلك القبيحة التى تشبه بومة مريعة. حركة العين الزجاجية! لكن أغلق عينيك واستمع إلى قصة سقوط توبى، واحدة من سقطاته الكثيرة. هل أنت مستعد لذلك؟».

أنا: «نعـــم».

هى: «لقد أخبرنى بها أثناء حفل عشاء قبل ذهابى إلى سوريا مباشرة. قال: إنه حصل على بعض النقود وأصر على اصطحابى إلى لوتتشيا بطريقة احتفالية، حيث تناولنا عشاء من السرطان البحرى ونبيذ المائدة الأحمر(*). بدا الأمر هكذا، فى نبرة منخفضة، نبرة من يأتمن آخر على سر من الأسرار. «إن الأمر الذى ارتبط بتوبى، وكان يميزه، هو الجرأة الفائقة، وهى ثمرة سلالته الخالية من كل عيب! لقد أخبرتك أن أباه كان عضوا فى البرلمان؟ كلا؟ ذلك شىء غريب، إذ أعتقد أننى ذكرت ذلك عرضا. نعم يمكنك القول: إنه كان ذا منزلة عالية للغاية إلا أن توبى لم يتباه بذلك أبدا. إنه فى

(*) كيانتى ـ المترجم.

الحقيقة، وذلك يوضح لك طبيعته، قد طلب منى أن أكون حصيفا أحسن التقدير فى التعامل مع هذا الأمر، وألا أذكره لزملائه البحارة. لم يكن يرغب فى نيل أى حظوة من وراء ذلك، هكذا قال، لم يكن يود أن يتذلل له أحد، لا لشىء إلا لأن والده كان عضوا فى البرلمان. كان يود أن يخوض الحياة متخفيا، كما قال، وأن يشق طريقه بالعمل الشاق. خذ بالك، كان يكاد أن يكون فى متاعب متصلة مع قيادة السفينة. كان ذلك بسبب معتقداته الدينية، أكثر من أى شىء آخر، كما أعتقد. كان ذوقه يتسم بالخشونة فيما يختص بالملبس، هذا التوبى العجوز. كان واضحا نشطا، وكان المستقبل الوحيد الذى يبتغيه هو أن يكون طيارا. إلا أنه، بصورة ما، لم يستطع أن يصبح هكذا. قالوا: إنه يشرب الخمر كثيرا جدا لكنه قال: إن سبب ذلك، إنما يرجع إلى أن شعوره بالفرض الدينى يدفعه نحو المزيد، وأنهم إن عينوه، فإن كل شىء سيصبح على ما يرام، كما قال، سوف يكف عن الشراب فورا. لقد أخبرنى بذلك مرات عديدة عندما كان على طريق سفر يوكوهاما. كان كلما ثمل، يحاول دوما إقامة الشعائر الدينية فى عنبر رقم ١ بالسفينة، واشتكاه الناس بالطبع، فأحضر الكابتن فى «جوا» قسيسا إلى ظهر السفينة لمجادلته وإقناعه ولكن دون جدوى. «سكيرفى»، هكذا اعتاد القول لى «سكيرفى» سوف أموت شهيد فروضى الدينية، ذلك هو الأمر. ليس هنالك من شىء فى الحياة مثل الإصرار، وكان توبى يمتلك الكثير منه. لم أفاجأ البتة ذات يوم، بعد العديد من السنوات، وأنا أراه قادما إلى الشاطئ وقد تم تعيينه.

«أما كيف حشر نفسه فى الكنيسة، فإنه لم يفصح عن ذلك أبدا. إلا أن أحد زملائه قال: إنه استطاع التوصل إلى قسيس كاثوليكى فاسد، إلى حد ما، فعينه خلسة فى هونج كونج. وما إن توقع الأوراق وتختم وتلف حتى لا يستطيع أحد فعل أى شىء، ويصبح على الكنيسة أن تضفى على هذا التلوث وعلى كل شىء مظهرا طيبا. وغدا، بعد ذلك، رعبا مقدسا،

يقيم الشعائر الدينية فى كل مكان، ويوزع بطاقات السجائر التى تحمل صور القديسين، وضاقت به السفينة التى كان يعمل عليها، فأعطوه حسابه وصرفوه. لقد ادعوا عليه ـ كما قيل ـ أنه رئى يحمل حقيبة يد نسائية! وأنكر توبى ذلك قائلا إنها كانت شيئا دينيا، حلة القداس أو شىء ما التبس عليهم كحقيبة. ثم ظهر، على أى حال، فوق سفينة ركاب تالية تحمل حجاجا. قال: إنه قد حقق ذاته أخيرا. إنه يقيم الشعائر الدينية طوال الوقت فى ردهة الاستراحة (أ). ولا أحد يعيق كلمة الرب. إلا أننى لاحظت، فى انزعاج، أنه كان يشرب الخمر بكثافة أكثر من ذى قبل، وأنه يضحك ضحكة غريبة مشروخة، لم يكن هو توبى العجوز. ولم أدهش لسماعى بوقوعه فى المتاعب مرة أخرى. كان من الواضح، وجود شك فى أنه يشرب أثناء تأدية واجباته. وأنه قد أشار بطريقة فظة إلى ماضى أحد الكهنة وكشف ذلك عن ذكائه الرائع، إذ إنه عندما قدم إلى مجلس عسكرى، كان يمسك بناصية الإجابة المعدة المتقنة. إننى لا أعرف كيف يجرون مجالس عسكرية فى الكنيسة، لكننى أعتقد أن سفينة الحجاج تلك كانت مليئة بالقساوسة، أو شىء من هذا القبيل، إنهم أقاموها فى ردهة الاستقبال (أ) مستخدمين منضدة على شكل جلد الطبلة. إلا أن توبى، بجرأته كان ثابتا فى مواجهتهم. ليس هنالك مثل أصالة المنبت لتكون حاضر البديهة. كان دفاعه، إنه إن كان قد سمعه أحدهم وهو يتنفس فى تثاقل أثناء القداس، فإن مرجع ذلك إلى داء الربو المصاب به.

«ثانيا: إنه لم يذكر البتة ماضى أى شخص ما. لقد تحدث عن كلب أحد القساوسة من نوع الترير! أليس ما فعل باهرا؟ كان ذلك أكثر ما قام به توبى العجوز من أعمال حاذقة، رغم أننى لم أعرفه البتة عاجزا عن الإجابة الذكية. حسنا لقد ذهل القساوسة حتى إنهم أطلقوا سراحة محذرين له، على أن يردد «السلام لك يامريم»، ألف مرة ككفارة عما فعل. كان ذلك أمرا

سهلا للغاية بالنسبة لتوبى، لا يثير له فى الحقيقة أية متاعب البتة. كان قد اشترى عجلة دعاء صينية صغيرة، ضبطها له «بدجى» لتردد «السلام لك يا مريم» كانت آلة صغيرة بسيطة، تم مواءمتها بطريقة ذكية متآلفة، بحيث تعمل فى أى وقت تبتغيه. كانت تقدم فى دورتها الواحدة «السلام لك يا مريم» مرة أو خمسين حبة من حبات المسبحة. إنها تبسط الصلاة، كما قال. كان فى وسع المرء فى الحقيقة، أن يستمر فى الصلاة دون تفكير. ووشى أحدهم به فيما بعد، فصادرها الرئيس ووجه إلى توبى المسكين تحذيرا آخر. إلا أنه فى تلك الأيام، كان يتعامل مع كل شىء بتطويح رأسه والضحك هازئا. كان كما ترين يسعى نحو السقوط كان يتغلب على نفسه إلى حد ما.

«لم أستطع ملاحظة ما حل به من تغيير، فقد كان يمر من هنا أسبوعيا تقريبا ومعه هؤلاء الحجاج الذين يطرفون بأعينهم. أعتقد أنهم كانوا إيطاليين يزورون الأماكن المقدسة. كانوا يذهبون جيئة وذهابا ومعهم توبى إلا أنه كان قد تغير. كان الآن يواجه المتاعب على الدوام، وبدا أنه قد ألقى بعيدا بكل ما يمكن أن يكبحه، لقد أصبح هوائيا تماما. زارنى ذات مرة وقد ارتدى ملابس كاردينال وبيريها أحمر، وفى يده شىء أشبه بغطاء المصباح. قلت له لاهثا، «فاسق! فاسق! وأنت لست نصف أرجوانى ياتوبى!» وقد وبخ فيما بعد بعنف لارتدائه زيا أعلى من رتبته. كان فى وسعى أن أرى المسألة وقد غدت مسألة وقت فقط، ويسقط من البالون، هكذا يمكن القول. وفعلت كل ما فى وسعى كصديق قديم لمناقشته، إلا أننى، بصورة ما، لم أستطع أن أبصره بالأمر. حاولت أن أعود به إلى شرب البيرة إلا أنه لم يتحمس لذلك على الإطلاق. لم يعد يرضى توبى غير ماء النار، وكان علىّ فى أحد المرات أن أستعين بالشرطة لحمله إلى ظهر السفينة كان يرتدى حلة أسقف. أعتقد أنهم يطلقون عليها لفظا خاصا حاول أن يلعن المدينة من ظهر القارب (أ). كان يلوح فى صورة نصف

دائرة أو شىء من هذا القبيل. وكان آخر ما رأيته منه، كمية من الأساقفة الحقيقيين يحاولون كبح جماحه، كان الجميع يرتدون اللون الأرجوانى مثل ذلك الذى كان قد استعاره. يا إلهى، كيف استطاع هؤلاء الإيطاليون أن يتصرفوا على هذا النحو. ثم جاء السقوط والانهيار قبضوا عليه بتهمة تجرع نبيذ الأسرار المقدسة بشراهة. أنت تعرفين أنه كان عليه خاتم البابا، ألا تعرفين ذلك؟ أنت تشترينه من عند كورنفورد، باعة التجزئة الكنائسيين مختوما ومباركا. كان توبى قد حطم الخاتم وكان فى ذلك نهايته. إننى لا أدرى إن كانوا قد حرموه من عضوية الكنيسة أو ماذا، لكنه حذف، على أى حال، من السجل، كما يقتضى الأمر.

عندما رأيته فى المرة التالية كان شبحا، وقد ارتدى رداء بحار عادى، كان لا يزال يشرب ثقيلا، ولكن بطريقة مختلفة. قال «سكيرفى»: إننى أشرب الآن، فى بساطة، لأكفر عن آثامى. إننى أشرب كعقوبة وليس كمتعة ـ لقد جعلته المأساة بكاملها كئيبا للغاية وقلقا ـ تحدث عن الانطلاق إلى اليابان لتصبح شخصيته دينية هنالك. إن الشىء الذى منعه من ذلك، هو ضرورة أن يحلق رأسه وما كان فى مقدوره أن ينفصل عن شعره الذى كان طويلا، ومحل إعجاب أصدقائه. قال بعد أن ناقش الفكرة: «كلا يا سكيرفى العجوز، ليس فى وسعى أن أصبح أصلع مثل بيضة، بعد كل الذى مررت به. إن ذلك سوف يضفى علىّ مظهر تشرد غريب، وأنا فى ذلك العمر. كما أننى عندما كنت صبيا صغيرا، أصبت ذات مرة بالقوباء وفقدت تاجى الذى كنت أتباهى به. لقد استغرق الأمر أعواما لينمو مرة ثانية، والآن فإننى لا أستطيع احتمال الافتراق عنه، لأى سبب كان. «كنت أرى ورطته تماما، إلا أننى لم أستطع تبين أىّ مخرج له منها».

«سوف يظل توبى العجوز، على الدوام، غير قادر على التلاؤم مع ما يحيط به، يسبح ضد التيار. خذ بالك، كانت تلك علامة على أصالته،

وعاش لفترة قصيرة يبتز كل الأساقفة الذين كانوا يعترفون بين يديه، عندما كان فى الخدمة. حصل على إجازة مجانية مرتين فى إيطاليا، بعد فصله المبكر من الخدمة الدينية. إلا أن متاعب أخرى اعترضت طريقه، وأبحر إلى الشرق الأقصى حيث عمل فى دور ضيافة البحارة، وقت أن يكون على الشاطىء، متحدثا إلى كل شخص بأنه سوف يحقق ثروة بتهريبه الماس. كنت نادرا ما أراه فى ذلك الوقت، ربما مرة كل ثلاث سنوات. لم يراسلنى البتة، إلا أننى ما كنت أنسى أبدا توبى العجوز. كان دوما ذلك الإنسان المهذب، رغم مصائبه الصغيرة. إنه يتوقع، عند موت أبيه، حصوله على بضع مئات سنويا لحسابه، وحينئذ سوف نعمل معا مع بدجى، ونضع تجارة المراحيض الأرضية على أسس اقتصادية حقيقية. إن بدجى العجوز لا يستطيع العناية بالدفاتر والملفات. تلك وظيفة أستطيع القيام بها لخبرتى فى أعمال الشرطة «أو على الأقل هذا ما كان يقول به دوما توبى العجوز. إننى أتساءل أين هو الآن؟».

انتهى الحكى. همد الضحك فجأة. ارتسم على وجه كليا تعبير جديد، لا أتذكر البتة أنى قد رأيته من قبل. شىء ما بين الشك والإدراك، تلاعب على فمها كالظلال. أضافت فى طبيعية متعمدة منهكة، بصورة ما: «لقد أخبرنى، رغم كل شىء، بطالعى. أعرف أنك سوف تضحك، قال: إنه يستطيع فعل ذلك مع أناس بعينهم، وفى أوقات بعينها. هل تصدقنى إن قلت لك إنه قد وصف واقعة سوريا بأمانة وإخلاص تامين، وبالتفصيل».

أدارت وجهها نحو الحائط فى حركة مباغتة، ورأيت لدهشتى شفتيها ترتعشان. وضعت يدى فوق كتفها الدافئ وقلت فى رقة شديدة: «كليا» صرخت فجأة: «ماهذا؟ دعنى لحالى ألا ترى أنى أرغب فى النوم؟».

* * *

[٣]

أحاديثى مع أخى الحمار

(اقتباسات من مذكرات بورسواردن)

إننا نعود إليها، مرة بعد أخرى، مكرهين بصورة مخيفة ـ كلسان فى فراغ أحد الأسنان ـ تلك هى مسألة الكتابة! هل يستطيع الكُتَّاب أن يتحدثوا فى لا شىء غير المهنة؟ كلا، إلا أننى كنت أقع مع العجوز دارلى فى قبضة نوع من الدوار التشنجى. كنت أجد نفسى عاجزا عن الكلام معه البته، رغم أن كل شىء مشترك بيننا. أعنى أننى كنت أتكلم بلا حدود: عاطفيا، هستيريا، دون أن أنطق كلمة واحدة فى صوت مرتفع. ليس هنالك من سبيل لإدخال إسفين بين أفكاره التى كانت، كما أؤمن، أفكارا متأملة مرتبة، إنها الجوهر الحقيقى «للصمت». رجلان يجلسان على مقاعد البار يقضمان العالم فى تأمل، كأنما يقضمان عودًا من قصب السكر، أحدهما يتحدث فى صوت خفيض رخيم يستخدم لغة تتسم باللباقة والفراسة، والآخر يتململ على إليتين خائرتين، يصرخ، على استحياء، داخل عقله، لا يجيب إلا بالنفى أو الإيجاب، وبطريقة عرضية، على تلك الآراء الصريحة غاية الصراحة، والتى هى فى غالبيتها، وبما لا يقبل الجدل، حقيقية وقيمة! ربما يصلح

هذا نواة لقصة قصيرة؟ «ولكن يا أخى الحمار، هنالك بُعد كامل مفتقد فيما تقول. إذ كيف يمكن للمرء نقل هذا فى إنجليزية أوكسفورد؟» لا يزال الرجل الجالس على مقعد البار المرتفع يواصل، فى كآبة التائب الحزين، عرضه مشكلة الفعل الخلاق ـ إنه يطلق، ما بين الحين والحين، بنظرة جانبية خجلة نحو معذبه ـ إذ غدوت أنا، وبطريقة ما غريبه، معذبه بالفعل، وإلا ما كان يتوجه إلىّ دوما، مصوبا طرف سيفه إلى شقوق اعتدادى بذاتى، أو إلى المكان الذى يعتقد أننى أحتفظ فيه بقلبى. كلا إننا سنكتفى بموضوعات نقاش أكثر بساطة، كحال الجو مثلا. كان يرى فىّ لغزا، شيئا ما يسعى جاهدا للتعرف على ما فى الأعماق. «لكننى، يا أخى الحمار، واضح وضوح جرس رنان، المشكلة قد تكون هنا أوهناك أو أنها ليست فى أى مكان!» كنت أحس أحيانا، وهو يتحدث هكذا، بدافع مفاجئ يستحثنى أن أقفز فوق ظهره، أمتطيه بطريقة مجنونة، صاعدا هابطا شارع فؤاد، أضربه ضربات متتالية «بدائرة معارف» وأنا أصرخ «أفق أيها الأبله، دعنى أمسك بك من أذنيك، أذنى الحمار، الطويلتين الناعمتين، وأدفع بك عَدْوا عبر معرض التماثيل الشمعية لأدبنا، بين فرقعة «صندوق الخيالات الوهمية»، والتى تناولت كل منها لقطة سريعة، أحادية اللون، لما يسمى بالواقع. إننا معا سوف نراوغ الغضب والجنون، ليحتفى بنا لتصويرنا المشهد الإنجليزى، مشهد الحياة الإنجليزية التى تتحرك نحو الإيقاع الجليل لجثة يجرى تشريحها لفحصها، هل تسمعنى يا أخى الحمار؟».

إنه لا يسمع، ولن يسمع. إن صوته يصلنى من بعيد، كأنما من فوق فالق أرضى «هالو، هل تسمعنى؟». صرخت وأنا أهز جهاز الاستقبال. سمعت صوته واهنا أمام شلالات نياجرا المزمجرة: «ما هذا؟ هل قلت إنك تود أن تسهم فى الأدب الإنجليزى؟ ماذا، أن تضع بضعة فروع من البقدونس فوق سمكة الترس الميتة تلك؟ أن تضرب مثابرا منخرى هذه

الجثة؟ هل عبأت أدواتك، يا أخى الحمار؟ هل أعددت نفسك لإبطال كل ما تدربت عليه مبكرا؟ هل تستطيع التسلق مثل قطة لصة استرخت عضلاتها القابضة؟ ولكن ما الذى ستقوله حينئذ لمن كانت حياتهم المثيرة للعواطف هى تلك التى لأناس فى خان سويسرى؟ سوف أخبرك أنا. سوف أقولها أنا وأُعفى كل الفنانين من المشقة. إنها كلمة تتسم بالبساطة كالأبيض النبيل(*). قلها فى صوت خفيض جميل النغم، قلها فى تنهيدة ملساء! إن السركله هنالك، فى كلمة تنمو فوق الثلج! وعليك حينئذ، وقد حللت مشكلة الغابات والوسائل، أن تواجه مجرد صعوبة أخرى؛ إذ لو حدث وكان على العمل الفنى أن يعبر القناة، فهو لا بد أن يعاد عند «دوفر»، باعتبار أنه لا يرتدى الملابس اللائقة! الأمر ليس سهلا يا أخى الحمار. (ربما كانت دعوة الفرنسيين إلى مرستان ثقافى أكثر حكمة من ذلك). إلا أنك، كما أرى، غير ملتفت إلى أنك تواصل بنفس اللهجة دون أن تتلعثم، وصف المشهد الأدبى الذى لخصه ذات مرة، وإلى الأبد الشاعر «جراى»، فى ذلك السطر «خوار القطيع يهب كالريح فوق المرج»! هنا لا أستطيع أن أنكر حقيقة ما تقول. إنه قاطع مقنع، إنه عالم بمستقبل الأمور، إنه مدروس بعناية، إلا أننى اتخذت احتياطاتى الخاصة قبل أمة لها عقلية حيزبون. إن كل واحد من كتبى يحمل لفافة بنفسجية كتب عليها: «لا يفتح بمعرفة النسوة العجائز لأى من الجنسين» (العزيز د. هـ. ل. المخطئ، المصيب، العظيم، لعل روحه تهب كالنسمة علينا جميعا!)».

إنه يضع كأسه فى قرقعة ماء، يجرى أصابعه فى شعره بينما يتنهد. الشفقة ليست عذرا أو مبررا، هكذا أقول لنفسى، الطيبة الخالية من الغرض لا تحل حياة الفنان من مطالبها الأساسية. هنالك، كما ترى، يا أخى

(*) نباتُ صغير عشبى، زغبى صوفى، أبيض ينمو فى جبال الألب ـ المترجم.

الحمار، حياتى، ثم حياة حياتى يجب أن تكون الواحدة منهما للأخرى مثل الفاكهة وقشرتها. أنا لست قاسيا، وذلك فى بساطة لأننى لا أتساهل أو أتغاضى.

«كم أنت محظوظ، إن لم يكن مأرب لك من الكتابة» يقول دارلى، وفى نبرة صوته لمسة يأس شجى. «إننى أغبطك» إلا أنه لم يكن يغبطنى، حقيقة لم يكن يغبطنى البتة. أخى الحمار سوف أخبرك بقصة قصيرة. وصل فريق من علماء وصف الإنسان الصينيين إلى أوربا لدراسة عاداتنا ومعتقداتنا. مات الجميع خلال أسابيع ثلاثة، ماتوا من ضحك لا يمكن التحكم فيه. دفنوا بكل مظاهر التكريم العسكرية. ماذا تستنبط من ذلك؟ لقد حولنا الأفكار إلى شكل من أشكال السياحة مدفوعة الثمن.

«دارلى يتحدث، وعينه مائلة تنظر إلى حافة كأس الجن. أجيب فى صمت بلا كلمات. شعورى بالزهو بما أنطق يصيبنى فى الحقيقة بالصمم. الكلمات تدوى فى جمجمتى أشبه بجلجلة تجشؤات «زارا ثوسترا»، أشبه بالريح تصفر عبر لحية «مونتاين» كنت أمسك به، أحيانا من كتفيه فى عقلى وأصرخ، (هل على الأدب أن يكون دليل طريق أم عقارا مهدئا يستجلب النوم؟) عليك أن تقرر! عليك أن تقرر!».

وهو لا يلتفت إلىّ، لا يسمعنى لقد جاء لتوه من المكتبة، أو من المطعم، أو من حفلة موسيقية لباخ (المرق لا يزال يسيل على ذقنه). لقد صففنا أحذيتنا أسفل البار فوق القضيب النحاسى المصقول، وقد بدأ المساء يتثاءب حولنا مثيرا للضجر واعدا بفتيات يغوص المرء فيهن. والأخ الحمار، هنا، يحاضر عن الكتاب الذى يكتبه، والذى ألقى به من فوقه، مرة بعد أخرى، كما يلقى بالمرء من فوق حصان. لم يكن الفن حقيقة هو ما نناقشه، كنا نناقش ذواتنا هل ترضى دوما بالصلصة القديمة

المعلبة للرواية المعانة؟ أو أيس كريم القصائد الشعرية المبتذلة التى تعلن عن نفسها لتنام فى ثلاجة العقل؟ إن كان فى الإمكان تبنى عروض شعرية أكثر جرأة، وإيقاع أكثر سرعة فربما نستطيع أن نتنفس جميعا بطريقة أكثر حرية! هل ستظل كتب دارلى المسكين دوما، هى ذلك الوصف المدقق لحالات الروح البشرية الأشبه بالعجة؟ (إن الفن يقع عند النقطة التى يُكرَم فيها الشكل بروح يقظة ناهضة).

«هذه المرة على حسابى».

«كلا، أيها العجوز، إنها على حسابى أنا».

«كلا، كلا، إننى مُصر على ذلك».

«كلا، إنها نوبتى».

لقد منحتنى هذه المماحكة الودودة، ذلك الجزء من الثانية الذى أحتاج إليه، لأدون فيه فى سرعة وإيجاز، أبرز نقاط صورتى، فوق طرف كم قميص يكاد يكون ممزقا. أعتقد أنها تغطى الأمر كله فى بلاغة محببة. الفقرة الأولى: «إننى مثلى مثل كل البدناء أميل إلى أن أكون بطل نفسى». الفقرة الثانية: «إننى مثلى مثل كل الشبان أنزع إلى أن أكون عبقريا، إلا أن ضحكات رحيمة تتداخل فى هذا النزوع». الفقرة الثالثة: «لقد أملت على الدوام أن أحقق ما تراه عين الفيل». الفقرة الرابعة: «لقد أدركت أنه حتى يغدو المرء فنانا فإنه يتوجب عليه إسقاط كل عُقد الأنانية والتى قادت إلى اختيار التعبير عن الذات باعتباره الوسيلة الوحيدة للنمو. ولما كان ذلك الأمر مستحيلا فقد أطلقت عليه «المزحة الكاملة»!».

إن دارلى يتحدث عن خيبات الأمل! إلا التخلص من الوهم، يا أخى، هو لب اللعبة، هل تتذكر، أى آمال كبار غزونا بها لندن، فى تلك الأيام القديمة الميتة، قادمين من الأقاليم وقد امتلأت حقائبنا بمخطوطاتنا حتى

الانتفاخ؟ أى عاطفة حملقنا بها فى كوبرى وستمينستر؛ ننشد قصيدة وردزورث اللا مبالية ونتساءل إن كانت قد كبرت ابنته وغدت أقل جمالا بسبب أصلها الفرنسى؟ كانت العاصمة كلها تبدو وكأنها تنتفض من دلائل موهبتنا، مهارتنا وفراستنا. كنا نتساءل ونحن نسير فى المتنزه، عمن يكون كل هؤلاء الرجال طوال القامة بملامحهم التى تشبه الصقر وقد حطوا فى الشرفات والأماكن المرتفعة يمسحون المدينة بمناظير مزدوجة؟ ما الذى يبحثون عنه بهذه الجدية؟ وأوقفنا شرطيا، سألناه ونحن واجفون. قال فى رقة، «إنهم الناشرون» ناشرون؟! توقفت قلوبنا عن الخفقان «إنهم يبحثون عن موهبة جديدة» يا إلهى، إننا نحن من كانوا ينتظرون وعنهم يبحثون! وخفض الشرطى الرحيم صوته ليقول لنا، باعتبارنا موضع ثقته، فى نبرات جوفاء وقورة: «إنهم فى انتظار ميلاد الترولوب الجديد!» هل تتذكر كم أحسسنا بثقل حقائبنا عندما سمعنا تلك الكلمات؟ كيف أبطأت دماؤنا، وتلكأت خطانا؟ لقد تركنا نفكر، أيها الأخ الحمار، فى خجل وحياء فى نوع من التنوير مثل ذلك الذى حلم به «ريمبود» ـ قصيدة شعر تثير الضجر لكثرة ما بها من تأنيب، إنها لا تحمل حكمة ولا تقدم تفسيرا، لكنها ملوثة ناقلة للعدوى ـ إنها لا تتسم فى بساطة بفراسة عقلانية أعنى أنها ترتدى شيئا شبه شفاف كالميكا! لقد جئنا إلى المتجر الخطأ، فى وقت التغيير الخطأ! لقد أصابتنا رعشة ونحن نرى الضباب يهبط فى ميدان ترافالجار، يلف حولنا زوائده الإيكتوبلازمية! كان هنالك فى الانتظار مليون كاتب أخلاقى من أكلة الفطائر. إنهم ليسوا فى انتظارنا، يا أخى الحمار، إنهم فى انتظار الترولوب المقدم المثير للضجر (إن لم تكن راضيا عن أسلوبك فابحث عن المكشطة) والآن، هل يثير دهشتك، إن أنا ضحكت قليلا بعيدا عن الموضوع؟ هل تسأل نفسك ما الذى أحالنى إلى حكيم صغير فطرى خجول؟

متنكرا فى زى صانع للسلام، ماذا يمكن أن يكون؟

أنا لست إلا صياد ذوات الريش، شارب جرعات من خمر، آكل للضفادع. نحن الذين رغم كل شيء، مجرد صناع بؤساء، نعمل معا من أجل روح أمتنا، ما الذى علينا توقعه، من جمهور يستنكر التدخل، غير الرفض الطبيعى التلقائى؟ إن هذا أيضا صائب تماما. ليس هنالك من غبى فى هذا الأمر، فأنا أيضا أرفض التدخل، أيها الأخ الحمار، مثلك تماما. كلا، ليس الأمر أنك قد ظلمت، المسألة هى أنك كنت سيئ الحظ. إننى سوف أقدم لك السبب الأول من العشرة آلاف سبب لعدم رواج كتبى، إذ إنه يتضمـن كل الأسباب الأخرى. إن وجهة نظر ثقافية متشددة عن الفن لا بد أن تتضمن شيئا يدعم الأخلاق ويتملق الوطنية، ولا شيء آخر غير ذلك. أراك ترفع حاجبيك. إنك أيضا، يا أخى الحمار، تعرف ما يكمن فى هذا الرأى من مجافاة أساسية للحقيقة. إن ذلك، على أى حال، يفسر كل شيء. فالثقافة المتشددة لا تعرف معنى الفن، إذن كيف يمكن توقع اهتمامها به؟ (إننى أترك الدين للأساقفة؛ فهنالك يمكنه أن يضير أكثر!).

لا ساق كسرت ولا عين عشى إبصارها

ولا بعض من سلالة أصابه التشوه

ولا حتى أن يصبح المرء نصف إنسان

ولا شيء مثلما يكون العقل الباطن بهواجسه

أنا مقيد إلى عجلة من الصبر

والزمن هو هذا العدم داخل الدائرة

إننا نصنف بالتدريج دواوين بلايانا، قواميس أفعالنا وأسمائنا، صلاتنا وصفاتنا المشتقة من الأفعال، ذلك الشرطى الذى كان دليلنا فى غسق

لندن، هو أول من همس بالرسالة لنا. ذلك الرجل الذى يتسم بحنو الأبوة قد وضع الحقيقة فى كلمات قليلة. وها نحن الاثنان، هنا فى بلد غريب مشيد من بلورة لُونت وزركشت بذلك الإفراز الشحمى ما بين القضيب والقلفة، والتى إن وصفنا «عاداتها»، فسوف ينظر إلى هذا الوصف باعتباره نزوات عقولنا المختلة أمامنا، أيها الأخ الحمار، أشق الدروس جميعا لنتعلمه ـ ذلك أن الحقيقة لا يمكن فرضها، لكن يجب السماح لها بأن تدافع عن نفسها! هل تسمعنى. إن خط الاتصال قد أصابه الخلل مرة أخرى. لقد ذهب صوتك بعيدا.

إننى أسمع اندفاع المياه!

كن كئيبا أيها الشاب ودع ذلك المرح الفرح

مجد فينوس إن استطعت مرتين كل ليلة

كل الأشياء التى على حد سواء عليك ألا ترفضها

حتى تدق أجراس بقر التأمل الإنجليزى البطيئة الحزينة

إن انعدام حقيقة الفن قد أوضح الأمر تماما

وإن لم يكن الأمر كذلك، فمن هو الشيطان إذن؟

رأيت وأنا أكتب فى حجرتى فى الليلة الماضية، نملة فوق المنضدة. مرت عابرة قرب المحبرة، رأيتها تتردد أمام بياض فرخ ورق كنت قد كتبت عليه كلمة «الحب». تعثر قلمى، استدارت النملة، ذابت شمعتى فجأة وانطفأت. رفرفت خلف مقلتى درجات واضحة متتالية من ضوء أصفر. كنت أود أن أبدأ جملة بالكلمات: «المجادلون دفاعا عن الحب»، إلا أن الفكرة ذابت مع الشمعة! وواتتنى فيما بعد فكرة، واتتنى مباشرة قبل أن أسقط نائما، فكتبت بالقلم الرصاص على الجدار فوق سريرى تلك الكلمات: «ما العمل إن لم يكن فى وسع المرء أن يشارك آراء الغير

حول الحب؟». وسمعت زفرتى الساخطة وأنا أسقط نائما. استيقظت فى الصباح رائقا مثل زائدة مثقوبة ـ كتبت فوق المرآة بإصبع الحلاقة عبارة تأبينى على قبرى:

«لم أعرف البتة أى جانب قد داهن فنى».

تلك هى آخر كلمات نطق بها بورسواردن المسكين.

أما المجادلون دفاعا عن الحب، فقد سعدت باختفائهم. لا بد أنهم كانوا سيقودوننى دون مقاومة نحو الجنس؛ ذلك الدَين الردىء الذى يعلق فوق ضمائر مواطنينا. الحذلقة. الجوهر الحقيقى لحذلقة هذا العالم المضطرب، والميدان الوحيد الصحيح، أيها الأخ الحمار، لنشر مواهبنا. إلا أن كلمة واحدة حقيقية وأمينة دون تشدد فى هذا المضمار سوف تقود فى الحال إلى واحدة من أفعال الهمهمة والصهيل التى يختص بها مثقفونا. إن الجنس بالنسبة إليهم، أشبه بالاندفاع بحثا عن الذهب، أو التراجع عن موسكو. وماذا هو بالنسبة لنا؟ كلا، إلا أننى سأقوم بشرح ما أعنى، إن غدونا جادين للحظة (كوكو، كوكو(*)، تغريد مرح، يصيب بالكدر من له أذن من جلد الخنزير). إن ما أعنيه أكثر مما يفكرون فيه (الشخص الخنثى الغريب الحزين فى غسق لندن، الحارس الذى ينتظر فى شارع إيبورى ظهور الرجل المهذب حامل اللقب). كلا، إنها منطقة بحث أخرى لا يمكن بلوغها دون اختيار هذه الأرض الغامضة للأرواح الناقصة. إن موضوعنا، أيها الأخ الحمار واحد. إنه، دائما، وبطريقة لا يمكن تجنبها نفس الموضوع ـ إننى أتهجى الكلمة لك: الـ ح ب، حرفان، كل منهما مجلد بذاته! إنها نقطة ضعف الروح(**) البشرية. إنها فى ذات

(*) نداء طائر الكوكو ـ المترجم.

(**) بالفرنسية فى الأصل.

موقع الحقيقة الأساسية السرطانية! كيف ذلك وقد دمجها اليونانيون مثلما دمجت فتحة التبرز والإنجاب عند الطيور والزواحف؟ إنها لغز مكتمل يمسك اليهود بمفتاحه ـ مالم تكن معرفتى بالتاريخ خاطئة ـ إن هذا الجنس الموهوب المتعب، والذى لم يعرف الفن أبدا، قد استنزف عمليته الإبداعية كلية فى إقامة نظم أخلاقية فرضها علينا جميعا، وهى نظم لقحت، بالمعنى الحرفى للكلمة، النفس الأوربية الغربية بكل آماد الأفكار القائمة على «العرق والسلالة»، والمحتوى الجنسى الكامن فى التقدم العرقى تقدما ناجحا! إننى أسمع بلتازار يدمدم ويزمجر ويضرب بذيله. ولكن بحق الشيطان من أين جاءت كل تلك الأوهام عن مجارى الدم النقية الخالصة؟ هل أنا مخطئ إن عدت إلى المحظورات المخيفة المكتوبة فى سفر اللاويين فى التوراة، حتى أبين الغضب الذى يتسم بالهوس والإحباط للإخوة بليموث وجمهرة أخرى من المتعصبين المكتئبين؟ لقد زنقت الشريعة الموسوية خصياتنا لقرون، ومن ثم كان شحوب فتياتنا الصغيرات وأولادنا ونظرتهم المشذبة. ومن ثم شاعت وقاحة البالغين المتكلفة، أن تديم المراهقة إلى الأبد. تكلم يا أخى الحمار! هل تحتاجنى؟ إن كنت أنا مخطئا فما عليك إلا أن تقول ذلك! أما فيما يختص برأيى فى الكلمة ذات الحرفين، والتى أحس بالدهشة لعدم إدراجها فى قائمة الناشر الإنجليزى السوداء مع الكلمات الأخرى الثلاث، فإننى، إلى حد ما، جسور وعاصف. أعنى على طول المدى اللعين، بدءًا من كسور عظام القلب البشرى الخضراء الصغيرة حتى أعلى درجات تواطئه الروحية مع... حسنا، مع أساليب الطبيعة المطلقة، إن شئت ذلك. هذه بالطبع، أيها الأخ الحمار، هى الدراسة التى لا تلائم الإنسان؟ إنها المجرى الأساسى لاستنزاف القلب؟ إن فى وسعنا أن نصنع أطلسًا لزفراتنا!

طرح زيوس هيرا على ظهرها.

لكنه اكتشف فقدانها لمهارتها
لقد وهنت من كثرة ما أفرطت
كانت عاجزة، هكذا اعترفت
لا شيء يثبط عزم زيوس، إنه يحاول
بحكمته العديدة من أشكال التنكر الجيدة
نسر، كبش، ثور، ودب
مستجيبا فى سرعة لصلاة هيرا
المرء يعرف أن الإله يجب أن يكون مسهبا
لكن... فكر فى كل تلك الأمور المتباينة

إلا أننى أتوقف هنا مرتبكا. أرى أنى فى خطر، إذ لم أكن جادًا كما يجب أن أكون! وهذه إهانة لا تغتفر، كما أننى أهملت ملاحظتك الأخيرة عن اختيار أسلوب ما. حقا، إن اختيار أسلوب ما، يا أخى الحمار، هو أكثر الأشياء أهمية. إن حديقة سوقنا الثقافية الوطنية تزدهر ازدهارا غريبا، مخيفا مع ذكر كل زهرة يقف منتصبا. آه لو يكتب المرء مثل روسكين! كان على «إفى جراى» المسكين عندما حاول أن يندس فى فراشه، أن يصرف الفتاة بعيدا. آه لو يكتب المرء مثل كارليل! خبائث العقل. هل يكون الربيع قد ذهب بعيدا إلى الوراء عندما يحضر الأسكتلندى إلى المدينة؟ كلا، إن كل ما نقوله صادق وسديد للغاية. الصدق النسبى، فكرة لا معنى لها بصورة ما، إلا أننى سأحاول وأفكر، رغم ذلك، فيما يبتدعه أصحاب الحواشى هؤلاء، إذ إن الأسلوب، فى وضوح، أمر مهم لى كما هو مهم بالنسبة إليك.

كيف نخوض فى هذا الأمر؟ كان «كيتس» الذى يطرب للكلمة، يبحث

عن رنين بين حروف العلة والتى يمكن أن تمنحه صدى لدخيلة ذاته. كان يفحص التابوت الفارغ لموته المبكر بأصابع متئدة يستمع إلى الطنين الكئيب لخلوده المحقق. وكان «بيرون» فظا مع اللغة الإنجليزية يعاملها كما يعامل السيد الخادم. إلا أن اللغة ليست تابعا ذليلا. ومن ثم كانت تنمو النباتات الاستوائية المتسلقة فيما بين شقوق أشعاره تكاد تخنق الرجل. لقد عاش بحق. كانت حياته خيالية بالفعل. كان يكمن تحت بدعة هواه لذاته حكيما وفيلسوفا، رغم أنه هو نفسه لم يكن يعى هذه الحقيقة. إن «دون»(*) يضغط العصب المكشوف، يثير الصخب فى الجمجمة كلها. كان يؤمن بضرورة أن تلجم الحقيقة المرء. إنه يوجعنا، يخشى سهولته. إن أشعاره، رغم ألم ضغطها، يجب أن تمضغ حتى تغدو مزقا، «شكسبير» يجعل الطبيعة كلها مدلاة الرأس. «بوب» يصيبه الأسلوب بالألم المبرح، مثله فى ذلك مثل طفل يعانى من الإمساك. إنه يدهن أسطح أوراقه رملا حتى تنزلق عليها أقدامنا. إن أعظم أصحاب الأساليب المتميزة هم هؤلاء الأقل ثقة فى تأثيرهم. إن القصور الغامض فى مادتهم يلازمهم دون أن يدركوا ذلك! ويضع «إليوت» حشية مخدر بارد فوق روح شدت بإحكام، بما جمعت من معلومات. إن أمانة معياره وشجاعته الحازمة فى العودة إلى بلطة السياف، إنما تشكل تحديا لنا جميعا. ولكن أين الابتسامة فى كل ذلك؟ إنه يلوى مفاصل أقدامنا بطريقة خرقاء فى الوقت الذى نحاول نحن الرقص فيه! إنه يختار اللون الرمادى أكثر مما يختار النور والضياء، إنه «ورمبراندت» شريكان فى حصته، إن «الرجل الأبيض والأسود» إنما هى حزمة أوراق داكنة خرقاء مليئة بما هو مستعار من المعبد الذى سوف ينهار على المكان كله، عندما تتمزق الخيوط التى تشده، ويبشر «لونج

(*) جون (١٥٧٢ ـ ١٣٦١) كاهن كاتدرائية سانت بول، واعظ وشاعر ميتافيزيقى مؤلف: هجائيات، رسائل إنجيلية، قصائد تأملية ـ المترجم.

فيلو» بزمن الإبداع لأنه أول من فكر جهارا بالبيانو الآلى. ما إن تضع قدمك على دواسته حتى يبدأ فى الإنشاد. وكان «لورانس» فرعا فى شجرة البلوط الأصيلة، معه حاجته من حزام السرج والخيل. لماذا كشف لهم أن الأمر كانت له أهمية، معرضًا نفسه بذلك لسهامهم؟ وكان «أودن» يتحدث دوما. لقد حرر اللغة الدارجة وأعتقها.

إلا أننى أقطع هنا، يا أخى الحمار، حديثى، إذ من الواضح أن هذا ليس بأعلى نقد أو حتى أدناه! إننى لا أفهم هذا النوع من المبالغة الذى يجرى فى جامعاتنا الأكثر قدما حيث ما زالوا يحاولون، بطريقة مؤلمة، استخلاص ظل ما من الفن، يبرر نمط حياتهم. لا بد، رغم كل شىء، من وجود ذرة أمل من أجل هذه الجماعة من المسيحيين المحترفين الأمناء، فى قلب كل هذا الهراء الذى تصبه قبيلتنا من جيل إلى جيل. أم هل الفن، فى بساطة، هو تلك العصا البيضاء الصغيرة التى تعطى للأعمى ليدق بها دقة دقة فوق طريق لا يراه، لكنه على يقين من وجوده هناك؟ أخى الحمار، إن تقرير ذلك مرجعه إليك!

عندما لامنى بلتازار لأننى كنت مبهما أثير الالتباس، قلت له دون تردد: «إن الكلمات هى ما تكون عليه، والناس هم ما يكونون عليه، وربما كان من الأفضل، على الدوام، أن تقول عكس ما تعنى؟» وعندما أمعنت التفكير، فيما بعد، فى وجهة النظر هذه، (والتى لم أكن أعرف أننى أعتقد بها) بدت لى حقا وجهة نظر حكيمة عاقلة بصورة رفيعة! نحن الأنجلو ساكسون، إن أكثرنا من التفكير الواعى فإنك سوف ترى عجزنا عن أن نفكر لأنفسنا، إننا نفكر عن أنفسنا، وهذا حق، إننا ونحن نفكر عن أنفسنا نضفى كل نوع من بديع الأداء على كل صوت من الأصوات، من يوركشاير المشروخة، إلى البطاطا الساخنة من الفم المتحدث من الإذاعة البريطانية. هنا نبرع ونتفوق، إذ نرى أنفسنا على مقربة من الحقيقة، كمادة تحت

الميكروسكوب، إن هذه الفكرة عن الموضوعية هى فى الحقيقة امتداد مرائى لإحساسنا بخداعنا ودجلنا. إنك عندما تفكر لنفسك، يغدو مستحيلا أن تكون مرائيا، ونحن نعيش بالرياء. آه. إننى أسمعك تقول، وأنت تتنهد، إنه واحد آخر من الكتاب الإنجليز، من سجانة الروح المرموقين، إنهم يثيرون لنا المتاعب والقلق! هذا حق تماما، ومثير للحزن تماما.

سلاما: إنجلترا الموحشة الدار المولعة بالرياء

بورسواردن يبعث إليك بتحياته القليلة

إن أفكارك تجعله يرتد على أعقابه

إنه يمقت الرياء، إنه رائع

ولكن إن شئت تكبير الصورة فاستدر إلى أوروبا، أوروبا التى تمتد، مثلا من «رابيليه» إلى «دى ساد» إنه تقدم من وعى البطن إلى وعى الرأس، من اللحم والطعام إلى العقل الرائق (الرائق!)، مصحوبا بكل الشرور المتبادلة والتى تسخر منا. تقدم من النشوة المتدنية إلى قرحة الاثنى عشر (من المحتمل أن يكون الإنسان أكثر صحة إن فقد عقله تماما). إلا أنك يا أخى الحمار، لم تضع هذا الشىء فى حسبانك عندما اخترت المنافسة بغية الحصول على حزام الوزن الثقيل لفنانى الألف عام التى يحكم المسيح فيها على الأرض. لقد تأخر الوقت تماما للشكوى. لقد اعتقدت أنه فى وسعك، على نحو ما، أن تفلت من القصاص والعقاب دون أن يطلب منك فعل أى شىء أكثر من إثبات مهارتك بالكلمات، لكن الكلمات... إنها فقط قيثارة الريح أو آلة موسيقية رخيصة ذات قضبان خشبية متراصة يعزف عليها بالمطارق. إن سبع الماء نفسه، يمكنه أن يتعلم كيف يحافظ على توازن كرة القدم فوق أنفه، أو أن يلعب على البورى الطويل المنزلق فى سيرك ما. ماذا يكمن وراء ذلك؟

كلا، إننى أقولها جادا، إن شئت أنت أن تكون ـ وأنا لا أقول أصيلا ـ ولكن مجرد معاصر لجيلك ـ فإنه يمكنك أن تحاول خدعة الورقات الأربع فى صورة رواية ما، أن تمر بمحور مشترك عبر القصص الأربع، مثلا، وتكرس كل واحدة منها، لواحدة من رياح السماء الأربع. إنه تجسيد متصل متجانس، لا لزمن يستعاد ثانية و لكن لزمن الخلاص والنجاة(*). إن منحنى المكان ذاته سوف يعطيك رواية ستريو سكوبية(**)، بينما الشخصية البشرية التى ترى عبر تواصل متجانس قد تغدو منشورية؟ من الذى يستطيع تحديد ذلك؟ إننى أرفض الفكرة. إن فى وسعى تصور شكل يمكن، إن استوفى، أن يثير على أسس بشرية قضايا السببية أو الغموض... وكلاهما أمر غير مرغوب فيه إلى هذا الحد. مجرد فتاة عادية تلتقى بفتى القصة. ولكن إن تمت المعالجة هكذا، فإنك، مثل غالبية معاصريك، لن تشق طريقك بطريقة ناعسة على امتداد خط من نقط!

هذا هو نوع الأسئلة التى سوف تجبر على أن تسألها لنفسك («إننا لن نصل مكة المكرمة أبدا!»، كما قالت أخوات شيخوف فى إحدى التمثيليات التى نسيت عنوانها).

الطبيعة هى ما أَحَب، وتأتى العرايا بعد الطبيعة

كان يحاول مع كل امرأة تستحق المحاولة

يدفئ الوجنتين بنار الحياة

وسقط خائضا معركة مع مليون امرأة محتشمة

من ذا الذى يجرؤ على أن يحلم بالإمساك بصورة الحقيقة العابرة فى سرعة بكل تعدديتها المخيفة؟ (كلا، كلا، دعنا نتعشى فى سعادة وبهجة

(*) بالفرنسية فى الأصل.

(**) تجسيد الصور المزدوجة ـ المترجم.

بعيدا عن نفايات الكمادات القديمة الملقاة، وأن نسمح لأنفسنا بأن يصفنا العلم كذؤابات شعر ندية وجافة).

شخوص من تلك التى أراها أمامى تصطاد الآماد الضاربة إلى الملوحة؟

إن المرء يكتب، يا أخى الحمار، من أجل الجياع روحيا، من أجل النفوس المنبوذة! إنهم دوما سيكونون الغالبية حتى وإن كان كل منهم مليونيرا من حر ماله. كن شجاعا، فأنت هنا ستكون دوما سيد المستمعين إليك. إن العبقرية التى لا يمكن تداركها، يجب تجاهلها فى أدب. إننى لا أعنى أنه لا جدوى من أن تتقن وأن تمارس حرفتك باستمرار، كلا فالكاتب الجيد قادر على كتابة أى شىء إلا أن الكاتب الكبير هو خادم الالتزامات الجبرية التى يكرسها بنيان الروح ذاته، لا يمكن التغاضى عنها. أين هذا الكاتب؟ أين هو؟

هيا بنا، دعنا نتعاون معا حول عمل يقوم على أربعة أو خمسة مستويات، هل نفعل ذلك؟ «لماذا زل القسيس» سوف يكون عنوانا جيدا. أسرع، إنهم ينتظرون هؤلاء الأشخاص المؤثرين بين مآذن لندن، المؤذن الذى يؤذن على البضاعة. «هل ينال القسيس فتاة كما ينال راتبه، أم ينال الراتب فقط؟ اقرأ الألف صفحة التالية واكتشف الإجابة؟». الحياة فى إنجلترا فجة، مثلها مثل ميلودراما تقوم على الورع يمثلها وكلاء أملاك كنائس مجرمون محكوم عليهم بالهواجس والريب الجنسية مدى الحياة! إننا بهذه الطريقة نستطيع، لمصلحتنا المتبادلة، أن نضع غطاء إبريق شاى فوق الحقيقة، أن نكتبها كلها فى نثر واضح يمكن أن يتميز فقط عن الحديد المجلفن. إننا بهذه الطريقة سوف نضع غطاء فوق صندوق بلا أضلاع. دعنا يا أخى الحمار، نؤلف عالما من الأدنياء الخائرين الذين لا يبالون والذين يقرءون

لا ليتحققوا من فراستهم وصدق حدسهم، ولكن ليتحققوا مما يتوقعونه من ضرر وإجحاف!

إننى أتذكر داكابو العجوز وهو يقول ذات مرة فيما بعد الظهر، «إن لدىّ اليوم خمس فتيات. إن لدىّ اليوم خمس فتيات. إننى أعرف أن هذا سوف يبدو لك إفراطا يتجاوز الحد. إننى لا أحاول أن أثبت بذلك أى شىء لنفسى. إذ لو قلت إننى قد خلطت خمسة أكواب من الشاى لتناسب ذوقى أو خمسة أنواع من التبغ لتناسب غليونى فإنك لن تفكر فى الأمر ولو لدقيقة واحدة، بل على عكس ذلك سوف تعجب بقدرتى على الاختيار، أليس كذلك؟».

إن كنيلورث، مصقول الكرش، والذى يعمل «فى المكتب الأجنبى» قد أخبرنى ذات مرة، فى صوت نائح شجى، أنه قد «حط على غير انتظار» ومن باب الفضول، على جيمس جويس! وأنه اندهش وتألم لأنه وجده وقحا، متعجرفا، سريع الغضب. قلت له: «لكنه كان يكفر عن عزلته وخلوته بإعطاء دروس، لواحد إلى ستة من العبيد مدة ساعة! ربما كان من حقه أن يحس بالأمان من أشياء لا تحكى، مثلك أنت، أنت الذى يتخيل أن الفن إنما هو شىء، يمكن إن تعلمت تعليما جيدا أن تصبح أهلا له بصورة آلية، باعتباره جزءًا من العتاد الاجتماعى، من اللياقة الطبقية، كما كان الرسم بالألوان المائية بالنسبة لسيدة مجتمع من العصر الفيكتورى! إننى أستطيع تصور قلبه المسكين وهو يغوص بينما يتفحص وجهك، الذى يرتسم عليه تعبير تفضل عنيد ـ اعتدادًا بالنفس بعيد الغور يمكن أن يراه المرء أحيانا يرفرف عبر وجه سمك المرجان الذهبى يحمل صك ملكية بالوراثة». ولم نتحدث أبدا بعد ذلك. كان هذا ما أسعى إليه، فن صناعة الأعداء الذين لا بد من وجودهم! ومع ذلك فقد أحببت فيه شيئا واحدا. كان ينطق كلمة الحضارة وكأن حرف الراء ملوى فى داخلها.

(إن أخى الحمار يعبر الآن عن الأفكار بالرموز، وحتى أتحدث بإحساس طيب حقا، يجب على الاعتراف بذلك) الرمزية! اختزال اللغة إلى شعر. الوجه المدرع للحقيقة! الرمزية. الرمزية هى عملية الترميم الكبرى لحاجيات النفس، أيها الأخ الحمار، أقصى ما فى طاقة النفس(*) إنها الموسيقى التى تحمل العضلة العاصرة على الاسترخاء، تحاكى تموجات الروح وهى تتقدم عبر اللحم البشرى، تتحرك، تلعب فى داخلنا مثل الكهرباء! (لقد قال بار العجوز ذات يوم وهو ثمل: «نعم، إلا أنه من المؤلم أن تعرف!»).

حقا، من المؤلم أن تعرف إلا أننا نعرف أن تاريخ الأدب هو تاريخ الضحك والألم. إن الأمور القطعية التى منها هى: أن تضحك حتى تتألم، وأن تتألم حتى تضحك!

إن أعظم الأفكار متاحة لأقل عدد من الرجال لماذا علينا أن نصارع هكذا؟ لأن الإدراك ليس مهمة القياس المنطقى، إنه التعبير عن مرحلة نماء النفس. تلك أيها الأخ الحمار، هى النقطة التى نختلف عندها. إن أى قدر من الشرح والتوضيح لا يمكن أن يسد الفجوة. إنه الإدراك والاستيعاب فقط! سوف تستيقظ ذات يوم من سباتك تصرخ ضاحكا.

أما فيما يختص بالفن، فقد كنت أقول، على الدوام، لنفسى: عليك تهريب الحقيقة فى عروقهم، مثلما يُمرر فيروس عبر مصفاة، بينما هم يراقبون عرض الألعاب النارية والجمال الصارخ. إن هذا الكلام أسهل فى القول عنه فى التنفيذ. إن المرء ليتعلم فى بطء شديد كيف يسلم بهذا التناقض الظاهرى. إننى لست هنالك بعد، إلا أننى رغم ذلك، وعلى أى حال، واحد من ذلك الفريق الصغير، فريق الرواد المستكشفين، «كنا

(*) بالفرنسية فى الأصل.

لا نزال على مسافة يومين سيرا على الأقدام من الشلالات، إلا أننا رغم ذلك، سمعنا فجأة هديرها يعلو عن بعد!».

آه، ربما يجازى ذات يوم، هؤلاء الذين هم أهل لذلك بشهادة ميلاد جديدة تقدمها لهم واحدة من إدارات الحكومة الرحيمة. إن ذلك سوف يمنحهم حق تسلم كل شيء مجانا؛ إنها جائزة مخصصة لهؤلاء الذين لا يريدون شيئا. الاقتصاديات رائعة الجودة التى يصمت عنها لينين صمتا غريبا! الوجوه الكئيبة لشياطين الشعر الإنجليزى. سيدات المجتمع الشاحبات المجهدات وهن يرتدين القمصان النسائية وحبات الخرز، يوزعن الشاى ويضعن الكعك والفطائر للغافلين!

الوجوه الثعلبية
لفضلاء العصر الإدواردى
وجوه الخيل تفيض بالسحر
بخيوط حبات الخرز
وصرة الحبوب
وذؤابة قرد تحت كل ذراع!

المجتمع! دعنا نُعَقِّد الوجود إلى نقطة العنت والشقاء، حتى يفعل فعل المحذر فى مواجهة الحقيقة. هذا ظلم! ظلم ولكن يا عزيزى الحمار، إن الكتاب الذى أفكر فيه يدخل فى باب الكتب المرغوبة التى تحقق لنا الشهرة والثراء. لو استطاع اليهود، الآن، أن يتمثلوا الأمر فقط، فإنهم سوف يقدمون لنا قدوة ثمينة فى موضوع تحطيم التشدد والتزمت فى كل مكان.

إنهم أصحاب امتياز النظام المغلق، ورد الفعل الأخلاقى! حتى

محرمات طعامنا ونواهيه، حول اللحم والدجاج، تلك المحظورات المنافية للعقل مأخوذة كأنها نسخة من هراء كاهنهم المتحكم الكئيب. نعم، نحن الفنانين لا تثير السياسة اهتمامنا، لكنها القيم ـ ذلك هو ميدان معركتنا! إننا إن استطعنا ذات مرة، أن نفك أو نرخى القبضة الرهيبة لما يسمى مملكة السماء، والتى أحالت الأرض إلى مكان مشرب بالدماء، فربما نعيد اكتشاف مفتاح بحث وتنقيب ميتافيزيقى يحتويه الجنس، هو عقلنا ورشدنا(*) هنا فى الأسفل فوق الأرض لو أن النظام المغلق والموانع الأخلاقية للحق الإلهى تراخت قليلا، فما الذى لم نكن نقدم على فعله؟

ماذا حقا؟ إلا أن بلتازار الطيب كان يدخن تبغ لا كاديف فى كآبة ويهز رأسه الكث الأشعث. وفكرت فى تأوهات جوليت السوداء المخملية، والتزمت الصمت. فكرت فى البراعم البيضاء الناعمة، وأشكال الورد التى لم تتفتح بعد، والتى تزين قبور النساء المسلمات! والوداعة المسترخية اللينة التى بلا طعم لعقول هاته الإناث. كلا، إن سيرتى، فى وضوح ركيكة سخيفة إلى حد ما.

دعنا أيها الأخ الحمار، نتتبع تقدم الفنان الأوروبى بدءا من كونه الطفل اللغز أو المعضلة إلى حالة تاريخية ، ومن الحالة التاريخية إلى الطفل البكّاء. لقد حافظ على روح أوروبا حية بقدرته على أن يكون مخطئا، بجبنه ونذالته المتواصلة، تلك هى مهمته! طفل العالم الغربى البَكّاء. اتحدوا يا أطفال العالم البكائين! لكن دعنى أتعجل فأضيف، إننى ملىء بالأمل، خشية أن تكون تلك الأصوات ساخرة أو باعثة على اليأس. هنالك دوما، وفى كل لحظة، احتمال أن يتغير الفنان فيما أدعوه فقط بالإشارة

(*) بالفرنسية فى الأصل.

الكبرى! ومتى حدث ذلك، فإنه يغدو، فى الحال، حرا يستمتع بدوره فى الإخصاب، إلا أن ذلك لن يكتمل أبدا وبدقة كما يجب أن يكون ما لم تقع المعجزة؛ معجزة كومنولث بورسواردن المثالى! نعم إننى أؤمن بهذه المعجزة. إن وجودنا، كفنانين يؤكد ذلك! إنها عملية القول بنعم لكل ما يتحدث عنه شاعر المدينة التليد، فى شعر أريته لى، مترجما، ذات مرة(Φ). إن حقيقة ميلاد الفنان تؤكد وتعيد تأكيد هذا فى كل جيل. المعجزة هنالك، ترقد فوق الثلج، كما يقال: إنها سوف تزهر وتتفتح ذات يوم جميل لطيف وحينئذ سوف ينمو الفنان فجأة، ويتحمل تحملا كاملا مسئولية منبته من بين الناس، وعندما يدرك الناس، فى ذات الوقت، أهميته الخاصة وقيمته، يرحبون به كالطفل الذى لم يولد لهم من أرحامهم، طفل الفرحة! إننى لعلى ثقة من أنه الآن كالمصارعين الذين يدورون، فى عصبية، حول بعضهم البعض، يبحث كل منهم عن الكيفية التى يمسك بها الآخر. ولكن عندما تأتى المعجزة. اللحظة المضيئة ضياء قويا يعشى الأبصار، فإنه حينئذ فقط سيكون فى وسعنا الاستغناء عن السلطة الكهنوتية كشكل اجتماعى. إن المجتمع الجديد والذى هو مختلف للغاية عن كل ما نستطيع تخيله الآن ـ سوف يولد حول المعبد الأبيض الصغير الدقيق لطفل الفرحة! سوف يتحلق حوله الرجال والنساء، إنه النمو البروتوبلازمى للقرية، للمدينة، للعاصمة! لن يقف شىء فى طريق هذا الكومنولث المثالى، باستثناء أن زهو الفنان وكسله قد تطابق دوما، فى كل جيل، مع عمى انغماس الناس فى ذواتهم، ولكن عليكم أن تستعدوا، استعدوا! إنه فى الطريق، إنه هنا، إنه هناك، إنه لا يوجد فى أى مكان.

ستنهض مدارس الحب الكبرى، وتوقف المعرفة الحسية والذهنية تدافعهم فى بعضهم البعض. سيطلق سراح الحيوان البشرى وقد تطهر من كل تفاهاته الثقافية القذرة، وكل غائطه الحفرى المتحجر الرافض للمعتقد واليقين. ستطأ الروح البشرية التى تشع ضياء وضحكا، العشب

الأخضر، فى رقة راقص، ستبزغ لتضاجع أشكال الزمن وتنجب أطفالا لما هو جوهرى للعالم؛ حوريات ماء وسمندر وجنيات وحراس كنوز وآلهة النار وتصنيع المعادن، ملائكة وعفاريت نعم، أن يمتد مدى الحسية الجسدية ليحتضن الرياضيات وعلم اللاهوت: ليغذى، لا ليعيق، النمو الطبيعى للفراسة وصدق الحدس. إن الثقافة تعنى الجنس، وهو المعرفة الجذرية. لقد خرجت الملكة العقلية عن مسارها أو أصابها العجز، وأقبلت مشتقاتها، قزمية ملتوية، تمنحك بدلا من الرمزية الصوفية، قرنبيطا يهوديا كالمرمون(*) أو النباتيين. وأطفال بكائين بدلا من الفنانين، وعلم تطور الكلمات بدلا من الفلسفة.

إن الطاقة الجنسية والطاقة الخلاقة تسيران يدا فى يد. إنهما تتحولان الواحدة منهما إلى الأخرى، إن الشمس الجنسية والقمر الروحانى يديران حوارا أبديا. إنهما تمتطيان لولب الزمن معًا، تحتضنان كل الدافع البشرى. إن الحقيقة لا توجد إلا فى أحشائنا فقط، حقيقة الزمن.

إن الجماع هو أنشودة الدهماء والصعاليك!، نعم، وهو أيضا جامعة الروح، إلا أنها جامعة لا يتبرع لها، فى الوقت الراهن، أحد، إنها بدون كتب أو حتى طلاب. كلا، هنالك القليل منهم.

كم هو رائع صراع الموت عند لورانس: أن تدرك تماما طبيعته الجنسية أن تتحرر من قيود التوراة، أن تتوهج عبر أجواء الفضاء كالرجل السمكة الأبيض الضخم المناضل، آخر شهيد مسيحى. إن نضاله هو نضالنا؛ حتى ننقذ يسوع من موسى. إن هذا يبدو ممكنا لبرهة من الوقت إلا أن سان بول أعاد الميزان إلى ما كان عليه، وأطبقت أغلال سجن اليهودية، إلى الأبد، على الروح النامية. إنه رغم ذلك، يخبرنا بوضوح فى «الرجل الذى مات»، بما يجب أن يكون، وما كان يجب أن تعنيه قيامة المسيح،

(*) طائفة دينية أمريكية تجيز تعدد الزوجات ـ المترجم.

الميلاد الحقيقى لرجل حر. أين هو؟ ماذا حل به. هل سيأتى أبدا؟ إن روحى تنتفض بالفرحة وأنا أتأمل مدينة النور هذه، والتى يمكن أن تقع فيها، أمام أعيننا، وفى أية لحظة، حادثة جليلة! هنا يمكن للفن أن يجد شكله الحقيقى ومكانه. هنا يمكن للفنان أن ينساب، دون نزاع أو جدال، أو حتى دون محاولة، كالنافورة. إننى أرى وبوضوح أكثر وأكثر، أن الفن يشبه نوعا من تسميد الروح. ليس لى مأرب أو غرض، أى يمكن القول: لا مكان لعلم اللاهوت. إن تغذية الروح، بتسميدها، يعاونها فى العثور على منسوبها الخاص، مثلها فى ذلك مثل الماء، إن هذا المنسوب إنما هو طهر وبراءة أصيلة. من ذا الذى ابتدع ضلال الخطيئة الأصلية، تلك البذاءة الدنسة للغرب؟ الفن أشبه بمدلك ماهر فى أرض الملعب. إنه يقف هنالك دوما ليقدم العون إن وقعت إصابة. إنه يفعل مثلما يفعل المدلك تماما، إن مواساته تهون توترات جهاز الروح العضلى، إنه، من أجل ذلك، يذهب دوما إلى الأماكن التى تثير الحزن، يضغط بأصابعه فوق العضلات ذات العقد، فوق الوتر الذى ابتلى بتشنج وقتى، الخطايا، الضلالات، النقاط التى تثير الكدر والاستياء، والتى نتردد فى قبولها. إنه يكشفها برقته القاسية، يحل عقد التوترات، يحقق استرخاء الروح. يجب أن ينتمى الجزء الآخر من المهمة، إن كان هنالك ثمة جزء آخر، إلى الدين. إن الفن هو مجرد العامل المطهر، إنه خادم القناعة الصامتة. إنه أساسى فقط للحب والمرح! إن هذه القناعات الغربية سوف تجدها، يا أخى الحمار، كامنة وراء فكاهاتى الحادة التهكمية، والتى يمكن وصفها فى بساطة، بالتطبيب التقنى. يقول بلتازار: «إن الطبيب الجيد، وخاصة الطبيب النفسى، يجعل الأمر عسيرا، إلى حد ما، وعميقا حتى يبل المريض بصورة أكثر سهولة. أنت تفعل به ذلك حتى تتعرف إن كانت نفسه تتمتع بأى قدر حقيقى من التوثب، إذ إن سر الالتئام يكمن فى المريض وليس فى الطبيب. إن المعيار الوحيد هو رد الفعل!».

لقد ولدت فى ظل كوكب المشترى، بطل النموذج الكوميدى! إن أشعارى أشبه بموسيقى ناعمة تغزو أحساسيس المحبين الشبان المتعبة، والذين يتركون بمفردهم آناء الليل... ماذا كنت أقول؟ نعم، إن أفضل ما تفعل مع الحقيقة الكبرى، كما اكتشف «رابليه»، هو أن تطمرها فى جبل من الحماقات حيث يمكنها أن تنتظر مستريحة معاول وكواريك الاختيار.

ما بين اللا نهاية والأبدية يمتد الحبل المشدود الرفيع الصلب الذى على البشر أن يسيروا فوقه، وقد ضمت خصورهم معا! لا تدع هذه الآراء غير المحببة تثير يأسك، يا أخى الحمار. لقد كُتبت فى مرح خالص، لا تشوبها أى رغبة فى التبشير. إننى حقا أكتب إلى مستمع أعمى، ولكن ألسنا كلنا كذلك؟ الأدب الجيد يستخدم الإشارة، مثل مريض لا يستطيع الكلام، مثل طفل! ولكن إن أنت لم تتبع الاتجاه الذى يشير إليه، وتلقيته، بدلا من ذلك، باعتباره شيئا فى ذاته، له قيمة ما مطلقة، أو باعتباره أطروحة عن شىء ما يمكن شرحه وتأويله، فإنك بالتأكيد تفقد الإشارة، تفقد فى الحال نفسك بين تجريدات النقد المجدبة؟ حاول أن تخبر نفسك أن ما أستهدفه فى الأساس كان تجريدات النقد المجدبة؟ حاول أن تخبر نفسك أن ما أستهدفه فى الأساس كان استدعاء منتهى الصمت الذى التأم، وأن الرمزية التى يشتمل عليها الشكل والنمط، إنما هى إطار للإشارة يمكن من خلاله، كما يحدث فى المرآة، أن يمسك المرء بفكرة الكون فى وضع السكون، كون يهيم حبا بذاته سوف «تستحلب الكون مع كل نفس تأخذه»! مثلك فى ذلك مثل طفل محمول على الأذرع. يجب أن تتعلم قراءة ما بين السطور، ما بين الحيوات.

لقد اعتادت ليزا القول: «إلا أن كمالها جعل المرء على يقين من أنها فى طريقها إلى النهاية». كانت على حق، إلا أن النساء لن يقبلن بالزمان وما تمليه لحظة الموت الجليلة. إنهن لا يرين أن الحضارة إنما هى فى بساطة

مجاز واستعارة كبرى، تصف ما تصبو إليه روح الفرد فى صورة مجمعة، ربما تفعل ما يمكن أن تفعله الرواية أو القصيدة الشعرية. إن الصراع يجرى دوما لتحقيق أحاسيس أكثر سموا. ولكن وا أسفاه! إن الحضارات تموت إن هى وعت ذاتها. أنها تدرك، وهى تفقد قلبها، إن الحافز غير الواعى للدفع إلى الأمام لم يعد له وجود هنالك. إنها تبدأ محاولة يائسة لتقليد صورتها فى المرآة. ولا جدوى. إلا أنه من المؤكد وجود خدعة ما. الزمان هو الخدعة! المكان فكرة محدودة، إلا أن الزمان فكرة مجردة إنك ترى ذلك بوضوح تام فى أثر جراح أنسجة قصيدة «بروست الكبرى». إن أعماله هى الأكاديمية العظمى للوعى بالزمان. ولما كان راغبا عن تجميع معنى الزمان، فقد دفع به للعودة إلى الذاكرة، سلف الأمل!

آه، لقد كان يمتلك الأمل ـ لكونه يهوديا ـ ومع الأمل تجىء الرغبة التى لا تقاوم للتدخل فيما لا يعنيه. إننا السلتيين(*) نزامل الآن اليأس، الذى ينمو، فقط من خلاله الضحك والغرام المتهور للقنوط الأبدى. إننا نقتنص ما لا يمكن إدراكه. إن الأمر بالنسبة لنا هو فقط بحث لا ينتهى.

كانت عبارتى «مد الطفولة إلى الفن» لا تعنى شيئا بالنسبة إليه. إن منصة القفز، يا أخى الحمار، وأرجوحة الترابيز تتواجدان شرق هذا الموقع بالضبط! إنها قفزة واحدة عبر القبة الزرقاء تنقلك إلى حال جديد، فقط عليك ألا تخطئ الحلقة! لماذا، مثلا، لم يستطيعوا التعرف، فى المسيح على الساحر الكبير الذى كأنه الكوميديان؟ إننى لعلى ثقة أن تلثى السعادة إنما هى مزح ودعابات أو هجو وتقريع على طريقة «شوانج تزو». إن أجيالا من معلمى أسرار الدين والمتحذلقين قد فقدوا القدرة على الفهم. إننى واثق من ذلك، على أى حال، إذ لا بد أنه قد عرف أن الحقيقة تختفى عند

(*) نسبة إلى سكان غرب أوروبا الأقدمين ـ المترجم.

القول بها. إنها من الممكن إيصالها، لكنه لا يمكن قولها بصورة مكررة. إن التهكم وحده هو سلاح تلك المهمة.

دعنا نقلب الأمر على وجه آخر. إنك أنت من تناول بالذكر، منذ لحظة مضت، افتقارنا إلى ملاحظة كل ذلك الذى يهم بعضنا البعض؛ حدود الرؤية ذاتها. لقد تكلمت فى شجاعة! إلا أننا إن ترجمنا ذلك روحيا، فإننا نجد أن هذا القول قد أضفى عليك صورة رجل يسير حول منزله، بحثا عن عويناته الموجودة فوق جبهته. أن ترى إنما يعنى أنك تتخيل. وما الذى يمكن، يا أخى الحمار، أن يكون أفضل تصويرا لذلك، من طريقة رؤيتك لجوستين، والتى أضاءتها، بصورة متقطعة، إيماءات خيال كهربية؟ إنها بصورة واضحة، ليست نفس المرأة التى شرعت فى محاصرتى، والتى أبعدتها فى النهاية عنى، ضحكاتى الساخرة المستهزئة. لماذا رأيت أنت فيها رقة وجاذبية؟ بدت لى أنا خشونة محسوبة على نحو خاص، لم يكن ما رأيته أنت فيها من ابتداعها، لكنه كان مما بعثته أنت فيها. كل تلك الثرثرة الصادرة من الحلق، الضغط، والإكراه لإظهار الهستيريا على السطح، تذكرنى بمريض يخدش ملاءة! إن الحاجة العنيفة لتجريم الحياة، لشرح حالاتها الروحية، تذكرنى بمتسول يستجدى الشفقة، يعرض أحزانه عرضا جيدا لقد كانت تدفعنى عقليا إلى أن أخدش نفسى على الدوام؟ ومع ذلك، فقد كان بها الكثير الذى يثير الإعجاب. لقد غمست فضولى مستكشفا خطوط شخصيتها فى شىء من التعاطف، شقاء حقيقى، رغم أنه كانت لها على الدوام رائحة طلاء، زلق! قصة الطفلة مثلا!

لقد عثرت عليها بالطبع، أو بالأحرى فعل منمجيان ذلك. عثر عليها فى ماخور. ماتت من شىء ما، ربما كان التهابا سحائيا. جاء دارلى ونسيم ليبعدانى. أدركت فجأة أننى لا أستطيع احتمال العثور. عليها. كنت طوال بحثى عنها أعيش على أمل العثور عليها لكن، ما إن مات هذا الشىء، حتى

بدا وكأن هذا الموت قد حرمنى فجأة من كل مقاصدى. لقد أدركت ذلك، إلا أن عقلى الداخلى ظل يصرخ: إن ما أدركته ليس حقيقيا، رافضا أن يدعنى أدرك ما أدركت، رغم أننى قد أدركت بوعيى هذا الأمر بالفعل. إن مزيج تلك العواطف المتضاربة كان مثيرا للاهتمام حتى إننى دونته فى كراسة مذكراتى على نحو يقع بين الشعر ووصفة صناعة خبز الملائكة التى حصلت عليها من العلاف وترتيبها مجدولا كالآتى:

١ ـ الراحة عند نهاية البحث.

٢ ـ اليأس عند نهاية البحث. ليس هنالك من قوة دافعة فى الحياة إلى أبعد من ذلك.

٣ ـ الرعب عند الموت.

٤ ـ الراحة عند الموت. أى مستقبل متاح أمامها؟

٥ ـ الخجل المكثف (لا تحاول فهم هذه العبارة).

٦ ـ الرغبة المفاجئة فى استمرار البحث بلا جدوى حتى لا يعترف بالحقيقة.

٧ ـ تفضيل الاستمرار فى تغذية آمال كاذبة.

إنها عملية تجميع مربكة لنتف تترك بين مقتطفات أدبية لشاعر مشرف على الموت! ولكن هنا كانت تكمن النقطة التى أحاول الوصول إليها. لقد قالت: «لم يلحظ نسيم أو دارلى، بالطبع، أى شىء. إن الرجال أغبياء إلى حد كبير. إنهم لا يلحظون البتة أى شىء. لقد كان فى مقدورى أن أنسى الأمر وأن أحلم حقيقة أننى لم أكتشف هذا الأمر أبدا إلا أن هنالك منمجيان الراغب فى الجائزة، والمقتنع بحقيقة قضيته إلى حد إثارة شغب هائل. لقد تحدث بلتازار عن تشريح الجثة لفحصها. وكنت أنا حمقاء للغاية إذ

ذهبت إلى عيادته أعرض رشوته حتى يقول: إن الطفلة ليست طفلتى؛ لقد أصابته الدهشة إلى حد ما، لقد أردت منه أن ينكر حقيقة، أعرف أنا صدقها تماما. وذلك حتى لا يكون علىّ تغيير نظرتى، أن أحرم، إن شئت القول، من حزنى وحسرتى. لقد أردت أن يدوم الأمر؛ يستمر بحثا شديد الحماس لما لم أكن أجرؤ على كشفه. لقد آثرت خوف نسيم وأوقعت الشك فى نفسه بألاعيبى المضحكة حول خزائنه الخاصة، هكذا سار الأمر. أخذت أبحث، مدة من الوقت طويلة، بطريقة آلية، حتى أستطيع وقف ضغط الحقيقة والوصول إلى تواؤم معها. أن أرى الأمر فىَ وضوح تام، أرى الديوان والمسكن.

وهنا وضعت على وجهها أجمل تعبيراتها، تعبير الحزن المكثف، ووضعت راحتيها على نهديها. هل أخبرك بشىء ما؟ لقد شككت فى كذبها. كان فكرة غير لائقة، لكننى شخص لا يستأهل شيئا.

أنا: «هل عدت إلى المكان، فى أى وقت من الأوقات؟».

هى: «كلا لقد وددت ذلك كثيرا، لكننى لم أجرؤ على الذهاب ـ وارتعدت قليلا ـ لقد غدت ذاكرتى مشدودة إلى الديوان القديم لا بد أنها تتجول هنالك فى مكان ما. إننى ما زلت، كما ترى، نصف مقتنعة بأن كل ما حدث إنما كان حلما».

وتناولت للحال غليونى وكمانى، غدوت كصائد الأيائل، شرلوك حقيقى. كنت على الدوام الرجل الذى يحدد اللحظة. قلت فى خفة ونشاط: دعينا نذهب ونعيد زيارة المكان. كنت أعتقد أن الزيارة سوف تكون، فى أسوأ الحالات، كالدواء المُسْهِل. لقد كان الاقتراح، فى الحقيقة، عمليا بصورة فائقة، نهضت فى الحال وارتدت معطفها، سرنا صامتين عبر الأطراف الغربية للمدينة، وذراع كل منا فى ذراع الآخر.

كان هنالك احتفال ما يجرى فى المدينة العربية. كان يضوى بالأنوار الكهربية والأعلام. البحر سكن وسحب صغيرة مرتفعة وقمر أشبه بأرشمندريت(*) مستنكر لأى عقيدة أو إيمان، رائحة السمك، حبات الحبهان والأحشاء المقلية المتبلة بالكمون، والثوم(**). الجو مشحون بضوضاء المندولين التى تخربش الليل بأرواحها الصغيرة، كأنما ابتليت بالبراغيث، تخربش وتخربش بأرواحها حتى يظهر الدم فوق تلك الليلة المليئة بالقمل المخدر! كان الهواء ثقيلا، تخترقه الأنفاس بطريقة غير مرئية. إنك تحسه داخلا خارجا من رئتين كوسادتين من جلد! هو! كل تلك الأضواء والضوضاء البشعة، هكذا فكرت. ويتحدثون عن رومانسية الشرق! أعطنى «المتروبول» فى «برايتون»، فى أى يوم! اجتزنا هذا المقطع الضوئى بخطا سريعة متعمدة. سارت فى خطا سديدة وقد أحنت رأسها غارقة فى أفكارها. أخذت الشوارع تظلم تدريجيا، تشحب ألوانها إلى الظلمة البنفسجية، غدت أكثر ضيقا، ملتوية منحنية. أخيرا بلغنا مكانا خاليا تنيره النجوم، ومبنى كالثكنة كبير وقاتم. سارت الآن فى بطء، غدت أقل يقينا تبحث عن باب. قالت همسا: «المطراوى العجوز يعتنى بهذا المكان. إنه طريح الفراش. الباب مفتوح دائما، إلا أنه وهو فى فراشه يسمع كل شىء. خذ بيدى». لم أكن أبدا ممن يأكلون النار. يجب علىّ الاعتراف بأننى أحسست بالاضطراب إلى حد ما ونحن نسير عبر هذه اللفافة من الظلام الدامس. كانت يدها راسخة باردة، وصوتها حريص دقيق لا يشوبه أى قدر من التشديد، لا ينم عن أى إحساس بالاضطراب أو الخوف. أعتقد أننى سمعت صوت مروق فئران ضخمة فى البنيان العطن حولى. إنها عوارض الليلة ذاتها (حدث ذات مرة، وهنالك عاصفة رعدية، أن رأيت

(*) رتبة كهنوتية ـ المترجم.

(**) بالعربية فى حروف لاتينية.

أجسادها اللامعـة تبرق هنا وهناك وهى فى وليمة تتغذى على الفضلات).
أرجوك يا إلهى، تذكر أننى، رغم كونى شاعرا إنجليزيا، فإننى لا أستحق أن تأكلنى الفئران، هكذا صليت فى صمت.

أخذنا نسير عبر دهليز طويل من الظلمة، وألواح الخشب العطن تزيق تحتنا، ألواح يفتقد أحدها هنا أو هناك. كنت أتساءل إن كنا لا نسير فوق الحفرة نفسها التى بلا قرار. كان الجو يفوح برائحة الرماد المبتل، ورائحة اللحم الأسود وهو يعرق. إنها تختلف كثيرا عن الأجساد البيضاء. إنها رائحة كثيفة كريهة نتنة، مثل قفص الأسود فى حديقة الحيوان. كان الظلام نفسه يتصبب عرقا ولماذا لا؟ يجب أن يرتدى الظلام جلد عطيل. ورغبت فجأة باعتبارى مرافقا فزعا هيابا، أن أتوجه إلى دورة المياه إلا أننى سحقت الفكرة كما يسحق المرء خنفساء. دع مثانتى تنتظر. تقدمنا إلى الأمام يحيط بنا حائطان من ظلام، تغطى أرضيتهما الألواح العطنة. همست فجأة: «أعتقد أننا قد وصلنا». دفعت بابا لينفتح على قطعة أخرى من الظلام الأصم الذى لا يمكن اختراقه. كان حجرة محددة الحجم إذ كان الهواء باردا. كان فى إمكان المرء أن يحس بالمكان رغم أنه لا يرى شيئا أيا كان وأخذ كلانا شهيقا عميقا.

«حسنا»، قالت همسا وهى تفكر فى تأمل، بحثت فى حقيبة يدها عن علبة الثقاب أشعلت أحدها مترددة. الحجرة طويلة طويلة مسقوفة بالظلام رغم الرفرفة الصفراء لشعلة الثقاب. كان هنالك نافذة واحدة تسمح بدخول واهٍ لضوء النجوم. الحوائط بلون صدأ النحاس والملاط ساقط فى كل مكان، والزخرفة الوحيدة عليها بصمات أكف صغيرة زرقاء تتناثر على الجدران الأربعة بطريقة عشوائية، وكأن العديد من الأقزام الذين أصابهم جنون اللون الأزرق، أخذوا يقفزون، واقفين على أكفهم، فوق الجدران! استكان إلى اليسار، على بعد قليل من الوسط، ديوان كبير كئيب، يطفو فوق العتمة كنعش من نعوش الفايكنج. كان أثرا من مخلفات

أحد الخلفاء العثمانيين وقد طحن مرتين، تخرمه الثقوب. انطفأ الثقاب «هاك، هو» ـ قالت ذلك وهى تضع العلبة فى يدى وتترك جانبى ـ عندما أشعلت عودا آخر كانت تجلس إلى جوار الديوان وقد أراحت وجنتها عليه وهى تربته فى رقة براحة يدها. كانت رابطة الجأش تماما، تربت بلمسات شهوانية هادئة ثم مرت فوقه ببراثنها، مما ذكرنى بلبؤة تجلس منفرجة الساقين تتناول وجبتها. كانت لحظة من التوتر الحبيس إلا أن هذا لم ينعكس على وجهها (إن البشر يشبهون أرغن أنبوبى، ما إن تشد حاجزا موسوما بعلامة «المحب» أو «الأم»، حتى تنثال العواطف المناسبة دون ضابط أو رابط، دموع وتنهدات، أو أصوات إعزاز وتحبب. إننى أحاول فى بعض الأحيان أن أجرب وأفكر فينا جميعا كأنماط سلوكية أكثر مما نكون بشرا. ألم تكن فكرة روح الفرد التى غرزها اليونان فينا، يحكمها أمل عنيف فى أن يتم استيعابها، بما لها من جمال خالص، أو كما نقول أن تفعل فعل التطعيم؟ أن يكون فى وسعنا النماء إلى حجم الفهم والإدراك، وأن ننمى الشعلة السماوية فى قلب كل منا؟ هل تم الاستيعاب أم لم يتم؟ من ذا الذى فى وسعه قول ذلك؟ إن البعض منا لا يزال لديه هذه الفكرة، ولكن كم تبدو بائدة منقرضة ربما....).

«لقد سمعونا».

كان هنالك، فى مكان ما، فى الظلام، صوت دمدمة خافتة، وامتلأ الصمت فجأة بوقع أقدام فوق أخشاب عطنة. ورأيت فى الرفرفة الخامدة للثقاب، وكأن ذلك فى مكان ما بعيد للغاية، حاجزا من ضوء ـ وكأن باب أتون بعيد يفتح فى السماء. وجاءت أصوات، أصوات نمل! جاء الأطفال عبر كوة ما أو باب أرضى مسحور، مصنوع من الظلام، فى قمصان نومهن القطنية، وهن مدهونات بطريقة سخيفة منافية للعقل، وقد وضعن خواتم فى أصابع أيديهن وأجراسا فى أصابع أقدامهن، وبذا تصاحب الموسيقى الواحدة منهن أينما ذهبت! إحداهن تحمل طبقا يطفو فيه ضوء شمعى.

كانت تصـدر عنهـن ولولــة كالخنة وهن يتجهن نحونا يسألننا، فى صراحة لا فحة، عن رغباتنا، إلا أنهن دهشن عندما رأين جوستين تجلس إلى جوار نعش الفايكنج ووجهها (وهى تبتسم الآن) قد استدار نصف دورة نحوهن.

«أعتقد أنه يجب علينا أن نغادر»، قلت فى صوت منخفض، فقد كانت رائحتهن مخيفة، تلك الأشباح الضئيلة، والتى أخذت تبدى ميلا لبرم أذرعهن الجلدية حول خصرى، بينما يتملقن وينغمن إلا أن جوستين استدارت إلى إحداهن وقالت، «أحضرى الضوء هنا، حيث نستطيع جميعا أن نرى». وعندما أُحضر الضوء، أدارت نفسها فجأة، ووضعت ساقيها متقاطعتين تحتها، وأخذت تترنم فى تلك النبرة العالية ذات الجرس التى يتميز بها رواة القصص فى الشوارع: «الآن، تجمعوا حولى كلكن يا من باركَكن الله، واستمعن إلى عجائب القصة التى سوف أرويها لكن». كان وقع الكلمات كمس الكهرباء! استقررن حولها كما تستقر أوراق شجرة جافة فى ريح تزاحمن مقتربات من بعضهن البعض، بل إن البعض منهن تسلقن الديوان القديم، وهن يضحكن ضحكات مكتومة، يلكزن بعضهن البعض فى سعادة. وبدأت جوستين، مرة أخرى، فى نفس الصوت الثرى المنتصر، فى صوت راوى القصص المحترف»، آه، استمعن إلىّ كلكن أيتها المؤمنات الحقيقيات، وسوف أروى لكن قصة عزيزة ويونس(*) وحبهما الكبير المورق، والنكبات التى حلت بهما من أفعال «أبو على سرق المعزة(**)» كان ذلك فى زمن الخلافة العظيم، عندما سقطت كثير من الرءوس وسارت كثير من الجيوش...».

(*) جاءت فى الأصل يونا وعزيز وأميل إلى الاعتقاد بأنها عزيزة ويونس وأن المؤلف قد أنث يونس بيونا وذكرّ عزيزة بعزيز ـ المترجم.

(**) عربية بحروف لاتينية.

كانت شعرا وحشيا حول الزمان والمكان، الدائرة الصغيرة للوجوه الذاوية، الديوان، الضوء المتراخى، والمطرب العربى الآسر، على نحو غريب، بما فيه من ثقل التصوير المزخرف ـ والنسيج المطرز للتكرار الجناسى الاستهلالى، والنبرات التى لها رنة وخنة، أضفت بهاء علمانيا جعل الدموع تطفر من عينى، دموع غزيرة! كان ذلك غذاء دسما للروح! وجعلنى ذلك أدرك كم كان القوت الذى قدمناه نحن المحدثين، إلى قرائنا، هزيلا. الخطوط الملحمية التى تتسم بها قصتها! أحسست أنى أغبطها. كم كانت تلك الصغيرات الشحاذات ثريات. كنت أيضا أحد المستمعين إليها، وهى تتحدث عن العدالة المعطلة. كن غارقات فى شخوص قصتها مثل ثقالات من رصاص. كان فى وسع المرء أن يرى أرواحهن الحقيقية خارجة مثل الفئران، تزحف خارجة من تلك الأقنعة المطلية فى تعبيرات دهشة دقيقة، تعبيرات إثارة وفرحة. كن فى تلك الغبشة الصفراء تعبيرات تجسد الحقيقة الرهيبة. أنت ترى كيف يمكن أن يكن عندما يبلغن أوساط العمر، العرافة، الزوجة الصالحة، الثرثارة والسليطة. كان النظم الشعرى قد سلخهن حتى العظام، ترك فقط أنفسهن الطبيعية لتزدهر هكذا فى تعبيرات صادقة أمينة تصور أرواحهن الضئيلة العاجزة.

ما الذى كان فى مقدورى تقديمه من عون غير الإعجاب بها إذ منحتنى أكثر اللحظات دلالة وعمقا فى حياة الكاتب؟ ووضعت ذراعى حول كتفها وجلست ذاهلا مستغرقا مثلى مثل أى واحدة منهن، أتتبع المنحنيات المتوجة المتعرجة للقصة الخالدة وهى تفضها أمام عينى.

كان من العسير عليهن تحمل فراقنا وقد بلغت القصة أخيرا نهايتها تعلقن بها، يتوسلن المزيد. قالت وهى تبتسم فى هدوء: «لم يعد هنالك وقت، إلا أننى، يا صغيراتى سوف أحضر ثانية». بالكاد تنبهن إلى النقود التى كانت توزعها عليهن، وقد تزاحمن وراءنا فى الممرات المظلمة

حتى سواد الساحة. التفتُّ إلى الخلف عند أحد الأركان فلم أر غير ظلال ترفرف. قلن وداعًا فى أصوات تمزق عذوبتها نياط القلوب. سرنا فى صمت عميق تشملنا القناعة والرضا عبر المدينة المضعضعة المحطمة التى أفسدها الزمن حتى بلغنا واجهة البحر الرطبة. وقفنا لزمن طويل نستند إلى الدعامات الحجرية الباردة فوق البحر، ندخن ولا نقول شيئا! أدارت، أخيرا، وجهها نحوى، وقد ارتسم عليه إرهاق هائل، وهمست: «خذنى الآن إلى المنزل. إننى أكاد أموت تعبًا». نادينا عربة حنطور كانت تتسكع. انطلقنا عبر الكورنيش فى رصانة رجال البنوك بعد مؤتمر ما. «أعتقد أننا جميعا نبحث عن أسرار النماء!» كان ذلك كل ما قالته ونحن نفترق.

كانت ملاحظة غريبة تلك التى أبدتها عند الفراق. راقبتها وهى تسير متعبة تصعد الدرجات إلى المنزل الكبير تتلمس مفتاحها. كنت ما زلت ثملا بقصة يونس وعزيزة!

أخى الحمار، إنه لمما يؤسف له أنه لن تكون لديك الفرصة لقراءة كل هذا الهراء المطول الممل. إنه لمما يطربنى أن أدرس تعبير وجهك الحائر المرتبك وأنت تفعل ذلك. لماذا يحاول الفنان دوما أن يتخم العالم بكربه الخاص. لقد سألتنى أنت ذلك ذات مرة. لماذا حقا؟ سوف أقدم لك عبارة أخرى: الغنغورية العاطفية(*) لقد كنت أنا، على الدوام، طيبا مع مبدعى العبارة المهذبة.

الوحدة تخلق الرغبة. وملك الذباب يقتنص الفرصة
تلك هى إمبراطورية الشر أعمق ما يباغت النفس
تعال إلى تلك الذراعين يا عزيزى الهولندى العجوز

(*) أسلوب أدبى يتسم بالغموض والزخرفة اللفظية ـ المترجم.

وأحكم إغلاق الباب جيدا

إننى لا أستطيع، يا عزيزى أن أحبك كثيرا جدا

أنا لا أحب......... أكثر!

فيما بعد، بينما كنت أسير بلا هدف، من الذى كان يمكن أن ألتقى به غير بومبال عائدا لتوه من الكازينو، يترنح قليلا، ومعه مبولة مليئة بأوراق نقدية، وظمأ عارم لكأس أخيرة كبيرة من الشمبانيا، التى كنا نتناولها معا فى «الإيتوال». كان غريبا أننى لم أكن راغبا، فى تلك الليلة، فى أى فتاة. كان يونس وعزيزة قد سدا الطريق أمامى، على نحو ما. لقد همت، بدلا من ذلك، عائدا إلى فندق «جبل النسر» ومعى زجاجة فى جيب معطفى لأواجه مرة أخرى سوء طالع صفحات كتابى، التى سوف تغدو بعد عشرين عاما، من الآن، مصدرا لكثير من الجدل فيما بين الأشكال الدنيا من مدارسنا. لقد بدت كهدية، هى نوع من الكوارث تقدم إلى الأجيال التى لم تولد بعد. لقد كنت حريا أن أترك شيئا مثل يونس وعزيزة، إلا أن ذلك لم يعد ممكنا، منذ شوسر(*) ربما كانت سفسطة المستمعين العلمانيين هى السبب؟ إن فكر كل تلك الدنايا الصغيرة الموجعة قد جعلتنى أغلق دفتر مذكراتى فى طرقات متتالية غاضبة. إن الشمبانيا، على أى حال، شراب رائع ملطف، منعنى من أن أكون غاية فى الاكتئاب ثم عثرت مصادفة على مذكرتك القصيرة والتى دفعت بها، يا أخى الحمار، من الباب، مبكرا فى المساء، مذكرة تثنى علىّ فيها بمناسبة سلسلة الأشعار الجديدة التى تصدرها «الأنفيل» (وبها خطأ مطبعى فى كل سطر). ولما كان الكُتّاب هم ما جبلوا عليه، فقد فكرت فيك برقة شديدة، ورفعت كأسى فى نخبك. لقد

(*) چيفرى شوسر (١٣٤٠ ـ ١٤٠٠) شاعر إنجليزى يعتبر الأبرز قبل شكسبير ـ (المترجم).

غدوت فى عينى ناقدا يمتلك أنقى فراسة، وسألت نفسى ثانية فى نبرات ساخطة، لماذا بحق الشيطان لم أضيع المزيد من الوقت معك؟ كان ذلك، حقيقة، تراخيا منى. وأعدت، بينما أسقط نائما، مذكرة ذهنية لأصطحبك إلى العشاء فى الأمسية القادمة، وأتحدث عن حماقات ماتنتجه رأسك، عن الكتابة بالطبع، أو ماذا غير ذلك؟ آه! لكن تلك هى النقطة ما إن يكون الكاتب مقلا فى حديثه، وأنا أعرف ذلك، صامتا كحداد، حتى يتوجب على أن أجلس واضعا راحتى فى إبطى بينما تتكلم أنت!

إننى أرى فى نومى مومياء ذات شفتين فى لون الخشخاش، ترتدى ملابس العرس البيضاء الطويلة، مثل عرائس الحلوى العربية، إنها تبتسم، لكنها لا تستيقظ، رغم أنى قبلتها وتحدثت إليها حديثا مقنعا. كانت عيناها مفتوحتين، إلا أنهما أغلقتا ثانية، وانزلقت إلى الوراء فى نوم باسم. همست باسمها الذى كان عزيزة، والذى غدا ليزا بطريقة لا يمكن تعليلها. ولما لم تكن هنالك جدوى فقد طمرتها ثانية فى الرمال المتحركة (حيث تتغير أشكال الرمال سريعا) وحيث لن يبقى لهذه البقعة من أثر. استيقظت مبكرا عند الفجر. أخذت عربة حنطور إلى شاطئ رشدى حتى أتطهر فى فجر البحر. لم يكن هنالك فى ذاك الوقت من أحد حولى غير كليا، على الشاطئ البعيد فى رداء استحمام أزرق وشعرها الرائع يتأرجح حولها مثل «بوتوسيلى» شقراء. لوحت لها فردت علىّ ملوحة، إلا أنها لم تبد أى ميل للحضور والحديث مما جعلنى أشعر نحوها بالامتنان. رقدنا، على بعد ألف ياردة من بعضنا البعض، ندخن مبتلين مثل عجول البحر. وفكرت للحظة فى جسدها الصيفى البديع بلون البن المحروق، وتلك الشعرات القليلة فوق فوديها وقد تحول لونها إلى الرمادى. وأخذت أستنشقها بصورة مجازية، مثل نفحة بن محمص، أحلم بفخذيها الأبيضين وتلك العروق الزرقاء فيهما! حسنا، حسنا... إنها قادرة على إثارة المتاعب مالم

تكن بهذا الجمال. إن تلك النظرة المتألقة تفصح عن كل شيء، وتفرض عليّ الاحتماء منها.

إن المرء ليكاد يسألها أن تعصب عينيها حتى يستطيع مضاجعتها! ومع ذلك فإن هذا أشبه بارتداء الجورب الحريرى الأسود الذى يصر عليه بعض الرجال. هناك عبارتان تنتهيان باقتراح! ما الذى يقدم عليه بورسواردن المسكين؟

إن نثره قد أيقظ شبقا موجعا

بين الطبقات الوسطى

إن اقتراحاته قد نالها التنديد

باعتبارها خطرا على الجماهير

إن أعماله الكبرى قد صنفت

بين الغازات المهلكة

استيقظى يا إنجلترا!

أيها الأخ الحمار، إن ما يسمى بعملية الحياة إنما هو فى الحقيقة خيال.

فى العالم الذى نصوره على الدوام باعتباره العالم الخارجى، إنما هو خاضع فقط للاستقصاء الذاتى! إن مواجهة مثل تلك القسوة، والتى هى تناقض ظاهرى ضرورى، تفرض على الكاتب أن ينبت خياشيم وذيولا، والأفضل له أن يسبح ضد تيارات الجهالة. ربما ما يبدو فعل عنف جائر، يكون نقيض ذلك. إذ عند استبدال هذه العملية بما هو ضدها، على هذا النحو، يتوحد المجرى المتدفق للإنسانية فى ذروة الخمود والهمود

وانعدام الطعم والرائحة، الذروة التى اشتق منها الذروة، اشتق منها جوهر دافعه وحافزه. (نعم، إلا أنه من المؤلم أن يعرف!) وإن كان عليه أن يتخلى عن دوره، فإن كل أمل فى كسب موطئ ارتكاز فوق سطح الحقيقة سوف يفقد، وكل شىء فى الطبيعة سوف يختفى! إلا أن هذا الفعل الشعرى سيكف عن أن يكون ضروريا عندما يستطيع كل امرئ أن يؤديه لنفسه. إننا نسأل، ما الذى يمنعهم؟ حسنا إننا جميعا خائفون بالطبع، من أن نستسلم لأخلاقنا المعللة بطريقة تثير الشفقة، والقفزة الشعرية التى أتحدث عنها ترقد فى الجانب الآخر منها. إنها مرعبة فقط لأننا نرفض التعرف على الوجوه المنحوته الغريبة الرهيبة فى أنفسنا والتى تزين أعمدة الطوطم فى كنائسنا ـ قتلة، كذبة، زناة وهكذا (آه ما إن يتم التعرف عليها، حتى تتلاشى هذه الأقنعة المصنوعة من ورق خضار السلطة) إن كل من يقدم على هذه القفزة الغامضة إلى حقيقة الحياة الشعرية المنذرة المبشرة سوف يكتشف أن للحقيقة أخلاقها المشيدة فى داخلها! ليس هنالك من حاجة لارتداء قماط يفيد المرء أكثر من ذلك. إن الأخلاق فى داخل هذا النوع من غبش الحقيقة يمكن التغاضى عنها، لأنها أمر يفترض العلم به، إنها جزء من الشىء، وليست معوقا له، ليست أمرا محظورا. إنها هنالك كى يعيشها المرء، وليست لمجرد التفكير والتأمل! آه يا أخى الحمار، سوف يبدو هذا، كصرخة بعيدة تستهدف ما يشغل البال من أدب خالص يحدق بك. إلا أنك مالم تتعرض لهذا الركن من الحقل بمنجلك الصغير فإنك لن تحصد أبدا ذلك المحصول الذى فى داخلك، وهكذا تنجز مهمتك الحقيقية، هنا أسفل.

ولكن كيف؟ إنك تسألنى فى حزن وشجن. أنت هنا تمسكنى من شعرى القصير، إذ إن الشىء يحدث، مع كل منا، بطريقة مختلفة. إننى فقط أرى أنك لم تغدو يائسا بما يكفى، مصمما بما يكفى، أنت فى مكان

ما، من قلب الأشياء لا تزال كسول الروح. ومن ثم، لماذا النضال؟ إذ لو ألم بك شيء، فإنه سوف يلم من تلقاء نفسه. ربما تكون على صواب تماما، وأنت معلق هكذا تنتظر. لقد كنت أنا متشامخا للغاية أحسست أنه يجب عليّ أن أمسك به من قرنيه، أمسك بهذا السؤال الحيوى عن حقى المكتسب بحكم مولدى. كان الأمر بالنسبة لى قائما على فعل تحكمه الإرادة لذا فإننى أقول لمن هم على شاكلتى: اغتصب القفل عنوة، اسحق الباب بقوة واجه، اعص، ادحض الكهانة والوسيط الروحى، تصبح الشاعر المقتحم المتحدى!

لكننى أعى أن هذه التجربة يمكن أن تحدث بأى شكل أو أسلوب، إذ ربما تكون، فى العالم الجسدى، لطمة بين العينين، أو سطورًا قليلة يخربشها قلم فوق ظهر غلاف خطاب متروك فى أحد المقاهى. إن الحقيقة المبشرة يمكن أن توجه ضربتها فى أية نقطة: من أعلى، من أسفل، إنها ليست شيئا ما له خصوصيته إلا أنه بدونها يظل الإبهام قائما. ربما تسافر، تنتقل، حول العالم وتستوطن أطراف الأرض بسطورك، لكنك أبدا لن تسمع بنفسك الشدو والغناء.

* * *

[٤]

وجدت نفسى أقرأ تلك الصفحات، من كراسة مذكرات بورسواردن، بكل ما تستحق من انتباه ومتعة، دون أى تفكير فى «دفع تهمة» ما ـ إن استخدمت عبارة كليا. بدا لى، على عكس ذلك، أن ملاحظاته لم تكن تنقصها الدقة، وأنه مهما وضع على صورتى من أسواط وعقارب، فقد كانت مبررة تبريرا جيدا بالإضافة إلى ذلك من المفيد والصحى أن يرى المرء صورته بهذه الصراحة الحراقة صادرة عن شخص يكن له الإعجاب! إلا أننى، اندهشت، رغم ذلك، إذ لم أحس حتى بأن احترامى لذاتى قد أصابته الجراح، ليس فقط لأن عظامى لم تتكسر، ولكن لأننى كنت فى بعض الأحيان أضحك عاليا من هجماته ونكاته. ووجدت نفسى أخاطبه هامسا، كأنه موجود أمامى بالفعل، يقــول، أكــثر ممـــا يكتـب، تلك الحقائق الذاتيــة البغيضة، قلت هامسـا، يا ابن الزنا، فقط انتظر قليلًا وكأننى أستطيع يوما ما أن أصفى الحساب معه وأربح النقاط. لقد كان أمرا شاقا أن أرفع رأسى وأدرك فجأة أنه قد خطا بالفعل وراء الحجب، يندفع فى كل مكان، بهذا المزيج الغريب من القوة والضعف الذى شكل شخصيته الغامضة.

«ما الذى يضحكك؟» قال تلفورد، وهو يتشوق دوما إلى المشاركة فى

تبادل النكات والمزح التى تتسق والفطنة المكتبية التى يحتاجها محتضر فى النزع الأخير.

«كراسة مذكرات».

كان تلفورد رجلا ضخما يرتدى ملابس رديئة التفصيل، ورباط عنق به نقط زرقاء. كان جلد بشرته مليئا بالبقع. إنه من ذلك النوع الذى يتمزق بسهولة تحت حد الموسى ولذا فقد كانت هنالك على الدوام باقات قطن ملتصقة بذقنه أو بأذنه، لوقف نزيف جرح ما. كان على الدوام كثير الكلام، ينفجر بالخطأ الذى يصدر عن طيبة قلب وسذاجة(*)، ومما يعطى انطباعا بأنه فى صراع دائم مع طاقم أسنانه الصناعية، سيئ التثبيت. كان يغرغر مثل ديك رومى، يشهق، يعض فوق موانع سائبة، أو يبتلع حنكا. لينا طريا، يشهق مثل سمكة وهو ينطق مزحه أو يضحك على نكاته مثل رجل يمتطى لعبة هزاز العظام، والجزء العلوى من أسنانه يضرب إلى أعلى وإلى أسفل فوق لثته. كان يصرخ: «إننى أقول إن ذلك كان لذيذا، أيتها الثمرة العتيقة» كما أننى لم أجد فيه زميل عمل كريه فى حجرة المكتب التى كنا نتشاركها فى الرقابة، إذ لم يكن العمل محكما، وكان هو باعتباره قديما، مستعدا على الدوام لتقديم النصح أو المساعدة كما كنت أستمتع أيضا بإصراره وعناده وهو يعود إلى قصصه عن «الأيام الخالية» الأسطورية، عندما كان هو «ليتل تومى تلفورد» تلك الشخصية عظيمة الأهمية، والتى تلى، مباشرة، فى الرتبة والقوة، ماسكيلين العظيم، رئيسنا الحالى، كان يشير إليه دوما «بالبريج»(**)، قائلا فى وضوح تام، إن الإدارة التى كانت، يوما ما «المكتب العربى» قد رأت أياما أفضل. لقد خفضت، فى الحقيقة،

(*) بالفرنسية فى الأصل.

(**) اختصار بريجادير ـ المترجم.

مرتبتها إلى مجرد إدارة للرقابة تتعامل مع جزر ومد المراسلات المدنية فى الشرق الأوسط. دور حقير إن قورن بـ «التجسس» والتى نطقها فى أربعة مقاطع لفظية متفرقة.

كانت قصص المجد القديم، والذى تلاشى الآن بعيدا عن الأذهان، تشكل جزءًا من «الدورة الهوميروسية»، إن جاز القول، لحياة المكتب. إنها تتلى فى كآبة خلال فترات تختطف من العمل، أو فيما بعد الظهر، عندما تقع بعض المصائب الصغيرة، عندما تجعل مروحة مكسورة الوجود، فى مثل تلك الأبنية عديمة الهواء، مستحيلا. إنه تلفورد الذى عرفت منه بذلك الصراع الطويل القاتل بين بورسواردن وماسكيلين، صراع استمر، على نحو ما، على مستوى آخر، بين البريجادير الصامت وماونت أوليف، إذ إن ماسكيلين كان يتلهف مستيئسا على الانضمام ثانية إلى فوجه وطرح بذته المدنية. كانت تلك الرغبة معطلة. كان ماونت أوليف، كما شرح تلفورد فى تنهدات لافحة (وهو يلوح بيدين مشققتين قصيرتين سمينتين محشوتين بتجمعات عروق عنقودية زرقاء أشبه بالبرقوق فى كعكة)، قد تقدم إلى «مكتب الحرب» وأقنعهم ألا يشجعوا ماسكيلين على الاستقالة. يجب أن أقول إن البريجادير، والذى كنت أراه مرتين فى الأسبوع، لم يكن يترك انطباعا بالامتعاض أو الغضب العابس، لحبسه فى إدارة مدنية، بينما يجرى الكثير فى الصحراء، وإن كان أى جندى منتظم، لا بد أن يفعل ذلك. قال تلفورد فى صراحة «عندما تأتى الحرب، هنالك كما ترى، فرص للترقية، أيها الشىء العتيق، فرص عديدة. إن من حق البريج أن يفكر فى مستقبله المهنى مثل أى إنسان آخر. إن الأمر مختلف بالنسبة لنا، لقد ولدنا، إن جاز القول، مدنيين». لقد قضى هو نفسه العديد من السنوات فى تلك الحرفة الجارية فى الشرق الأدنى، مقيما فى أماكن مثل زانت وباتراس، إن أسباب مجيئه مبهمة ربما وجد أن الحياة تلائمه فى مستعمرة بريطانية

أكبر. كانت السيدة تلفورد بطة صغيرة سمينة تستخدم أحمر شفاه بنفسجيا زاهيا، وترتدى قبعات أشبه بوسائد الدبابيس. كانت تبدو وكأنها تعيش فى انتظار دعوة للسفارة بمناسبة عيد مولد الملك إن ««مافيس» تحب عملها الرسمى المحدود، إنها تحبه بالفعل».

قال تلفورد: إنه وإن كانت الحرب الإدارية مع ماونت أوليف خالية تماما من أى نصر، فإن هنالك ما يعزى، وما يُمكن البريج من استخراج متعة مدروسة: إذ إن ماونت أوليف يقيم فى نفس القارب. إن هذا القول قد جعله (تلفورد) «يشخر ضاحكا» وهى عبارة متميزة كثيرا ما كان يستخدمها، ويبدو أن ماونت أوليف لم يكن أقل لهفة على ترك منصبه. كان قد طالب، حقيقة، مرات عدة بنقله من مصر، إلا أن الحرب بسياستها، لسوء الحظ، تدخلت، على أى حال، لتجميد الشخصيات، وأرسل كنيلورث، والذى ليس للسفير بصديق، لتنفيذ سياسته. وإن كان البريجادير قد دبس فى مكانه بمكائد ماونت أوليف، فإن المستشار الشخصى الذى عين حديثا قد دبس ماونت أوليف أيضا، فى مكانه، ثبت فى مكانه «من أجل البقاء والدوام». ودعك تلفورد راحتيه الدهنيتين، بينما يروى لى كل هذا. قال، «إنها عضة العضاض» وإن سألتنى فإن البريج سوف يستطيع الإفلات فى وقت أسرع من سير دافيد. استمع إلى ما أقول «أيتها الثمرة العتيقة» إن إيماءة واحدة تتسم بالوقار كانت تكفى لإرضائه باعتبار أن ماقاله قد وضع فى الحسبان.

كان تلفورد وماسكيلين مرتبطين بنوع غريب من الرباط. كان يأسرنى الجندى المتوحد المنزوى كالمقطع الوحيد للكلمة، والتاجر المتنقل المندفع فى إظهار مشاعره، ما الذى يمكن أن يكون مشتركا فيما بينهما؟ (إن اسميهما، بالتحديد فى جدول الخدمة يوحى بفريق موسيقى داخل قاعة، أو بشركة تجارية لحانوتية محترفين). ومع ذلك فإننى أعتقد أن

الرباط كان رباط إعجاب. كان تلفورد يتصرف فى حضور رئيسه بإقدام ودهشة، يثير حوله، وهو قلق، جلبة لا داعى لها، يتحرق شوقا انتظارا لأوامره، وأن يحظى منه بكلمة مديح أو ثناء، كانت كلماته المثقلة باللعاب، «نعم سيدى «»كلاسيدى»، تندفع بقوة من بين طاقم أسنانه الصناعية بنفس الطريقة المنتظمة الخالية من كل حس التى يصدر بها صوت الوقواق من الساعة. ومن الغريب حقا، أنه لم يكن هنالك أى ادعاء فى هذا التملق الذليل. كان فى الحقيقة شيئا ما أشبه برابطة غرامية إدارية، إذ حتى لو كان ماسكيلين غائبا فإن تلفورد يتحدث عنه بأكبر قدر من التوقير والتبجيل، سيادة البطل الأعمق تفكيرا ـ خليط متساو من الإعجاب الاجتماعى برتبته واحترام عميق لشخصيته وسداد رأيه ـ لقد حاولت من باب الفضول أن أرى ماسكيلين بعينى زميلى، إلا أننى فشلت فى رؤية أكثر من مجرد جندى كئيب حسن التربية، محدود القدرات، تمسك به، تثقله هموم لهجة مدرسية عامة ومع ذلك فإن.. «البريج سيد مدقق حقا» كان تلفورد يقول فى عاطفة عارمة إلى حد تكاد تطفر فيها الدموع من عينيه: إن البريج العجوز مستقيم مثل حبل مشدود، لا ينحنى لفعل أى شىء دون مستواه. ربما كان ذلك حقيقيا، إلا أن هذا، رغم ذلك، ما كان ليجعل رئيسنا شخصية بارعة رائعة فى عينىّ.

كان تلفورد قد انتقى العديد من الواجبات الخدمية التى يقوم بإنجازها لبطله، مثال ذلك. شراء الجريدة الأسبوعية العتيقة «ديلى تلجـراف» ووضعها كل صباح فوق مكتب الرجل العظيم. كان يلتزم بمشية غريبة متكلفة عندما يجتاز الباب المصقول لغرفة مكتب ماسكيلين الخالية (حيث كنا نأتى مبكرين إلى العمل) يكاد يكون خائفا من أن يترك آثار أقدامه خلفه. كان لا بد أن يتسلل عبر الحجرة إلى المكتب. كانت الرقة التى يطوى بها الجريدة، ويجرى بها أصابعه فوق الثنيات قبل أن يضعها

باحترام فوق النشافة الخضراء، تذكرنى بامرأة تمسك بقميص زوجها المنشى حديث الكى.

لم يكن البريجادير نفسه غير راغب فى قبول ثقل مثل هذا الإعجاب الصادق الصريح. إننى أتخيل عددا قليلا من الناس هم من فى وسعهم مقاومة ذلك. كنت فى البداية أحس الحيرة من حقيقة أنه كان يزورنا مرة أو مرتين فى الأسبوع. كان من الواضح أنه ليس هنالك، فى ذهنه، من مسألة خاصة. كان يسير فى بطء جيئة وذهابا بين مكتبينا، يطلق أحيانا، فى تبسط مزحة حافلة بالألوان الرمادية، مشيرا إلى متلقى هذه المزحة بتوجيه عنق غليونه إليه، فى إيماءة تكاد تكون خجلا. ورغم ذلك، فإن وجهه الداكن البشرة الشبيه بكلب سلوقى، كان خلال هذه الزيارات، بما فيه من تغضن الجلد أسفل العينين، لا يغير تعبيره أبدا، كذلك كان صوته لا يفقد البتة نغماته المدروسة طبقا لكل معنى فى البداية، كما أقول، كان هذا المظهر يحيرنى بعض الشىء، إذ إن ماسكيلين كان أى شىء غير نفس حلوة المعشر. كان نادرا ما يستطيع الحديث عن أى شىء غير العمل الذى يجرى إنجازه، ثم تبينت، ذات مرة، فى ذلك الشخص البطىء المتكلف الذى يسير بين مكتبينا، آثار دلال عن غير قصد، ذكرنى بالطريقة التى يفرد بها الطاووس ذيله الكبير الأشبه بمروحة مرصعة بالعيون، أمام الأنثى، أو الطريقة التى تدور بها المانيكان فى تصميم هندسى لتظهر الملابس التى ترتديها حقيقة. لقد جاء ماسكيلين ليحظى، فى بساطة، بالإعجاب، ليشيع كنوز شخصيته وتربيته أمام تلفورد. هل كان من الممكن أن يمده هذا النصر السهل بيقين ما داخلى كان يفتقده؟ كان من العسير الإجابة عن ذلك إلا أنه كان يستدفئ فى أعماقه بما فى عينى زميله الواسعتين من إعجاب. إننى لعلى ثقة أن ذلك كان يحدث عن غير قصد، هذه الإيماءة الصادرة عن رجل متفرد نحو المعجب الوحيد به، بكل قلبه، والذى لم

يخرج بغيره حتى الآن من هذا العالم. لم يكن فى وسعه، من جانبه هو، على أى حال، إلا أن يلتقى هو والتربية القائمة على التلطف والتفضل التى تعلمها. كان فى أعماقه، يضع تلفورد فى موضع الازدراء، لأنه لم يكن سيدا. كان يمكن سماعه وهو يقول متنهدا «تلفورد المسكين» عندما يكون بعيدا عن أسماع الآخرين «تلفورد البائس».

كان الرثاء الذى يتسم به صوته يوحى بالإشفاق على شخص ما يستحق الشفقة، وإن كان شخصا غير ملهم إلى حد يدعو إلى اليأس. هؤلاء، إذن، كانوا خلانى خلال كل هذا الصيف الأول المرهق، ولم تكن رفقتهم تطرح أية مشكلة فى مواجهتى. كان العمل بالنسبة لى مريحا لا يثير أى قلق ذهنى. وكان منصبى متواضعا لا يفرض علىّ أى التزامات اجتماعية. لم نكن نتزاور خارج المكتب. كان تلفورد يسكن فى مكان ما بالقرب من رشدى، فى فيلا صغيرة فى الضواحى بعيدا عن وسط المدينة، بينما نادرا ما كان يغادر ماسكيلين حجرته الهزيلة فى أعلى طابق بفندق سيسيل. إننى ما إن أتحرر من المكتب حتى أنساه تماما، وأستأنف ثانية حياة المدينة أو ما بقى منها.

كانت العلاقة الجديدة بكليا لا تثير أية مشاكل، ربما لأننا تجنبنا، عن قصد، توصيف هذه العلاقة بصورة قاطعة. تركناها تتبع منحنيات طبيعتها الخاصة، حتى تستكمل تصميمها الخاص. لم أكن، مثلا، أقيم دوما فى شقتها؛ إذ إنها عندما تعمل فى إحدى الصور، كانت تحتاج إلى أيام قليلة تحقق لها توحدها وعزلتها لتتمكن من الإمساك بموضوعاتها. كانت تلك الخلوات المتقطعة، والتى تمتد فى بعض الأحيان إلى أسبوع أو أكثر، تزيد من حدة العاطفة وتنعشها دون أن تضر بها. كنا، على أى حال، نلتقى فى بعض الأحيان مصادفة، فنستأنف، بلا ضعف، علاقتنا المعلقة قبل أن تنتهى الأيام الثلاثة أو الأسبوع المتفق عليه! لم يكن ذلك سهلا علينا.

كنت أقع عليها، في بعض الأمسيات، شاردة جالسة بمفردها في الشرفة الخشبية الصغيرة الملونة لمقهى «بودروت» تحملق في الفراغ، وأمامها ترقد مجموعة رسومها التخطيطية دون فتحها. كانت تجلس هنا أشبه بأرنب برى، وقد نسيت أن تزيل من شفتيها ذلك الشارب الدقيق من قشدة قهوتها الفينواز! كانت مثل تلك اللحظات تفرض عليّ كل تحكم في ذاتي حتى لا أثب على السور الخشبي وأضع ذراعي حولها. كم كان فعل هذه اللمسة يبدو مفعما بالحيوية وهو يومض في ذاكرتها، كم كانت تبدو كالأطفال ساكنة هادئة. ما أن تنهض صورة كليا المحبة الوفية المتقدة أمام ناظري، حتى يبدو لي في الحال أن الانفصال عنها أمر لا يطاق وربما، على عكس ذلك، أحس فجأة (وأنا جالس أقرأ فوق مقعد في حديقة عامة) بيدين باردتين تضغطان فوق عينيّ، فأستدير فجأة لأعانقها وأستنشق ثانية عبير جسدها عبر فستانها الصيفي الرقيق. وفي أوقات أخرى، غالبا في اللحظات التي أفكر بالفعل فيها، فإنها تدخل شقتي بما يشبه المعجزة وهي تقول: «لقد أحسست أنك تدعوني للمجيء، أو لقد أحسست فجأة أنني في أشد الحاجة إليك». كان لهذه المصادفات عذوبة حادة لاهثة، تشعل فجأة شوقنا لبعضنا البعض. كان الأمر وكأننا قد بعدنا عن بعضنا سنوات لا أيام.

كان هذا التحكم في الذات وتخطيط التباعد عن بعضنا البعض يشعل شرارة إعجاب بومبال، والذي كان أيسر عليه أن يصعد إلى القمر من ممارسة نفس الأسلوب مع فوسكا. كان يبدو في الصباح وكأنه يستيقظ واسمها على شفتيه. كان أول ما يفعل هو الاتصال بها هاتفيا في قلق، للاطمئنان عليها، وكأن غيابها قد عرضها لأخطار رهيبة مجهولة. كان يومه الرسمي بما فيه من واجبات متنوعة، كربا وعذابا. كان يهرع إلى المنزل يتغذى حتى يراها ثانية. يجب أن أقول، بكل حق وعدل: إن ارتباطه هذا

كان مشاركة كاملة، إذ كانت علاقتهما فى نقائها أشبه بتلك التى بين اثنين من كبار السن المتقاعدين، من أرباب المعاشات. وإن حدث واحتجز إلى ساعة متأخرة فى عشاء رسمى، فإنها كانت تغرق فى حمى الخشية واحتمال الشر. («كلا، ليس إخلاصه ما يشغل بالى، إنها سلامته إنه يسوق السيارة فى إهمال، كما تعرف»).

ولعب القصف الليلى للميناء، لحسن الحظ، دورا فى النشاطات الاجتماعية، يكاد يكون حظرا للتجوال. كان من الممكن أن يقضيا معا كل ليلة تقريبا، يلعبان الشطرنج أو الورق، أو يقرآن فى صوت مرتفع. كانت فوسكا، كما عرفتها، مفكرة متأملة، تكاد تكون امرأة شابة قوية، تفتقد المرح، إلى حد ما، إلا أنها مجردة من الإعجاب بذاتها، والذى كنت ميالا إلى اتصافها به طبقا لوصف بومبال لها عندما التقينا أول مرة. كان لها وجه صارم سريع التأثر، توحى تجعيداته المبكرة أنها تتميز بتجاربها كلاجئة. لم تكن تضحك أبدا فى صوت مرتفع، وكان لابتسامتها لمسة حزن تنعكس عليها. لكنها كانت حكيمة عاقلة، لديها دوما إجابة جاهزة صادرة عن تفكير وإمعان، وذات مغزى ومضمون. كانت من نوع «الروح» التى يعتبرها الفرنسيون، عن حق، شيئا نفيسا فى المرأة. وجعل اقترابها، من نهاية حملها، بومبال يبدو أكثر فطنة وحبا وهياما، كان يتصرف حقيقة، على نحو ما، أشبه بالسرور، والرضا بالطفل. أم هل كان يحاول، فى بساطة، الإيحاء بأن الطفل طفله، كمظهر يقدمه للعالم حوله والذى يمكن أن يفكر فيه باعتباره «خصيا عديم الرجولة؟» لم يكن فى وسعى أن أقرر. كان، فى الصيف، فيما بعد الظهر، يبحر فى الميناء بسفينته الصغيرة بينما تجلس فوسكا فى المؤخرة تضع يدا واحدة بيضاء فى البحر. كانت تغنى له، فى بعض الأحيان، فى صوت رقيق يشبه حقا صوت الطائر. كان ذلك

يطربه، فتكتسى ملامحه بتعبير أب الأسرة البورجوازى(*) الطيب بينما يدق بأصابعه الميزان الموسيقى. كانا يفضلان الجلوس فى الليل إلى رقعة الشطرنج، بعيدا عن القصف الجوى، وهو اختيار فريد بصورة ما. إلا أنه ما إن تؤدى الضوضاء الجهنمية للمدافع إلى إصابته بصداع عصبى حتى يضع فى أذنيه سدادتين أعدهما بمهارة من الطرفين الراشحين لسيجارتين. وهكذا كان فى مقدورهما الجلوس مركزين فى صمت!

إلا أنه حدث مرة أو مرتين أن خيمت على هذا الانسجام السلامى أحداث خارجية أثارت الهواجس والتى يمكن إدراكها تماما فى إطار علاقة كانت مبهمة إلى حد كبير، أعنى علاقة كثيرا ما بحثت وحللت دون ممارستها. لقد وجدته يسير ذات يوم فى جلباب النوم وخف فى قدميه، يبدو مكروبا بصورة مريبة، بل حتى عيناه كانتا محمرتين قليلا. «آه، دارلى»، تنهد بطريقة عاصفة وهو يسقط من كرسى النقرس، يمسك بلحيته بين أصابعه كأنه يوشك أن يقتلعها كلها «لن نفهمهن أبدا. النساء! ياله من حظ سيىء، أو ربما لا أكون غير مجرد غبى فوسكا! زوجها!».

«هل قتل؟»، سألته.

هز بومبال رأسه فى حزن: «كلا، لقد أخذ أسيرا وأرسل إلى ألمانيا».

«حسنا، ولماذا إذن هذه الجلبة».

«إننى خجل، ذاك كل ما فى الأمر لم أكن أعرف بالأمر تمام المعرفة، ولا هى أيضا، حتى جاءت هذه الأنباء. لقد كنا حقا نتوقع مقتله. بالطبع كان ذلك شعورا لا إراديا. والآن تفيض هى بازدرائها لذاتها. لقد قامت خطة حياتنا كلها، دون وعى منا، على أن يختار هو تسلم نفسه، إن ذلك

(*) بالفرنسية فى الأصل.

أمر فظيع كان موته سيمنحنا حريتنا، إلا أن المشكلة برمتها قد أجلت لسنوات، وربما إلى الأبد».

كان يبدو حائرا تماما، يُرَوِّح لنفسه بإحدى الجرائد، يتحدث همسا، «إن الأمور تأخذ أكثر الانحناءات غرابة، «استمر أخيرا»، إذ إن فوسكا التى كانت قادرة على الاعتراف له بأمانة بالحقيقة بينما كان فى الجبهة، لن تقدر البتة على فعل ذلك وهو أسير. لقد تركتها وهى تبكى. لقد تأجل كل شىء حتى نهاية الحرب.

كان يجلس محملقا فىّ، يطحن أسنانه الخلفية معا. كان من الصعب معرفة ماذا علىّ أن أقول حتى أواسيه.

«لماذا لا تكتب إليه، تخبره بالأمر؟».

«هذا مستحيل. من القسوة الشديدة أن تفعل ذلك والطفل قادم؟ حتى أنا بومبال ما كنت لأرغب فى أن تفعل مثل هذه الفعلة أبدا. لقد وجدتها تبكى، يا صديقى، وهى ممسكة بالبرقية. قالت فى نبرات تتسم بالغم والكرب، «أوه، جورجس جاستون، إننى لأحس للمرة الأولى بخجلى من حبى، وقد أدركت أننا كنا نتمنى موته أكثر من وقوعه أسيرا على هذا النحو». ربما بدا الأمر لك معقدا، إلا أن مشاعرها رقيقة للغاية، إحساسها بالشرف والكبرياء، وهكذا. ثم حدث شىء غريب كان ألمنا مشتركا حتى إننى، وأنا أحاول التسرية عنها، انزلقت وبدأنا نمارس الجنس بطريقة حقيقية دون أن نلحظ ذلك، إنها صورة غريبة، كما أنها ليست بالعملية السهلة. وعندما استعدنا أنفسنا بدأت فى العويل ثانية وقالت «الآن، ولأول مرة، أحس أننى أكرهك ياجورجس جاستون، لأن حبنا الآن قد غدا على نفس مستوى أى حب آخر لقد جعلناه رخيصا، بخس الثمن». إن النساء دوما يحملنك الخطأ على نحو ما. كانت السعادة تغمرنى وقد

استطعت أخيرا.. ثم أغرقتنى كلماتها فى اليأس فاندفعت بعيدا. إننى لم أرها حتى الآن منذ خمس ساعات. ربما كان ذلك هو نهاية كل شىء. آه، ربما يمكن أن يكون بداية لشىء يسندنا، على الأقل، حتى نرى المشكلة كلها ضوء النهار».

«ربما كانت غبية للغاية».

وأصابت الدهشة بومبال: «كيف يمكنك قول هذا! إن كل ذلك إنما يصدر عن جمال روحها الرائعة. هذا هو كل ما فى الأمر. ولا تزد شقائى بقولك أشياء سخيفة عن امرأة بهذا القدر من الرقة».

«حسنا، اتصل بها هاتفيا».

«إن هاتفها لا يعمل. آى! إن ذلك أسوأ من ألم الأسنان. لقد كنت أعبث، لأول مرة فى حياتى، بفكرة الانتحار. إن ذلك يبين لك النقطة التى وصلت أنا إليها».

إلا أن الباب فتح فى تلك اللحظة، وخطت فوسكا إلى داخل الغرفة. كانت تبكى هى أيضا. وتوقفت فجأة فى وقار غريب وبسطت يديها لبومبال الذى أطلق صرخة فرح مدمدمة لا تبين معالمها، وخطا عبر الغرفة فى جلباب نومه ليعانقها فى انفعال شديد، ثم شدها إلى طوق ذراعه وسارا معا فى بطء، عبر الممر، إلى غرفته، وأغلقا الباب وراءهما.

رأيته، فيما بعد، فى المساء، آتيا نحوى عبر شارع فؤاد وهو مشع متلألئ «هورا!»، صرخ وهو يلقى بقبعته المرتفعة غالية الثمن فى الهواء: أخيرا هأنذا(*)!

(*) بالفرنسية فى الأصل.

ورسمت القبعة فى الهواء قطعا مخروطيا كبيرا، ثم استقرت وسط الطريق، حيث مرت عليها للحال ثلاث سيارات فى تتابع سريع شبك بومبال راحتيه معا وقد أشرق كأنما منحه المنظر فرحة كبرى. ثم أدار وجهه الأشبه بالقمر امتلاء واستدارة، نحو السماء كأنما يبحث عن إشارة أو نذير. وما إن غدوت بجانبه حتى أمسك بيدى وقال: «يالمنطق النساء القدسى! حقا، ليس هنالك من شىء، فوق الأرض، أروع من امرأة تفكر فى مشاعرها. إننى أهيم بها حبا، أهيم بها حبا.. إن حبنا.. فوسكا! إنه كامل الآن. إننى غاية فى العجب والدهشة. إننى مندهش حقا. ماكان فى وسعى أن أفكر فى الأمر بهذه الدقة. استمع، إنها ما كانت تضع نفسها موضع تخدع فيه الرجل الذى كان معرضا كل ساعة لخطر الموت حقا، لكن الأمر اختلف الآن وهو فى أمان خلف القضبان. إننا أحرار فى أن نكون على سجيتنا. إننا بالطبع، لن نسبب له ما يسىء إليه بإخباره بالأمر إننا، فى بساطة، سوف نعاون أنفسنا على الخروج من الكرار، كما اعتاد بورسواردن القول. أليس ذلك رائعا يا صديقى العزيز؟ إن فوسكا ملاك».

«إنها تبدو امرأة رغم كل شىء».

«امـرأة! إن الكلمة بكل ما فيها من روعة لا تكاد تفى روحا مثل روحها».

وانفجر فى ضحك كالصهيل. لكزنى فى مودة فى كتفى سرنا معا أسفل الشارع الطويل:

«إننى ذاهب إلى بيير أنتونى لأبتاع لها هدية ثمينة.. أنا الذى لم أعط أية هدايا لأى امرأة أبدا، أبدا فى حياتى كلها. كان ذلك يبدو لى، على الدوام، أمرا سخيفا. لقد رأيت ذات مرة فيلما عن طائر البنجوين فى موسم التزاوج. كان ذكر البنجوين، والذى ليس شبيها بالرجل، أكثر بعثا

على الضحك، منه، يجمع الأحجار ويصفها أمام السيدة التى اختارها وهو يتقدم إليها بعرض الزواج. لا بد أن يظهر بمظهر من يعرف قدرها. والآن أتصرف أنا كما يتصرف ذكر البنجوين. لا تبالى بما أقول، لا تبالى. إن قصتنا الآن لا يمكن أن تكون إلا قصة ذات خاتمة سعيدة».

كلمات تنبئ عن الغيب استعدتها كثيرا منذ ذلك الحدث، إذ إنه فى غضون شهور قليلة غدت فوسكا مجرد مشكلة ولا أكثر.

* * *

[٥]

مرت فترة من الزمن طويلة لم أسمع فيها شيئا عن شقيقة بورسواردن، رغم معرفتى بوجودها فى المفوضية الصيفية. أما ماونت أوليف فقد كانت زياراته تسجل فى مفكرات المكتب، حتى إننى عرفت أنه يحضر من القاهرة كل عشرة أيام ليقضى ليلة واحدة. وتوقعت، لفترة ما، إشارة منه أو رسالة، إلا أنه مع مرور الوقت ثقيلا، نسيت، كما من المرجح أن يكون هو قد نسى وجودى أيضا. ثم جاء صوتها يسبح طافيا عبر هاتف المكتب، مقتحما على غير توقع، كان مفاجأة فى عالم تقل فيه المفاجآت، مفاجأة تقابل بالترحيب. كان صوتا مجردا من الجسد بصورة غريبة. كان يمكن أن يكون صوت مراهق حائر يقول: «أعتقد أنك قد سمعت عنى. إننى أود الحديث باعتبارك صديقا لأخى» ـ وقد وصفت هى الدعوة للعشاء، فى مساء اليوم التالى، باعتبارها «دعوة خاصة وغير رسمية» ـ مما أوحى إلىّ بأن ماونت أوليف شخصيا سوف يكون حاضرا. استثار ذلك فىّ فضولا غير عادى وأنا أسير عبر الممشى الطويل وماحوله من أسوار أشجار البقس، وعبر أيكة أشجار الصنوبر الصغيرة التى تحيط بمقر الإقامة الصيفى. كانت ليلة حارة انعدم فيها الهواء ـ كما يجب أن تنبئ بذلك تجمعات رياح الخماسين، فى مكان ما فى الصحراء، والتى سوف

تكر بسحب ترابها على شوارع المدينة وميادينها مثل أعمدة من دخان. إلا أن هواء الليلة، حتى الآن، كان لا يزال قاسيا صافيا.

دققت الجرس مرتين دون مجيب. كنت قد بدأت التفكير فى أنه عاطل عن العمل عندما سمعت خطا سريعة ناعمة فى الداخل. فتح الباب، وهنالك كانت تقف ليزا وعلى وجهها العزيز تعبير رغبة انتصرت. وجدتها، من النظرة الأولى جميلة للغاية وإن كانت قصيرة القامة قليلا. كانت ترتدى رداء من نسيج ناعم غامق ذى ياقة عريضة للغاية، تنهض منها رقبتها ورأسها وكأنهما التويج يخرج من الزهرة. وقفت أمامى وقد رفعت رأسها إلى أعلى، نحو الأمام ـ يحيط بها جو شجاعة طيفية ـ كأنها تقدم رقبتها الجميلة إلى جلاد غير مرئى. ما إن نطقت اسمى حتى ابتسمت وأومأت. رددته مرة أخرى فى همسة متوترة مثل خيط مشدود:

«شكرا لكرمك أن جئت أخيرًا»، قالت، وكأنها كانت تنتظر زيارتى لأعوام مضت! أضافت فى سرعة عندما خطوت متقدما: «أرجو أن تغفر لى إن أنا... إنها وسيلتى الوحيدة للتعرف».

أحسست فجأة بأصابعها الملساء الدافئة تتحرك فى سرعة فوق وجهى وكأنها تتهجى معالمه. انتابنى اضطراب غريب مثير، هو مزيج من الحسية والاشمئزاز، بينما تلك الأصابع تنقل انطباعا بالرقة غير عادى. بدت كأنها تستدير قليلا عند أطرافها لتقدم باطنها الأبيض، إلى العالم، أشبه بقرون الاستشعار. لقد رأيت ذات مرة لاعب بيان عالمى مشهور له مثل تلك الأصابع تماما، إنها حساسة إلى حد أنها تبدو وكأنها تنمو ما إن تلمس مفاتيح البيان. تنهدت تنهيدة قصيرة، كأنما تعبر عن ارتياحها. أخذتنى من خصرى وهى تجذبنى عبر البهو وفى حجرة المعيشة بأثاثها الرسمى

الثمين الذى بلا معالم، حيث كان يقف ماونت أوليف أمام المدفأة، يحيط به جو من الاهتمام المضطرب. كان هنالك، فى مكان ما، مذياع تصدر عنه موسيقى ناعمة. تصافحنا، فأحسست فى قبضته بشىء ما متردد غير حاسم توافق معه صوته الشارد وهو يعتذر عن صمته الطويل. قال بطريقة أقرب إلى الغموض: «كان على أن أنتظر حتى تصبح ليزا على استعداد».

لقد تغير ماونت أوليف كثيرا، رغم أنه لا يزال يحمل كل دلائل الكياسة الظاهرية اللازمة لعمله ـ كانت ملابسه منتقاه بطريقة شديدة التأنق ـ إذ حتى التبسط فى التجرد من الملابس لا يزال (كما أعتقد عابسا) زيًا للدبلوماسى. كان لطفه القديم وفطنته لا يزالان كما كانا، ومع ذلك فقد تقدم به العمر، إذ لاحظت أنه الآن فى حاجة إلى عوينات للقراءة، كانت ترقد هنالك فوق نسخة من جريدة التيمس إلى جوار الأريكة. كان قد أطلق شاربه ولم يشذبه مما غير شكل فمه، مؤكدا وهنًا رقيقًا معينا فى ملامحه بسبب تربيته. بدا أنه من غير الممكن تخيله، فى أى وقت من الأوقات، وقد وقع فى قبضة عاطفة قوية إلى الحد الذى يجعله قادرا على تكييف ردود الفعل المثالية التى تعملها والتى لها هذا القدر من الاكتمال. كما لم يكن فى وسعى الآن، وأنا أنقل البصر منه إليها، أن أصدق الهواجس والظنون التى جاهرت بها كليا من حبه لهذه الضريرة الغريبة، التى تجلس الآن فوق الأريكة كفيفة تحملق فىّ وقد طوت يديها فى حجرها، هاتان اليدان الجشعتان الشحيحتان الأشبه بيدى الموسيقار. هل لفت نفسها مثل حية صغيرة بغيضة فى قلب حياته المسالمة؟ تقبلت شرابا من أصابعه. ذكرنى دفء ابتسامته بأنى كنت أحبه وأعجب به، وما زلت كذلك.

«لقد كان كلانا فى شوق لرؤيتك، وليزا على وجه الخصوص، إذ

أحسست أنك ربما تكون قادرا على مساعدتها. إلا أننا سوف نتحدث فى كل ذلك فيما بعد».

وتحول فى نعومة هادئة مفاجئة عن الموضوع الحقيقى لزيارتى، ليستفسر إن كانت وظيفتى تروق لى، وإن كنت أنا سعيدا بها. إنه استبدال للموضوع بمداعبتين تتسمان بالمجاملة، تثيران إجابتين مناسبتين لهما، ورغم ذلك، برقت هنا وهناك معلومة جديدة.

«كانت ليزا مصممة تمام التصميم على بقائك هنا، وهكذا اجتهدنا فى تدبير هذا البقاء! لماذا؟ كان علىّ، فى بساطة، أن أخضع لما تريد من أسئلة وأجوبة عن أخيها، الذى لا أكاد أزعم، فى الحقيقة، معرفته. والذى يبدو لى كل يوم، أكثر فأكثر غموضا ـ أقل أهمية كشخصية، وأكثر فأكثر كفنان؟ كان من الواضح أنه يجب علىّ الانتظار حتى تفصح عما فى عقلها. ومع ذلك فقد كانت إضاعة الوقت عبثا ـ فى تبادل الحديث فى مسائل سطحية ـ أمرا محيرا.

لكن الذى ساد هو تلك الأمور غير الرسمية، وأصابتنى الدهشة؛ إذ إن الفتاة ذاتها لم تقل شيئا، ولا كلمة واحدة. جلست هنالك فوق الأريكة، فى رقة ويقظة كأنما هى جالسة فوق سحابة. كانت تضع، كما لاحظت، وشاحا مخمليا حول رقبتها، وخطر لى أن شحوب لونها، والذى صدم كليا كثيرا جدا، إنما يرجع إلى أنها لا تستطيع أن تصلح من شأنها وتزوق نفسها أمام المرآة، إلا أن كليا كانت محقة فيما قالته حول فمها، إذ استطعت مرة أو اثنتين أن أمسك بتعبير قاطع ساخر، هو صورة طبق الأصل من أخيها.

أدخل خادم العشاء فوق عربة. كنا لا نزال نتبادل أحاديث قصيرة، فجلسنا لنأكل. كانت ليزا تأكل فى سرعة، كأنها جائعة، دون الوقوع فى

خطأ، من الطبق الذى أعده ماونت أوليف لها. لاحظت أن أصابعها المعبرة ارتعشت قليلا عندما طالت كأس نبيذها. نهض ماونت أوليف أخيرا، عندما انتهى العشاء، فى جو من يفسح المجال بطريقة لا تكاد تكون خافية.

«سوف أدعك بمفردك حتى تتحدث فى الأعمال مع ليزا. إن علىّ أن أقوم ببعض الأعمال هذا المساء فى مكتب الاستقبال. سوف تعذرنى لذلك. أليس كذلك؟» ورأيت للحظة ظل تقطيبة إشفاق ترتسم على وجه ليزا، إلا أنها سرعان ما اختفت تقريبا، وحل محلها تعبير يوحى بشىء ما بين اليأس والاستسلام. كانت أصابعها تنتش ذؤابة الوسادة بطريقة موحية رقيقة. كانت لا تزال تجلس صامتة عندما أغلق الباب خلفه، إلا أنها غدت الآن ساكنة بطريقة غير عادية، وقد تدلت رأسها إلى أسفل، كأنها تحاول فك شفرة رسالة مكتوبة فى راحة يدها. أخيرا تكلمت فى صوت بارد دقيق، ناطقة الكلمات بطريقة حادة كأنما تسعى إلى أن تكون واضحة المعنى.

«لم يكن لدىّ أدنى فكرة عن صعوبة شرح الأمر لك عندما فكرت فى أن أطلب العون منك والمساعدة. هذا الكتاب».

تلا ذلك صمت طويل. قطرات عرق قليلة رشحت فوق شفتها العليا وصدغيها، كأنها كانت هنالك يتحكم فيها ضغط ما. أحسست نحوها بالتعاطف لحزنها. قلت لا أستطيع ادعاء معرفته معرفة جيدة، رغم أننى كثيرا ما التقيت به. إننى، فى الحقيقة، لا أعتقد أننا قد أحببنا بعضنا البعض كثيرًا.

قالت فى نفاد صبر وحدة، تزيح ما أعانيه من غموض والتباس:

«لقد فكرت فى الأساس، أن أقنعك بكتابة كتاب عنه، إلا أننى أرى الآن أنه لا بد لك وأن تعرف كل شىء. ليس يسيرا أن أعرف من أين أبدأ.

إننى أشك إن كانت حقائق حياته يمكن كتابتها ونشرها. إلا أننى مدفوعة للتفكير فى الأمر، أولا لأن ناشريه يصرون على ذلك، يقولون: إن هنالك طلبا عاما كبيرا على ذلك، إلا أن ما يدفعنى أكثر من أى شىء، هو ذلك الكتاب الذى يكتبه أو كتبه هذا الصحفى الدنىء، كيتس».

«كيتس»، رددت مندهشا.

«إننى أعتقد أنه هنا، فى مكان ما، إلا أننى لا أعرفه. لقد أغرته زوجة أخى بالفكرة. إنها كما تعرف، تكرهه بعد أن اكتشفت الأمر. إنها تعتقد، أننى وأخى، فيما بيننا، قد دمرنا حياتها. إننى حقيقة، أخشاها، إننى لا أدرى ما الذى قالته لكيتس، أو ما الذى سوف يكتبه. إننى أرى الآن أن فكرتى الأساسية فى إحضارك إلى هنا كانت لكتابة كتاب يمكن أن... يوارى الحقيقة، بصورة ما. لقد أصبح ذلك الأمر واضحا لى الآن بعد أن التقيت بك. سوف يؤلمنى، بطريقة تجل عن الوصف، إن هو نشر شيئا يسىء إلى ذكرى أخى».

سمعت دمدمة الرعد، فى مكان ما، ناحية الشرق. وقفت وقد ألمّ بها الفزع. عبرَت الحجرة، بعد لحظة تردد، إلى البيان الكبير. ضربت أحد أوتاره. صفقت الغطاء ثم استدارت إلى ثانية قائلة:

«إننى أخاف الرعد. أرجو أن تسمح لى أن أمسك يدك بقوة».

كانت يدها باردة برودة الموت. هزت شعرها الأسود إلى الوراء قالت:

«لقد كنا، كما تعرف، عاشقين. ذلك هو المعنى الحقيقى لقصتى وقصته. حاول فصم هذه العلاقة. قام زواجه على هذه الفكرة. ربما لم يكن أمانة منه ألا يخبرها بالحقيقة قبل أن يتزوجها. إن الأمور تقع بطريقة

غريبة، لقد استمتعنا سنوات عديدة بسعادة حقيقية، أنا وهو. إن النهاية المأساوية لذلك، فى اعتقادى، ليست خطأ أى أحد، لم يستطع تحرير نفسه من قبضتى عليه فى داخله، رغم أنه حاول ذلك وناضل من أجل تحقيقه. أنا لم أستطع تحرير نفسى منه، رغم أننى حقيقة لم أرغب البتة فى ذلك حتى.... جاء اليوم الذى تنبأ هو به منذ سنوات عديدة سابقة، عندما جاء الرجل الذى كان يدعوه دوما «بالغريب الأسمر». كان يراه فى وضوح تام وهو يحملق فى النار. كان دافيد ماونت أوليف. ومرت فترة من الزمن لم أخبره خلالها أننى وقعت فى الحب المقدر لى (لم يسمح دافيد لى بذلك. كان الشخص الوحيد الذى أخبرناه هى والدة نسيم. لقد استأذننى دافيد فى ذلك). إلا أن أخى عرف بالأمر بدقة تامة، وكتب إلىّ بعد فترة طويلة من الصمت يسألنى إن كان الغريب قد جاء. وعندما تسلم خطابى بدا أنه قد أدرك فجأة أن علاقتنا يمكن أن تتعرض للخطر أو تتحطم على نفس المنوال الذى حل بعلاقته بزوجته، ليس لأى شىء فعلناه، كلا، ولكن بسبب الحقيقة البسيطة، حقيقة وجودى؛ لذا أقدم على الانتحار لقد شرح لى كل ذلك فى وضوح تام فى خطابه الأخير. فى وسعى أن أتلوه عن ظهر قلب، قال: «لقد انتظرت خطابك، فى توقع كئيب، لأعوام عديدة. كثيرا ماكتبته لك فى مخيلتى أُرْقِى كل كلمة فيه بكلمة سحرية. كنت أعرف أنك وأنت فى سعادتك سوف تستديرين إلىّ لتعبرى عن امتنان عاطفى لما أعطيتك؛ لتعليمك معنى الحب كله من خلالى، حتى إن جاء الغريب تكونين على استعداد لذلك... واليوم جاءت تلك الرسالة التى انتظرتها طويلا، تقول: إنه قد قرأ الخطابات، وعندما قرأت أنا السطور عرفت، لأول مرة، إحساسا لا يوصف بالراحة، كذا بالفرحة، التى لم أحلم أبدا أن أعيشها فى حياتى، أن أفكر فيك وقد انغمست فجأة فى ثراء الحياة، لم تعودى بعد مقيدة، تشدك أصفاد صورة أخيك المعذب! لقد انهالت

الدعوات من شفتى تباركك. لكننى أحسست حينئذ، وبالتدريج، بعد أن ارتفعت السحابة وتلاشت، بمدى ثقل حقيقة أخرى، حقيقة لم تكن فى الحسبان، وما كان يمكن البتة توقعها. الخوف من أنه طالما ظللت أنا حيا، موجودا فى مكان ما من العالم، فإنك سوف تجدين أنه من الصعوبة حقا الفرار من الأغلال التى أحطتك بها فى قسوة طوال كل هذه السنوات. ما إن حل بى هذا الخوف حتى برد الدم فى عروقى، إذ إننى أعرف حقيقة أنه لا بد أن أقدم شيئا ما أكثر تحديدا، إن كان عليك أن تتخلى عنى وأن تبدئى الحياة. يجب أن أهجرك حقا، أزيح نفسى من على المسرح حقا، بطريقة لا تسمح بأى غموض فى قلبينا المترنحين. نعم لقد توقعت الفرحة، لكننى لم أتوقع أنها سوف تحمل معها مثل ذلك التعبير الواضح للموت المؤكد. لقد كان هذا تجديدا هائلا! ومع ذلك فإنه سوف يكون أكمل عطية يمكن أن أقدمها إليك كهدية زواج! إنك لو نظرت فيما وراء الألم الآتى، فسوف ترين كم يبدو منطق الحب مكتملا عند المرء الذى هو على استعداد للموت من أجله».

نشجت نشجة واضحة قصيرة وتدلت رأسها. تناولت المنديل من جيب صدر سترتى وضغطته إلى شفتها المرتعشة. أحسست أنى مذهول ضائع الرشد تحت ثقل هذه المعلومات الحزينة المفجعة. أحسست وأنا أعانى الألم مشفقا على بورسواردن، أن معرفة جديدة به قد أخذت تنمو فى داخلى، استنارة جديدة. وهكذا غدت أشياء عديدة أكثر وضوحا. ورغم ذلك لم أجد من كلمات المواساة أو الرثاء ما يمكن أن يوفى بحق مثل هذه الحالة المأساوية. إنها تتكلم مرة أخرى.

«سوف أعطيك الخطابات الخاصة لتقرأها حتى يمكنك تقديم النصح لى. إن هذه الخطابات هى التى ليس لى أن أفتحها، علىّ أن أحفظها حتى يجيء دافيد كان عليه أن يقرأها لى ثم نتلفها معا ـ أو هكذا قال. كان غريبا

ـ الخطابات العادية قرئت لى بالطريقة المعتادة، إلا أن هذه الخطابات الخاصة، وهى عديدة للغاية، ثقبت كلها بدبوس فى القمة عند الركن الأيسر، حتى أستطيع التعرف عليها وصفها جانبا. إنها فى تلك الحقيبة هناك. إننى أود أن تأخذها معك وتدرسها. أوه، دارلى، إنك لم تقل ولا كلمة واحدة هل أنت على استعداد لمساعدتى فى هذا الوضع البشع؟ كم أود لو كان فى وسعى قراءة ما على وجهك من تعبير».

«سأعاونك بالطبع ولكن كيف، وبأى معنى؟».

«انصحنى، ماذا أفعل! ما كنت لأثير شيئا من هذا لولا تدخل هذا الصحفى الدنىء ولقاؤه بزوجته».

«هل عين أخوك وصيا أدبيا؟».

«نعم، إننى الوصية المنفذة».

«إذن، فلك الحق فى رفض السماح بنشر أى من أعماله غير المبيعة، بينما ما زالت فى حدود حقوق المؤلف. إننى لا أستطيع أن أرى بالإضافة إلى ذلك، كيف يمكن إعلان هذه الحقائق على الملأ دون إذن منك؟ حتى فى حدود تاريخ حياته الشخصية دون أن يكون هنالك تفويض بذلك. ليس هنالك من داع، أيا كان، لقلقك. لا يوجد كاتب مدرك يمكن أن يلمس تلك المادة، ولا يوجد فى العالم ناشر يقوم بالطبع. إن فعل الكاتب ذلك إننى أعتقد أن أفضل ما فى وسعى فعله هو محاولة اكتشاف أى شىء عن كتاب كيتس هذا. ومن ثم، تستطيعين على الأقل معرفة أين تقف».

«شكرا لك يا دارلى. إننى لم أستطع التقدم إلى كيتس بنفسى لأننى أعرف أنه يعمل معها. إننى أكرهها وأخشاها، ربما ظلما، كما أننى أحس بإساءتى إليها دون رغبة منى. لقد كان خطأ مؤسفا من جانبه أنه لم يخبرها

قبل زواجها. أعتقد أنه أيضا قد أدرك ذلك، إذ أصر على ألا أكرر نفس الخطأ عندما ظهر دافيد. ومن ثم جاءت الخطابات الخاصة التى لا تترك مجالا للشك. ومع ذلك، وقعت الأمور تماما كما خطط لها، كما تنبأ لها. لقد اصطحبت دافيد، فى ذات الليلة الأولى، التى أخبرته فيها، إلى المنزل مباشرة ليقرأها. جلسنا فوق السجادة أمام مدفأة الغاز، وقرأها لى واحدا بعد واحد، فى ذلك الصوت الذى لا يمكن أن يخطئه المرء، صوت الغريب».

ابتسمت، عند تلك الذكرى، ابتسامة عمياء غريبة. ظهر أمامى فجأة ماونت أوليف فى صورة عاطفية، وهو يجلس أمام النار يقرأ لها هذه الرسائل فى صوت بطىء متهدج، وقد أذهلته رؤية دوره فى هذا القناع السحرى، والذى خطط له منذ سنوات سابقة، دون علمه. جلست ليزا إلى جانبى غارقة فى تفكير عميق وقد تدلى رأسها. كانت شفتاها تتحركان فى بطء وكأنها تتهجى شيئا ما فى داخل عقلها، تتابع تلاوة داخلية ما. هززت يدها فى رقة كأنما أوقظها:

«يجب أن أغادر الآن»، قلت فى رقة، «ولماذا علىّ أن أرى أصلا هذه الخطابات الخاصة؟ ليس هنالك من حاجة إلى ذلك».

«إننى أطلب منك، وقد عرفت الآن الأسوأ والأحسن، أن تنصحنى فيما يخص موضوع إتلافها. لقد كانت تلك هى رغبته. إلا أن دافيد يعتقد أنها تنتمى إلى كتاباته، وأنه يقع علينا واجب الحفاظ عليها. عليك إذن أن تخبرنى إن كنت ترغب فى الحفاظ عليها أم لا. إنها كلها هنالك فى الحقيبة. هنالك شذرة أو أخرى يمكنك المعاونة فى تحريرها إن كان لديك وقت لذلك أو إن تر ذلك مناسبا. لقد كان يثير دوما حيرتى، ما عدا وقت أن كنت آخذه بين ذراعى».

وعبر وجهها تعبير مفاجئ يعكس غضبا وحشيا، كأنما قد نخستها فجأة ذكرى كريهة. مرت بلسانها فوق شفتيها الجافتين. أضافت، بينما نقف معا، في صوت أجش قصير:

«هنالك شيء آخر. أما وقد غُصت في حياتنا فلماذا لا تنظر إلى القاع مباشرة؟ إنني أحتفظ بهذه دوما بالقرب مني».

ثم مالت حتى بلغت أسفل ردائها حيث أخرجت صورة ناولتها لي. كانت باهته متغضنة. صورة طفلة صغيرة ذات شعر طويل في شرائط، وقد جلست فوق مقعد في منتزه، تحملق في اكتئاب، تبتسم لآلة التصوير ابتسامة فطنة بينما تمسك في يدها عصا بيضاء. استغرق الأمر مني لحظة أو ما يقرب منها للتعرف على خطوط الفم والأنف التي تثير الحيرة باعتبارها ملامح بورسواردن ذاته ولإدراك أن البنت الصغيرة كانت عمياء.

«هل تراها؟» قالت ليزا في همسة تهز العواطف، تصدم الأعصاب بما فيها من توتر غريب، ومزيج من الوحشية والمرارة والعذاب المنتصر - «هل تراها؟ لقد كانت طفلتنا. لقد سيطر عليه، بعد أن ماتت، شعور التأنيب والتبكيت، بعد أن كان هذا الوضع يعود علينا فيما قبل بلا شيء غير الفرحة. لقد أحاله موتها إلى مذنب آثم. هنا تعثرت علاقتنا، إلا أنها غدت، رغم ذلك، أكثر كثافة وأكثر قربا. كنا مرتبطين معا بجريرتنا منذ تلك اللحظة. لقد تساءلت كثيرا، لماذا يجب أن يكون الأمر على هذا النحو سعادة هائلة لا تنقطع ثم.. نغدو، ذات يوم مذنبين، مثل سقوط ضلفة شباك جديدة».

سقطت الكلمة مثل نجم هابط، ثم تلاشت في الصمت وأخذت هي هذا الأثر الأكثر تعاسة من كل المخلفات الأثرية وضغطته في راحتيها الباردتين.

قلت «سآخذ الخطابات».

قالت وقد بدت مرهقة ذاهلة: «شكرا لقد عرفت أن لنا فيك صديقا. سوف أعتمد على عونك لى».

سمعت، بينما أغلق الباب الأمامى خلفى، ضربة وتر فى البيانو رقيقة، وتر واحد علق فى الهواء الصامت، تتلاشى ذبذباته مثل الصدى. لمحت، وأنا أعبر بين الأشجار ماونت أوليف يتسلل نحو باب المنزل الجانبى. فجأة تكهنت أنه كان يسير جيئة وذهابا خارج المنزل فى عذاب التوجس والإشفاق، فى حالة أشبه بحالة تلميذ خارج مكتب سيد الدار فى انتظار أن يتلقى علقة. أحسست بغصة تعاطف معه، لضعفه، للورطة الفظيعة التى وجد نفسه فيها. وجدت، لدهشتى، أن الوقت لا يزال مبكرا. كانت كليا قد ذهبت اليوم إلى القاهرة، ولم يكن من المتوقع عودتها. أخذت الحقيبة الصغيرة إلى شقتها جلست فوق الأرض وفتحتها.

بدأت أقرأ، فى تلك الحجرة الهادئة، وفى ضوء شموعها، الخطابات الخاصة، وأنا أحس بهاجس من فضول داخلى، باضطراب شىء ما أشبه بالخوف ـ ما أبشع أن تستكشف أعمق أسرار حياة إنسان آخر. لم يتضاءل هذا الشعور وأنا أتقدم فى القراءة، بل تعمق إلى فزع يكاد يكون رعبا مما يمكن أن يأتى بعد ذلك. كانت الخطابات شرسة، عابسة، متألقة، فياضة. كان سيل الكلمات الجارفة يفيض إلى مالا نهاية، فى قبضة اليد تلك، ترصعه صور ماسية الصلابة، تحليل وحشى ذاتى لجنون اليأس، التبكيت والعاطفة. وأخذت أنتفض كما يجب أن يحدث فى حضرة سيد عظيم، انتفض وأهمهم. أدركت، وقد صدمت أعماقى، أنه لا يوجد فى كل أدبنا، طولا وعرضا، ما يمكن مقارنته بها وأيًا كانت الروائع الأدبية التى يمكن أن يكون بورسواردن قد كتبها، فإن تلك الخطابات تبزها جميعا بما فيها من

ضراوة وتألق تلقائى وإسهاب. الأدب كما أقول! لكن تلك كانت الحياة ذاتها، ليست تعبيرا مدروسا عنها فى شكل ما، إنها الحياة بذاتها، نهر الحياة المنساب المتكامل بكل ذكرياته المثيرة للرثاء، إرادته النشوانة، آلام الحياة بما فيها من رعب وإذعان وخضوع. هنا امتزج الوهم والحقيقة فى رؤية واحدة تعمى الأبصار، رؤية عاطفة صافية غير قابلة للفساد، تعلق فوق عقل الكاتب مثل نجم أسود، نجم الموت! إن الأسى الهائل والجمال الذى عبر عنهما هذا الرجل فى يسر وسهولة، إن غزارة عطاياه وهباته المخيفة، قد ملأتنى بيأس عاجز ومتعة فى ذات الوقت. القسوة والثراء! بدت الكلمات كأنها تنهال من كل مسام جسده، اللعنات والأنات ودموع الفرحة واليأس تمتزج معا، كلها تلاحمت بالدلالة الموسيقية السريعة العنيفة للغة أحكمها وأتقنها الغرض منها. هنا، أخيرا، يواجه المحبان كل منهما الآخر وقد تجردا عاريين، تجردا حتى العظام.

وأمسكت، للحظة، من هذه التجربة الغريبة المخيفة، بلمحة من بورسواردن الحقيقى، الرجل الذى راغ منى دوما. فكرت فى خجل فى الصفحات البذيئة فى مخطوط جوستين والتى كرستها له، لصورتى عنه. لقد اخترعت، بسبب حسدى أو غيرتى الواعية، بورسواردن حتى انتقده. لقد اتهمته فى كل ما كتبته عنه بنقاط ضعفى أنا، وحتى الهبوط إلى تقديرات غير صحيحة لصفاته وسجاياه، مثل الدونية الاجتماعية، كانت خاصة بى أنا، ولم تكن خاصة به البتة. إننى فقط الآن، وأنا أتابع السطور المكتوبة بذلك القلم السريع الذى لا يضطرب ولا يتلعثم، قد أدركت أن المعرفة النسبية الخالصة. وأن فكاهاته السوداء إنما كانت، فى بساطة، تهكما وسخرية ناتجة عن هذه المعرفة الغامضة المبهمة والذى كان مجالها يفوق، يتجاوز تلك التى تنتمى إلى البحث النسبى عن الحقيقة. ليس هنالك من إجابة عن الأسئلة التى أثرتها فى صدق حقيقى. لقد كان

هو محقا تماما، وكنت أنا أعمى مثل خلد أوروبى، أحفر، أنقب فى جبانة الحقيقة النسبية، أكوم البيانات، وأكثر من المعلومات، وأفتقد تماما ذلك الشعر الأسطورى الذى يكمن تحت الحقيقة. وأطلقت على كل هذا، «البحث عن الحقيقة»! لم يكن هنالك من طريق آخر يرشدنى إلى هذا الأمر غير التهكم والسخرية التى وجدتها جارحة للغاية. لقد أدركت الآن أن هذا الاستهزاء إنما كان، فى الحقيقة، رقة مقلوبة إلى الخارج مثل القفاز. إننى وأنا أرى بورسواردن، هكذا لأول مرة، رأيت أنه كان يبحث، من خلال أعماله، عن الرقة ذاتها لعلم المنطق ذاته، يبحث عن الطريقة التى توجد بها الأشياء، ليس القياس المنطقى أو علاقات مد العاطفة وجزرها، ولكن المحتوى الفعلى للبحث عن الحقيقة، الحقيقة العارية، الإيماءة والإشارة... الدعابة التى لا تستهدف شيئا، نعم، الدعابة! واستيقظت فى فزع وأنا ألعن وأسب.

إن كان هنالك تفسيران، على نفس القدر من الجودة، أو أكثر لفعل إنسانى واحد، إذن ماذا يعنى هذا الفعل غير أن يكون وهمًا. إيماءة تصدر فى مواجهة الخلفية الضبابية للحقيقة، غدت ملموسة فقط نتيجة الطبيعة الخداعة للانقسام البشرى؟ هل تأمل أى روائى قبل بورسواردن هذه المسألة؟ إننى لا أعتقد بذلك.

تعثرت أيضا فجأة وأنا أتأمل هذه الخطابات الرهيبة، بالمعنى الحقيقى لعلاقتى ببورسواردن، وبكل الكتاب من خلاله. رأيت أننا فى الحقيقة، نحن الكتاب، نشكل واحدة من تلك السلاسل البشرية الحزينة التى ينظمها البشر لتمرير دلاء المياه إلى الحريق، أو للإنزال إلى قارب النجاة، سلسلة متصلة من بشر ولدوا لاستكشاف الثراء الداخلى للحياة المتفردة باسم مجتمع لا يبالى ولا يتسامح، وقد قيدتهم نفس الموهبة معا.

بدأت أرى أيضا، أن «الرواية» الحقيقية لا توجد فى صفحات أرناؤوطى أو بورسواردن، ولا حتى فى صفحاتى، إن الحياة نفسها هى التى كانت رواية، نقولها جميعا بطرائقنا المختلفة، وبقدر فهم كل منا لها طبقا لطبيعته وموهبته.

بدأت الآن فقط أرى مدى غموض الشكل الذى تكونت به حياتى من خواص عناصر توجد خارج الحياة النسبية، توجد فى المملكة التى يدعوها بورسواردن بـ «العالم البشير». لقد كنا، كما أرى الآن، كُتابا ثلاثة، نأمن إلى مدينة أسطورية، كان علينا أن نستخرج منها غذاءنا، وأن نؤكد فيها مواهبنا. أرناؤوطى، بورسواردن، دارلى ـ مثل أفعال الماضى والحاضر والمستقبل! وكانت فى حياتى الخاصة (المجرى الذى ينساب فى رخاوة من جانب الزمن الجريح) هؤلاء النسوة الثلاث، اللائى نظمن أيضا أنفسهن، كأنما ليمثلن الأمزجة الثلاثة للفعل العظيم، الحب: ميليسا، جوستين وكليا.

ما إن تحققت من ذلك حتى انتابنى فجأة، يأس واكتئاب هائلان، إذ أدركت الطبيعة المحدودة تماما لقدراتى، التى كانت تُسيِّجها حدود ذكاء له فى ذاته، قدرة كبيرة للغاية، إلا أنه يفتقد السحر الخالص للكلمة، قدرة الدفع إلى الأمام، العاطفة وأن يحقق هذا العالم الآخر من الإنجازات الفنية.

كنت قد أقفلت لتوى على هذه الخطابات التى يصعب احتمالها، جالسا مكتئبا لإدراكى هذه الحقيقة، عندما انفتح الباب، ودخلت كليا مشعة باسمة.

«لماذا أنت هكذا يا دارلى، ما الذى تفعله وأنت جالس وسط أرضية الحجرة فى هذا الوضع المحزن الكسيف؟ هنالك ياعزيزى دموع فى عينيك».

وللحال كانت إلى جـوارى، بكل حنانها ورقتها، جالسة فوق ركبتيها.

قلت.. «دموع الحنق والغيظ» ـ ثم احتضنتها ـ «لقد أدركت لتوى أننى لست فنانا البتة. ليس هنالك من بارقة أمل أن أكون كذلك فى أى وقت».

«ماذا بالله كنت تفعل؟».

«أقرأ خطابات بورسواردن إلى ليزا».

«هل رأيتها؟».

«نعم، إن كيتس يكتب كتابا سخيفا».

«لقد التقيت به لتوى. لقد عاد الليلة من الصحراء».

جاهدت كى أنهض على قدمى. بدا لى أنه من الضرورى أن أجده وأن أكتشف مشروعه بقدر استطاعتى. قالت كليا:

«لقد تحدث عن ذهابه إلى شقة بومبال للاستحمام. إننى أتوقع، إن أسرعت، أن تعثر عليه هناك».

كيتس! فكرت وأنا أسرع أهبط الشارع إلى شقته، كان عليه أن يلعب هو أيضا دوره فى هذا التقديم الملىء بالظلال، للوحة حياة الفنان. كان هنالك على الدوام كيتس ما يقع عليه الاختيار حتى يترجم السير، يجرجر ذيله الطينى اللزج فوق حياة مشوشة تثير الشفقة، استخرج منها الفنان بمثل ذلك الألم، تلك الدرر الغريبة المتفردة لاستنارته الذاتية. لقد بدا لى، بعد قراءة هذه الخطابات، أنه من الضرورى، أكثر من أى وقت مضى، إبعاد أمثال كيتس من التدخل فى شئون تتجاوز اهتماماتهم الطبيعية. إنه

كصحفى وقع على قصة رومانسية (فالانتحار هو أكثر الأفعال رومانسية عند الفنان) لا بد شعر بنفسه أمام ما يمكن أن يطلق عليه فى الأيام القديمة «بالضربة الصاعقة بالقصة الأبرز فى المليون»، لقد فكرت فى أننى أعرف كيتس، لكننى بالطبع نسيت تماما، مرة أخرى، أن أضع فى اعتبارى ما يفعله الزمن، إذ إن كيتس قد تغير كما تغيرنا جميعا وكان ناتج لقائى به على غير ما توقعت منه، مثله فى ذلك مثل كل شىء آخر فى المدينة.

كنت قد أضعت مفتاحى. وكان علىّ أن أدق الجرس حتى يفتح حميد الباب لى. نعم، قال: إن السيد كيتس هنالك فى الحمام. قطعت الممر ودققت على الباب الذى جاء من خلفه صوت اندفاع الماء وصفير مرح.

«دارلى، يا إلهى، كم هو رائع» صرخ مجيبا ندائى،«أدخل بينما أجفف نفسى لقد سمعت بعودتك».

وقف تحت الدش إله يونانى! كنت مندهشا للغاية لهذا التحول حتى إننى جلست فجأة فوق المرحاض أدرس وأتفحص هذا... الطيف. كان كيتس محترقا، يكاد يكون أسود، وقد تحول شعره إلى اللون الأبيض. ورغم أنه كان أكثر نحافة، إلا أنه بدا فى أفضل حال من الناحية البدنية. إن الجلد البنى والشعر الرمادى قد جعلا زرقة عينيه المتلألئتين أكثر عمقا من أى وقت مضى. إنه لا يحمل، بالقطع، أى شبه بذكرياتى عنه!

«لقد تسللت لأقضى الليلة فقط» قال وهو يتحدث فى صوت جديد سريع واثق، «إننى أعالج قرحة فوق مرفقى، من تلك القرح الصحراوية اللافحة، وهكذا حصلت على إذن، وهأنذا هنا. إننى لا أدرى أى جحيم ذلك الذى يسبب هذه القرح، ولا أحد يدرى، ربما كان بسبب الزبل المعلب الذى نأكله هنالك فى الصحراء! إلا أن قضاء يومين فى الإسكندرية وأخذ بعض الحقن فى سرعة، تبرئ المرء، مرة أخرى، من هذا الشىء اللعين!

دارلى، إنه لأمر غريب أن نلتقى ثانية. هنالك الكثير الذى أود إخبارك به. هذه الحرب!». كان يبقبق فى معنويات عالية. «يا إلهى، إن هذه المياه. وليمة إننى أمرح وأطرب».

«إنك تبدو فى قالب رائع».

«إننى كذلك! إننى كذلك». وقرقع بقوة وإفراط فوق إليتيه ـ «أما والمرء كذلك، فإنه لأمر طيب أن يأتى إلى الإسكندرية. إن التباينات تجعلك تقدر الأمور بصورة أفضل كثيرا. إن تلك الدبابات تسخن إلى حد يشعرك كأنك سمك صغير يقلى. تناول شرابى. هنالك ما يكفى أيها الشاب». كان ينتصب فوق الأرض كأس طويل، به الويسكى والصودا وكعب ثلج هز الكأس وهو يقربه إلى أذنه مثل طفل، «استمع إلى الثلج وهو يجلجل»، صاح فى نشوة وطرب، «موسيقى الروح، هى جلجلة الثلج». رفع كأسه وغضن أنفه نحوى وهو يشرب فى صحتى. «أنت أيضا تبدو فى صحة جيدة تماما»، قال وقد تجعدت عيناه فى ضوء جديد من الخبث والشقاوة. «والآن علىّ أن أرتدى بعض الملابس، ثم.... إننى ثرى يا عزيزى الشاب. سوف أدعوك إلى عشاء ظريف فى «البتى كوان». لن أقبل عذرا أو رفضا. إن شيئا لن يوقفنى. كنت أرغب فى رؤيتك والحديث معك بصورة خاصة. إن لدىّ أخبارًا».

قفز إلى حجرة النوم ليرتدى ملابسه، وجلست أنا فوق سرير بومبال لأكون فى رفقته وهو يفعل ذلك. كانت معنوياته العالية معدية تماما. كان يبدو غير قادر على البقاء ساكنا. كانت تبقبق فى داخله آلاف الأفكار والآراء التى يرغب فى الإفصاح عنها فى ذات الوقت. قفز السلالم هابطا مثل تلميذ، طائرا فى النهاية فى وثبة واحدة. تصورت أنه سوف يندفع راقصا فى شارع فؤاد، «ولكن فى جدية». قال وهو يعصر مرفقى فى قسوة آلمتنى «فى جدية، فالحياة رائعة»، وكأنما أراد أن يصور جديته فانفجر فى

ضحكة رنانة، «عندما أفكر كيف اعتدنا التأمل وانشغال البال». كان من الواضح أنه يضعنى ضمن النظرة، الجديدة المرحة، للحياة. «إننى أحس بالخجل كلما تذكرت كيف كنا نتناول كل شىء فى بطء».

حجزنا فى «البتى كوان»، منضدة ركنية بعد مشاجرة ودود مع ملازم بحرى، وللحال أمسكنا بـ «مينوتى»، وأمرناه بإحضار الشمبانيا. من أين، بحق الشيطان، جاء بهذا السلوك الضاحك الآمر، والذى يفرض، فى الحال، احتراما وتعاطفا دون أن يصدر عنه ما يسىء؟

«الصحراء!»، قال كأنما يجيب عن سؤالى الذى لم أنطق به «الصحراء، يا دارلى، أيها الولد العجوز. إنها شىء لا بد من رؤيته». وأخرج من جيب واسع نسخة من «أوراق بيكويك» قال: «اللعنة، يجب ألا أنسى رد تلك النسخة، وإلا فإن الطاقم الذى أعمل معه سوف يَقْلونى قليا طيبا». كان كتابا صغيرا مشربا بالبلل ملوثا بالزيت، أوراقه بها ثنيات، وبالغلاف ثقب طلقة «إنه مكتبتنا الوحيدة، ويبدو أن واحدا من أبناء الزنا قد نشف نفسه فى ثلثه الأوسط. لقد أقسمت أن أعيده. هنالك بالفعل نسخة فى الشقة، ولا أعتقد أن بومبال سوف يبالى إن أنا أخذتها. إن الوضع سخيف، إذ عندما لا يكون هنالك عمل ما، فإننا نستلقى، نقرؤه تحت النجوم، يتلوه الواحد منا للآخر فى صوت مرتفع! إنه سخف يا عزيزى الشاب، إلا أن كل شىء، بعد ذاك، أكثر سخفا. أكثر وأكثر سخفا كل يوم».

«إلا أنك توحى بسعادة شديدة»، قلت دون أن أغبطه بصورة معينة.

«نعم»، قال فى صوت أكثر انخفاضا، ثم غدا، ولأول مرة، جادا بصورة نسبيـة. «كـذلك بالفعـل دعنى أستودعك، يا دارلى سرا. عدنى ألا تزوم أو تزمجر».

«إننى أعدك بذلك».

مال إلى الأمام، قال هامسا وعيناه تطرفان: «أخيرا، غدوت كاتبا!». ثم ضحك فجأة ضحكته الرنانة. «لقد وعدت ألا تزمجر».

«إننى لا أزمجر».

«حسنا، لقد بدوت مزمجرا متشامخا كان المفروض أن يكون رد الفعل الصحيح هو الصياح. هورا»!

«لا تصرخ هكذا عاليا، وإلا طلبوا منا مغادرة المكان».

«آسف، فقد خلبت الفكرة لبى».

شرب كأسا كبيرة مترعة من الشمبانيا، فى جو من يشرب نخب نفسه، ثم اتكأ إلى الخلف فى مقعده يحملق فىّ مازحا بنفس بريق التخابث فى عينيه الزرقاوين.

«ماذا كتبت؟» تساءلت.

«لا شىء» ـ قال مبتسما ـ «ولا كلمة واحدة حتى الآن إنها هنا» ـ وأشار بإصبع بنى إلى صدغه، «إلا أننى الآن، على الأقل، أعرفها، إننى سواء كتبت أم لم أكتب فليس ذلك بالأمر المهم. إن تلك إن شئت، ليست القضية الكلية كى تصبح كاتبا بأى حال لقد اعتدت التفكير هكذا».

كان يعزف، فى الخارج، فى الشارع أرغن أحد المتسولين فى ترجيع حزين أجوف. كان أرغنًا إنجليزيا قديما للغاية عثر عليه «عريف» العجوز الضرير فى كومة من أكوام النفاية، فقام بإصلاحه بطريقة ما تقريبية. إن بعض النغمات الموسيقية قد أخفقت فى تحقيق الأثر المطلوب، وبعدت عدة أوتار عن التناغم بطريقة لا أمل فى علاجها.

«استمع»، قال كيتس فى عاطفة عميقة، «استمع فقط إلى عريف العجوز».

كان فى تلك الحالة العذبة من الإلهام والتى تحل بالمرء فقط عندما يحتسى الشمبانيا فى أعقاب حالة من التعب والإرهاق، نشوة السخرية الموحية، «جوش(*)». استمر فى طرب وبهجة. أخذ يغنى فى صوت أجش هامس رقيق للغاية، يضبط الإيقاع بإصبعه، «اصمت أيها البدوى الصغير».

ثم تنهد تنهيدة امتلاء عميقة. اختار لنفسه سيجارا من حقيبة عينات مينوتى. أخذ يتجول ثم عاد إلى المنضدة حيث جلس أمامى ثانية، يبتسم فى طرب ذاهل. قال فى النهاية:

«يجب أن أخبرك أن هذه الحرب... مختلفة تماما عن الحال التى تخيلت ضرورة أن تكون عليه».

وفجأة غدا، تحت تأثير نشوة الشمبانيا الزاهية، وقورا بصورة نسبية قال: «لا أحد يرى الحرب للمرة الأولى، ويستطيع أن يمنع نفسه من الصراخ بكل ما فى عقله من عقل احتجاجا عليها أن يصرخ: «يجب وقفها»! إنك، يا عزيزى الشاب، كى ترى أخلاقيات الإنسان، طبقا لمعاييره، يجب أن ترى معركة حربية. إن الفكرة العامة يمكن إجمالها فى العبارة المعبرة، إن لم تستطع أكلها أو...، إذن... عليها ـ «ألفا عام من الحضارة تسلخ فى لمح البصر!» اخمش بإصبعك الصغير ولسوف تصل إلى وشم الحرب أو نقشها تحت الطلاء الكاذب المموه! فقط افعل ذلك»! ثم خدش الهواء، فيما بيننا، فى وهن، بسيجاره الثمين «ومع ذلك، ما الذى تعرفه عنها؟ إنها أكثر الأشياء إثارة للحيرة والتى يمكن تعليلها. لقد جعلت منى رجلا، كما يقول المثل. وأكثر من ذلك كاتبا! إن روحى صافية تماما. إننى أعتقد أنه فى وسعك أن تنظر إلىّ باعتبارى مشوهًا بصورة دائمة! لقد بدأت أخيرا كتابى

(*) الإله، يا إلهى ـ المترجم.

الممتع اللعين. إنه يتشكل فصلا بعد فصل فى رأس الصحفى العجوز، كلا، ليس بعد الآن، رأس الصحفى، إنه رأس الكاتب». ضحك ثانية كأنما يضحك من فكرة محالة. «دارلى، إننى عندما أنظر حولى إلى تلك المعركة الحربية فى الليل، فإننى أقف فى نشوة الخجل، أطرب للأنوار الملونة، التوهج واللمعان يكسو السماء، كما يكسو الورق الجدار، وأقول، كان لا بد من وقوع كل ذلك حتى يمكن لجون كيتس المسكين أن ينمو إلى رجل. ذلك هو الأمر. إنه لغز كامل بالنسبة لى، ومع ذلك فإننى متيقن منه تمام اليقين. لم يكن هنالك من سبيل آخر يمكن أن يعاوننى، إذ كنت ملعونا غبيا تماما. هل ترى ما أقول؟

صمت للحظة كأنه يعيد هذه القطعة الأخيرة من الحديث ليقدر صحتها وصوابها، كلمة كلمة، كما يختبر المرء قطعة من آلة. ثم أضاف، ولكن فى حذر وعناية، وبتعبير معين لتركيز مشتت: «إن كلًا من رجل الفعل ورجل الفكر حقيقة، نفس الرجل. إنهما يعملان فى مجالين مختلفين ولكن وصولا لنفس النهاية. انتظر. إن هذا الذى أقول قد بدأ يعطى انطباعا بالغباء».

ودق صدغـه فى تأنيب ثم عبس واستمربعد لحظة من تفكير، وهو ما زال عابسا: «هل أخبرك بمفهومى عنها.... عن الحرب؟ ما الذى بدأت أؤمن به؟ إننى أؤمن أن الحرب قد أوت أول ما أوت فى الغرائز، أشبه بفعل صدمة بيولوجية، لدفع أزمة روحية، ما كان يمكن معالجتها على أى نحو آخر، بين أناس محصورين. إن الذين على قدر أقل منا حساسية، فيما بيننا، ليسوا بقادرين على تكوين صورة ذهنية عن الموت إلا بصعوبة، بل وهم، أكثر من ذلك، يبتهجون بمعايشته. ولذا أحست القوى التى تنظم أمورنا أنها يجب أن تثبته، حتى يأوى الموت فى الزمن الحاضر فعليا. إن ذلك من باب المنفعة الخالصة، إن كنت ترى ما أعنى!» وضحك ثانية،

لكن فى حزن هذه المرة. «الأمر بالطبع مختلف الآن إلى حد ما، إذ يضرب المشاهد والمتفرج بقسوة أشد من ذلك الموجود فى الخط الأمامى. إن رجال العشيرة الذين يودون ترك الزوجات والأولاد فى أمان نسبى، قبل أن يسيروا منتصبين متثاقلين إلى تلك الرسامة(*) البدائية لمظلومين. إننى أعتقد أن الغريزة قد خمدت إلى حد ما، وقد تكون فى طريقها إلى الزوال تماما، ولكن ما الذى سيضعونه موضعها، ذلك هو ما يحيرنى؟ أما بالنسبة لى، يا دارلى، فإننى لا أستطيع إلا القول بأنه ما كان فى إمكان نصف دستة من العشيقات الفرنسيات، أو رحلات حول العالم، أو مغامرات زمن السلم الذى عرفناه، أن تؤدى إلى نموى، فى نصف هذا الزمن، بكل ما فى كلمة النمو من معنى. إنك تتذكر ما اعتدت أنا أن أكون عليه؟ إننى الآن ناضج حقا، لكننى، بالطبع، أتقدم فى العمر سريعا، بسرعة كبيرة للغاية، بكل ما فى الكلمة من معنى! سوف يكون لهذا صداه السخيف اللعين لديك، إلا أن وجود الموت هناك كظاهرة طبيعية للحياة، وبأعلى معدل سرعة، إن جاز القول، قد أوحى لى بأن الحياة باقية أبدا! ما كان هنالك من سبيل آخر يمكننى من فهمهما، عليها اللعنة آه حسنا، من المحتمل أن أقتل هنالك وأنا متمالك تماما لغبائى وبلاهتى، كما يمكن لك أن تقول».

وانفجر ضاحكا مرة أخرى، وهو يحيى نفسه مستحسنا بلا صوت ثلاث مرات، رافعا سيجاره كل مرة بطريقة احتفالية، ثم غمز لى بعناية وهو يملأ كأسه ثانية، مضيفا خاتمة مبهمة: «للحياة معناها الكامل، فقط عند هؤلاء الذين يختارون الموت!».

كان فى وسعى رؤية أنه قد ثمل الآن، إذ زالت تأثيرات الدش الساخن الملطفة عنه، وبدا أن إرهاق الصحراء يؤكد ذاته.

(*) مثل رسامة الكاهن ـ المترجم.

«وماذا عن بورسواردن؟» قلت وأنا أتلمس تلك اللحظة التى يمكننى أن ألقى فيها باسمه مثل خطاف فى مجرى حديثنا.

«بورسواردن!»، ردد الاسم فى نغمة مختلفة تتسم بالاكتئاب والحزن والمحبة. «إلا أنه، يا عزيزى دارلى، أشبه بشىء ما حاول هو إخبارى به، بطريقته الخاصة التى تكاد تكون لعبته. وماذا عنى؟ إننى لا أزال أحمر خجلا كلما فكرت فى الأسئلة التى ألقيتها عليه. ومع ذلك فإن إجابته التى بدت حينذاك مبهمة بطريقة لعينة قد غدت الآن مفهومه لى تماما. إن الحقيقة ذات حدين كما ترى وليس هنالك من وسيلة للتعبير عنها بمصطلحات لغوية. اللغة هذا الوسيط الغريب المتشعب بثنائيته القاعدية. ما هو صراع الكاتب إن لم يكن صراعا لاستخدام هذا الوسيط بدقة قدر الإمكان، إلا أنه لا بد أن يكون عارفا بما فيه من غموض أساسى معرفة تامة؟ إنها مهمة ميئوس منها، إلا أنها على الأقل مجزية لكونها تدعو إلى اليأس. فالمهمة نفسها، الصراع مع مشكلة لا حل لها، ينمى الكاتب! هذا ما أدركه ذلك العجوز ابن الزنا. يجب أن تقرأ خطاباته إلى زوجته، إذ رغم كل ما فيها من تألق انظر كيف كان يتأوه، يتضرع، كيف قدم نفسه بازدراء، مثل شخصية ما من شخصيات دوستيوفسكى. وقد أحدق بها، رغما عنها، عصاب كريه. إنها حقا تترنح، تلك النفس الحقيرة التافهة التى يكشف عنها هناك».

كان ذلك فهمًا ثاقبا، يثير الدهشة، للخطابات المعذبة والتى هى رغم ذلك كائن كلى كامل، والتى كنت أنا نفسى قد قرأتها لتوى! قلت: «كيتس، أخبرنى بالله عليك، إن كنت تكتب عنه كتابا؟».

رشف كيتس شرابه فى بطء وتأمل، وضع كأسه قلقا، بصورة ما، قبل أن يقول: «كلا». مس ذقنه وصمت.

«إنهم يقولون إنك تكتب شيئا ما»، قلت فى إصرار، هز رأسه فى عناد. تأمل كأسه بنظرة مبهمة. «لقد أردت ذلك». أقر أخيرا فى بطء. «لقد أعددت عرضا طويلا لرواياته، ذات مرة، لمجلة صغيرة. تلقيت بعد ذلك رسالة من زوجته. كانت تريد كتابا عنه. إنها فتاة أيرلندية ضامرة، عصبية للغاية، قليلة العناية بنفسها، وسيمة كما أعتقد إلى حد كبير. تمخط أنفها دوما فى لفاع قديم. ترتدى دوما خف سجادة. يجب القول إننى رقفت له متأثرا. إلا أننى تعثرت على الفور فى عش دبابير هناك ـ كانت تشمئز منه. يبدو أنه كان هنالك الكثير مما يثير الاشمئزاز، يجب أن أقول ذلك. قدمت لى قدرا كبيرا من المعلومات، وفى بساطة، أكداسا من خطابات ومخطوطات، مجموعة ثمينة حقا. إلا أننى، يا عزيزى الشاب، لم أستطع استخدام هذا النوع من المواد لا لأى سبب كان، لأننى أحترم ذكراه وأعماله. كلا، كلا، لقد خدعتها. أخبرتها أنها لن تستطيع نشر مثل تلك الأشياء. كانت تبدو راغبة فى تحقيق استشهاد علنى، فى كتاب مطبوع، لا لشىء إلا لتسترجعه ـ بورسواردن العجوز. لم أستطع أن أفعل مثل هذا الشىء، بالإضافة إلى أن المادة كانت توقف شعر الرأس. إننى لا أود الحديث عنها. إننى حقا، لن أعيد أبدا تكرار الحقيقة على مسمع أى إنسان».

جلسنا نفكر فى تأمل، بل حتى يراقب الواحد منا الآخر لوقت طويل، قبل أن أتكلم ثانية: «هل قابلت شقيقته ليزا؟».

هز كيتس رأسه فى بطء: «كلا. بأى غرض أقابلها؟ لقد تخليت للتو عن المشروع. ولذا لم تكن هنالك حاجة لمحاولة سماع قصتها. أنا أعرف أن فى حوزتها قدرا كبيرا من المادة الخطية. لقد أخبرتنى زوجته بذلك إلا... أنها هنا، أليس كذلك؟». وتجعدت شفته تجعيدة دقيقة للغاية توحى بالاشمئزاز. «حقيقة لم أرغب فى لقائها. إن الحقيقة المرة فى هذا الأمر، تبدو لى فى أن الشخصية التى أحبها بورسواردن أكثر الحب ـ أعنى حبا

روحيا خالصا ـ لم تدرك أبدا حالته الروحية، إن جاز القول، عندما مات: أو حتى كان لديها أية فكرة عن مدى إنجازاته. كلا، لقد كانت مشغولة بعلاقة غرامية سرية مبتذلة، يثير اهتمامها إضفاء شرعية على علاقتها ببورسواردن. إننى أعتقد أنها كانت تخشى أن يتعرض زواجها من دبلوماسى للخطر بفضيحة محتملة. ربما أكون مخطئا، إلا أن ذلك هو الانطباع الذى خرجت به. إننى أعتقد أنها كانت تحاول إصدار كتاب يبيض الصورة لكننى الآن، وبصورة ما، أمتلك بورسواردنى الخاص بى، نسختى الخاصة منه، إن شئت القول وفى ذلك ما يكفينى. ماذا تهم التفاصيل، ولماذا كان على لقاء أخته؟ إن أعماله، وليست حياته، هى التى تشكل ضرورة لنا: إنها تقدم واحدا من المعانى العديدة للكلمة ذات الأوجه الأربعة»!

وأحسست برغبة فى أن أصيح، «هذا غبن»، إلا أننى ردعت هذه الرغبة. إنه لمن المستحيل تحقيق العدالة التامة لكل امرئ. وسقط جفنا كيتس. «تعال»، قلت وأنا أنادى فى طلب ورقة الحساب: «لقد حان وقت ذهابك إلى المنزل والنوم».

كانت هنالك عربة حنطور مشدود إليها جواد هرم فى شارع جانبى. سعدنا غاية السعادة لعثورنا عليها. أخذ كيتس يحتج بأن قدمه قد بدأت توجعه، وأن ذراعه قد بدأ يؤلمه. كان فى حالة عقلية مرهقة تتسم بالانبساط. كان نشوانا، إلى حد ما، بعد ما تناوله من جرعات الشراب. استند إلى الخلف فى العربة العجوز ذات الرائحة وأغلق عينيه: «هل تعرف، يادارلى، أننى كنت أنوى إخبارك، لكننى نسيت. لا تغضب منى أيها الزميل، الراعى العجوز، أرجو ألا تغضب. إننى أعرف أنك وكليا... نعم أعرف، وأنا سعيد بذلك إلا أن لدىّ أكثر الأحاسيس غرابة، وهى أننى سأتزوجها ذات يوم. حقا لا تتصرف بحمق بهذا الخصوص. بالطبع لن أنطق بكلمة، ربما يحدث ذلك بعد سنوات عدة من هذه الحرب البلهاء

العجوز إلا أننى أحس، فى مكان ما، على امتداد هذا الخط، أننى مقيد برباط معها».

«والآن، ماذا تتوقع منى أن أقول؟».

«حسنا، هنالك مئات السبل لمواجهة ذلك. إنك لو كنت قلت لى مثل هذا الشيء لبدأت للتو فى الزعيق والصراخ. كنت انتهيت من شخصك فى سرعة، دفعت بك خارج العربة، أى شيء ولكنت لكمت نفسى فى عينى».

وقفت العربة أمام المنزل وهى تتدحرج قلت: «لقد وصلنا». عاونت صاحبى على النزول إلى الطريق: «إننى لست ثملا إلى هذا الحد»، صاح فى مرح، نافضا عونى له، «إنه ليس أكثر من تعب، أيها الصديق العزيز». بينما أجادل السائق فى أجر المشوار، ذهب إلى الجواد ليتسامر معه فى حديث خاص طويل، وهو يربت له أنفه.

«إننى أمنحه بعض الحكم التى تعينه على الحياة». شرح لى ونحن نشق طريقنا الشاق فوق السلم، «إلا أن الشمبانيا قد شوشت مخزونى من الاقتباسات. ماذا كان ذلك الشيء الذى قاله شكسبير عن العاشق والديوث وارتباطهما المحكم معا، وهما يبحثان عن سمعة خداعة كالفقاعة حتى فى فوهة مدفع». نطق العبارة الأخيرة بطريقة إلقاء غريبة، كتلك التى كان يتحدث بها تشرشل، كرجل ينشر الخشب «أو شيء ما عن السابحين قفزا فى النقاء ـ شيء ما سابق التجهيز فى العقل الأزلى، ولا أقل من ذلك»!

«إنك تغتال كليهما».

«جوش، إننى متعب يبدو أنه لن تكون هنالك غارات جوية الليلة».

«إن الغارات الجوية تتناقص».

انهار فوق فراشه وهو فى كامل ثيابه. أخذ يفك فى بطء حذاءه

الصحراوى الجلدى اللين الناعم المزغب، يملص أصابعه حتى انزلق فى بطء وسقط فوق الأرض.

«هل رأيت كتاب بورسواردن الصغير والذى يحمل عنوان، «الصلوات المختارة للمثقفين الإنجليز». إنه كتاب يثير الضحك، «عزيزى يسوع، أرجو أن تحافظ علىّ كما كان الحال فى القرن الثامن عشر، ولكن بدون.... «ثم ضحك ضحكة ناعسة، واضعا ذراعيه تحت رأسه، منساقا فى نوم باسم عندما أطفأت النور، تنهد فى عمق وقال: «حتى الموتى يغمروننا جميعا بالعطف والحنان طوال الوقت».

فجأة بدت لى صورته صورة صبى صغير يسير على حافة جروف شديدة الانحدار ليجمع بيض طيور البحر. زلة واحدة....

إلا أننى ما كنت لأراه ثانية. وداعا.

* * *

[٦]

أصابع معبودتى العمياء العشرة
الظمأى تمن على وجهى بسحرها الحسى

جرت السطور عبر رأسى وأنا أضغط جرس المقر الصيفى، مساء اليوم التالى، أحمل فى يدى الحقيبة الخضراء التى تحتوى خطابات بورسواردن الخاصة، تلك الطلقات المتتالية المتألقة القوية، فى كلمات لا تزال تنفجر فى ذاكرتى أشبه بعرض للألعاب النارية، يلفحنى. لقد اتصلت هاتفيا بليزا من مكتبى فى الصباح لأحدد موعدا للقائها. فتحت الباب ووقفت أمامى وقد ارتسم التوقع على وجهها فى تعبير يتسم بالجدية. «حسنا»، همست عندما نطقت اسمى، قالت، «تعال». استدارت تسير أمامى فى مشية متصلبة منتصبة ذكرتنى بطفلة ترتدى ملابس الملكة إليزابيث فى لغز تمثيلى. بدت متعبة مشدودة، وإن كانت متشامخة بطريقة غريبة كانت حجرة المعيشة خالية، وقد عاد ماونت أوليف كما أعلم، إلى القاهرة هذا الصباح. ودهشت إذ رأيت كتلة خشبية تشتعل فى المدفأة. وقفت أمامها وقد أحنت ظهرها ناحية الدفء، تدعك يديها كأنما تعانى من البرد.

«لقد كنت سريعا، سريعا للغاية»، قالت بطريقة تكاد تكون قاطعة، تكاد تحمل لمحة من تبكيت ضمنى فى لهجتها «لكننى سعيدة». كنت

قد أخبرتها بالفعل، هاتفيا، بخلاصة حديثى مع كيتس حول الكتاب الذى لا وجود له.

«إننى سعيدة لأننا نستطيع، أخيرا، أن نقرر شيئا ما. لقد جافانى النوم طوال الليلة الماضية. ظللت أتخيلك تقرأ الخطابات وظللت أتخيله يكتبها».

«إنها رائعة. لم أقرأ فى حياتى كلها ما يماثلها». وأحسست فى لهجتى بنغمة حزن وكدر.

«نعم» قالت وهى تتنهد فى عمق «ومع ذلك فإننى كنت خائفة أن تصل إلى تلك النتيجة، خائفة أن تشارك دافيد رأيه وتنصحنى بالإبقاء عليها مهما كان الثمن. ومع ذلك فقد طلب هو منى صراحة أن أقوم بحرقها».

«أعرف ذلك».

«اجلس يا دارلى. أخبرنى بما تفكر فيه حقا».

جلست واضعا الحقيبة الصغيرة فوق الأرض إلى جوارى. قلت: «ليست هذه ياليزا بمشكلة أدبية مالم تضعيها أنت على هذا النحو. إنك لست فى حاجة إلى نصيحة أحد. لن يستطيع أى امرئ أن يقرأها إلا ويأسف بالطبع لفقدها».

«ولكن، لو كانت تلك الخطابات، يا دارلى، خطاباتك، وقد كتبتها إلى شخص ما... تحبه؟».

«كنت أحس الراحة لمعرفتى أن تعليماتى سوف يجرى تنفيذها. إننى أظن، أن ذلك، على الأقل، هو ما سوف يحس به الآن، حيثما كان».

أدارت وجهها الضرير إلى المرآة. بدت كأنها تستكشف صورتها فيها،

فى جدية واجتهاد. أراحت أطراف أصابعها المنمقة فوق رف المدفأة أخيرا قالت: «إننى متطيرة مثله تماما إلا أن الأمر يتجاوز ذلك. لقد كنت دوما مطيعة، إذ كنت أعرف أنه يرى أبعد مما أرى، ويفهم أكثر مما أفهم».

إن هذه الصور المنعكسة الحبيسة لا ترد إليها شيئا

تلك المرأة تنهل من المرايا مثل أيائل عطشى

كم غدا الكثير من شعر بورسواردن محددا جليا كالبلور فى ضوء كل هذه المعرفة الجديدة! كم حشد من خواطر وتباريح شخصية ليزا وهى تستكشف عماها فى المرآة الكبيرة، وشعرها الداكن ملقى إلى الخلف فوق كتفيها!

استدارت أخيرا مرة أخرى وهى تتنهد ثانية. رأيت نظرة جنون تنساب على وجهها، وقد غدت أكثر تعبيرا وإزعاجا بفراغ مقلتى عينيها. خطت إلى الأمام خطوة، قالت: «حسنا، إذن فقد تقرر الأمر. فقط قل لى: إنك ستساعدنى على حرقها. إنها عديدة للغاية سوف تأخذ وقتا قصيرا».

«إن شئت ذلك».

«دعنا نجلس معًا إلى جوار النار».

جلسنا فوق السجادة يواجه كل منا الآخر. وضعت الحقيبة بيننا. ضغطت القفل حتى أطلق الغطاء قافزا محدثا صوتا حادا.

قالت: «نعم هكذا يجب أن يكون الأمر. كان علىّ أن أدرك طوال الوقت ضرورة طاعته». تناولت فى بطء خطابا مثقوب الغلاف بعد خطاب، أفضه وأناوله لها لتضعه فوق الكتلة المشتعلة.

«لقد اعتدنا كأطفال أن نجلس معًا مثل هذه الجلسة، فى الشتاء أمام

النار، وصندوق ألعابنا فيما بيننا. كنا نفعل ذلك مرات كثيرة، بل دومًا. يجب عليك أن تعود بعيدا إلى الوراء لتفهم الأمر كله. وحتى إن أنت فعلت ذلك، فإننى أتساءل: إن كنت ستفهم. طفلان صغيران تركا وحيدين فى بيت متداع، فى مزرعة، بين بحيرات متجمدة، وسط ضباب وأمطار أيرلندا. لم يكن لنا من مورد للثروة غير ما فى كل منا للآخر. لقد حول عماى إلى قصيدة شعرية، رأيت الأشياء بعقله، ورأى هو الأشياء بعينى. وهكذا خلقنا معا عالما شعريا كاملا لا يفنى. أعظم بكثير من أفضل كتبه. لقد قرأتها كلها بأصابعى. إنها كلها موجودة فى المعهد. لقد قرأتها وأعدت قراءتها، أبحث فيها عن مفتاح الإثم الذى حول كل شىء. لم يؤثر فينا شىء من قبل. كان كل شىء يتواطأ على عزلنا، على بقائنا معًا. مات والدانا فى الوقت الذى كنا فيه أصغر من إدراك ذلك. عشنا فى منزل المزرعة القديم المتداعى ذاك، فى رعاية عمة عجوز صماء غريبة الأطوار، كانت تقوم بكل العمل، حتى يمكن أن توفر لنا غذاءنا. وتتركنا لما نستنبطه نحن بأنفسنا. كان هنالك كتاب واحد فقط، كتاب لبلوتارك، حفظناه عن ظهر قلب، أما ما خلا ذلك، فقد كان من اختراعه هو. هذه هى الطريقة التى غدوت بها ملكة حياته الأسطورية الغريبة، أعيش فى قصر فسيح من التنهدات ـ كما اعتاد أن يقول ـ كان ذلك فى مصر أحيانا، وفى بيرو أحيانا وفى بيزنطة أحيانا أخرى. أعتقد أننى قد عرفت أن ذلك لم يكن حقا غير مطبخ بيت المزرعة العتيق بأثاثه الرث من خشب أبيض وأرضيات من قرميد أحمر. كنت أدرك ذلك، على الأقل، عند ما كانت تغسل الأرضية بصابون منتول، برائحته المتميزة التى أعرفها بنصف عقلى. إنها أرضية بيت المزرعة وليست قصرا بأرضيات فاخرة من فسيفساء تتألق بالحيات والصقور والأقزام. إلا أنه كان يعيدنى إلى الواقع، كما كان يدعوه، بكلمة واحدة وفيما بعد، عندما بدأ النظر فى تبرير حبنا، بدلا من مجرد التباهى به، فى بساطة قرأ لى اقتباسا

من كتاب: «كانت الأخت فى شعائر الدفن الإفريقية هى التى تعيد الملك الميت إلى الحياة. كان الملك الذى يعتبر إلها فى مصر، وكذا الأمر فى بيرو، يتخذ من شقيقته زوجة له. إلا أن الدافع إلى ذلك كان هو الطقوس الدينية وليس الجنس، إذ كانا يرمزان إلى القمر والشمس فى التئامهما. الملك يتزوج شقيقته لأنه باعتباره الإله النجم، الهائم فوق الأرض، خالد لا يموت، ومن ثم لا يتناسل فى أطفال امرأة غريبة، وأن يستمر كذلك حتى يسمح له بالموت ميتة طبيعية، كان ذلك سبب سعادته لحضوره إلى مصر، كان يشعر، كما قال، برابطة شعرية داخلية مع إيزوريس وإيزيس، مع بطليموس وأرسينو ـ سلالة الشمس والقمر!».

وضعت الخطاب بعد الخطاب فى هدوء، وبطريقة منهجية فوق المحرقة المشتعلة، وهى تتحدث إلى نفسها، أكثر مما تتحدث إلىّ، فى نغم مطرد.

«كلا، ليس فى الإمكان جعل الأمر مفهوما تماما، لمن هم ليسوا من سلالتنا. لكن، ما إن دخل الإثم، حتى بدأت الحياة الشعرية القديمة تفقد سحرها ـ لم يكن ذلك بالنسبة لى ـ لكنه كان بالنسبة إليه. إنه هو الذى جعلنى أصبغ شعرى باللون الأسود حتى أبدو كأخت غير شقيقة، وليست له. لقد آلمنى بعمق أن أعرف، على حين غرة، أنه كان آثما بطريقة مفاجئة. لقد تدخل العالم، أكثر فأكثر فى أمورنا، ونحن ننمو. وأخذت حيوات أخرى تقتحم عالمنا المتوحد وقصورنا وممالكنا. واضطر هو للذهاب بعيدا لفترات طويلة. لم يكن لدىّ، وهو غائب، أى شىء مهما كان، غير الظلام، وكل ما استطاعت ذاكرتى أن تمتلئ به عنه، كنوز إبداعه كان تتألق، على نحو ما، حتى عودته، صوته، لمسته. إن كل ما كنا نعرفه عن والدينا، مجمل معرفتنا عنهما، كان دولابا قديما من خشب البلوط، ملىء بالملابس. كانت تبدو هائلة بالنسبة لنا ونحن صغيران. ملابس. عمالقة،

وأحذية عمالقة. قال ذات يوم، إن هذه الملابس تقمعه وتضطهده. إننا لسنا فى حاجة إلى والدين. أخذناها إلى الخارج فى الباحة. صنعنا منها نارا كبيرة فى الخلاء وسط الجليد. بكينا بكاء مرًا، لا أدرى لماذا. رقصنا حول شعلة النار نغنى أغنية صيد قديمة بإحساس انتصار وحشى، ومع ذلك كنا نبكى».

وجلست صامتة لفترة طويلة، وقد تدلت رأسها فى تركيز شديد العمق حول هذه الصورة القديمة، مثل عرافة تحملق بثبات فى بلورة الشباب الداكنة، ثم تنهدت، رفعت رأسها وقالت: «إننى أدرك لماذا تتردد. إنه الخطاب الأخير أليس كذلك؟ لقد عددتهم كما ترى. أعطه لى يا دارلى».

وناولته لها دون كلمة، فوضعته فى النار فى رقة وهى تقول: «لقد انتهت أخيرًا».

* * *

[٧]

بدأنا، والصيف يمضى منهكا إلى الخريف، والخريف ثانية إلى الشتاء، نتنبه إلى أن الحرب التى طوقت المدينة، قد بدأ جزرها. إنها تنساب بعيدا، تدريجيا، على امتداد الطرق الساحلية التى تشكل حواشى الصحراء، تفك قبضتها عنا وعن مسراتنا. تترك وراءها، وهى تتراجع، تتقهقر، مثل المد والجزر، فضلاتها التذكارية، على امتداد الشواطئ التى استخدمناها، يوما ما، لنجدها بيضاء، كما كانت دوما، مهجورة تحت طيور النورس المحلقة. لقد حرمتنا الحرب منها زمنا طويلا، لكننا الآن، وقد أعدنا اكتشافها، وجدنا أنها مفروشة بالدبابات التى عجنت والمدافع التى التوت، وحطام، يصعب تمييزه، لإمدادات مؤقتة للموانئ، هجرها المهندسون، لتتعطن وتصدأ تحت شمس الصحراء، ولتغطس تدريجيا تحت الكثبان المحركة، تبعث فى المرء طمأنينة سوداوية غريبة ليستحم الآن هناك كأنما بين أشجار متحركة من العصر النيوليتى: الدبابات مثل هياكل الديناصورات، والمدافع تنتصب مثل أثاث مبتذل بطل استعماله، وحقول الألغام تشكل شيئا ما تكمن فيه المخاطر: والبدو غالبا ما يقعون فيه أثناء رعيهم. لقد انحرفت كليا ذات مرة، إذ كان الطريق مفروشا بقطع تتألق من جمل تبعثر فى حادثة ما حديثة. إلا أن مثل تلك الحوادث كانت نادرة. أما الدبابات ذاتها، فقد كانت خالية ممن كانوا بها رغم احتراقها، لم تكن بها أى أجساد بشرية،

وكانت، على الأرجح، قد استخرجت منها ودفنت فى وقار فى واحدة من تلك المقابر الهائلة التى نمت فى أركان لا يتوقعها المرء من الصحراء الغربية، مثل مدن الموتى، والمدينة، أيضا، كانت تجد طريقها إلى الوراء، إلى عاداتها وإيقاعاتها الطبيعية، إذ توقفت قذائف المدافع الآن تماما، وعادت حياة الشرق الأدنى العادية إلى الازدهار ثانية، إن البذات الرسمية قد غدت الآن أقل كثرة، إلا أن البارات والنوادى الليلية ما زالت مثابرة على تجارتها الرائعة مع الجنود أثناء إجازاتهم.

أخذت حياتى الخالية من أى حدث، تستقر على خط روتينى طبيعى، مقسمة بصور مصطنعة بين حياتى الخاصة والتى أسلمتها استغراقا كاملا فى كليا، وحياة المكتب، التى لم تكن ذات معنى لى، رغم أنها لم تكن شاقة. لقد حدث تغير محدود: نعم، أخيرا استطاع ماسكيلين تحطيم قيوده والهرب عائدا إلى فوجه. لقد زارنا فى زيه ليقول لنا: وداعا، مشيرا فى خجل إلى زميله، الذى يبصبص له بذنبه، ليس بغليونه كما اعتاد ولكن بعصا جديدة مفتولة يختال بها. قال تلفورد وفى صوته رنة حزن منتصر، «لقد أخبرتك أنه سوف يفعلها، كنت أعرف ذلك دوما». إلا أن ماونت أوليف ظل كما هو، إنه لا يزال، كما هو واضح «مجمدا» فى منصبه.

كنت، من وقت إلى آخر، وذلك بناء على اتفاق وترتيب، أقوم بزيارة الطفلة فى كوم أبو جيرج لأرى كيف تتقدم. ووجدت، لبهجتى، أن شتلها، والذى كان لدىّ العديد من الهواجس حوله، يسير بطريقة مرضية تماما. لقد تطابقت، بوضوح، حقيقة حياتها الحالية مع الأحلام التى ابتدعتها لها. كانت كلها كما يجب أن تكون، شخصيات أوراق اللعب الملونة، والتى يمكن أن تعدها هى الآن بنفسها. ظلت جوستين، إلى حد ما، شخصية منحسرة، لا يمكن التنبوء بحالها ومزاجها، لصمتها وسكونها، ولم يكن ذلك، بقدر ما استطعت أن أرى، غير إضافة إلى الصورة القاتمة

للإمبراطورة التى جردت من أملاكها وتعرفت فى نسيم على الأب. اكتسبت صورته تحديدا، بما كان يتوافر له من ألفة كبيرة نسبية بسبب رقته الإنسانية. كان الآن الأب المرافق لها، المثير لبهجتها. استكشفا معا، فوق ظهر الخيل، الأراضى الصحراوية المحيطة بالمنزل. كان قد أعطاها قوسا وسهاما، وفتاة صغيرة تناهزها فى العمر «تاؤور» كخادمة خصوصية وأمة(*) واجتاز أيضا ما سميناه بالقصر، والذى تخيلناه معا، الاختبار الواقعى بطريقة رائعة. كان تيه حجراته العطنة وكنوزها المتداعية، متعة خالدة. إنها الآن تكاد تكون قد نسيت الجزيرة. كانت مستغرقة تماما فيما بين تلك الكنوز الجديدة. لم أر جوستين خلال تلك الزيارات، ولم أحاول فعل ذلك. كان نسيم هنالك فى بعض الأحيان، إلا أنه لم يكن يصطحبنا البتة فى نزهاتنا على الأقدام أو ممتطين الخيل. وكانت الطفلة عادة ماتأتى إلى مخاضة النهر لتلقانى ومعها حصان آخر.

كان بلتازار، فى الربيع، قد استعاد نفسه تماما، ملقيا بها ثانية فى عمله. دعانى وكليا للمشاركة فى حفل يرضى - بصورة ما - مزاجه الساخر. كان ذلك هو الاحتفال بوضع الزهور على قبر كابوديستريا بمناسبة الذكرى المئوية لعيد ميلاد «بورن العظيم». قال يشرح الأمر: «إننى أمثل السلطة الصريحة لكابوديستريا ذاته. إنه يدفع دوما ثمن الزهور كل عام». كان يوما مشمسا لطيفا للنزهة. وأصر بلتازار على ضرورة أن نسير على أقدامنا. كان فى حالة طيبة، رغم أن باقة الزهور التى كان يحملها كانت تعرقله. كان يزهو بشعره إلى حد لا يطاق، وقد أذعن، كما يجب لخدمات منمجيان، «الذى طمس له معالم عمره»، كما عبر هو عن ذلك حقا. كان التغيير رائعا. لقد غدا الآن ثانية بلتازار العتيد بعينيه الداكنتين الفطنتين، وهما تنظران فى

(*) عربية بحروف لاتينية.

سخرية إلى أفعال المدنية. ولم يكن الأمر بأقل من ذلك مع كابوديستريا الذى كان قد تلقى منه للتو رسالة طويلة. «ليس لديكم أى فكرةعما بلغه هذا الوحش من سطوة على الماء. لقد سار فى الدرب الشيطانى، منغمسا فى السحر الأسود. إلا أننى سوف أقرؤه لكم. إن جوار مقبرته، كما أرى الآن، هو أنسب الأماكن لقراءة بيانه عن تجاربه!».

كانت الجبانة مقفرة تماما فى ضوء الشمس. إن كابوديستريا لم يبخل، بالقطع، بأية نفقات ليجعل قبره مهيبا مؤثرا فى النفس. كان قد زينه بطريقة سوقية مخيفة تكاد تصيب العقل بالجراح، بملائكة الشاروبيم تلك والكتابة على قراطيس ملفوفة مثل أكاليل الزهور. وقد حفر على اللوحة تلك العبارة الساخرة، «لم يفقد، لكنه سبق بالذهاب». وضحك بلتازار فى ود وهو يضع الأزهار فوق القبر ويقول له، «عيد ميلاد سعيد». انتحى جانبا، خلع سترته وقبعته، فقد كانت الشمس عالية مشرقة جلسنا جميعا فوق دكة تحت شجرة السرو بينما كليا تأكل الحلوى. تلمس جيبه بحثا عن الحزمة الكبيرة المكتوبة بالآلة الكاتبة، والتى تحتوى على آخر وأطول خطاب لكابوديستريا قال: «كليا، اقرئيه لنا، فقد نسيت نظارة القراءة، كما أننى أحب أن يلقيها آخر على مسمعى، لأرى إن كان وقعها أقل أم أكثر هل تقرئينها؟».

أخذت كليا الصفحات المكتوبة على الآلة الكاتبة فى امتثال، وبدأت القراءة:

«عزيزى م. ب».

«إن هذين الحرفين فى أول الكلمات» ـ «تدخل بلتازار» ـ إنما يقومان مقام اللقب التهكمى الذى ألصقه بى بورسواردن ـ «ماليخوليا

بورياليس[*]»، وليس أقل من ذلك، إنها تنويه عن كآبتى اليهودية المزعومة، واصلى يا عزيزتى كليا.

كان الخطاب مكتوبا بالفرنسية.

«إننى أدرك، يا صديقى العزيز، أننى مدين لك بتقديم حساب ما عن حياتى الجديدة هنا، لقد كتبت لك الكثير، إلا أننى رغم ذلك، اعتدت التهرب من المشكلة. لماذا؟ حسنا، كان قلبى يغوص دائما وأنا أفكر فى ضحكتك الساخرة، وهذا أمر سخيف، إذ إننى لم أكن البتة رجلا حساسا أو سريع القلق حول رأى جيرانى عنى. هنالك شىء آخر، كان يقتضى منى شرحا طويلا مرهقا لما كنت أحسه دوما من ضيق وانعدام انسجام فى اجتماعات القابال التى كانت تسعى إلى أن يجرع العالم خيره خالصا، لم أكن أعرف حينذاك أن طريقى لم يكن طريق النور بل الظلام. خلطت الأمور، حينئذ، وأربكتها أخلاقيا أو معنويا بالخير والشر. إننى أعرف تماما الطريق الذى أطؤه الآن، مثل رمانة الميزان المستقر النهائى للأرجوحة ـ كما كانت ـ والتى تبقى على الجانب الأخف وزنا معلقا فى الهواء. السحر! إننى أتذكرك، ذات مرة، وأنت تقتبس لى نبذة كانت حينذاك، لا تحمل أى معنى بالنسبة إلىّ من براسيلسوس. وأعتقد أنك أضفت فى ذلك الوقت، أن تلك التمتمة يجب أن تعنى أيضا شيئا ما. وقد كانت كذلك بالفعل. إن الكيمياء السحرية الحقيقية التى تعلم كيف تصنع (أوه من المعادن الخمسة القاصرة غير المكتملة)، لا تحتاج إلى مواد أخرى غير المعادن فقط. إن المعادن المكتملة المتقنة تستنبط من المعادن القاصرة غير المكتملة، من خلالها وبها فقط؛ إذ هنالك القمر (الإبداع الخيالى) مع الأشياء الأخرى، إلا أن الشمس (الحكمة) توجد فى المعادن الأخرى.

(*) السوداوية الشمالية ـ المترجم.

«إننى أترك لحظة من صمت لضحكتك المتميزة، والتى لم أكن، فى الماضى، أتوانى عن ترديدها! أى جبل من نفاية ذلك الذى يحيط بفكرة الصباغة الفيزيائية. لا بد أنك قد لاحظت ذلك حسنا، ولكن..

«لم يكن شتائى الأول، فى ذلك البرج العاصف، بهيجا. كان السقف يرشح. لم تكن معى حينذاك كتبى لتؤنسنى. كان مسكنى ضيقا وأنا حائر فى كيفية توسيعه. تناثرت فوق قطعة الأرض التى يقف عليها البرج: فوق البحر، أكواخ وحظائر هنا. كان يقيم الإيطاليان العجوزان الأصمان اللذان يرعيان شئونى، يطعماننى، يغسلان وينظفان المكان لى، إلا أننى كنت أتساءل، ماذا إن عجزت عن تبديل استخدام إسطبلين زائدين ملحقين بمسكنهما. كان ذلك هو الوقت الذى اكتشفت فيه، أدهشنى، أنهما يأويان شخصا آخر لم أره البتة. كان غريبا متوحدا لا يخرج إلا ليلا، يرتدى ثياب الرهبان. إننى مدين بكل توجهى الجديد للقائى مع هذا الرجل. إنه راهب إيطالى جرد من وظيفته، وهو يصف نفسه بأنه روزيكروسى(*)، وعامل بالكيمياء السحرية. إنه يعيش هنا فى قلب جبل من المخطوطات الماسونية ـ بعضها عتيق للغاية ـ والتى كان يقوم على دراستها. لقد كان هو أول من أقنعنى أن هذا الخط من البحث (رغم بعض المظاهر غير المقبولة) مهتم بزيادة القبضة الداخلية للإنسان على ذاته، على المناطق التى ترقد غير مكتشفة فى داخله. إن هذا البحث يقوم بحزم على المنهج، فقط بمقدمات أو فرضيات مختلفة! ولو كان له، كما أقول، بعض المظاهر غير المقبولة، فلماذا إذن يقوم العالم الرسمى بتشريح حيوان حى، مثلا، بغرض البحث العلمى أو الطبى. إننى، على أى حال، قد حققت وئاما مع ذاتى، وشققت لنفسى مجالا من الدراسة يتعمق انهماكى فيه أكثر كلما مرت الشهور.

(*) نسبة إلى روزا كروسيس مؤسسة حركة مسيحية بهذا الاسم فى القرن ١٥ ـ المترجم.

واكتشفت أخيرا شيئا يناسب أيضا طبيعتى بطريقة خاصة للغاية. إن كل شىء فى هذا المجال يبدو، حقيقة، منعشا ومعضدا لى! كذلك أصبحت قادرا على تقديم قدر كبير من المساعدة العملية للأب الروحى (ف) كما سأدعوه؛ إذ كان بعض تلك المخطوطات (المسروقة من مخابئها السرية فى أثوس كما أعتقد) باللغات اليونانية والعربية والروسية ـ التى لم يكن يعرفها جيدا. ونضجت صداقتنا إلى حد المشاركة، إلا أنه مضت شهور قبل أن يقدمنى إلى شخصية أخرى غريبة مهيبة كانت تخوض أيضا فى هذه الأمور. كان بارونا نمساويا يعيش فى دار كبيرة فى الداخل وكان مشغولا (كلا، لا تضحك) بالمشكلة الغامضة التى ناقشناها ذات مرة، هل كانت عن طبيعة الأشياء؟ أعتقد أنها عن تخليق بشر صغار(*). إن لديه ساقيا تركيا، هو أيضا تابعه الذى يعاونه فى تجاربه وسرعان ما غدوت شخصية مقبولة هنا أيضا، وسمح لى أن أعاونهما بأقصى ما عندى من قدرة.

«والآن، فإن هذا البارون، والذى سوف تجد فيه بالقطع شخصية غريبة ومؤثرة ـ بذقنه الكثيفة وأسنانه الكبيرة مثل بذور كوز الذرة ـ هذا البارون قد.. آه يا عزيزى بلتازار.. قد أنتج بالفعل عشرة من البشر الصغار أطلق عليهم اسم (أرواحه المتنبئة). كانت محفوظة فى صناديق زجاجية ضخمة تستخدم هنا فى الجوار، فى غسيل الزيتون أو حفظ الفاكهة وهم يعيشون فى الماء. إنهم يقفون فوق حامل صلب طويل من خشب البلوط. لقد أنتجت أو جرى تنميطها. وأنا هنا أستخدم تعبيره الخاص، خلال أسابيع خمسة من أعمال الفكر المكثف وإقامة الطقوس. لقد كانت أشياء رائعة الجمال، غامضة، تسبح هنالك مثل أحصنة البحر. كانوا يتكونون من ملك، ملكة، فارس، راهب، راهبة، مهندس معمارى، عامل مناجم،

(*) باللاتينية فى الأصل.

ملاك. وفى النهاية روح زرقاء وأخرى حمراء! كانوا يسترخون فى كسل فى تلك الجرار الضخمة. كانوا يتنبهون، على ما يبدو، بنقرة من ظفر الإصبع. كان طول الواحد منهم حوالى الشبر تقريبا. ولما كان البارون قلقا متلهفا عليهم يود أن ينمو إلى حجم أكبر؛ فإننا عاوناه على دفنهم فى العديد من حمولات سبلة الخيل. كان هذا السماد العظيم يرش كل يوم بسائل شيطانى الرائحة، كان يعده البارون وخادمه التركى بجهد كبير. كان يحتوى على بعض العناصر التى تكاد تثير التقزز. كان السماد فى كل مرة يرش فيها، يبدأ فى البخر كأنه يسخن بنار تحت السطح. كان حارا لدرجة يصعب معه وضع إصبع فيه. وكان الأب الروحى والبارون يقضيان الليل بطوله، كل ثلاثة أيام، يصليان ويبخران السماد بالبخور، حتى يرى البارون أخيرا أن هذه العملية قد اكتملت. فتنقل القوارير بعناية وتعاد إلى أرفف المعمل. كان كل البشر قد نموا إلى حجم لم تعد فيه القوارير الآن كبيرة بما يتناسب معهم، وأصبح للذكور منهم لحى كثيفة. وكان هؤلاء الذين يمثلون أوضاعا بشرية اجتماعية يرتدون الملابس التى تناسب مقامهم وألقابهم. كانوا يتسمون بنوع من القبح الجميل وهم يطفون هنالك، على وجوههم تعبير لم أره من قبل إلا ذات مرة، على وجه رأس من بيرو منقوعة فى الخل! تحولت العينان إلى أعلى فى الجمجمة، والشفاه شفاه أسماك شاحبة مشدودة إلى الوراء لتكشف عن أسنان صغيرة رائعة التشكيل! ولم يكن فى القارورتين اللتين تحتويان على الروح الحمراء والزرقاء، على التوالى، أى شىء يمكن رؤيته. كانت كل القوارير، بالمناسبة، محكمة السداد تماما بمثانة ثور وشمع يحمل طابع خاتم سحرى. إلا أن المياه كانت تتلون عندما يدق البارون بظفر إصبعه على القوارير ويكرر بعض الكلمات بالعبرية، فتأخذ فى التحول إلى اللون الأحمر ثم الأزرق على التوالى، ويبدأ البشر الصغار فى إظهار وجوههم، ليتحولوا إلى شكل

ضبابى أشبه بالطبعة الفوتوغرافية، ويزدادون فى الحجم تدريجيا. كانت الروح الزرقاء جميلة جمال أى ملاك إلا أن الحمراء كانت تكتسى بتعبير مخيف حقا.

«كان البارون يطعم هذه الكائنات، كل ثلاثة أيام، بمادة جافة وْردية محفوظة فى علب فضية مبطنة بخشب الصندل. كانت كرات فى حجم حبة البسلة الجافة كما كان يتم، أيضا تفريغ مياه القوارير مرة كل أسبوع، ليعاد ملؤها بمياه الأمطار الطازجة. كان لا بد من فعل ذلك فى سرعة كبيرة، إذ كانت الأرواح، خلال تلك اللحظات القليلة المعرضة فيها للهواء، تبدو ضعيفة وقد أصابها الإغماء وكأنها توشك أن تموت كالأسماك. إلا أن الروح الزرقاء ما كانت تطعم أبدا، بينما كانت الحمراء تتلقى، مرة كل أسبوع، ملء كستبان من دم طازج لحيوان ما ـ دجاجة كما أعتقد ـ كان هذا الدم يختفى للحال فى الماء دون أن يصبغه أو حتى يثير فيه أى اضطراب. ما إن تفتح تلك القارورة حتى تصبح عكرة داكنة، كما تصدر عنها رائحة بيض فاسد!

وقد بلغ هؤلاء البشر الصغار، خلال شهرين، كامل قوامهم ومرحلة التنبؤ ـ كما يدعوها البارون ـ ثم إن القوارير كانت تحمل كل ليلة إلى كنيسة صغيرة متهدمة، قائمة داخل غابة صغيرة، على مسافة ما من المنزل، حيث كانت تقام صلاة قداس، «وتُسأل» القوارير عما يجرى من أحداث المستقبل. كان يحدث ذلك بكتابة أسئلة بالعبرية فوق شرائح من ورق تضغط إلى القارورة أمام عينى الكائن البشرى الصغير. كان الأمر أقرب إلى تعريض ورق التصوير الحساس للضوء، أعنى لم يكن الأمر وكأن هذه الكائنات تقرأ الأسئلة، ولكن تتكهن بها، فى بطء وفى كثير من التردد. كانت تتهجى الإجابات، ترسمها بإصبع فوق الزجاج الشفاف وكان البارون يدون هذه الردود فورا فى كتاب عادى كبير. كان كل بشرى

صغير يُسأل الأسئلة التى تناسب وضعه، وكانت الروحان الحمراء والزرقاء تجيبان فقط بابتسامة أو تقطيبة لتحديد الرضا أو الخلاف، ومع ذلك فقد بدا أنهم يعرفون كل شيء. وأنه يمكن طرح أى سؤال عليهم. كان الملك لا يتناول غير السياسة فقط، والراهب الدين... وهكذا وقد جعلنى ذلك شاهدا على تجميع وتصنيف ما يسميه البارون «بتأريخ الزمن»، وهى وثيقة لها أثرها، على الأقل، مثل تلك التى تركها نوستراداموس وراءه. إن كثيرا من هذه النبوءات قد أثبت صدقه خلال الشهور القليلة الأخيرة، حتى إننى لا أشك إلا قليلا، فى أن البقية سوف تثبت صحتها أيضا، إنه لإحساس غريب أن تمعن النظر فى المستقبل هكذا!

«حدث ذات يوم أن سقطت الجرة التى تحتوى على الراهب فوق البلاطات الحجرية، مصادفة وتحطمت. ومات الراهب المسكين بعد شهقتين صغيرتين مؤلمتين، رغم كل الجهود التى بذلها البارون لإنقاذه ودفن جسده فى الحديقة. وجرت محاولة أخرى عميقة لإنتاج راهب آخر على نفس النمط إلا أنها فشلت، إذ نتج عنها شيء ما أشبه بدورة العلق دون أى حيوية، ثم مات هذا الشيء فى غضون ساعات قليلة».

«وحاول الملك بعد فترة وجيزة، فيما بعد الهروب من قارورته أثناء الليل. وُجد جالسا فوق القارورة التى توجد الملكة بداخلها، يخمشها بإصبعه حتى يزيل الخاتم. كان قد خرج عن مدار عقله، سريع الحركة للغاية، رغم ضعفه الشديد بسبب تعرضه للهواء. ومع ذلك فقد أرهقنا بمطاردة حقة بين القوارير التى كنا نخشى انقلابها. لقد كان غريبا بحق وهو على هذا القدر من الرشاقة، حتى إننى كنت أشك فى قدرتنا على الإمساك به، لولا أنه كان يزداد ضعفا لبعده عن عناصر موطنه الأصلى. أمسكناه، على أى حال، ودفعنا به، وهو يخمش ويعض، إلى قارورته. إلا أننا لم ننجح فى ذلك إلا بعد أن خمش ذقن الأب الروحى. كان قد أطلق أثناء العراك

رائحة غريبة، كرائحة لوحة معدنية ساخنة تبرد ولمس إصبعي ساقه، كانت رطبة مطاطية القوام، أرسلت بقشعريرة فى سلسلتى الفقرية.

«إلا أن مصيبة وقعت، إذ أخذ وجه الأب الروحى المخموش يتورم ويتسمم ورقد وقد أصابته حمى شديدة. وحمل إلى المستشفى حيث يرقد حتى الآن فى دور النقاهة. إلا أن أشياء كثيرة وهى الأسوأ حدثت بعد ذلك. كان البارون، باعتباره نمساويا، محل بحث واستقصاء دائم هنا، وعلى نحو أخص الآن، وقد غدا جنون التجسس، الذى تجلبه الحرب معها، فى أعلى مستوياته. بلغ مسمعى أن السلطات سوف تجرى معه تحقيقا دقيقا. استقبل هو الأخبار بهدوء اليائس. كان من الواضح أنه غير قادر على احتمال حضور أناس غير مختصين لفحص معمله. كان قد تقرر «إذابة» البشريين الصغار ودفنهم فى الحديقة. وقد وافقت على معاونته فى ذلك بسبب غياب الأب الروحى. لم أعرف ما الذى صبه فى القوارير، إلا أن كل لهب الجحيم قفز منها يغطى سقف المكان بالسناج ونسيج العنكبوت. تضاءل حجم الكائنات إلى حجم ديدان العلق المجففة، أو الخيط البحرى المجفف، والذى يحتفظ به القرويون فى بعض الأحيان. كان البارون يزمجر عاليا، من وقت لآخر، زمجرات امرأة تكدح وقد تفصدت جبهته عرقا. أخيرا اكتملت العملية، وأخذت القوارير فى منتصف الليل لطمرها تحت بعض البلاطات السائبة فى الكنيسة الصغيرة، حيث يجب أن تظل هناك، كما أظن واعتقل البارون، وختم حارس الأملاك على كتبه وأوراقه، والأب الروحى يرقد، كما قلت، فى المستشفى وأنا؟ حسنا، إن جواز سفرى اليونانى قد جعلنى محل اشتباه أقل من غالبية هؤلاء الذين فى الجوار. واعتزلت فى برجى فى الوقت الحاضر. لا تزال كتلة البيانات الماسونية هنالك فى الإسطبلات التى كان يسكنها الأب الروحى، وأنا من يتعهدها الآن. لقد كتبت إلى البارون، إلا أنه، ربما من باب اللياقة

لم يرد علىّ، ربما عن اقتناع بأن ربطى به قد يقود إلى الضرر وهكذا.. حسنا، الحرب تمضى حولنا وأنا أعرف نهايتها وما يلى ذلك حتى نهاية هذا القرن: إنها ترقد هنا إلى جوارى، وأنا اكتب إليك، فى صورة سؤال وجواب ولكن من ذا الذى سيصدقنى إن أنا نشرتها كلها، وأنت طبيب العلوم التجريبية، الشكاك الساخر، أقلهم جميعا؟

«أما عن الحرب فقد قال بارسيلوس: «كم هى عديدة تفوق الحصر ذاتيات الإنسان، ففيه ملائكة وشياطين، سماء وجحيم، كل ممالك الخلق الحيوانى والنباتى والمعدنى وكما يمكن أن يمرض الرجل الصغير الفرد، فهكذا أيضا يمرض الرجل العالمى الكبير، أمراض تفصح عن نفسها كأمراض تصيب الإنسانية كلها. وفوق تلك الحقيقة، قام التنبؤ بأحداث المستقبل» وهكذا يا صديقى العزيز، اخترت أنا الطريق المظلم نحو ضيائى الخاص. إننى أدرك الآن أنه يجب علىّ اتباع هذا الطريق مهما كانت النهاية التى يقودنى إليها. أليس ذلك إنجازا؟ ربما كلا، إلا أنه، بصدق وأمانة، يبدو لى كذلك لكننى أسمع الآن ضحكتك تلك»!

المخلص لك أبدا

داكابو(ф)

والآن، قالت كليا، «تفضلوا بالضحك».

قلت: «ضحكة كتلك التى أسماها بورسواردن، «الضحكة السوداوية لبلتازار» التى تنبئ عن الإيمان بأن النفس لا تعرف شيئا غير ما يكيفها هى، وأن النفس هى الشىء الوحيد الباقى».

كان بلتازار يضحك الآن بالفعل، يصفع ركبتيه، يكور نفسه، ليصبح أشبه بالمدية قال: «هذا الملعون الأحمر، داكابو. ومع ذلك، فلنكن

معقولين (*)، إن كان ذلك حقا هو التعبير المناسب؛ إذ لن يحكى لنا حزمة من الأكاذيب. أو ربما يفعل ذلك، كلا، إنه لن يفعل ذلك، ولكن هل يصدق كلاكما، أنتما الاثنان، ما يقول».

«نعم» قالت كليا. وهنا ابتسم كلانا، إذ إن ارتباطها بعرافى الإسكندرية يجعلها تنحاز بصورة طبيعية نحو فنون السحر. قالت فى هدوء: «أنتما تضحكان». قال بلتازار فى رزانة أكثر: «إن المرء، إحقاقا للحق، عندما يفتش فيما حوله من مجالات ما يسمى بالمعرفة التى شققنا طريقها جزئيا، يفيق على احتمال وجود مناطق كاملة من الظلام، يمكن أن تنسب إلى المناطق البارسيلسينية ـ الجزء المغمور من جبل جليد المعرفة ـ كلا، عليه اللعنة. يجب أن أعترف أنك على صواب. لقد اعتدنا اليقين من أنفسنا، نسافر جيئة وذهابا على خطوط ترام الحقيقة التجريبية. لكن المرء ينال أحيانا ضربة خفيفة على الرأس من طوبة شاردة، ألقى بها من منطقة أخرى بالأمس فقط، على سبيل المثال، أخبرنى بويد بقصة لم يكن صداها أقل غرابة، عن جندى دفن فى الأسبوع الماضى. فى وسعى، بالطبع، تقديم تفسيرات تتناسب والحالة، لكن دون أى يقين. هذا الصبى الشاب ذهب فى إجازة مدة أسبوع إلى القاهرة. عاد بعد أن قضى وقتا ممتعا، أو هكذا قال. أصيب فيما بعد بحمى غريبة متقطعة، بلغت فيها درجة حرارته أقصاها. مات فى غضون أسبوع تكونت قبل وفاته بساعات قليلة، مياه بيضاء سميكة فوق مقلتى عينيه، وظهر نتوء ما أحمر مضىء فوق شبكية العين. كان كل ما ردده الصبى أثناء هذيانه، عبارة واحدة: «لقد فعلتها هى بإبرة ذهبية»، ولا شىء غير تلك الكلمات. وكما قلت، كان فى وسع المرء أن ينهى الحالة فى العيادة بتخمين ذكى ولكن... حتى أكون أمينا فإننى مجبر على الاعتراف بأنها لم تكن تتواءم بالضبط مع أى حالة مسلم بها عرفتها من قبل، كما أن تشريح الجثة لم يفصح، بالمناسبة، عن أى شىء

(*) بالفرنسية فى الأصل.

يُمكن المرء من المتابعة: اختبارات الدم، السائل النخاعى، المعدة... إلخ. ولم يكن هنالك أى اختلال سحائى دقيق أو مألوف (وإن وجد فربما لا يمكن تأويله). كان المخ بديعا غضا! هكذا كان على الأقل، كما يقول بويد. كان يحس بمتعة كبيرة وهو يستكشف الشاب فى عناية. سر يحوطه الغموض! والآن ماذا كان يفعل هذا الشيطان فى تلك الإجازة؟ يبدو أن التعرف على هذا الأمر، غاية فى الصعوبة. إن إقامته غير مسجلة فى أى فندق أو دار ضيافة متنقلة من دور الجيش. إنه لا يتحدث أى لغة غير الإنجليزية. إن تلك الأيام التى قضاها فى القاهرة مفقودة تماما عدًا وحسابًا ثم تلك المرأة وإبرتها الذهبية؟

«إلا أن هذا، فى الحقيقة، يحدث دوما، وفى اعتقادى أنك على صواب (موجها الحديث إلى كليا) فى إصرارك بعناد على وجود القوى السوداء، وحقيقة إن بعض الناس يفتحون المندل بنفس البساطة التى أحملق بها فى ماسورة الميكروسكوب. ليس الجميع، ولكن البعض منهم، بمن فيهم أشد الناس غباء كسكوبيكى العجوز، على سبيل المثال. خذى بالك إننى أعتقد أن ما قاله ـ أعنى المادة المفترضة عن ناروز ـ إنما كانت هراء من ذلك الذى كان يخرجه أحيانا عندما يكون نشوان، يرغب فى الاستعراض: لقد كانت كلها أيضا تمثيلية إلى حد لا تؤخذ معه مأخذ الجد. وحتى إن كانت بعض التفصيلات صحيحة، فإنه قد أضاف إليها أثناء قيامه بواجباته. إن نمرود، رغم كل شيء، هو الذى كتب المحضر. ولا بد أن هذه الوثيقة كانت تنقل من يد إلى يد».

«ماذا عن بلتازار؟» تساءلت فى دهشة، وأنا أحس بالاستياء فيما بينى وبين نفسى، لأن كليا ائتمنت بلتازار على أشياء حجبتها عنى. ولاحظت الآن أنها كانت تنظر بعيدا، وقد شحبت تماما. إلا أن بلتازار بدا وكأنه لم يلحظ شيئا واستمر فيما هو منغمس فيه.

«إن عناصر الأقصوصة ـ أعنى محاولته جرك معه إلى المقبرة. آه، ألا تعتقدين بذلك؟ وعن البكاء الذى يمكن أن تسمعيه». وتوقف فجأة لقد لاحظ، أخيرا، ما على وجهها من تعبير، «يا إلهى، كليا يا عزيزتى»، واستمر يؤنب نفسه «آمل ألا أكون قد خنت شيئا ائتمنتنى عليه. لقد تكدرت فجأة. هل طلبت منى ألا أكرر حكى قصة سكوبى؟» وأمسك بكلتا يديها، وأدارها لتواجهه.

كانت بقعة حمراء قد ظهرت على كل من وجنتيها. هزت رأسها، عضت شفتيها، رغم أنها لم تقل شيئا، كأنما قد أصابها الحنق والغيظ. أخيرا قالت: «ليس هنالك من أسرار. إننى، فى بساطة، لم أخبر دارلى بذلك لأننى... حسنا، إنه تصرف أحمق كما تقول. إنه لا يؤمن بمثل هذا الهراء. لم أرغب فى الظهور أمامه بمظهر أكثر غباء مما أنا عليه». ومالت تقبلنى على وجنتى معتذرة. لقد أحسست بضيقى، كما أحس به بلتازار أيضا. فتدلت رأسه وقال: «لقد تحدثت بعيدا عما نحن فيه! سيغضب الآن منك».

«يا إلهى، كلا!» قلت محتجا: «لقد انتابنى الفضول، فى بساطة. ذلك كل ما فى الأمر. ليس لدىّ أية نية للتدخل، يا كليا، فيما لا يعنينى».

صدرت عنها إيماءة حنق يشوبه الألم المبرح، وقالت: «حسنا، ليس الموضوع بذى أهمية. سوف أخبركم بالأمر كله». وبدأت تتكلم فى سرعة كأنما تتخلص من مسألة كريهة هى مضيعة للوقت». كان ذلك أثناء العشاء الأخير الذى أخبرتك عنه، قبل أن أذهب إلى سوريا. كان ثملا، وأنا لا أنكر ذلك. قال ما أخبرك به بلتازار الآن، وأضاف وصفا لشخص ما، وقد أوحى لى هذا الوصف بأنه شقيق نسيم. قال وهو يحدد المكان بإبهامه فوق شفتيه هو، (شفتاه مشقوقتان هنا)، لقد رأيته مغطى بجراح صغيرة، يرقد فوق منضدة. كانت هنالك بحيرة فى الخارج. لقد وصل إلىّ

قرار سوف يعمل على جرك إليه. سوف تكونين فى مكان مظلم، مسجونة، عاجزة عن مقاومته حقا، هنالك أحدهم فى الجوار يمكن أن يعاونك إن استطاع، إلا أنه لن يكون قويا بما يكفى». ووقفت فجأة، وأنهت قصتها كمن يقصف غصنا. قالت: «وهنا تفجرت دموعه عند هذه النقطة».

كان غريبا ذلك الاكتئاب الذى حط فوق أرواحنا بسبب هذه التلاوة الأشبه بالهذيان، وإن كانت منذرة بالسوء، شىء ما كريه، مثير للقلق، كان يغزو شمس الربيع الساطعة الرائعة والهواء الطفيف الحدة. وأخذ بلتازار، فى ذلك الصمت الذى تلا، يطوى ويفرد معطفه، فى غم وكدر، فوق ركبته، بينما استدارت كليا تتأمل المنحنى البعيد للميناء الكبير، بما فيه من أساطيل صغيرة، من زوارق مدهونة بطريقة تكعيبية، وفلوكة السباق المتناثرة كأوراق زهر مضيئة، تقطع هدير الميناء، تنشر بهجتها وهى تتجه نحو الشمندورة الزرقاء البعيدة. إن الإسكندرية تعود فى الواقع، الآن، إلى طبيعتها ثانية، ترقد فى المياه العميقة الراكدة للحرب المتراجعة، تستعيد مسيراتها. ورغم ذلك، أظلم النهار حولنا فجأة، ضاغطا على أرواحنا ـ إنه شعور يزيد من غيظنا بسبب سخف باعثه. ولعنت إحساس سكوبى بأهمية ذاته والتى أقامها على قراءة الطالع.

«إن تلك المواهب، كان يمكن أن تدفع به فى مهنته، قليلا إلى الأمام، إن كانت هى حقيقية بالفعل». قلت وقد ضاق صدرى.

ضحك بلتازار، إلا أن ضحكته كان يشوبها شك حزين. كان شعوره بالندم لإثارة هذه القصة الغبية واضحا للعيان تماما.

«دعونا نذهب من هنا»، قالت كليا فى حدة بدت وقد أصابها الضيق أيضا إلى حد ما. أفلتت ذراعها للحال عندما أمسكت به. وجدنا عربة حنطور عتيقة سارت بنا فى بطء وصمت إلى المدينة.

«كلا، عليه اللعنة». صاح بلتازار أخيرا. «دعونا نذهب، على الأقل، إلى قرب الميناء لنشرب».

أعاد توجيه سائق العربة، دون انتظار إجابة منا، ليسرع الخطا فى صمت عبر المنحنيات الهينة للكورنيش الكبير، نحو نادى اليخت، فى الميناء الخارجى، حيث أصابنا منه الآن، شىء خطير رهيب. إننى أتذكره بوضوح دون خلل، فى هذا اليوم الربيعى. بحر أخضر نافر يضىء المنائر، بقع رقيقة، هنا وهناك، من دفقات داكنة لريح ناعمة سريعة. آلات الماندولين تعزف فى ضجر فى المدينة العربية، وكل رداء يتوهج متألقا مثل عربة أطفال ملونة. إن كل هذه الروعة سوف تظلم، تتسمم، فى غضون ربع ساعة بسبب موت مفاجئ، لا معنى له على الإطلاق، لكن المأساة إن كانت تضرب ضربتها فجأة، فإن اللحظة الفعلية للضربة تستمر فى ذبذبتها، تمتد فى الزمن مثل الصدى الكريه لناقوس كبير، يخدر الروح والإدراك. فجأة، نعم، لكنها تسرى فى بطء شديد فى الوعى بها وفهمها، تموجاتها تنبسط، تنتشر دوما فوق العقل والرشد، توسع دوائر الخوف. إلا أن الحياة العادية تسير طوال الوقت رغم ذلك، خارج مركز اللوحة، إن جاز القول، بحكايتها الصغيرة المأساوية، دون أن تعير أى شىء التفاتا (إننا حتى لم نسمع صوت الطلقات، مثلا إذا حملت الرياح خنتها الكئيبة بعيدا).

ومع ذلك شُدت أنظارنا، كما تشد قوة خطوط لوحة زيتية بحرية كبيرة، شدت إلى فوضى بالغة الضآلة لقوارب تصطدم ببعضها البعض، عند الجانب البعيد عن مهب الريح لبارجة حربية كانت تحوم فى الفضاء مثل كاتدرائية رمادية. كانت أشرعة القوارب ترفرف، تهتز مثل فراشات تبارى النسيم. كان هنالك حركة غامضة لمجاديف وأذرع أشخاص صغار للغاية على هذا المدى، حتى إنه يصعب التعرف عليهم أو تبينهم. وكان لهذا الاضطراب الضئيل للغاية، رغم ذلك، قوة جاذبة للأنظار لمن كان

يعرف معنى الهاجس الداخلى. رأينا المنظر أمامنا ينبسط مثل منظر بحرى فخيم لأستاذ ماهر. كان التنوع المميز لقوارب اللاجئين الصغيرة من كل أركان الشرق الأدنى، تصميم القوارب ونظام قلوعها قد أضفى على المنظر حسية وإيقاعا جميلا فى مواجهة المياه المتلألئة. كان كل شىء يحبس الأنفاس، رغم أنه كان طبيعيا. رفاصات قطر السفن تنعق. الأطفال يصرخون. وجاءت من المقهى خشخشة الألواح «تريك تراك» وأصوات الطيور. طبيعية عالم بأكمله. كانت تحيط اللوحة الضئيلة المركزية بقلوعها الخفاقة، والإيماءات التى لم يكن فى وسعنا ترجمتها، والأصوات الواهنة. وتمايلت الزوارق، وارتفعت الأذرع وسقطت.

«حدث شىء ما». قال بلتازار، وهو ينظر بعينيه الداكنتين الضيقتين إلى المشهد. وتوقف الحصان للحال فجأة، وكأن هذه العبارة قد أثرت عليه ـ لم يكن هنالك غيرنا، إلى جوار الرصيف غير شخص واحد كان قد رأى ما رأينا، فوقف، هو أيضا، يحملق بفم مفتوح، مندهشا، ذاهلا متنبها إلى أن شيئا ما، خارج عن المألوف، يجرى هنالك على قدم وساق. ومع ذلك، فهنالك أناس يلغطون ويضجون، وباعة ينادون ويصيحون. وعند قدمى الرجل وقف أطفال ثلاثة يلعبون فى استغراق تام، وقد وضعوا قطعا من زجاج فوق خط الترام، يأملون أن يروها وقد طحنت إلى مسحوق عندما يمر عليها الترام التالى. وحامل ماء يدق أكوازه النحاسية صائحا: «تعالوا إلىّ أيها العطاشى». وانسلت، فى الخلفية، باخرة ركاب دون ضجة، كأنما تسير على حرير عبر دربها العام الأخضر نحو البحر المفتوح.

«إنه بومبال»، أخيرا صاحت كليا فى نبرة حيرى، واضعة ذراعها فى ذراعى فى حركة قلقة. كان حقا بومبال. وكان ما حل بهما قد جرى هكذا؛ كانا ينساقان على غير هدى حول الميناء، فى زورقه الصغير، بما اعتاده من تراخ وغفلة، فشردا إلى قرب شديد من البوارج الفرنسية، حملتهما، إلى جانبها البعيد عن الريح، خارجا عن مجراها، لفحة ريح لم تكن فى

الحسبان، انقضت عليهما. كم كان مثيرا للسخرية، ذلك الذى خططه سادة المسرح غير المرئيين، والذين يوجهون أفعال الإنسان، والسرعة التى تتم بها! لقد كانت السفن الفرنسية، رغم وجودها فى الأسر، تحتفظ بكل من أسلحتها الصغيرة وإحساس بالخجل، مما وسم تصرف الفرنسيين بسرعة الغضب، وعدم القدرة على التنبؤ بما يمكن أن يقدموا عليه. كان لدى الحراس، فوق تلك السفن، أوامر بإطلاق طلقة تحذيرية على مقدم أى قارب يقترب إلى اثنى عشر مترا من أى بارجة. وحدث، إذن، تنفيذا لتلك الأوامر فقط أن أطلق أحد الحراس طلقة على شراع قارب بومبال، عندما اندفع متجاوزا الخط الأحمر نحو سفينته. كان ذلك مجرد إنذار وتحذير دون أى نية لضرر متعمد كان من الممكن حتى الآن أن... ولكن كلا، ما كان للأمر أن يقع هكذا إذ إن صديقى، وقد تغلب عليه الغضب وشعور بالخيبة، لمعاملته هكذا من هؤلاء الجبناء الضعفاء الذين هم أبناء جلدته، تحول لونه إلى الأرجوانى حنقا وغيظا، فترك محرك الدفة تماما لينتصب واقفا معرضا نفسه للخطر، هازًا قبضته الضخمة، صارخا: «أوباش»(*) و«أيها المخادعون!»(*) وما يمكن أن يكون صفة محدودة: «جبناء أنذال!(*)».

هل سمع الطلقات بنفسه؟ هذا أمر مشكوك فيه، فى ظل كل هذا الإرباك الذى أحدثه، إذ إن الزورق مال وجمح واستدار حول نفسه متخذا مسارا آخر ما أدى إلى وقوعه. ولاحظ فى تلك اللحظة، وهو راقد هناك، يستعيد الإمساك بذراع الدفة الثمين، لاحظ فوسكا فى ذات لحظة سقوطها، ولكن فى بطء لا نهائى. لقد قال، فيما بعد: إنها لم تعرف بإصابتها، ربما أحست، فى بساطة بغمة وبتشتت انتباهها بطريقة غامضة غير عادية، بالخدر السريع

(*) بالفرنسية فى الأصل.

للصدمة الناتج، فى سرعة شديدة، عن جرحها. لقد تمايلت مثل برج عال، وأحست بألواح مؤخرة السفينة تقترب فى بطء لتضغط نفسها إلى وجنتها. رقدت هنالك، مفتوحة العينين على اتساعهما، لينة طرية، مثلما يرقد ديك برى جريح، عيناه تبرقان رغم الدم المتدفق من منقاره. نادى اسمها ولم يتلق غير صمت الكلمة الجسيم، إذ إن طوفانا كان يشتد، يدفع بهما الآن نحو اليابسة لقد جاء فى أثر ذلك اضطراب من نوع آخر، انجذبت قوارب أخرى كما تجذب الجراح الذباب. أخذت تتجمع، تصرخ، تقدم النصيحة وتظهر الإشفاق. كانت فوسكا، فى تلك الأثناء، بعينين مفتوحتين غائمتين تبتسم لنفسها ابتسامة ذلك النوع الآخر من الأحلام.

كانت تلك هى اللحظة التى استيقظ فيها بلتازار من سباته فجأة، مناضلا للخروج من العربة، دون كلمة واحدة، بدأ ترنحه الغريب، أخذ يجرى عبر المرسى إلى هاتف الإسعاف الميدانى الأحمر، بما فيه خط الطوارئ. وسمعت تكة المستقبل الصغيرة وصوته يتحدث متأنيا ثابت الجأش. واستجاب المركز الميدانى، الذى كان على بعد حوالى خمسين ياردة فقط، إلى الاستدعاء فى سرعة تكاد تكون إعجازية. وسمعت الصليل العذب لجرس سيارة الإسعاف ورأيتها تسرع نحونا عبر الحصى. عادت الوجوه تتجه ثانية ناحية قافلة القوارب الصغيرة، وجوه ارتسم عليها فقط الصبر والاستسلام أو الفزع. كان بومبال راقدا فوق الألواح على ركبتيه وقد أحنى رأسه. وكان وراءه، «على» النوتى، أول من أدرك الأمر وقدم العون، يدير الدفة بمهارة. كانت كل القوارب الأخرى، تطير على امتداد نفس المسار، تتجمع حول بومبال كأنما تواسيه فى همة. استطعت قراءة الاسم «مانون»، والذى كان قد أطلقه، منذ مدة لا تزيد على أشهر ستة، على القارب فى فخر واعتزاز. بدا كل شىء وكأنه قد غدا محيرا مربكا، يهزه بعد جديد تضخمه الشكوك والمخاوف.

وقف بلتازار فوق الرصيف، يؤلمه نفاد صبره، يستحثهم في عقله أن يسرعوا. سمعت لسانه يتكتك في سقف حلقه، تك تك، يتكتك في رقة وتأنيب، وتساءلت إن كان ذلك موجها ضد بطئهم أم ضد الحياة ذاتها وأنماطها التي لم تعدّ سلفا.

أخيرا وصلوا إلينا. كان في وسع المرء أن يسمع في وضوح صوت أنفاسهم وصوت أنفاسنا تشاركهم، قرقعة سيور الحمالة الجلدية، صليل الصلب المصقول، القرقعة الصغيرة للكعوب المرصعة بمسامير النعال كبيرة الرأس. اختلطت كلها معا في نشاط مضطرب الانحناء والرفع، أصوات كالقباع بينما الأيدي الداكنة تجد لها مكانا تمسك به الحبل حفاظا على ثبات الزورق، والأصوات الحادة كالسنون للأصوات المتصادمة وهي تعطي الأوامر: «تقدم للمساعدة» و«برفق الآن»، اختلطت كلها بموسيقى رقصة «الفوكس تروت» البعيدة القادمة من مذياع إحدى السفن وتمرجحت النقالة مثل أرجوحة الطفل، مثل سلة فاكهة فوق كتفي عربي داكنين، وفتحت أبواب الصلب عن مدخل أبيض كالنحر.

كان وجه بومبال يكتسي بضبابية شاردة. كانت تقاطيعه مشتتة، مزرقة اللون تماما. ارتمى فوق الرصيف مترنحا كأنما ألقى به من سحابة. سقط على ركبتيه ثم عاد إلى قدميه. كان يسير هائما مترددا وراء بلتازار وحاملي المحفة، يمأمئ مثل شاة ضالة. لا بد أن الدم المتناثر فوق «أسباندريلها» الأبيض الثمين، والذي اشتراه لها منذ أسبوع مضى من سوق جوشن التجاري، كان معها. إن التفاصيل الصغيرة هي التي تصدم المرء كالضربات في مثل تلك اللحظات. بذل محاولة كي يتشعبط في النحر الأبيض، إلا أنه نُهر بحدة. أغلقت الأبواب في وجهه. لم تعد فوسكا الآن ملكا له، غدت ملكا للعلم. وقف متذللا وقد أحنى رأسه، مثل امرئ في كنيسة، حتى يفتحوا ثانية ويسمحوا له بالدخول. كان يبدو وكأنه لا يكاد يتنفس.

أحسست برغبة لا إرادية فى الذهاب والوقوف إلى جواره، إلا أن ذراع كليا منعنى. انتظرنا صابرين مذعنين مثلنا مثل الأطفال، نستمع إلى الحركات الغامضة القادمة من داخل سيارة الإسعاف، صوت الأحذية ثم فتحت الأبواب بعد فترة دامت طويلا، وهبط بلتازار مرهقا «ادخل، تعال معنا». نظر بومبال إليه نظرة واحدة مضطربة وحشية، ثم حول فجأة وجهه إلىّ وإلى كليا وقد كسا ملامحه ألم ممض. صدرت عنه إيماءة واحدة، مادا ذراعيه فى يأس من لا يدرك شيئا، قبل أن يصفق بيد سمينة على كل من أذنيه، كأنما يتجنب سماع شىء ما. فجأة، فرقع صوت بلتازار مثل رق من جلد، «ادخل»، قال فى خشونة وغضب كأنما يتحدث إلى مجرم. سمعته يضيف، بينما يصعدان إلى داخل السيارة الأبيض، فى صوت أكثر انخفاضا، «إنها تموت». صفقت الأبواب الحديدية وهى تغلق، وأحسست بيد كليا تتحول إلى ثلج فى يدى.

وهكذا جلسنا، جنبا إلى جنب، دون كلام، فيما بعد ظهر هذا اليوم الربيعى الرائع، والذى كان قد بدأ غوصه بالفعل فى الغسق. أشعلت، أخيرا، سيجارة. سرت بضع ياردات، على امتداد الرصيف بين العرب الذين كانوا يتبادلون الحديث، يصفون الحادث، كل للآخر، فى نبرات كالعواء. كان «على» على وشك أن يعود بالزورق إلى مرسى القوارب فى نادى اليخت. كان كل ما يحتاجه منى شعلة لسيجارته. لاحظت، عندما نفخ الدخان، أن الذباب قد وجد طريقه إلى الدم فوق ألواح أرضية الزورق، «سوف أنظفها»، قال على، وقد لاحظ اتجاه نظرتى. قفز إلى القارب فى رشاقة مثل قط. كان يود أن يقول: إن ما حدث كان عملا سيئا، إلا أن إنجليزيته كانت قاصرة، فصاح «سما سيئا يا سيدى». أومأت برأسى. كانت كليا لا تزال جالسة فى العربة تنظر إلى راحتيها. بدت هذه الحادثة المفاجئة وكأنها قد فصلتنا عن بعضنا البعض.

«لنعد» قلت أخيرا. طلبت من السائق أن يعود بنا إلى المدينة التى كنا تركناها منذ قليل.

«لنصل لله أن تكون بخير»، قالت كليا أخيرا. «إنه لأمر قاس للغاية».

«لقد قال بلتازار إنها تموت. لقد سمعته».

«ربما يكون مخطئا».

«ربما يكون مخطئا».

إلا أنه لم يكن مخطئا، إذ إن فوسكا والطفل كانا قد ماتا، رغم أننا لم نعرف تلك الأخبار إلا أخيرا فى المساء. أخذنا نطوف غرف مسكن كليا فى كسل وفتور عاجزين عن التركيز فى شىء ما. أخيرا قالت:

«من الأفضل أن تعود، تقضى الأمسية معه، ألا ترى ذلك». لم أكن متأكدا مما قالت.

«أعتقد أنه يفضل البقاء منفردًا».

«عد»، قالت ثم أضافت فى حدة ـ «إننى لا أتحملك وأنت تتسكع هنا فى وقت كهذا.. أوه، يا عزيزى، لقد أسأت إليك. إننى آسفة».

«بالطبع لم تسيئى إلىّ أيتها الساذجة لكننى سأذهب».

كنت أفكر طوال الطريق عبر شارع فؤاد: إن لمثل تلك الإزاحة المحدودة النمط لحياة بشرية واحدة، قوة قادرة على التغيير إلى حد كبير. إن مثل ذلك الاحتمال لم يقع حرفيا لأى منا، إننا نستطيع، فى بساطة، أن نهضمه. أن نضعه فى الصورة التى شيدها بومبال بنفسه،بمثل تلك العناية. إن هذه الحقيقة الصغيرة السخيفة قد سممت كل شىء، حتى مشاعرنا نحوه تحولت إلى فزع ومشاركة وجدانية! كم كانت قاصرة لا تفى

بالغرض! مثلها فى ذلك مثل العواطف، كم هى عاجزة عن أن تكون ذات نفع! كان على أن أستبعد غريزتى تماما! أحسست كأنى لا أود رؤيته البتة ثانية؛ حتى لا أثير خجله. سم سيئ حقا. رددت عبارة «على» إلىّ مرة بعد أخرى.

كان بومبال، عندما عدت إلى هنالك، يجلس على كرسى النقرس، غارقا، كما هو واضح، فى التفكير. كان إلى جواره كأس ملىء بالويسكى الخالص، بدا أنه لم يمسسه. كان، على أى حال، قد غير ملابسه وارتدى «الروب دى شامبر»، المرسوم عليه صورة طاووس ذهبى، وفى قدميه خف مصرى قديم بال أشبه بجواريف ذهبية. دخلت الحجرة غاية فى الهدوء. جلست قبالته دون أن أنطق كلمة. لم يبد عليه أنه ينظر إلىّ بالفعل، ورغم ذلك أحسست، على نحو ما أنه يدرك وجودى، إلا أن عينيه بدتا غائمتين مثبتتين على منتصف المسافة بيننا. كانت أصابعه تمارس معا فى رقة، لعبة قرن الغزال قال، وهو لا يزال ينظر نحو النافذة، فى صوت ضئيل له صرير، وكأن للكلمات قدرتها على تحريكه رغم أنه لم يكن يعرف بالضبط معناها ـ «لقد ماتت يا دارلى. لقد مات كلاهما». أحسست بثقل من رصاص فوق قلبى ـ «ليس هذا من العدل فى شىء»(*) أضاف وهو ذاهل، ثم أخذ يشد جانب لحيته بإصبعه السمينة. كان يتصرف بطريقة مسطحة تماما، غير عاطفية، كرجل يفيق من ضربة حادة. تناول فجأة جرعة من الويسكى، ثم أجفل يسعل مختنقا. مال إلى الأمام، تناول قلما وإضمامة الورق التى فوق المائدة، أخذ يشخبط، تماما مثل طفل، حلقات من أزهار وأقراص وتنين «يجب أن أذهب غدا، لأول مرة منذ أجيال إلى الاعتراف»، قال فى بطء كأنما يحتاط فيما يقول تحوطا لا نهائيا.

(*) بالفرنسية فى الأصل.

لقد أخبرت حميد أن يوقظنى مبكرا. هل تمانع فى مجىء كليا فقط؟»

هززت رأسى. فهمت أنه يعنى حضورها الجنازة. تنهد فى ارتياح. «حسنا»، قال متناولا كأس الويسكى بينما يقف. فتح الباب فى تلك اللحظة، وظهر بوردر سارح الفكر. تغير بومبال فى لمح البصر، ربما كان ذلك بسبب وجود واحد ما من جنسه. أطلق سلسلة طويلة من الشهقات العميقة تعانق الرجلان وهما يتبادلان كلمات وعبارات غير مترابطة، كأنما يواسى كل منهما الآخر فى كارثة أصابت كليهما بنفس القدرمن الجراح. رفع الدبلوماسى العجوز قبضته النسائية البيضاء فى الهواء، وقال فجأة فى عمق وسخف: «لقد قدمت بالفعل احتجاجا قويًا».

أصابتنى الحيرة، لمن قدم احتجاجه؟ للقوى الخفية التى تصدر مرسوما بأن الأشياء سوف تنتهى على هذا النحو أو ذاك؟ خرجت الكلمات تبقبق بلا معنى فى هواء حجرة الاستقبال الباردة. كان بومبال يتكلم.

قال: «سوف أكتب إليه، أخبره بكل شىء، أعترف له بكل شىء».

«جاستون» ـ قال رئيسه فى حدة وتأنيب. يجب ألا تفعل أبدا مثل هذا الشىء. إن ذلك سوف يزيد من شقائه فى سجنه. ليس فى ذلك أى عدل. استمع إلى نصيحتى، يجب نسيان الأمر برمته».

«نسيان!» صاح صديقى كأنما لدغته نحلة ـ إنك لا تفهم الأمر. نسيان! يجب أن يعرف هو، من أجلها هى».

«يجب ألا يعرف أبدًا» قال الرجل الأكبر سنا «أبدًا».

وقفا لفترة طويلة، أيديهما متماسكة، يحملقان فى بعضهما البعض عبر دموعهما وهما شاردان. فتح الباب فى تلك اللحظة، ليسمح بظهور المعالم الخنزيرية للأب بول، والذى لم يكن يوجد البتة بعيدا عن مركز

أى فضيحة، كأنما لتكتمل الصورة. وقف فى مدخل الباب يحيط به جو من المداهنة. وقد تشكلت ملامحه بنهم رضائه عن ذاته «يا بنى المسكين»، قال وهو يسلك زوره، ثم قام بحركة غامضة بكفه ذات المخالب، كأنما ينثر علينا الماء المقدس، وتنهد، ذكرنى بنسر ما عديم الشعر. ولدهشتى أخذ يقعقع عبارات قليلة مواسية باللاتينية. تركت صديقى بين هذين المعزيين ضخمى الأجسام كالأفيال، يخفف عنى، على نحو ما، أنه لا مكان لى فى كل ذلك الاحتفال المفكك من الرثاء اللاتينى. ضغطت يده وانسللت من الشقة موجها خطاى نحو غرفة كليا.

أقيمت الجنازة فى اليوم التالى. عادت كليا منها شاحبة مشدودة. ألقت بقبعتها عبر الحجرة، وهى تهز شعرها بحركة قلقة، كأنما لتطرد كل الذكرى الكريهة للحادثة. رقدت منهكة فوق الأريكة، ووضعت ذراعيها فوق عينيها.

«كان الأمر شنيعا»، أخيرا قالت «شنيعا بحق يا دارلى. أولا وقبل كل شىء كانت هنالك مسألة حرق الجثة. أصر بومبال على تنفيذ رغباتها رغم الاحتجاجات العنيفة التى صدرت عن الأب بول. أى وحش هو هذا الرجل؟! لقد تصرف كأنما جسدها قد غدا ملكا للكنيسة. غضب بومبال المسكين، ونشب بينهما شجار رهيب حول ترتيب التفاصيل التى سمعتها كما... أننى لم أزر المحرقة الجديدة أبدا! إنها لم تنته بعد. إنها تقف هنالك فى أرض رملية للنفايات، يتناثر فيها القش وزجاجات الليموناندة المستعملة، تكتنفها كومة من نفايات هياكل السيارات القديمة إنها تبدو حقا مثل فرن ارتجل على وجه السرعة فى معتقل. طبقات تثير الفزع من قرميد مرصوص وأزهار نصف ميتة تنبت من الرمال، قضيب حديدى قصير به سحاجات ينزلق النعش عليها. ياله من قبح! ووجوه كل هؤلاء القناصل أو ممثليهم! حتى بومبال، بدا مأخوذا تماما من هذه

البشاعة وعملية الإشعال! كان الأب بول، بالطبع، فى مقدمة الصورة، يستمتع بدوره، ثم أخذ النعش يصر صريرا نابيا وهو يتدحرج بعيدا فى ممر الحديقة، ليميل إلى كوة من صلب. ووقفنا معلقين، على هذه الساق مرة وعلى تلك أخرى، واتجه الأب بول إلى ملء هذه الفجوة المربكة بصلوات ارتجالية، إلا أن مذياعا فى الجوار أخذ خلال كل تلك اللحظة، يصدر فالسات من فيينا. وبذل سائقون عديدون محاولات لتحديد مكانه وإسكاته، ولكن دون جدوى. لم أحس فى حياتى أبدا بمثل هذا الشقاء، أنا واقفة فى عشة الدواجن الموحشة تلك، وقد ارتديت أفضل ثيابى. كانت هنالك رائحة تفحم بشعة تصدر عن الفرن. لم أكن أعرف حينئذ أن بومبال كان ينتوى نثر رمادها فى الصحراء، وأنه قد قرر أننى وحدى من سوف تصطحبه فى رحلته. ولم أكن أدرى أن الأب بول، فيما يخص هذا الأمر ـ وقد اشتم فرصة لمزيد من الصلوات ـ كان قد حسم أمره بحدة، أن يفعل نفس الشىء، كان كل ما تلا ذلك مفاجأة لى.

«حسنا، أخيرا أصبح الناووس(*) معدا ـ وأى ناووس! كان وخزة حقيقية فى عيوننا جميعا. كان أشبه بما يزهو به حلوانى بذل جهدا لإعداد شىء ما مناسب لشيكولاتة رخيصة الثمن. وحاول الأب بول خطفه، إلا أن بومبال المسكين أمسك به بقوة بينما نجرجر أنفسنا نحو السيارة. يجب أن أقول إن بومبال قد أظهر هنا ثبات عزمه «لن يكون أنت»، قال بينما بدأ القس صعود السيارة «سأذهب وحدى وكليا»، وأومأ لى برأسه.

«يا بنى» قال الأب بول فى صوت شرس منخفض. سوف آتى أنا أيضا».

«لن تأتى» قال بومبال، «لقد أديت مهمتك».

(*) تابوت صغير فى حجم صندوق الحلى يوضع فيه الرماد ـ المترجم.

«يا بنى، إنى قادم»، قال هذا الوغد العنيد.

وبدا للحظة أن الأمر سوف ينتهى بتبادل اللكمات. هز بومبال رأسه للقس، محملقا فيه بعينين غاضبتين. صعدت إلى السيارة، وأنا أحس بالحمق الشديد. دفع بومبال الأب بول بأفضل الأساليب الفرنسية ـ بقوة فى الصدر ـ صعد وصفق الباب. انتشر الهمس بين القناصل المجتمعين تعليقا على هذا الازدراء العلنى للكاهن، إلا أن أحدا لم ينطق بكلمة. شحب القس غضبا. تحرك حركة ما لا إرادية ـ كأنه سيهز قبضته فى مواجهة بومبال، إلا أنه عدل عن فعل ذلك.

«وانطلقنا. اتخذ السائق طريقه إلى الصحراء الغربية. كان يتصرف، كما هو واضح، طبقا لأوامر سابقة. جلس بومبال ساكنا تماما وقد وضع على ركبتيه هذه البونبونيرة(*) المروعة. يتنفس من خلال أنفه وعيناه مغلقتان، كأنما يستعيد رباطة جأشه بعد كل محاولات الصباح. مد يده يمسك بيدى، وقد جلسنا، هكذا، صامتين نراقب الصحراء تمتد على جانبى السيارة... مضينا بعيدا جدا قبل أن يطلب من السائق أن يقف. ثقلت أنفاسنا خرجنا من السيارة ووقفنا للحظة، دون هدف إلى جانب الطريق، خطا خطوة أو اثنتين فى الرمال ثم توقف ناظرا إلى الوراء! «الآن سوف أقوم بالمهمة». انطلق فى مشيته المتثاقلة الكسولة حوالى العشرين ياردة فى الصحراء. قلت للسائق فى عجلة: «سق مدة خمس دقائق، ثم عُد إلينا». لم يلتفت بومبال لصوت السيارة وهى تبدأ سيرها. سقط فجأة فوق ركبتيه مثل طفل يلعب فى حفرة رملية، إلا أنه ظل ساكنا مدة طويلة. كان فى وسعى أن أسمعه وهو يتحدث فى صوت حميم، رغم أننى لا أستطيع القول، إن كان يصلى أم يتلو شعرا. أحسست أننى بائسة بصورة يائسة فى هذا الطريق الصحراوى الخالى والأسفلت يومض بالحرارة».

(*) علبة حلوى ـ المترجم.

«بدأ يخمش فى الرمل أمامه، ليملأ كفيه منه مثل المسلمين ويصبه فوق رأسه، كان يصدر عنه ضجيج أنين غريب. رقد، أخيرا، ووجهه إلى الأرض.

«وظل ساكنا تماما. أخذت تكات الدقائق تتوالى. سمعت صوت السيارة قادمة من بعيد فى بطء نحونا ـ كانت تسير بسرعة أشبه بخطوة السائر.

«بومبال»، قلت أخيرا. لم يصدر عنه أى رد. سرت أقطع المسافة بيننا، أحس بحذائى يمتلئ بالرمال الحارقة. لمست كتفه، فوقف للحال، وأخذ ينفض التراب عن نفسه. بدا، فى الحال، فجأة، مسنًا بطريقة مخيفة، «نعم»، قال فى تردد، ونظرة جفلة تدور حوله فى المكان كله، كأنما أدرك، لأول مرة، أين هو: «خذينى إلى المنزل، يا كليا». تناولت يده كأنى أقود رجلا أعمى، جذبته على مهل عائدة إلى السيارة التى كانت قد وصلت الآن.

«جلس إلى جوارى، ينظر فى حيرة، ثم بدأ يعوى، كأنما مسته ذكرى ما، حتى لحمه الحى. كان مثل صبى صغير جرح ركبته، وضعت ذراعى حوله، كنت سعيدة للغاية أنك لست هناك، كانت روحك الأنجلوساكسونية قد تلوت حتى الأطراف. ومع ذلك ظل يردد، «لا بد أن المسألة قد بدت سخيفة. لا بد أن المسألة قد بدت سخيفة». وفجأة أخذ يضحك بطريقة هستيرية. كانت لحيته مليئة بالرمال «تذكرت فجأة وجه الأب بول»، أخذ يشرح موضحا، وهو لا يزال يضحك ضحكة هستيرية عالية، أشبه بتلميذة ثم تماسك فجأة، مسح عينيه، قال وهو يتنهد فى حزن: لقد غُسلت كُليةً، إننى منهك تماما. أحس أننى قادر على النوم أسبوعا بكامله» وكان ذلك، على الأرجح، ما سوف يفعله. أعطاه بلتازار جرعة منوم قوى. أنزلته عند مسكنه، وجاءت بى العربة إلى هنا. إننى لا أقل عنه

إرهاقا. الحمد لله، لقد انتهى كل ذلك. إنه سوف يبدأ حياته، على نحو ما، حياة جديدة تمام الجدة».

دق جرس الهاتف جاء صوت بومبال مرهقا حائرا، كأنما يجسد هذا الاقتراح الأخير، قال:

«دارلى، أهو ذا أنت؟ حسنا نعم، لقد فكرت فى وجودك هناك. لقد أردت، قبل ذهابى إلى النوم أن أخبرك حتى يمكنك اتخاذ الترتيبات اللازمة حول المسكن. إن بوردر سوف يرسلنى فى بعثة إلى سوريا. سوف أغادر مبكرا فى الصباح. سأحصل، إن حدث ذلك، على علاوات، وأصبح قادرا على الحفاظ، فى سهولة على الجزء الخاص بى من المسكن حتى أعود إليه؟».

«لا تقلق بالك بهذا الأمر»، قلت.

«لقد كانت مجرد فكرة».

«نم الآن».

تلا ذلك صمت طويل. أضاف: «إلا أننى سأكتب لك بالطبع، آه؟ نعم حسنا جدًا. لا توقظنى إن جئت هذا المساء». ووعدته ألا أفعل ذلك.

إلا أنه لم يكن هنالك أى داع لهذا التنبيه، إذ إننى عندما عدت إلى الشقة متأخرا فى تلك الليلة، كان لا يزال يقظا، يجلس فى كرسى النقرس، فى جو من الخشية واليأس.

«إن هذه المادة التى أعطاها بلتازار لى، غير ذات نفع». قال، «إنها تسبب لى قيئا خفيفا، ذلك كل ما فى الأمر. إنها تجعلنى أكثر وهمًا عندما أشرب الويسكى. إلا أننى على نحو ما، لا أود الذهاب إلى الفراش. من يدرى أى أحلام سوف أحلم؟».

إلا أننى أقنعته فى النهاية، بالذهاب إلى الفراش، فوافق شريطة أن أظل إلى جواره وأتحدث إليه حتى يذهب فى النوم. كان الآن هادئا، نسبيا، كما كان يزداد وسنًا. تحدث فى نبرة هادئة مسترخية، كما يمكن أن يتحدث المرء إلى صديق يتخيله بينما يكون تحت المخدر.

«إننى أعتقد أن الأمر كله سوف ينقضى ويزول. ذلك مآل كل شىء. كل شىء ينقضى فى النهاية. كنت أفكر فى أناس آخرين فى نفس هذا الوضع إلا أن الأمر لا ينقضى، بالنسبة للبعض، فى يسر وسهولة. جاءت ليزا ذات ليلة إلى هنا. جفلت عندما وجدتها على عتبة الباب بعينيها اللتين تبعثان فىّ القشعريرة ـ مثل أرنب بلا عينين فى متجر دواجن. كانت تود منى أن أصطحبها إلى حجرة شقيقها فى فندق جبل النسر. قالت: إنها تود أن تراه. سألت: ما الذى سوف تراه؟ قالت فى غضب: لى طريقتى الخاصة فى الإبصار. حسنا، كان على أن آخذها. أحسست أن هذا العمل قد يسعد ماونت أوليف. إلا أننى لم أكن أعرف حينئذ أن جبل النسر، لم يعد فندقا، لقد تحول إلى ماخور للقوات العسكرية. كنا فى منتصف المسافة على السلم، عندما بزغت لى تلك الحقيقة. كل تلك الفتيات العاريات والجنود العرقى بنصف ثيابهم وأجسادهم المليئة بالشعر وصلبانهم التى تصلصل مع أقراص هويتهم، ورائحة العرق والروم والعطور الرخيصة. قلت: يجب أن نغادر هذا المكان، لقد تبدل وتحول. إلا أنها ضربت الأرض بقدمها، وأصرت فى غضب مفاجئ. حسنا، تسلقنا السلم. كانت الأبواب مفتوحة عند كل بسطة من بسطاته. كان فى مقدور المرء أن يرى كل شىء. سعدت أنها ضريرة. أخيرا بلغنا غرفته. كانت مظلمة، وهنالك فوق فراشه نامت امرأة عجوز، وإلى جوارها غليون الحشيش. كان لها رائحة بالوعة. كانت ليزا مستثارة للغاية، قالت: «صفها». بذلت أقصى ما عندى من جهد. تقدمت نحو الفراش. قلت وأنا أحاول جذبها إلى الوراء:

هنالك امرأة نائمة. هذا الآن، منزل سيئ السمعة يا ليزا. إننى أكرر إخبارك بذلك. هل تعرف ماذا قالت؟ «هذا أفضل بكثير»، جفلت. ضغطت وجنتها إلى الحشية إلى جوار المرأة العجوز التى أخذت تئن فى الحال. ربتت ليزا جبهتها كأنما تربت طفلا قالت: «نامى الآن». جاءت فى بطء وتردد إلى القرب منى، ضحكت ضحكة غريبة ساخرة، وقالت: «أردت محاولة أخذ طابعه وأثره من الوسادة، إلا أنها كانت فكرة عديمة الجدوى. يجب على المرء أن يحاول كل شىء لاستعادة الذكرى. إن مخابئهاعديدة للغاية». لم أفهم ما الذى قصدته بذلك. أخذنا فى هبوط السلم ثانية. رأيت عند البسطة التالية بعض الأستراليين السكارى يصعدون. كان فى وسعى أن أرى وجوههم. إن متاعب سوف تحدث معهم. كان أحدهم قد خدع أو شىء من هذا القبيل. كانوا سكارى بصورة مخيفة وضعت ذراعى حولها، تظاهرت بأننى أمارس الحب معها فى ركن من البسطة حتى مروا فى سلام. كانت تنتفض، لا أدرى من الخوف، من الانفعال، قالت: «قل لى ما تعرف عن نسائه، كيف كن يبدون؟» هززتها بقوة قلت: «لقد أصبحت الآن مبتذلة». توقفت تنتفض وقد شحبت من الغضب. فى الطريق قالت: «أحضر لى سيارة أجرة، إننى لا أحبك». فعلت ما شاءت وانصرفت دون كلمة واحدة. أسفت فيما بعد لوقاحتى، إذ كانت تعانى. إن الأحداث تقع الآن فى سرعة تفوق استيعاب المرء لها، حتى يكون فى وسعه وضعها فى حسبانه، كما أن المرء لن يعرف أبدا ما يكفى عن الناس، وعما يعانون، حتى يكون قادرا على رد الفعل الصحيح فى لحظتها. قلت لها، فى عقلى، فيما بعد، أشياء كثيرة، أتعاطف بها معها إلا أن الوقت كان متأخرا للغاية. دائما متأخرا للغاية».

أفلت من شفتيه شخير خفيف ثم صمت. كنت أوشك أن أطفئ المصباح الذى إلى جوار فراشه وأخرج من حجرته على أطراف أصابعى،

عندما استمر فى الكلام، فقط من بعيد للغاية، يسترجع خيط أفكاره فى موضوع آخر: «عندما كانت ميليسا تلفظ أنفاسها الأخيرة، قضت كليا اليوم بطوله معها. لقد قالت لكليا ذات مرة، إن دارلى يمارس الحب وهو يعانى نوعا من عذاب الضمير، نوعا من اليأس. إننى أعتقد أنه يتخيل جوستين. إنه لم يستثرنى البتة كما يفعل باقى الرجال. إن كوهن العجوز مثلا، كان مجرد رجل قذر العقل، إلا أن شفتيه كانتا، رغم ذلك، مبللتين دوما بالنبيذ، وأنا أحب ذلك. كان يدفعنى إلى احترامه، إذ كان رجلا، إلا أن بورسواردن عاملنى كما يعامل الأوانى الصينية الثمينة، كان خائفا أن يهشمنى، مثل ميراث ثمين. كم هو جميل أن يحس المرء بالراحة ذات مرة»!

* * *

[٨]

دار العام على أعقابه، عبر شتاء عاصف، الصقيع فيه أحد من الشجن، لا يكاد يمدنا بالاستعداد لاستقبال ذلك الصيف الرائع الأخير، والذى تلا الربيع فى عجلة شديدة. جاء هذا الصيف، يتثنى، كأنما هو قادم من خط عرض طال نسيانه، كان أول ما حُلم به فى عدن، وأعيد اكتشافه ثانية، بمعجزة، بين أفكار الجنس البشرى الهاجعة. لقد رسا علينا رسو سفينة ثلجية البياض شهيرة، من سفن العقل، لتسقط مرساتها أمام المدينة، وأشرعتها البيضاء مفرودة مثل أجنحة طائر من طيور البحر آه! إننى أتصيد المجاز الذى يمكن أن ينقل شيئا من السعادة المؤثرة والتى نادرا ما ينعم بها على هؤلاء العشاق. إلا أن الكلمات، والتى ابتدعت أول ما ابتدعت فى مواجهة اليأس، تبدو فجة للغاية حتى إنها لا تعكس، بقدر عميق، خصائص شىء ما فى سلام مع ذاته، خصائص امرئ ما مع ذاته. إن الكلمات ما هى إلا مرايا ضجرنا ومللنا لا غير، إنها تحتوى كل البيض الهائل الحجم، لأحزان العالم، والذى لم يفرخ بعد، مالم تكن أكثر بساطة حتى يمكن ترديدها همسا من بعض السطور المنزوعة من قصيدة يونانية، كتبت ذات مرة، فى ظل شراع، فوق رأس بر ظمآن، فى بيزنطة، شىء ما يقول:

خبز أسود، مياه صافية، سماء زرقاء

نحر ساكن أبيض ليس له نظير
الرغبة انطوت فوق الرغبة
العينان أغلقتا فى رقة فوق العينين
الأهداب ترتعش، والأبدان عارية

لكنها سيئة باللغة الإنجليزية، وما لم يسمعها المرء باليونانية تنثال فى رقة، كلمة بعد كلمة، من فم أليف يخصه، هرسته قبلات التحبب المسرفة، فإن السطور سوف تظل دوما، صورا فقدت، فى بساطة، سحر الحقيقة التى تتجاوز مجال رؤية الشاعر ومداها، إننى حزين أن يظل كل ذلك الريش الرائع لهذا الصيف، أبعد من أن يمسك به ـ إذ عمر المرء وقد تقدم، لن يكون فيه إلا القليل من مثل تلك الذكريات التى سوف يقيم عليها سعادة تتسم بالأسف والندم، هل يمكن للذاكرة أن تمسك بها ـ بذلك النمط من الأيام التى لا نظير لها ـ إننى أتساءل حائرا؟ تمسك بالظلال البنفسجية الكثيفة للشراع البيضاء، بما تحت أسطح أشجار التين المقببة كالمصابيح فى الظهيرة المكفهرة، بما فوق الطرق الصحراوية الشهيرة حيث تسير قوافل التوابل وتستلقى الكثبان أرضا بعيدا عن السماء، تمسك فى نومها وهى غائبة عن الوعى، بصوت طبول أجنحة النورس وهى تتحول إلى رذاذ؟ أم بالضربات الباردة الأشبه بضربات السوط، ضربات المياه وهى تسحق نفسها فوق الكرانيش الساقطة لجزر منسية؟ بضباب الليل الهابط فوق مرافق مهجورة وخطوط حدود المد العربية القديمة على الشاطئ وهى تبين فى أصابع متآكلة؟ إن مجمل هذه الأشياء سيظل بالتأكيد باقيا، فى مكان ما. ليس هنالك من أماكن عامرة بعد. اليوم يلى اليوم فوق نتيجة(*) الرغبة، كل ليلة تنقلب فى نومها لتبدل الظلام، تغسلنا ثانية فى ضوء الشمس البديع. كل شىء يتواطأ ليكون الأمر كما نحتاجه.

(*) النتيجة هنا بمعنى التقويم السنوى للأيام والشهور ـ المترجم.

ليس من العسير الكتابة عن هذا الانتقال فى الزمن، أن تعرف أن كل هذا قد حدث بالفعل، قد نظم ورتب على هذا النسق أو ذاك. لقد كان هذا، كما يمكن القول، مجرد «حدث جرى» ـ مجرد مسرح للإعلان والظهور. إلا أن السيناريو قد أعد بالفعل فى مكان ما، وتم اختيار الممثلين، وروجع التوقيت مرارا حتى آخر التفاصيل فى عقل هذا المؤلف الخفى ـ والذى ربما يثبت أنه لم يكن غير المدينة ذاتها: الإسكندرية بمنزلتها الإنسانية. إن بذور أحداث المستقبل محمولة فى ذواتنا. إنها داخلنا، تنتشر طبقا لقوانين طبيعتها الخاصة. إننى أعرف أنه من العسير على المرء أن يصدق عندما يفكر فى كمال ذلك الصيف وماتلاه.

كان هنالك الكثير مما يثير الاهتمام باكتشاف الجزيرة! كيف راغت منا هكذا لوقت طويل؟

لم يكن هنالك، حرفيا، ركن واحد من هذا الساحل لم نعرفه، ولا شاطئ لم نسع إليه، ولا مرسى لم نستخدمه. ومع ذلك، فإنها كانت هنالك تحملق فى وجوهنا «إن أردت أن تخفى شيئا» يقول المثل العربى «فأخفه فى عين الشمس». إنها ترقد غير مخفية البتة، إلى الغرب، بصورة ما، من مقام سيدى العجمى الصغير، المنحدر الأبيض والنتوء الثلجى للضريح، وهما يبرزان من تيه أشجار النخيل وشجيرات التين. كانت، فى بساطة، قطعة من الجرانيت محمولة على الأعناق، دفع بها زلزال من قاع البحر، أو انتفاضة ما تحت سطح البحر، فى الماضى البعيد. كانت تغمرها المياه بالطبع عندما يرتفع البحر. إلا أنها ظلت هنالك، للغرابة، غير محددة فوق خرائط الإدميرالية، إذ إنها تشكل خطرا حقيقيا على زورق متوسط الغاطس.

كانت كليا هى أول من اكتشف جزيرة ناروز الصغيرة. «من أين نبتت هذه الجزيرة؟» ـ تساءلت فى دهشة ـ كان معصمها البنى يؤرجح ذراع

دفة القارب الشراعى بقوة ليحملنا إلى جانبها البعيد عن الريح. كانت كتلة الجرانيت الكبيرة، طويلة بما يكفى لتشكل مصدا للرياح. كانت دائرة من مياه زرقاء ساكنة وسط حركة المد والجزر التى تمشط المنطقة. كان فى جانبها الأيمن، ناحية الأرض، حرف «ن» محفورا بطريقة خشنة فى الصخر فوق حلقة حديدية عتيقة متآكلة، بها مرساة كالحة لدعمها وتقويتها، حتى تخدم كمرسى آمن للمراكب. من السخف أن يتحدث المرء عن التقدم نحو الشاطئ، إذ إن الشاطئ كان مكونا من شريط ضيق، من حصى أبيض باهر، لا يزيد اتساعه عن اتساع مدفأة: «نعم، إنها، إنها جزيرة ناروز»، صاحت وهى تطير فرحة وبهجة بهذا الاكتشاف ـ إذ إنها وجدت، هنا، أخيرا، مكانا يمكنها أن تنغمس فيه كلية فى ممارسة مزاجها فى الخلوة. هنا يمكن للمرء أن يكون على حدة مثل طائر من طيور البحر. كان الشاطئ متجها ناحية البحر. وكان فى وسع المرء أن يرى خط الساحل المتمايل كله وبه أطلال الطوابى الساحلية والكثبان الرملية الراحلة بعيدا نحو تابوزيريس العتيق. ففككنا مؤننا فى بهجة، إذ هنا كان فى وسعنا أن نستحم عرايا، ونأخذ حمام شمس يبعث فينا المسرة حتى أعماق قلوبنا دون أن يقطع أحد علينا خلوتنا.

هنا كان أخو نسيم الغريب المتوحد يقضى وقته فى الصيد. «لقد كنت أتساءل دوما، أين يمكن أن تكون جزيرته تلك؟ لقد اعتقدت أنها ربما تكون ناحية الغرب بعد أبى الصير. إن نسيم لم يستطع إخبارنا إلا أنه كان يعرف أن هنالك بركة صخرية عميقة بها حطام سفينة».

«هنالك «ن» منحوته هنا». صفقت كليا بيديها فرحة. أخذت تخلع رداء الاستحمام، «إننى لعلى يقين من ذلك. لقد قال نسيم: إنه ظل لشهور، فى معركة، يبارز سمكة ما كبيرة لم يستطع تحديد نوعها. كان ذلك عندما أعطانى بندقية الصيد بالحربة التى يمتلكها ناروز أليس ذلك غريبا؟ لقد

حملتها دوما، فى صندوقها، فى لفافة من مشمع. كنت أعتقد أننى سوف أصطاد بها شيئا يوما ما. إلا أنها ثقيلة للغاية حتى إننى لا أستطيع استخدامها تحت الماء».

«أى نوع من الأسماك كانت تلك السمكة؟».

«إننى لا أعرف».

إلا أنها تسلقت عائدة إلى القارب الشراعى وأخرجت اللفة الضخمة التى كان هذا السلاح الفريد ملفوفا فيها. كانت اختراعا قبيح المنظر، بندقية تعمل بالهواء المضغوط ولا أكثر، ذات دبشك مجوف. كانت تطلق حربة من صلب رفيع إلى مسافة تصل إلى المتر ونصف. لقد صنعت له خصيصا فى ألمانيا طبقا للمواصفات. كانت تبدو مميتة بما يكفى لقتل سمكة كبيرة.

«إنها تبدو بشعة المنظر إلى حد ما».

«يجب أن نحاول استخدامها».

«إنها ثقيلة جدا بالنسبة إلىّ، ربما تستطيع أنت ذلك. لقد وجدت أن الماسورة تعوقنى فى المياه. لم أستطع حملها بطريقة صحيحة. إلا أنه كان هدافا ماهرا، اصطاد العديد من الأسماك الكبيرة، كما قال نسيم، إلا أنه كانت هنالك واحدة كبيرة للغاية، نادرا ما كانت تظهر. ظل يراقبها، ينتظرها، فى كمين شهورا عديدة. لقد أطلق عليها العديد من الطلقات، إلا أنها كانت تخطئها على الدوام. آمل ألا تكون من أسماك القرش؛ إننى أخافها».

«لا يوجد الكثير منها فى البحر المتوسط، إنها هنالك فى البحر الأحمر، حيث تجدينها فى أعداد كبيرة».

«إننى، على أى حال، أرقب حولى بعين يقظة».

كانت، كما رأيت، آلة ثقيلة جدا لسحبها تحت الماء، بالإضافة إلى أننى لم أكن مهتما بصيد السمك. ولذا قمت بلفها ووضعها ثانية فى صندوق الزورق الفسيح. رقدت هى هنالك عارية فى ضوء الشمس، ناعسة مثل فقمة، تدخن سيجارة قبل أن تبدأ مزيدا من الاستكشاف. كانت البركة الصخرية تتوهج تحت قاعدة القارب اللامعة مثل زمردة ترتعش، وشرائط الضوء التى فى لون اللبن تخترقها فى بطء، تتلصص هابطة مثل مجسات ذهبية. كان العمق ستة أقدام، كما اعتقدت، فأخذت نفسًا عميقًا وتدحرجت تاركا جسدى يتلوى. هابطا مثل سمكة، دون استخدام ذراعىّ.

كان جمالها ساحرا فتانا، والغوص فيها أشبه بالغوص فى سرة كاتدرائية، ترشح نوافذها، الملونة الزجاج، ضوء الشمس عبر دستة من قوس قزح. كانت جوانب المدرج تنفتح تدريجيا نحو البحر العميق، كأنما نحتها فنان حزين القلب من العصر الرومانسى، إلى دستة من الدهاليز نصف المنتهية، التى تحدها التماثيل. كان بعضها كبير الشبه بمجموعة تماثيل حقيقية، حتى إننى اعتقدت، للحظة، أننى قد عثرت على لقية من الآثار القديمة. إلا أن تلك العمد التى على هيئة امرأة ملطخة كانت من صنع الأمواج، ضغطها وصبها المد والجزر، مصادفة، فى تماثيل آلهات وأقزام ومهرجين. كانت لها لحى من طحلب صخرى بحرى خفيف يتلألأ أصفر اللون وأخضره، وستائر ضحلة من عشب يتأرجح فى رشاقة مع المد والجزر، تنفرج، تنغلق، كأنما لتكشف أسرارها بطريقة موحية، ثم تغطيها ثانية. ودفعت بإصبعى عبر تلك الفروة من ورق النبات الكثيفة الزلقة لأضغط بها على وجه ديانا الضرير أو الأنف الخطافية لقزم من العصور الوسطى. كانت أرضية هذا القصر المهجور مكونة من الطين السيلينيتى اللدن، طرية عند اللمس، لكنها ليست زلقة بأى حال. أرض حمصت

إلى دستة من ألوان تتفاوت ما بين الأرجوانى والبنفسجى والذهبى. لم تكن المياه بالقرب من الجزيرة عميقة، ربما كان عمقها قامة ونصفا، إلا أن الجزيرة كانت تهبط فى انحدار، حيث يمتد الدهليز إلى البحر. كان لون حدود المياه الأكثر عمقا يتغير من الزمردى إلى خضرة التفاح، ومن الأزرق البروسى إلى الأسود، مما يوحى بعمق كبير. هنا أيضا، كان حطام السفينة التى تحدثت كليا عنها. كنت آمل أن أجد جرة أثرية رومانية أو اثنتين إلا أنها كانت قد انتهت إلى سفينة عتيقة للغاية وعرفت من انحناءة مؤخرة السفينة المتوهجة، أنها من تصميم إيجى. إنها نوع من الركوة(*) الذى كان اليونانيون يطلقون عليه اسم «تريكانديرى». كانت مدكوكة قرب مؤخرتها وقد تهشم سطحها، مليئة بحمولة مائة من إسفنج أسود حاولت العثور على العينين الملونتين على مقدم السفينة وكذا اسمها، إلا أن كل ذلك كان قد تلاشى واختفى. كان الوحل يزحف فوق أخشابها، والسرطانات المتوحدة تملأ كل شق فيها كطرف العين. لا بد أنها كانت مملوكة، كما اعتقدت، لصيادى الإسفنج القادمين من كاليمنوس، إذ إن أسطولهم كان يعبر كل عام ليصطاد عند الساحل الإفريقى، ويحمل شباكه عائدا حيث يعالج الصيد فى جزر الدوديكانيز.

اندفعت عبر السقف الآن حزمة من ضوء يعشى الأبصار، وبرق جسد كليا مفصحا عن نفسه، متجها إلى أسفل، وخصلات شعرها المتفجرة تميل إلى أعلى خلفها يدفعها اهتزاز الماء، وقد فردت ذراعيها، أمسكت بها. وأخذنا نتدحرج، ننزلق جانبا، الواحد بين ذراعى الآخر، نلعب مثل الأسماك، حتى دفعنا افتقاد الأنفاس للصعود إلى أعلى ثانية فى ضوء الشمس. أن نجلس، فى النهاية، لاهثين فى الظلال، يحملق كل منا فى الآخر فى بهجة، وقد تقطعت أنفاسه.

(*) الزورق الصغير ـ المترجم.

«يا لها من بحيرة رائعة». صفقت بيديها فرحة.

«لقد رأيت الحطام».

صعدنا عائدين إلى الشاطئ الصغير الأشبه بالمنجل، بحصاه الدافئ. قالت وشعرها المبلل يتأرجح حولها: «إننى أؤمن بفكرة أخرى، لا بد أن تكون هذه هى تيمونيوم؛ كنت أود تذكر التفاصيل بطريقة أكثر وضوحًا».

«ماذا تكون؟».

«إنهم لم يعثروا البتة على موقعها كما تعرف. إننى لعلى ثقة أن هذه لا بد أن تكون هى. أوه، دعنا نعتقد أنها هى، هل نفعل ذلك؟ لقد عاد أنطونيو مهزوما من أكتيوم؛ حيث فرت كليوباترا بأسطولها فزعة، فاتحة ثغرة فى خط معركته، تاركة إياه تحت رحمة أوكتافيوس، ليعود بعد ذلك بانهيار عصبى لا معنى له، حيث لم يكن هنالك ما يفعلانه غير انتظار الموت المؤكد بعد وصول أوكتافيوس. ولهذا بنى لنفسه صومعة فوق جزيرة صغيرة. لقد أطلق عليها اسم فيلسوف شهير، كان يتجنب الناس لكراهيتهم له وريبتهم فيه، ربما كان فيلسوفا يدعى تيمون؟ لا بد أنه كان يقضى عطلاته هنا، هنا يا دارلى. كان يستعيد الأمر كله فى عقله، تلك المرأة بسحرها وفتنتها القادرة على طرح شباكها. لقد غدت حياته حطاما! ثم مرور الإله، وكل تلك الأحداث، ونداؤه أن يقول لها وداعا، للإسكندرية، لعالم بأكمله!».

وابتسمت العينان المتلألئتان قليلا تشتاقان استنطاق عينى.

«هل تنتظرين منى القول بأنها هى؟».

«نعم».

«حسنا، إنها هى».

«قبلنى».

«إن لفمك طعم البرتقال والنبيذ».

كان الشاطئ صغيرا جدا، لا يكاد يزيد على فراش. كان غريبا أن يمارس اثنان الجنس هناك وكعبا أحدهما فى الماء الأزرق، وشمس ساخنة تشتعل فوق ظهر الآخر. وأخيرا قمنا بمحاولات عشوائية لتحديد مكان الصومعة أو أى شىء يمكن أن يتطابق وخيالها، ولكن دون جدوى. كان يرقد ناحية البحر خليط من عوائق جرانيتية ناتئة تسقط منحدرة فى الماء الأسود، وعصا غليظة تحدد منسوب مرفأ قديم، ربما لتحديد اتجاه الريح وخصائص انكسار بحر الجزيرة. كان هنالك صمت وسكون، لا نسمع غير حركة الريح الضئيلة عبر آذاننا، بعيدا كصدى صدفة ما صغيرة للغاية. نعم، كان نورس الرنجة يطير أحيانا يحوم، يحدد عمق الشاطئ مسرح عملياته المحتملة، أما غير ذلك فالأجساد ترقد، سكرى بالشمس، فى نوم عميق، وإيقاعات الدم الهادئة لا تستجيب إلا لإيقاعات البحر والسماء الأكثر عمقا. ملاذ لما يرضى الحيوان، بما تعجز الكلمات عن الإحاطة به.

ومن الغريب حقا أن يتذكر المرء أى وئام غريب أوجده البحر الذى تقاسمناه هذا الصيف الذى لا ينسى. بهجة تكاد تكون عميقة عمق رباط القبلات ـ أن ندخل إيقاع المياه معا، يستجيب الواحد منا للآخر ولعبة المد والجزر الطويلين. كانت كليا على الدوام سباحة ما هرة، وكنت أنا سباحا هزيلا، ولكن شكرا لما قضيته من وقت فى اليونان، إذ غدوت الآن خبيرا أيضا، غدوت أكثر من ند لها. لعبنا تحت الماء واستكشفنا عالم ما تحت سطح البحيرة مثل أسماك فى اليوم الخامس لخلقها. كنا نلعب باليه ماء رائعا، صامتا، يسمح لنا فقط بتبادل الابتسامات والإيماءات. إن صمت الماء قد حول كل شىء إلى حركة بشرية، حتى إننا أصبحنا مثل صورة

ملونة لحوريات الماء مرسومة فوق هذه الستائر من الصخور والأعشاب، نعكس إيقاعات الماء، نحتذيها. هنا أفنى الفكر نفسه وأبيد، متحولا إلى رضاء بلا قاع للفعل البدنى. ورأيت الصورة البراقة، مثل نجم عبر هذا الفلك وقت الشفق. كان شعرها يمشط إلى أعلى وإلى الخارج فى باقة من ألوان متموجة إلا أن الأمر لا يقف بالطبع عند ما هنا من حدود، إذ عندما تكون واقعا فى حب واحدة من مواطنى المدينة، فإن المدينة تصبح عالما بأكمله. إن جغرافيا جديدة تماما قد انبثقت عن كليا، إحياء معان قديمة، تحديد عوالم محيطة نصف منسية، تاريخ جديد يرقد مثل دفقة لون حافلة، حياة شخصية جديدة تحل محل القديمة، ذكرى المقاهى العتيقة الممتدة على واجهة البحر فى ضوء القمر البرونزى، وتنداتها المخططة ترفرف مع نسيم بحر منتصف الليل. أن يجلس المرء يتناول العشاء فى وقت متأخر حتى تطفح الكئوس بنور القمر. أن يجلس فى ظلال مئذنة أو فوق شريط رملى يضيئه وميض مصباح نفطى، أو يجمع كومات من زهور الربيع فى رأس التين، زهور بخور مريم وشقائق النعمان الرائعة، أو نقف معا فى مقابر كوم الشقافة نستنشق الفواح الرطب للظلام الذى يفور من أماكن الراحة تحت الأرضية للسكندريين الذين ماتوا منذ زمن بعيد، مدافن نحتت فى تربة سوداء كالشيكولاتة، واحد فوق الآخر، مثل سرر فى قمرة سفينة، إنها عديمة الهواء متعفنة، ورغم ذلك باردة، بصورة ما، بردا قارصا. («امسك يدى»)، كانت ترتعش، إلا أن ذلك لم يكن حينئذ بسبب ما يثيره الموت من مشاعر مسبقة، ولكن بسبب الثقل الخالص للأرض الحبلى المكومة فوقنا مترا بعد متر. إن أى كائن من أبناء ضوء الشمس لا بد أن يرتعش. ابتلع الظلام ذلك الرداء الصيفى الرائع. «دعنا نذهب من هنا، فأنا أحس البرد!». حقا، كان الجو باردا فى الأسفل هناك. إلا أن المرء يحس بالسعادة وهو يخطو مرة ثانية من الظلام إلى الحياة

الصاخبة التى تتسم بالفوضى للشارع المفتوح. إن إله الشمس لا بد أن يصعد يهز نفسه، يتحرر من قبضة ظلام التربة، يبتسم للسماء المطبوعة بالأزرق التى تجرى فيها نوبة الترحال والخلاص من الموت وتجديد حياة الكائنات عامة. نعم، إن الموتى فى كل مكان لا يمكن التهرب منهم فى يسر وسهولة، يحس المرء بهم يضغطون بأصابعهم الحزينة الكفيفة المحرومة فوق لوحات حياتنا السرية. يسألون أن يظلوا فى الذاكرة، وأن يعادوا إلى حياة الجسد ـ يقيمون بين ضربات قلوبنا، يغزون أحضاننا. إننا نحمل فى نفوسنا تلك الآثار البيولوجية التى أورثوها لنا وقد فشلوا فى استنفاد الحياة حتى آخرها ـ خط عين، تقوس أنف، صور أكثر زوالا مثل ضحكة بلا حياة لا مرئ ما، أو غمازة تظهر ابتسامة طال طمرها. إن أبسط ما فى تلك القبلات، التى نتبادلها، له فى الموت أصل ونسب. إننا نحقق فيها حبا منسيا، له معزته، يحاول أن يولد من جديد. إن جذور كل تنهيدة شوق، مدفونة فى الأرض.

ومتى يغزونا الموتى؟ إنهم يظهرون بذواتهم للعيان فى بعض الأحيان فى هذا الصباح الرائع، مثلا وكل شىء طبيعى بصورة خداعة، انطلقت من البركة، مثل صاروخ، وهى تلهث، شاحبة شحوب الموت «هنالك رجال موتى، فى أسفل البحيرة»، مما أثار فزعى! ومع ذلك، لم تكن مخطئة إذ إننى عندما استجمعت شجاعتى لأهبط بنفسى وأرى، كانوا هنالك حقيقة، سبعة منهم، يجلسون فى غبش الحوض يحيط بهم جو من الانتباه يثير الريب، وكأنهم يستمعون إلى نقاش خطير، سوف يحدد مصير كل شىء بالنسبة إليهم. إن هذا الاجتماع السرى لتلك الشخوص الصامتة، كان يشكل نصف دائرة صغيرة.

عبر المدخل الخارجى للبحيرة كانوا مربوطين فى جوالات وقد وضعت على أقدامهم أثقال كالرصاص، حتى إنهم يقفون الآن منتصبين،

كقطع شطرنج فى حجم بشرى. لقد رأى المرء تماثيل، فى مثل هذه الحال، ترحل فوق سيارة نقل عبر المدينة، محمولة إلى متحف إقليمى كئيب. كانوا قابعين، على نحو ما، دون وجوه، يستجيبون للوصلات التى تربطهم. وقفوا رغم ذلك فى إحجام يرفرفون فى رقة مثل أشخاص فى الأفلام الأولى الصامتة.

إنهم، على ما يبدو، بحارة يونانيون، كانوا يسبحون إلى جوار سفينتهم الحربية عندما انفجرت شحنة أعماق، بسبب حادثة ما، فقتلتهم فى الحال صدمتها. إن أبدانهم غير المميزة، والتى تلمع مثل أسماك الماكريل، قد جمعت بجهد كالحصاد فى شبكة سفينة طوربيد عتيقة، ليمددوا فوق ظهر السفينة يقطرون ماء، حتى يجفوا قبل الدفن، ثم قذف بهم من فوق السطح ثانية وهم فى زى البحارة الجنائزى التقليدى، ليأتى بهم المد والجزر بحركته المجعدة، إلى جزيرة ناروز.

قد يبدو غريبا أن يصف المرء كيف اعتدنا، فى سرعة شديدة، هؤلاء الزوار الصامتين للبحيرة لقد استطعنا خلال أيام أن نريحهم، أن نضعهم فى مكان خاص بهم، كنا نسبح فيما بينهم حتى نصل إلى المياه الخارجية كنا ننحنى فى تحية تهكمية لرءوسهم المائلة فى انتباه.

لم يكن ذلك سخرية بالموت، لكنه كان؛ لأنهم غدوا ودودين حالمين، رموزا تعبر بصدق عن المكان، هؤلاء الأشخاص الصابرين المثابرين. إن أكياس قماش القنب السميكة لم تظهر هى أو الحبال المتينة التى كانت تربطهم أى دلائل على التآكل. كان يغطيها، على عكس ذلك، الطل الفضى الكثيف كالزئبق، والذى يجمعه على الدوام قماش القنب، الذى لا ينفذ منه شىء، عندما يغمس فى الماء. تبادلنا الحديث مرة أو مرتين حول مطالبة السلطات البحرية اليونانية بنقلهم إلى مياه أعمق، إلا أننى كنت أعرف من

خبرتى الطويلة أنهم لن يتعاونوا فى ذلك. إن نحن حاولنا معهم. أسقطنا الموضوع باتفاق مشترك خيل لى، ذات مرة، أننى رأيت سمكة من أسماك السلور تتحرك فيما بينهم، إلا أننى لا بد كنت مخطئا، بل إننا فكرنا فى أن نطلق عليهم أسماء، إلا أن الفكرة أوقفت لأنهم، بالضرورة، لهم أسماؤهم الخاصة، تلك الأسماء السخيفة للسفسطائيين والقادة العسكريين القدامى أمثال أناكسيماندر، بلاتو، ألكسندر.

وهكذا سار هذا الصيف الساحر، بأيامه السائرة قدما تلفحها الشمس الحارقة طويلا، نحو نهايته، دون نذر. حدث، كما أعتقد، أن قتل ماسكيلين أثناء هجمة للخروج من حصار فى الصحراء، فى نهاية الخريف، إلا أن ذلك الحديث مر دون أن يترك صدى فى نفسى، كانت هنالك مادة محدودة للغاية عنه فى عقلى، باعتباره شخصية حية. كان الأمر الغامض، حقيقة، أن أجد تلفورد جالسا إلى مكتبه، بعد ظهر أحد الأيام، أحمر العينين، يكرر وهو يعصر يديه الورديتين معا، وقد سحق وتحطم: «لقد فعلها البريجادير العجوز المسكين». كان من العسير أن أعرف ماذا علىّ أن أقول. استمر تلفورد وفى صوته نوع من الحيرة المفككة المحببة: «ليس له من أحد فى هذا العالم، هل تعرف ماذا فعل؟ لقد قدم اسمى باعتبارى أقرب أقربائه». كان متأثرا للغاية بهذا الدليل على الصداقة. أخذ، على أى حال، يطلع على ممتلكاته الشخصية فى وقار كئيب. كان الميراث ضئيلا للغاية باستثناء القليل من الملابس المدنية غير المناسبة حجمًا. والعديد من ميداليات ونجوم الحملات، وحساب ائتمانى بخمسة عشر جنيها فى فرع بنك اللويدز الواقع فى طريق توتنهام كورت. كان أكثر ما أثار اهتمامى من آثار هى تلك المحتواة فى جراب جلدى صغير ـ دفتر معاش بال، وشهادة تسريح مكتوبة على رق تعود إلى جده. إن القصة التى يحكيانها تفصح عن تاريخ يندرج ضمن تقليد ما. لقد التحق صبى ـ مزرعة

سوفولك، والمنسى الآن، التحق عام ١٨٦١ ببورى سانت ادموندز خدم فى حرس «الكولد ستريم» اثنين وثلاثين عاما إذ سُرح عام ١٨٩٣. تزوج أثناء خدمته فى كنيسة برج لندن الصغيرة، حيث أنجبت له زوجته ابنتين. كان هنالك صورة شاحبة أخذت له أثناء عودته من مصر عام ١٨٨٢. إنه يظهر فيها مرتديا خوذة بيضاء إسفنجية وسترة حمراء وسروالا صوفيا خشنا أزرق اللون وطماقا جلديا رشيقا أسود، وأحزمة متقاطعة جرى تلميعها. وكانت مثبتة إلى صدره ميدالية الحرب المصرية، قطعة فضية بشريط عليها معركة التل الكبير ونجمة الخديو، ولم يكن مسجلا بين الممتلكات أى شىء يشير إلى والد ماسكيلين.

«إنها لمأساة»، قال تلفورد الصغير بطريقة عاطفية، «إن ملفيس لم تستطع، عندما أخبرتها، أن تكف عن البكاء. لقد قابلته مرتين فقط. إن ذلك ليوضح مدى التأثير الذى يمكن أن يتركه رجل متين الخلق، كان دوما الرجل النبيل الكامل، إنه البريج».

إلا أننى كنت أتأمل الشخص الشاحب الباهت فى الصورة الفوتوغرافية بعينيه المتجهمتين وشاربه الثقيل، والأحزمة المتقاطعة اللامعة وميداليات الحملات. كان يبدو وكأن هذه الصورة الفوتوغرافية تلقى بالضوء على صورة ماسكيلين ذاته. إنها تضفى عليه وضوحا أكثر. أليست، كما تساءلت، قصة نجاح، نجاح تام متكامل فى إطار النمط الرسمى لشىء أكبر من حياة الفرد، لتقليد ما؟ إننى أشك أن ماسكيلين نفسه كان يبغى وقوع الأمور على نحو آخر. هنالك، فى كل ميتة، بذرة لشىء ما، يمكن للمرء أن يتعلمه. ومع ذلك فإن مغادرة ماسكيلين الهادئة لم تترك إلا أثرا ضئيلا فى مشاعرى، رغم أننى فعلت ما فى وسعى لمواساة تلفورد البائس. إلا أن خطوط مد وجزر حياتى كانت قد بدأت الآن تشدنى فى قوة، وبصورة غير مرئية، نحو مستقبل لا يمكن التكهن به. حقا، إنه فى هذا الخريف

الجميل، بوابل أوراقه البنية النحاسية التى تتساقط فى زخات من الشجر فى الحدائق العامة، غدت كليا أمرا يثير قلقى. هل حدث ذلك، إحقاقا للحق، لأنها سمعت البكاء؟ إننى لا أعرف. إنها لم تعترف بذلك صراحة البتة. لقد حاولت أنا نفسى تصور سماعى لها، فى بعض الأوقات، هذه الصرخة الواهنة لطفل صغير أو حيوان أليف أغلق الباب عليه لمنعه من الدخول، إلا أننى عرفت أننى لم أسمع شيئا، لا شىء على الإطلاق يمكن للمرء، بالطبع، أن ينظر إلى ذلك بطريقة واقعية، وتصنيفه فى إطار الأحداث الطبيعية التى يهذبها الزمن ويجددها طبقا لنزواته الخاصة. أعنى أن الحب يمكن أن يذوى مثل أى نبات آخر. ربما كانت تتهاوى بعيدا عن الحب؟ ولكن حتى يمكن تسجيل الطريقة التى أنهت بها علاقتها بالحب فإننى أحس باضطرارى إلى تقديم الأمر على أنه شىء آخر. وهو أمر ربما يبدو محالا كتفقد مكتب تجارى. إنها قوة ما تنشط فى منطقة غير مألوفة فيما وراء آفاق التخيل العادى. إن البداية، على أى حال كانت حاسمة محددة مثل تاريخ فوق جدار أبيض. كانت فى الرابع عشر من نوفمبر، قبل الفجر تماما. كنا معا طوال اليوم السابق، نتسكع فى المدينة، نتبادل القيل والقال ونتسوق. كانت قد ابتاعت بعض قطع موسيقى البيان، واشتريت لها هدية، عطرا جديدا من بازار العطور (شممت فجأة فى نفس اللحظة التى استيقظت فيها، ورأيتها واقفة، أو بالأحرى جاثمة إلى جوار النافذة، رائحة العطر فى معصمى، والذى كان قد دهن بعينات من الزجاجات ذات السدادات). كان المطر قد هطل فى تلك الليلة، وهدهد حفيفه الممتع نومنا. وكنا قد قرأنا، على ضوء الشموع، قبل أن ننام.

لكنها كانت تقف الآن إلى جوار النافذة تستمع. كان جسدها كله متصلبا فى وضع تساؤل يقظ حاد إلى حد يوحى بأنها تعانى شبه أزمة خوف من شر مرتقب. كان رأسها قد استدار قليلا إلى جانب، كأنما تقدم

أذنها إلى النافذة الخالية من الستائر، والذى يوجد وراءها، على نحو معتم بعض الشيء، فجر غسله المطر وقد بدأ يبزغ فوق أسطح المدينة. إلام تستمع؟ إننى لم أر مثل هذه الحالة من قبل. ناديتها، فأدارت نحوى، لأمد قصير وبصبر نافد، وجها ذاهلا لا يرى. وكأن صوتى قد مزق غشاء تركيزها الرقيق. صرخت، عندما جلست، فى صوت عميق مختنق أوه، كلا، وصفقت براحتيها فوق أذنيها، وسقطت ترتعد فوق ركبتيها، كأن طلقة رصاص قد أطلقت عبر رأسها. سمعت طقطقة عظامها وهى تتدلى جاثمة وقد التوت ملامحها مقطبة. كانت راحتاها مثبتتين فوق أذنيها بقوة شديدة حتى إننى لم أستطع إزاحتهما، وعندما حاولت رفعها من معصميها سقطت، فى بساطة، مرة أخرى إلى ركبتيها فوق السجادة، وقد أغلقت عينيها مثل معتوه فقد عقله.

«كليا، ما الذى جرى؟» ظللنا لفترة طويلة راكعين معا، وأنا فى حيرة كبرى، عيناها مغلقتان فى إحكام. أحس الريح الباردة تصب من النافذة إلى داخل الحجرة. الصمت باستثناء صرخاتنا، مطبق. تنهدت أخيرا تنهيدة استرخاء عميقة. شهقت نفسا طويلا. حلت يديها عن أذنيها. مددت أطرافها فى بطء كأنما ترخيها فى تشنج عضلى مؤقت مؤلم. هزت رأسها كأنما تقول لى: أن ليس هنالك من شىء. سارت تترنح مثل ثمل إلى الحمام حيث بدت مريضة للغاية. فى المغسل وقفت أنا هنالك كالسائر فى نومه، أحس كأن جذورى قد اجتثت. عادت أخيرا، تصعد الفراش وقد أدارت وجهها للحائط.

«ما الأمر يا كليا؟» سألتها ثانية وأنا أشعر بأنى أحمق لحوح. انتفض كتفاها قليلا تحت يدى، واصطكت أسنانها قليلا من البرد.

«لا شىء، حقا لا شىء. صداع مفاجئ يفلق الرأس لكنه انتهى، دعنى أنم الآن، هل ستفعل ذلك؟».

استيقظت مبكرة فى الصباح، لتعد الإفطار. بدت شاحبة بطريقة شاذة ذلك الشحوب الذى يعقب ألما طويلا ممضا فى الأسنان. كانت تشكو من إحساسها بالفتور والإرهاق.

«لقد أثرت خوفى الليلة الماضية»، قلت. إلا أنها لم تجب. انصرفت بطريقة مراوغة عن الموضع، وفى عينيها قلق وضيق. طلبت أن تمكن من قضاء اليوم بمفردها ترسم. غادرت أتمشى طويلا عبر المدينة، تزعجنى أفكار لم تتشكل تماما بعد، ونذر عجزت، على نحو ما، عن تبينها. كان يوما جميلا، البحر العالى يعدو ركضا والأمواج تضرب الصخور الناتئة مثل مكابس آلة هائلة، سحابات كثيفة من رذاذ تندفع بقوة عاليا فى الجو مثل انفجار بقاليل عملاقة لتعود تسقط فى زبد يئز على قمة الموجة التالية. وقفت أرقب المنظر مدة من الزمن طويلة، أحس الريح تجذب طرف معطفى والرذاذ البارد فوق وجنتى. أعتقد أننى أدركت أنه بدءا من هذه النقطة ومستقبلا، فإن كل شىء قد تغير بطريقة غامضة. لقد دخلنا، إن جاز القول، فلكا جديدا من المشاعر سوف يغير علاقتنا.

يتحدث المرء عن التغيير، إلا أن شيئا من ذلك التغيير لم يحدث فجأة، متماسكا، قاطعا. كلا، لقد جرى التحول فى بطء نسبى، يتزايد ويتناقص، مثل المد والجزر، يتقدم مرة، ويتراجع أخرى. كانت هنالك أوقات، أسابيع كاملة، نعود فيها كلية إلى ما كنا عليه فى الماضى، نجدد أوقات السعادة المفرطة القديمة بطريقة حادة أولدها الشعور بافتقاد الأمان. كنا نعود ثانية، لفترة من الوقت، يحقق الواحد منا ذاته تماما فى الآخر. لا ننفصل ولا نفترق. لقد انقشعت الغمة. إننى أقول لنفسى الآن ـ دون أن أعرف على أى أساس ـ إن تلك كانت مراحل طويلة من الوقت لم تكن تسمع فيه البكاء الذى وصفته، منذ وقت بعيد، على أنه صوت ناقة تعانى الضيق أو لعبة ما آلية بشعة. ولكن ماذا يمكن أن يعنى هذا الهراء، حقيقة،

لأى أحد ـ كيف يمكن أن يفسر تلك الفترات الأخرى التى كانت تسقط فيها فى الصمت والكآبة، والتى تغدو فيها نسخة أخرى، حادة الطبع من ذاتها القديمة؟ إننى لا أعرف. إننى أعرف فقط أن هذه الشخصية الجديدة كانت عرضة الآن لفترات طويلة من الصمت والذهول، ولإحساس غير عادى بالإرهاق. إنها ربما تسقط، مثلا، نائمة فوق أريكة فى منتصف حفل ما وتبدأ فى الشخير، كأنما قهرها الإرهاق بعد سهر طويل للغاية. وبدأ الأرق أيضا يلعب دوره، وعادت إلى جرعات كبيرة نسبيا من الباربيتال(*) تبحث عن خلاص منه. كانت تدخن حقا، بكثافة شديدة.

«من هى هذه الشخصية العصبية التى لا أعرفها؟»، تساءل بلتازار فى حيرة ذات مساء عندما قصفت رأسه إثر ملحة تافهة ثم غادرت الحجرة وهى تصفق الباب فى وجهى.

قلت: «هنالك خطأ ما». نظر إلىّ، للحظة، من فوق عود ثقاب مشتعل تساءل: «إنها ليست حبلى؟» هززت رأسى: «أعتقد أنها قد بدأت تضيق بى حقا». كلفنى ذلك جهدا حتى أخرج الكلمات. إلا أنه كانت لهذه الكلمات فضيلة تقديم شىء ما، كتفسير معقول لهذه الحالات النفسية، مالم يكن على المرء تفضيل الاعتقاد بأنها تتآكل من مخاوف خافية.

«الصبر»، قال، «إذ لم يكن هنالك البتة ما يكفى من تلك المشاعر».

«إننى أفكر جادا، فى الابتعاد فترة من الزمن».

«قد تكون تلك فكرة طيبة. ولكن ليس لفترة طويلة جدا».

«سوف أرى».

(*) عقار منوم ـ المترجم.

كنت فى بعض الأحيان أحاول، بطريقتى الحمقاء، جس مصادر هذا القلق الكئيب بإبداء ملاحظة مزعجة: «لماذا، يا كليا، تنظرين دوما من فوق كتفيك ـ إلام تنظرين؟».

إلا أن ذلك كان خطأ قاتلا. كان رد فعلها، دوما، هو سوء الخلق أو الهياج، وكأننى، بكل إشارة إلى اضطرابها مهما كانت مستترة، إنما أسخر منها بطريقة ما. كان مفزعا أن يرى المرء كيف يقتم وجهها فى سرعة، وشفتاها مضمومتان. كان الأمر وكأنى قد حاولت وضع يدى على كنز سرى، تقوم هى على حراسته بحياتها.

كانت أحيانا تغدو عصبية بصورة خاصة. حدث ذات مرة، ونحن نغادر السينما، أن أحسست بها تتصلب فى ذراعى. أدرت عينى فى اتجاه نظرتها. كانت تحملق فزعة فى رجل عجوز بوجهه جرح غائر. كان إسكافيا يونانيا أصيب أثناء غارة جوية إصابات متعددة. كنا نعرفه جميعا، بالنظر، معرفة جيدة. وكان أماريل قد عالجه حقا على قدر استطاعته. هززت ذراعها فى رقة أطمئنها، وبدت فجأة وكأنها تعود إلى يقظتها. انتصبت قامتها بغتة وقالت: «تعال، دعنا نذهب من هنا». ارتعدت ارتعادة خفيفة واستعجلتنى أن نبتعد.

كنت عندما أبدى، فى أحيان أخرى، دون أن أكون حذرا، تلميحا ما عن قلقها الداخلى ـ عن هذا الجو المجنون عن الاستماع دوما لشىء ما ـ كانت العواصف والاتهامات التى تلى ذلك توحى بجدية وصدق تشخيصى ـ تحديدا أنها تعمل على إبعادى.

«إننى لا أصلح لك يا دارلى. إننا منذ صرنا معا، لم تكتب سطرا واحدا. ليس لديك خطط للمستقبل. إنك لا تكاد تقرأ شيئا».

كم كانت عيناها الرائعتان عابستين، وقلقتين أيضا! واضطررت، على

أى حال، إلى الضحك. كنت، حقيقة، أعرف الآن أو اعتقدت أننى أعرف، أننى لن أكون البتة كاتبا. إن كل ما كان يحفزنى لائتمان العالم والثقة به، بهذه الطريقة، قد خبا، مزقت أحشاؤه. إن فكرة العالم الصغير من الورق والطباعة، العالم المشاكس، قد غدت، عند تأملها، فكرة شاقة غير محتملة، ومع ذاك فإننى لم أكن حزينا وأنا أحس أن الباعث قد هجرنى. كنت، على نقيض ذلك، مليئا بإحساس التخفف، التخفف من قيد تلك الأشكال التى غدت قاصرة تماما، كأداة لنقل حقيقة المشاعر.

«كليا، يا عزيزتى»، قلت وأنا أبتسم ابتسامة عقيمة، راغبا، رغم ذلك، وبطريقة ما، فى مواجهة هذا الاتهام وفى تطييب خاطرها. «لقد كنت أفكر بالفعل فى كتاب نقدى».

«النقد!» رددت فى حدة، وكأن الكلمة كانت إهانة لها. لطمتنى بقوة فى فمى، لطمة دفعت بالدموع إلى عينى، وقطعت الجزء الداخلى من شفتى فى مواجهة أسنانى. انسحبت إلى الحمام أمسح فمى حيث كان فى وسعى أن أتذوق طعم الدم الملحى. كان ممتعا أن أرى أسنانى وقد حدد الدم معالمها. كنت أشبه بغول تناول لتوه ملء فيه من جسد ضحيته الدامى. غسلت فمى وأنا فى حالة من الغضب الشديد. جاءت إلى الحمام لتجلس فوق «البيديه» يملؤها شعور باللوم والتأنيب.

«أرجوك أن تسامحنى»، قالت. «إننى لا أدرى أى دافع حل بى. دارلى، أرجو أن تسامحنى».

قلت وأنا عابس متجهم: «عرض آخر كهذا الذى حدث، ولسوف أعطيك لطمة بين هاتين العينين الجميلتين، لطمة سوف تتذكرينها على الدوام».

«إننى آسفة». ووضعت ذراعيها حول كتفى من الخلف وقبلت رقبتى.

كان الدم قد توقف. قلت لصورتها فى المرآة: «ما خطبك بحق الشيطان؟ ما الذى حل بنا هذه الأيام؟ إننا نبتعد عن بعضنا البعض يا كليا».

«إننى أعرف ذلك».

«لمـاذا؟».

«لا أعرف». إلا أن وجهها اكتسى بالعناد ثانية. جلست على «البيديه» ملست بيدها على ذقنها مفكرة، غرقت فجأة، فى خواطرها مرة أخرى أشعلت سيجارة، عادت إلى غرفة المعيشة. عندما عدت، كانت تجلس صامته أمام لوحة زيتية تحملق فيها فى ثبات شرير خال من الانتباه.

«يجب علينا كما أعتقد أن نفترق مدة من الزمن»، قلت.

«إن شئت»، بقبقت بطريقة آلية.

ثم بدأت فجأة فى الصراخ، قالت: «أوه، كف عن استجوابى. إن كان فى الإمكان فقط أن تكف عن سؤالى، سؤالا بعد الآخر كأننى، هذه الأيام، فى محكمة».

«حسنا جدا»، قلت.

كان ذلك واحدا فقط من مثل تلك المشاهد العديدة. بدا واضحا أن غيابى عن المدينة كان هو السبيل الوحيد لتحريرها؛ لإعطائها الزمان والمكان المناسبين لـ... لماذا؟ إننى لا أعرف، واعتقدت فيما بعد، فى الشتاء، أنها قد بدأت تعانى من ارتفاع محدود فى درجة الحرارة فى المساء. وجلب ذلك علىّ مشهدا عنيفا آخر، عندما طلبت من بلتازار أن يقوم بفحصها، واستسلمت لسماعة الطبيب، بهدوء نسبى، رغم غضبها. ولم يجد فيها بلتازار أى خلل بدنى، باستثناء أن سرعة نبضها قد زادت، وأصبح ضغطها أعلى من الوضع الطبيعى. إلا أنها، على أى حال، تجاهلت

إرشاداته عن المنبهات والمنعشات كانت قد غدت فى هذا الوقت، أكثر نحافة.

استطعت أخيرا بعد عملية مداورة صابرة أن أنبش عن وظيفة صغيرة، أناسبها، وكانت هى، على نحو ما، مناسبة للوقع العام للأمور - إذ إننى لم أكن أتصور انفصالى عن كليا انفصالا نهائيا، إنه شىء ما له طبيعة الانقطاع. كان، فى بساطة، انسحابا مخططا لشهور قليلة لأفسح مكانا لقرارات، أبعد نظرا، يمكن لها أن تتخذها. كانت هنالك عوامل جديدة أيضا، إذ بانتهاء الحرب، غدت أوروبا متاحة، فى بطء، مرة أخرى. هنالك أفق جديد ينفتح خلف خطوط المعركة. شىء ما كاد المرء أن يتوقف عن الحلم به، الشكل المبهم لأوروبا وقد سوتها بالأرض مطارق قاذفات القنابل، يعذبها الجوع والقلق والاستياء. ومع ذلك، فإنها ما زالت هنالك، وهكذا أخبرتها عن رحيلى دون أسى أو كآبة - ولكن كقرار واقعى يجب عليها أن ترحب به لصالحها. إلا أن الطريقة التى نطقت بها، وهى تشهق كلمة «بعيدا» قد أوحت للحظة قصيرة أنها، ربما كانت، رغم كل شىء خائفة أن تترك بمفردها «إنك، رغم كل شىء، سوف تذهب بعيدا».

«لشهور قليلة إنهم يبنون محطة للتحويل فى الجزيرة، وهنالك حاجة لشخص يعرف المكان، يتحدث اللغة المحلية».

«عودة إلى الجزيرة»، قالت فى رقة - وهنا لم يكن فى مقدورى أن أتبين ما فى صوتها من معنى أو ما فى فكرها من تصميم.

«لشهور قليلة فقط».

«حسنا جدا».

«سارت جيئة وذهابا فوق السجادة تحملق إلى أسفل فيها، فى تفكير عميق، وفى جو من الحيرة والارتباك. رفعت عينيها فجأة تنظر إلى بتعبير

رقيق عرفت فيه، فى غصة، مزيجا من تأنيب الضمير والحنان لهذا الأسى الواقع علينا دون قصد أو عمد. كان ذلك هو وجه كليا القديمة. إلا أننى كنت أعرف أنه لن يدوم، وأن ظل استيائها وسخطها سوف يلقى بنفسه ثانية فوق علاقتنا. لم يكن هنالك مجال لأثق فى نفسى، مرة أخرى، فى شىء لم يثبت إلا لفترة قصيرة. «أوه دارلى»، قالت وهى تمسك بيدى: «متى تذهب يا عزيزى؟».

«خلال أسبوعين. وأنا أقترح، لحين ذلك، ألا أراك البتة. ليس هنالك ما يدعو إلى أن يضايق الواحد منا الآخر بهذه المشاحنات».

«كما تشاء».

«سوف أكتب إليك».

«نعم، بالطبع».

كانت طريقة غريبة فاترة للفراق بعد مثل تلك العلاقة التى كان لها شأنها. أصاب مشاعرنا نوع من الخدر الشبحى. كان فى داخلى نوع من الألم العميق، إلا أنه لم يكن أسفا. إن التصافح الخامد خمود الموت الذى تبادلناه لم يكن غير تعبير عن استنفاد غريب وحقيقى للروح. جلست فى المقعد تدخن فى سكون وتراقبنى وأنا أجمع حاجياتى معًا. وأنا أحشوها فى المحفظة القديمة البالية، التى استعرتها من تلفورد، ونسيت ردها إليه فى الصيف الماضى. كانت فرشة الأسنان قد تفلطحت فألقيت بها بعيدا، وكانت مناماتى ممزقة عند الكتف، إلا أن النصف التحتى، والذى لم أكن أستخدمه البتة، كان لا يزال متغضنا وجديدا. جمعت تلك الحاجيات كما يفرز الجيولوجى عينات من عصر ناء وبعيد. بعض الكتب والأوراق. بدا الأمر كله نوعا من الأمور غير الحقيقية، إلا أننى لا أستطيع القول: إن أى شعور بالأسف العميق قد اختلط به.

«كم جعلتنا هذه الحرب مسنين مبتذلين». قالت فجأة كأنما تخاطب نفسها: «كان يمكن للمرء فى الأيام الماضية أن يفكر فى الابتعاد حتى يهرب من نفسه، كما كنا نقول، ولكن الهروب من.....».

أدرك الآن، وأنا أكتب هذه الكلمات، بكل ما فيها من ابتذال مرهق، أنها كانت تحاول حقا أن تقول وداعا. إنها فاجعة الرغبات البشرية. كان المستقبل، بالنسبة لى، مفتوحا غير ملتزم بوعد أو عهد. لم يكن فيه جزء واحد لا أستطيع حينئذ تخيله دون أن يحتوى كليا. بصورة ما، كان هذا الفراق... حسنا، كان فقط مثل تغيير الأربطة حتى يندمل الجرح. كنت عديم البصيرة، فلم أستطع التفكير بشكل محدد فى المستقبل الذى يمكن أن يلقى على كاهلى بمطالب غير متوقعة، بأشياء يمكن أن تكون جديدة تمام الجدة، يجب أن تترك مثل تلك الأمور لتشكل نفسها طبقا لما فيه الحاضر من فراغ. أما عن كليا، فقد كان المستقبل بالنسبة لها مسدودا، كان يمثل بالفعل حوارا خاليا من كل شىء. كانت المخلوقة المسكينة خائفة!

«حسنا، ذلك هو كل شىء»، قلت أخيرا، واقفا بالمحفظة تحت ذراعى، «إن كان هنالك ما تبتغينه، فما عليك إلا أن تدقى جرس الهاتف لى سوف أكون فى مسكنى».

«إننى أعرف ذلك».

«سأبتعد إذن لفترة. وداعًا».

سمعتها، وأنا أغلق باب الشقة الصغيرة. تنادى اسمى مرة، إلا أن ذلك كان، مرة أخرى، واحدا من تلك الأمور المخادعة، من تلك النوبات المحدودة التى تتسم بالشفقة والحنان، والتى تخدع المرء. كان من الحمق أن أعطى أى التفات أو انتباه، أن أرتد على عقبى وأفتح جولة جديدة من

الخلافات والنزاعات. هبطت السلم، مصمما على أن أدع للمستقبل كل فرصة حتى يلملم جراحه.

كان يوما ربيعيا مشمسا رائعا، تبدو فيه الشوارع وقد غسلتها الألوان كان الشعور بعدم وجود مكان يذهب المرء إليه أو وجود أى شىء يفعله، محبطا ومنعشًا. عدت إلى مسكنى فوجدت على رف المدفأة خطابا من بومبال يقول فيه: إنه من المحتمل أن يصل قريبا إلى إيطاليا، وأنه غير قادر على الحفاظ على الشقة مستقبلا. أبهجنى ذلك النبأ، إذ أنه يمكنني من إنهاء عقد الإيجار، الذى لن أكون قادرا على دفع نصيبى فيه قريبا. كان الأمر غريبا، إلى حد ما، فى البداية، بل ربما كان المرء فيه مخدرا إلى حد ما، أن أترك وشأنى كلية، إلا أننى سرعان ما اعتدت هذا الوضع. كما كان هنالك، بالإضافة إلى ذلك، قدر كبير حقا من العمل يجب إنجازه، بتصفية واجباتى فى الأعمال الرقابية، وتسليم مهام منصبى إلى من يخلفنى، بينما أقوم فى ذات الوقت، بجمع المعلومات العملية عن وحدة صغيرة من الفنيين تقوم بإنشاء محطة للإذاعة. كان علىّ أن أكون مشغولا للغاية بين هاتين الإدارتين باحتياجاتهما المختلفة. واحتفظت خلال تلك الأيام بكلمتى ألا أرى كليا. مضى الوقت فى نوع من الحبس يتقاذفه عالم الرغبة وعالم الوداع، رغم أنه لم تكن هنالك أية عواطف محددة، بصورة واضحة لى تمام الوضوح، لم أكن شاعرا بأسف أو شوق أو حنين.

ثم حدث أن حل أخيرا ذلك اليوم القاتل، قدم نفسه متنكرا تحت ابتسامة شمس ربيع ساطعة، حارة بما يكفى لتشجيع الذباب كى يتكاثر فوق زجاج النافذة. كان طنينه هو الذى أيقظنى. كان ضوء الشمس ينثال فى الحجرة، وللحظة بهر عينى حتى إننى تعرفت فى صعوبة على الشخص المبتسم الجالس عند موضع القدمين فى فراشى، فى انتظار أن أفتح عينى. كانت كليا فى نسخة أصلية منسية من صورها، إن جاز القول، ترتدى جلبابا

صيفيا رائعا أشبه بكرمة عنب متموجة، وصندل أبيض، وقد نسق شعرها بطريقة جديدة. كانت تدخن سيجارة يعلق دخانها فى حلقات رائعة رمادية مجزعة فى ضوء الشمس فوقنا، وكان وجهها الباسم مسترخيا ليس به ظل لأى شىء يشغل بالها. حملقت فيها، إذ إنها بدت لى بدقة، وبصورة جلية كليا التى يجب أن أتذكرها دوما. كان الحنان الذى يتسم بالشقاوة قد عاد ثانية إلى عينيها.

«حسنا»، قلت فى دهشة ناعسة «ماذا....؟» وأحسست بأنفاسها الدافئة فوق وجنتى وقد مالت لتعانقنى.

«دارلى»، قالت «لقد عرفت فجأة أنك مغادر غدا، وأن اليوم هو مُولد السكوب. لم أستطع مقاومة فكرة قضاء اليوم معا، وأن نزور الضريح هذا المساء أو قل إنك ستفعل ذلك. انظر إلى الشمس الساطعة. إنها دافئة بما يكفى للسياحة، كما يمكننا أن نصطحب بلتازار معنا».

لم أكن قد استيقظت تماما. كنت قد نسيت عيد القديس القرصان.

«إلا أن عيد القديس سانت جورج قد مضى منذ زمن طويل»، قلت. «إنه بالتأكيد فى نهاية إبريل».

«على العكس، إذ إن طريقتهم المركبة فى حساب التقويم القمرى، قد حولته إلى عيد متحرك، مثله فى ذلك مثل كل الآخرين. إنه ينزلق الآن إلى أعلى وإلى أسفل مثل قديس محلى. إن بلتازار، فى الحقيقة، هو الذى حدثنى بالهاتف أمس وأخبرنى به، وإلا كان المولد قد فاتنى». ثم صمتت لتنفخ سيجارتها. «يجب ألا يفوتنا. أليس كذلك؟»، أضافت فى قليل من التشوق ـ

«بالطبع يجب ألا يفوتنا! كم كان طيبا منك أن تحضرى».

«والجزيرة، ربما يكون فى وسعك الحضور معنا؟».

كانت الساعة قد بلغت العاشرة بالضبط. كان فى وسعى، فى سهولة، أن أتصل هاتفيا بتلفورد؛ لأقدم له عذرا عن غيابى اليوم، وقفز قلبى.

«إننى أحب ذلك، «قلت» كيف حال الريح؟».

«هادئة كراهبة، مع تدفق شرقى. إنها، كما يمكن أن أقول، مثالية بالنسبة للزورق. هل أنت متأكد من رغبتك فى الذهاب معنا؟».

كان معها دامجانة(*) تغلفها الأغصان المجدولة وسلة. «سوف أذهب لإعداد ما يلزمنا من مؤن، على أن ترتدى ثيابك وتقابلنى عند نادى اليخت خلال ساعة».

«حسنا». إن هذا سوف يمنحنى فسحة من وقت لزيارة مكتبى وفحص البريد اليومى. «إنها فكرة رائعة».

كانت الفكرة، فى الحقيقة، رائعة. كان اليوم صافيا يوحى بحرارة صيفية فيما بعد الظهر. وأخذت أخب فى الكورنيش الكبير، أتأمل غبش الأفق الخفيف وامتداد البحر الأزرق الساجى فى بهجة. كانت المدينة تتلألأ فى ضوء الشمس مثل جوهرة الزوارق الصغيرة رائعة، وقد ألقت مراسيها فى الحوض الداخلى، وصورها الممسوخة فى انعكاساتها البراقة. المآذن تزعق فى صوت عال والحرارة فى الحى العربى قد أنجبت الروائح المعتادة، للطين الآخذ فى الجفاف والأشبه بالجيفة، للقرنفل والياسمين، لعرق الحيوان والبرسيم، وأقزام داكنى اللون، فى شارع التتويج، فوق سلالم، وقد ارتدوا قبعات قرمزية كأوانى الزهور، يشدون حبال أعلام من الشرفات. أحسست بدفء الشمس فوق أصابعى. عبرنا أمام الموقع

(*) قارورة كبيرة ضخمة ضيقة الرقبة ـ المترجم.

الفرعونى القديم الذى تغص المناطق الضحلة بقطعه المهمشة. إن توبى مانرينج، كما أتذكر، قد أراد ذات مرة أن يبدأ تجارة عاديات. يبيع تلك الكسر الفرعونية كثقالات للورق. كان على سكوبى أن يكسرها له بشاكوش، وكان عليه هو أن يسلمها لباعة التجزئة فى كل أنحاء العالم. لماذا خاب هذا المشروع؟ إننى لا أتذكر ذلك ربما وجد سكوبى أن العمل شاق للغاية؟ أو ربما تداخل مع ذلك المشروع الآخر لبيع مياه نهر الأردن إلى القبط بسعر تنافسى؟ هنالك فى مكان ما، فرق عسكرية تثير ضوضاء عالية.

كانا هنالك فى انتظارى أسفل عند الرصيف. طوح بلتازار عصاه فى مرح. كان يرتدى سروالا وصندلا أبيض وقميصا ملونا، ويعبث فى قبعة بنمية(*) عتيقة مائلة إلى الصفرة.

«اليوم الأول من الصيف»، ناديت فى بهجة.

«إنك مخطئ». قال فى صوت كالنقيق. «انظر إلى هذه الغبشة. إنه بالفعل يوم حار تماما. لقد راهنت كليا على ألف قرش أن عاصفة رعدية سوف تهب فيما بعد الظهر».

«إن لديه دوما شيئا يقوله»، ابتسمت كليا.

«إننى أعرف إسكندريتى»، قال بلتازار.

شرعنا فى طريقنا وسط تلك المسرات العابثة، وقد جلست كليا عند ذراع دفة زورقها الصغير بالكاد. كانت هنالك نسمة ريح داخل الميناء. أخذت تبحر فى بطء، بصورة ما، تلملم طريقها فقط بزخم الأمواج التى كانت تميل ناحية مدخل الميناء. سرنا متلصصين بين البوارج الحربية

(*) نسبة إلى بنها ـ المترجم.

وسفن نقل الركاب، نقاوم تلاطم أمواج القناة الرئيسية فى تردد وإحجام. لم يكن الإبحار الرئيسى قد اقترب بعد، حتى بلغنا فى النهاية أخلاط الطوابى الرمادية التى تحدد المدخل الرئيسى للميناء. يوجد هنا، دوما كمية من المياه المتلاطمة كدسها المد والجزر. غصنا، تعرجنا، بالزورق فترة حتى ترنح فجأة واتخذ مساره فوق الريح واستقر صاريه الأمامى. أخذنا نئز فى البحر مثل السمك الطيار، كأن الزورق مقدم على اقتحام أحد النجوم كالخازوق. استلقيت بين الألواح، أحملق إلى أعلى فى الشمس الساطعة الذهبية عبر الأشرعة، أسمع ثرثرة المويجات عند مقدم السفينة الرشيق. كان بلتازار يطن بلحن ما. رقد معصم كليا البنى فوق ذراع الدفة فى إهمال رقيق خداع. وتوترت الأشرعة. تلك هى متع الإبحار فى زورق صغير عبر طقس مثالى. إنها تسمو بالقلب. أمسكت بى فرحة صامتة، خليط من النعم التى تولدها الشمس الدافئة والريح السريعة واللمسات الباردة الخفيفة للرذاذ الذى يصطدم بوجناتنا من وقت لآخر. ذهبنا بعيدا فى اتجاه شرقى حتى نتمكن من التوجه نحو الشاطئ. إننا، وحتى الآن، قد قمنا بهذه المناورة كثيرا حتى إنها غدت مزاجا ثانيا لكليا، أن تبحر إلى جزيرة ناروز الصغيرة، وأن تحدد بدقة اللحظة المناسبة، التى عليها أن تستدير فيها فى عين الريح وتتمهل، ليرفرف الشراع مثل رمش العين، فأطويه، وأدفع به نحو الشواطئ مسرعا.

«عمـل متقـن حقـا»، قال بلتازار مستحسنا بينما يخطو فى الماء ثم، «يا إلهى، إنه دفء خيالى تمامًا».

«ماذا قلت لك؟»، قالت كليا وهى مشغولة بصندوق القارب.

«إن ذلك يثبت صحة ما قلت عن العاصفة الرعدية».

وجاءت فى تلك اللحظة، وللغرابة الشديدة، قعقعة الرعد الواضحة من تلك السماء الخالية من السحب.

«هناك»، قال بلتازار فى انتصار، «سوف تتشبع بالماء تشبعا جيدا، كما أنك سوف تكونين مدينة لى ببعض النقود يا كليا».

«سوف نرى».

«إنها بطارية ساحلية»، قلت أنا.

«سخف وهراء»، قال بلتازار.

وهكذا أمنّا الزورق وحملنا مؤننا إلى الشاطئ. رقد بلتازار على ظهره واضعا قبعته فوق أنفه وهو فى أكثر حالاته مرحا. إنه لا ينزل البحر، يبدى عدم مبالاته بالسباحة. غطست أنا وكليا مرة أخرى فى البحيرة المألوفة لنا والتى أهملناها طوال الشتاء. لا شىء تغير. الديدبانات ما زالت هنالك، متجمعين فى نقاش صامت. كان مد الشتاء وجزره قد غيرا بعض الشىء من ترتيبهم، بحيث تجمعوا أقرب قليلا إلى الحطام. حييناهم ساخرين وإن كان فى احترام، ونحن نتعرف، فى تلك اللمحات القديمة وابتسامات ما تحت الماء، على سعادة اعتدناها. تنمو مع صفاء الاستحمام معا، مرة أخرى كان الأمر وكأن الدم قد بدأ جريانه ثانية فى عروق طال وهنها، من عدم استخدامها. أمسكت بها من كعبها وأدرتها فى شقلبة طويلة نحو البحارة الموتى. استدارت فى مهارة لترد لى دينى بالصعود خلفى، تدفعنى من كتفى إلى أسفل وتتسلق إلى أعلى قبل أن أرد على فعلتها بمثلها. إنه هنا، وهى تصعد نحو السطح بطريقة لولبية عبر الماء وشعرها يتلوى خلفها، عادت صورة كليا ثانية. لقد أعادها الزمن، كاملة وصحيحة، مرة أخرى، طبيعية مثل آلهة فنون المدينة رمادية العينين، كما يمكن أن نقتبس

من الشعر اليونانى. إن أصابعها، تحديدا، والتى ضغطت بها فوق كتفى، قد بعثتها من جديد، فى سرعة، بينما تنزلق عبر البركة الصامتة.

ثم نجلس ثانية بعد ذلك فى ضوء الشمس الخالص، نرشف نبيذ القديس متياس الأحمر، بينما تكسر هى رغيفا دافئا بنيا من الخبز الفرنسى وتبحث عن نوع بذاته من الجبن وعنقود بلح، بينما يتحدث بلتازار بطريقة استطرادية (وهو نصف نائم) عن كرمة آمون، ملوك مملكة الحراب ومعاركهم، أو عن نبيذ مريوط، الذى عزى إليه هوراس النمام، وليس التاريخ، اضطراب كليوباترا العقلى.... «ويقر التاريخ كل شىء، ويعفو عن كل شىء ـ حتى تلك الأشياء التى لا نغفرها نحن أنفسنا».

جاءت الظهيرة الدافئة ونحن نرقد هنالك فوق حصى ساخن: أخيرا، ولفرحة بلتازار الهائلة وخيبة كليا؛ ظهرت العاصفة الرعدية المتنبأ بها، تبشر بها سحابة رعدية تتدحرج من الشرق لتقع فوق المدينة كالكدمة فى المساء. وفجأة أيضا ـ كما تفعل سمكة الحبار عندما تحس الخطر فتنفخ ما فى كيسها لتحيل الماء الصافى إلى سحابة سوداء ـ انساب المطر فى صفائح براقة، وخار الرعد فى لجاجة وإلحاح. بلتازار يصفق بيديه فرحا مع كل هزيم وقصف؛ ليس فقط لإثبات صحة نبوءته، ولكن أيضا لأننا كنا نجلس هنا فى ضوء الشمس الساطع، نحس الراحة تماما، نأكل البرتقال ونشرب النبيذ إلى جوار بحر أزرق هادئ.

«كف عن الصياح كالغراب»، قالت كليا فى حدة.

كانت هذه واحدة من تلك العواصف الأشبه بالنزوات، والتى تنتشر فى باكورة الربيع، بما فيه من تغيرات فى درجة الحرارة يولدها البحر والصحراء. كانت تحيل الشوراع، فى لمح البصر إلى سيول جارفة، ورغم

ذلك فإنها لا تدوم أبدا أكثر من نصف الساعة. وفجأة تدفع بقية من ريح تلك السحابة بعيدا، لتختفى كلية.

قال بلتازار ثملا بتحقيق نبوءته «أصغيا إلىّ الآن. إننا ما إن نعود إلى الميناء حتى يكون كل شىء جافا ثانية، جافا مثل عظمة من العظام».

جاء ما بعد الظهر ومعه ظاهرة أخرى بعثت البهجة فى نفوسنا؛ شىء ما يندر رؤيته فى الصيف فى مياه الإسكندرية، ينتمى إلى تلك الأيام التى تسبق عواصف الشتاء، عندما يتساقط الزجاج حادا. أظلمت مياه البركة بصورة واضحة، تخثرت، ثم غدت مضيئة متألقة. كانت كليا هى التى لاحظت ذلك أولا.

«انظر»، صاحت فى فرحة، دافعة كعبيها فى المياه الضحلة، تراقب شرارة الضوء المتلألئة القارصة الصاعدة منها. «فسفور!».

بدأ بلتازار يقول شيئا عن الكائن الذى يسبب هذه الظاهرة، إلا أننا لم نلتفت إليه وغطسنا، جنبا إلى جنب، متجهين إلى أسفل فى المياه. تحولنا إلى شخوص من لهب. كانت الشرارات تبرق من أطراف أصابع أيدينا وأقدامنا تشع بكهربة إستاتيكية. السابح تحت الماء يبدو لمن يراه مثل صورة رسمت لسقوط إبليس بالتحديد فوق النار. كانت طقطقة الكهرباء واضحة حتى إننا لم نستطع أن نمنع إحساسنا بالحيرة. كيف أننا لم نصطل بها. لعبنا، نتألق مثل نجوم مذنبة، بين البحارة الساكنين، والذين جلسوا يراقبوننا بأفكارهم، يرددون فى وهن اختلاج المد والجزر فى أكياسهم المصنوعة من الخيش.

«السحابة تنقشع بالفعل»، صاح بلتازار عندما عدت أخيرا إلى السطح كى أستنشق بعض الهواء. التألق المضىء الشارد سرعان ما يتناقص

ويتلاشى. كان لسبب، أو آخر، قد صعد إلى مؤخرة الزورق، ربما إلى مكان أعلى، أكثر ارتفاعا وأكثر سهولة لرؤية العاصفة الرعدية فوق المدينة.

أرحت ساعدى فوق حافة الزورق وأخذت نفسى. كان قد فض أربطة بندقية الرمح القديمة، بندقية ناروز، وكان يمسك بها فى إهمال فوق ركبته. خرجت كليا إلى السطح فى رنة فرحة. ظلت صامتة فترة طويلة لتصيح: «النار جميلة للغاية». أثنت جسدها الرشيق المياس وغطست ثانية إلى أسفل.

«ماذا تفعل بتلك؟» تساءلت فى حمق.

«أرى كيف تعمل؟».

كان فى الحقيقة، قد دفع بالحربة لتستقر فى الماسورة. أغلق عليها الزنبرك.

قلت: «الزناد مرفوع، خذ حذرك».

«نعم سوف أطلقه».

مال بلتازار إلى الأمام. نطق الملحوظة الوحيدة الجادة بين كل ما صدر عنه طوال ذلك اليوم.

«أنت تعرف»، قال «إننى أعتقد أنه من الأفضل أخذها معك. إن لدىّ إحساسا أنك لن تعود ثانية إلى الإسكندرية خذ كليا معك!».

ثم، وقبل أن أجيب، وقعت الحادثة؛ كان يعبث فى البندقية بينما كان يتكلم. انزلقت من بين أصابعه. سقطت فى صدمة شديدة. خبطت الماسورة حافة الزورق على بعد ست بوصات من وجهى سمعت، وأنا أتراجع وقد أحسست بالخطر، الأزيز المفاجئ لضاغط الهواء الذى يشبه

صوت الكوبرا، والخنة الثقيلة لانطلاق الزناد. صفر الرمح فى الماء إلى جانبى، يخشخش حبله الأخضر الطويل خلفه «من أجل خاطر المسيح»، قلت. تحول لون بلتازار إلى الشحوب انزعاجا وإحساسا بالخطر. كان ما نطقه من اعتذارات مجتزءا وتعبيرات الدهشة الفزعة واضحة بليغة: «آسف شديد الأسف». كنت قد سمعت التكة الخفيفة للصلب وقد استقرت فى هدف ما فى مكان ما، هنالك أسفل فى البحيرة. وقفنا متجمدين مدة ثانية، إذ بزغ شىء آخر فى ذات الوقت فى عقلينا عندما رأيت شفتيه وقد بدأتا تتخذان شكل الكلمة، «كليا» ـ أحسست بظلمة تهبط على روحى ـ ظلمة ارتفعت وانتقضت عند الأطراف، ودفعة مثل زفزفة أجنحة عملاق. استدرت بالفعل قبل أن ينطق الكلمة اندفعت فى الماء.

مرة أخرى، أتتبع الحبل الأخضر الطويل بكل قلق وحيرة أريادن(*)، يضاف إلى ذلك كل البطء الذى لا يصدر إلا عن خشية القلب الحزين. كنت أعرف، بعقلى، أننى أسبح بعزم وقوة، ورغم ذلك بدا الأمر مثل واحد من تلك الأفلام البطيئة الحركة، حيث تبطئ آلة التصوير الأفعال البشرية وتطيلها بطريقة لينة ملساء إلى مالا نهاية، ملفوفة مثل الحلوى. كم عدد السنوات الضوئية التى يستغرقها المرء حتى يصل إلى نهاية ذلك الحبل؟ ماذا سأجد عند نهايته؟ غصت إلى أسفل، إلى أسفل فى الوميض المتألق المتناقص، من برودة البحيرة العميقة بظلالها.

استطعت أن أتبين، عند النهاية البعيدة، قرب الحطام، حركة متكورة متشنجة، واستطعت أن أتعرف فى غير وضوح على هيئة كليا وشكلها. كانت تبدو منهمكة، عن عمد، بلعبة طفولية تحت الماء، من ذلك النوع الذى غالبا ما كنا نلعبه معًا. كانت تجذب بعنف شيئا ما، وقد دفعت بقدميها

(*) ابنة مينوس التى أعطت تيسيوس الحبل وبذلك هرب من التيه ـ المترجم.

إلى خشب الحطام، تشد وترخى جسدها. أحسست بموجة من الراحة، رغم أن الحبل الأخضر كان يقود إليها، إذ ربما تحاول فقط تخليص الرمح وحمله إلى السطح معها. ولكن كلا، إذ كانت تتدحرج كالسكرى. انزلقت إلى جانبها مثل ثعبان الماء، أتحسس بيدى. أدارت رأسها عندما أحست بى قربها، كأنما تريد أن تخبرنى بشىء ما أعاق شعرها الطويل رؤيتى. لم أستطع قراءة ما ارتسم على وجهها من ألم يائس. لا بد أنه كان مسطورا فوقه ـ إذ إن المياه تحول كل تعبيرات الملامح البشرية إلى الجهامة الخرقاء الجاحظة لسمك الحبار. إلا أنها تقوست الآن، دفعت برأسها إلى الوراء فانساب شعرها من فروة رأسها فى حرية إلى أعلى، حركة تصدر عن امرئ، يفتح رداء ليعرض جرحا ورأيت. كان الرمح المصنوع من الصلب قد اخترق يدها اليمنى ومسمرها فى الحطام، إنه لم يمر، على الأقل بجسدها. صرخ عقلى مرتاحا باحثا عما يواسيه إلا أن الشعور بالراحة تحول إلى يأس سقيم خبيث عندما أمسكت بالسهم الصلب ودفعت قدمى فى مواجهة الخشب، أجذب بقوة حتى طقطقت عضلات فخذى. إنه لا يتحرك قيد أنملة. (كلا، إن كل ذلك لم يكن غير جزء من حلم لا معقول، ربما صنع فى العقول الميتة للشخوص السبع المتأملة، والتى ترعى بعناية شديدة، وتدقيق شديد، الحركات والمناورات التى تحتاج إلى جهد مرهق، والتى نقوم بعرضها الآن. إننا لم نعد حُرين أو سريعى الحركة كالأسماك. إننا الآن مرتبكان مفلطحان، مثل جراد بحر وقد سقط فى شراك إناء). ناضلت بجنون، ذلك الشهم الصلب، وأنا أرى بركن عينى، السلسلة الطويلة من الفقاقيع البيضاء المندفعة من حلق كليا. أحسست بعضلاتها تتمدد، تتناقص قدرتها كانت تستقر تدريجيا فى وسن الماء الأزرق، وقد غزاها الماء الذى أصاب البحارة بالخمود بالفعل، وأنامهم. وهززتها. إننى لا أستطيع الزعم بأن أى شىء تلا ذلك

كان يرجع إلى إرادتى - إذ إن الغضب المجنون الذى سيطر علىّ لم يكن البتة واحدا من المشاعر التى عرفتها كمشاعر تنتمى إلى ذاتى الحقيقية. لقد تجاوزت، فى ضراوة عمياء عنيفة، أى شىء أحسسته، على الإطلاق، من قبل. أحسست وأنا فى هذا الحلم الغريب الأبدى تحت الماء أن عقلى يرن جرس إنذار سيارة إسعاف، يزيل الجزر والمد الخامد الواهن لظلمة البحر. لقد نخسنى فجأة مهماز الرعب الحاد. كان الأمر وكأنى أواجه نفسى لأول مرة، أو ربما تشكلت ذات أخرى لرجل عمل لم أعرفه فى نفسى من قبل. انطلقت إلى السطح ثانية، بدفعة واحدة وحشية، لأظهر تحت أنف بلتازار مباشرة.

«السكين»، قلت وأنا أمتص الهواء.

حملقت عيناه فى عينى، كأنما ينظر إلىّ من فوق قارة ما غارقة، فى تعبير شفوق فزع ومشاعر مكنونة، متحفزة، منذ زمن جليدى للذاكرة البشرية. بدأ، وقد أمسك به خوف فطرى، يتهته كل الأسئلة التى غزت عقله، كلمات مثل «ماذا»، «أين»، «متى»، «أى مكان»(*). إلا أن العى أصابه فلم ينطق غير الحرفين الأولين. إنها طريقة للسؤال غائمة تطفح بالكرب والألم المبرح. كانت السكينة التى تذكرتها سونكيًا إيطاليا، جلخ حتى غدا فى حجم الخنجر، وسن حتى غدا فى حدة الموسى. كان «على» النوتى قد صنعه متباهيا به. كان يستخدمه فى تشذيب الحبال، فى أعمال الربط والتجهيز. تعلقت هنالك مدة ثانية، بينما سعى هو لإحضاره، وقد أغلقت عينى ورئتىّ، كما يبدو، تنهلان الجوكله، ثم أحسست بالجزء الخشبى من الخنجر فى أصابعى، فأدرت أصابع قدمى نحو المساء دون

(*) What, Where, When, Whither - وتبدأ كلها فى الأصل الإنجليزى بـ wh وهما الحرفان اللذان استطاع نطقهما (المترجم).

أن أتجاسر على النظر مرة أخرى إلى بلتازار، وعدت أقتفى آثارى، أتتبع الحبل الأخضر.

كانت معلقة رخوة مسترخية، تتمدد مترهلة، بينما شعرها الطويل ينبسط خلفها، والأمواج تتماوج على جسدها وخلاله، بدت كأنها موجة كهربية تتلاعب. كان كل شيء ساكنا، ودوائر ضوء الشمس الفضية الأشبه بالعملات تلمع رقطاء فى أرض البحيرة، والمراقبون الصامتون، التماثيل التى تتحرك ذقونها فى بطء، تتمايل فى لين إلى الأمام والخلف عندما بدأت أحز عند يدها. كنت، عقليا أعد مكانا خاليا فسيحا فى خاطرى لموتها مكانًا كبيرًا أشبه بقارة صغيرة، لم تكتشف بعد، فى خرائط العقل. لم يمض وقت طويل للغاية قبل أن أشعر بجسدها ينفصل تحت ثقل هذه العقوبة المريرة. أقتمت المياه. أسقطت السكين وبدفعة قوية أرسلتها تترنح بعيدا عن الحطام: أمسكت بها من تحت الذراعين، وهكذا صعدنا. بدا وكأن الأمر قد استغرق حقبة من الزمان، ودقات قلب مطردة لا نهائية، فى ذلك العالم بطىء الحركة. ومع ذلك، فإننا ارتطمنا بالسماء فى ارتجاج أفرغ ما فى جوفى من أنفاس، وكأنى قد شققت جمجمتى فى سقف الكون وقفت فى المياه الضحلة أدحرج كتلة جسدها المخضلة بالدماء. سمعت صوت أسنان بلتازار تنحطم وقد سقطت فى الزورق. عندما قفز إلى الماء بجانبى. لهثنا، نخرنا كالخنازير، كالعاملين فى شحن السفن وتفريغها حتى أخرجناها فوق الحصى. حبا بلتازار، فى تلك الأثناء، ليمسك بهذه اليد المصابة الدامية كان أشبه بكهربائى يحاول أن يقبض على سلك عالى الجهد. كان قد أفلت من موضعه ويعزله. ما إن أمسكها حتى تعلق بها كما يعلق المرء برذيلة ما. بدت أمامى، فجأة، صورة طفل صغير تعلق، فى عصبية، بيد أمه وسط زحام من أطفال آخرين، أو بينما يعبر حديقة حيث قام الصبية ذات يوم بإلقاء الحجارة عليه... وقذف عبر

لثته الوردية كلمة «دوبارة» ـ وكان فى صندوق الزورق، لحسن الحظ، ما يمكن أن يحقق حاجته.

«لكنها ماتت»، قلت وأثرت الكلمة فى دقات قلبى فبدلتها حتى أحسست أنى أوشك على الإغماء. كانت ترقد كطائر بحر سقط فوق بقعة الحصى الصغيرة. كان بلتازار يكاد يجلس القرفصاء فى الماء ممسكا، فى حالة من الجنون، بيدها التى ما كان فى وسعى احتمال النظر إليها، ولكن، مرة ثانية، جاء صوت هذه الذات المتغيرة المجهولة من بعد سحيق، ليعاوننى فى إعداد ضاغط للشرايين، أُلف فيه قلمًا وأناوله له. مددتها الآن وأنا ألهث. نزلت عليها بجمع كفى، أطحن بقوة فوق ظهرها، وكأن يدى قادمة من ارتفاع شاهق، أحسست أن الرئتين المشبعتين بالماء تثبان تحت هذه اللطمة الفظة القاسية. بدأت أعصرهما، فى بطء، ولكن فى عنف هائل بتلك الطريقة المثيرة للشفقة والتى تماثل، إلى حد ما، فعلا جنسيا ـ إنقاذ الحياة. ومنح الحياة. بدا بلتازار كأنما يصلى. جاءت بادرة من الأمل إذ انفتحت شفتى هذا الوجه الشاحب. وسال منهما مزيج من مياه البحر والقىء. لم يكن ذلك، بالطبع، يعنى شيئا، إلا أن كلينا صرخ لهذا البشير. أغلقت عينى وأعددت معصمى ألتمس هاتين الرئتين المحملتين بالماء ولعصرهما وتفريغهما أخذت أعلو وأهبط، أعلو وأهبط، أضخهما بهذا الإيقاع البطىء القاسى. أحسست بعظامها الرقيقة تزيق تحت يدى إلا أنها كانت لا تزال راقدة بلا حياة. لكننى ما كنت أقبل بفكرة أنها قد ماتت، رغم أنى كنت أدرك ذلك بجزء من عقلى. أحسست أننى أصر بجنون لإثبات عكس ذلك، أن ألقى جانبا، لو لزم الأمر، بما تمليه الطبيعة، وإجبارها على الحياة بفعل إرادى. أدهشتنى هذه القرارات، التى وجدت كصور واضحة محددة وراء الجهد البدنى الذى يغيب المرء عن رشده، وأنين هذا العمل وعرقه. لقد قررت، كما أدركت، إما أن أعيدها إلى الحياة أو أبقى هنالك

معها أسفل عند قاع البحيرة. ولكن من أين، من أى منطقة فى الإرادة، جاء مثل ذاك القرار، لقد عجزت عن تخمين ذلك! ارتفعت حرارة الجو فغدا حارا. كنت أتفصد عرقا. بلتازار ما زال جالسا ممسكا باليد، يد الرسامة، فى تذلل مثل طفل على ركبة أمه. كانت الدموع تنثال أسفل أنفه، ورأسه تذهب من جانب إلى آخر فى تلك الحركة اليهودية المعبرة عن ندم يائس، ولثته الخالية من الأسنان تصدر ذلك الصوت القديم إلى جوار حائط المبكى «آيى آيى»، ولكن فى رقة شديدة، كأنه يود ألا يقلقها.

أخيرا جاءت المكافأة. تفجر، فجأة مثل ميزاب تحت ضغط المطر، انفتح فمها ليقذف بكتلة من قىء وماء البحر، فتات خبز مشبع بالماء وبرتقال. حملقنا فى هذه الخلطة بفرحة طاغية، كأننا نحملق فى غنيمة نصر عظيم. أحسست بالرئتين تستجيبان فى بطء ليدى. مزيد من ضربات أخرى، من هذه الآلة الفجة، وبدت حركة تموج ثانوية تضطرب فى جهاز بدنها العضلى. كانت الرئتان تكادان، مع كل دفعة إلى أسفل، تعطيان فى تردد وألم قدرا من الماء. ثم سمعنا بعد فترة من الوقت طويلة، إجهاشة واهنة لا بد أن تلك العملية كانت تسبب الألم، كما تؤلم الأنفاس الأولى القليلة لطفل حديث الولادة. كان جسد كليا يحتج على هذا الميلاد الجديد القسرى. تحركت، على حين بغتة، تقاطيع هذا الوجه الشاحب. شكلت نفسها لتعبر عن شىء بالألم والاحتجاج (نعم إلا أنه من الموجع أن يعرف المرء).

«استمر»، صاح بلتازار فى صوت جديد، مهتز ومنتصر. لم يكن فى حاجة لإخبارى بذلك. كانت تختلج الآن قليلا. كان وجهها يبدو متشكيا، دون صوت، مع كل دفعة. بدا الأمر وكأنه بداية تشغيل آلة ديزل باردة للغاية. ومع ذلك حدثت، أخيرا، معجزة ـ فتحت عينين زرقاوين تماما، فاقدتى الإبصار، مشتتتين، مدة ثانية، لتفحص الأحجار التى أمام

أنفها بتركيز حائر، ثم أغلقتهما ثانية. كانت تقاطيعها قد أظلمت من الألم، إلا أن الألم، حتى الألم، كان انتصارا ـ إذ إنه كان، على الأقل، تعبيرا عن أحاسيس حية ـ أحاسيس حلت محل قناع الموت الشاحب: «إنها تتنفس»، قلت. «بلتازار، إنها تتنفس إنها تتنفس»، كرر الكلمات فى نوع من الطرب الأحمق. كانت تتنفس. شهقات قصيرة مترنحة مؤلمة بصورة واضحة واقترب الآن نوع آخر من العون. كنا منهمكين تماما فى هذه المهمة، فلم نتنبه إلى أن سفينة قد دخلت المرفأ الصغير. كان القارب البخارى لخفر الميناء. لقد رأونا وخمنوا أننا نواجه أمرا ما غير طبيعى. «يا الله يا رحيم»، صاح بلتازار وهو يصفق بذراعيه مثل غراب عجوز.

وجاءت أصوات إنجليزية مرحة عبر المياه تسأل إن كنا فى حاجة للمساعدة. تقدم بحاران إلى الشاطئ نحونا «سوف نعيدها فى سرعة»، قال بلتازار وهو يعبس منتفضا.

«أعطها بعض البراندى».

«كلا». قال فى حدة. «لا براندى».

أحضر البحارة، إلى الشاطئ، غطاء من المشمع لفوها فيه برقة مثل كليوباترا. لا بد أنها كانت، بالنسبة لعضلاتهم، خفيفة خفة وبر الجمال. كانت حركاتهم الرقيقة، غير الرشيقة، مؤثرة حتى إن الدموع طفرت من عينيّ: «ارفع هنالك على مهل يانوبى كن رقيقا مع السيدة الصغيرة».

«هذا الضاغط للشرايين يجب مراقبته اذهب أنت أيضا يا بلتازار».

«وأنت؟».

«سوف أعود بزورقها».

لم نضيع مزيدا من الوقت. فى لحظات قليلة أخذ الموتور القوى

للقارب يثير الضوضاء، يبحر بهم بسرعة عشر عقد. سمعت أحد البحارة يقول: «ماذا عن بعض «البوفريل» الساخن؟».

«العاصمة»، قال بلتازار. كان مشبعا بالماء حتى النخاع. كانت قبعته تعوم فى الماء إلى جوارى. تذكر، فجأة شيئا وهو يميل على مؤخرة الزورق.

«أسنانى. أحضر أسنانى».

راقبتهم مدة من الزمن وهم يختفون عن الأنظار، ورأسى بين راحتى. وجدت لدهشتى أننى أنتفض مثل جواد أفزعته صدمة ما. هاجمنى صداع يشق الرأس. صعدت إلى الزورق وأخذت أبحث عن البراندى والسجائر. كانت بندقية الصيد ترقد فوق الألواح. ألقيت بها من فوق ظهر الزورق وأنا ألعن. راقبتها وهى تزحف بطيئا إلى أسفل فى البركة. هززت شراع المقدمة وأدرت الزورق على امتداد طوله حتى هلب المؤخرة. دفته إلى الخارج حيث الرياح. أخذ ذلك منى وقتا أكثر مما كنت أقدر، إذ إن رياح المساء كانت قد انحرفت بضع نقاط. كان علىّ أن أتخذ مجرى أكثر اتساعا قبل أن أصل إلى مسار عودتى. كان «على» فى انتظارى. كان قد أخبر بالحادث بالفعل، وكان يحمل لى رسالة من بلتازار تقول: «إن كليا قد أخذت إلى المستشفى اليهودى».

أخذت «تاكسى» فور العثور عليه. عبرنا المدينة بأقصى سرعة بدت الشوارع والأبنية، ونحن نعبرها، كاللطخات. كنت قلقا مضطربا. حتى إنى رأيتها كأنما عبر زجاج شباك رصعه المطر. كان فى وسعى أن أسمع العداد وهو يتك مثل النبض فى مكان ما، فى جناح ما، يمكن أن تكون كليا راقدة الآن تشرب الدم عبر ثقب إبرة فضية، سوف يمر، قطرة، فى الوريد المتوسط مع كل دقة من دقات القلب. قلت لنفسى، ليس هنالك

ما يثير القلق، ثم ضربت بقوة، غضبا، فى جدار التاكسى المحشو، عندما فكرت فى يدها المهشمة.

تعقبت ممرضة نوبتجية عبر الممرات الطويلة الخضراء، والتى كانت جدرانها المدهونة بالزيت ترشح جوا من الرطوبة. اللمبات البيضاء تومض، تتخلل تقدمنا، تغوص فى الظلمة مثل حباحب منتفخة. فكرت متأملا فى أنهم ربما قد وضعوها فى الجناح الصغير، ذى السرير الواحد، المزود بالستائر، والذى كان يحتجز فى الماضى للحالات الحرجة، والتى كان احتمال بقائها حية ضئيلا. إنها الآن حجرة الحوادث الطارئة. كان ينمو فى أعماقى الآن إحساس بألفة الأشباح فى الماضى. جئت إلى هنا لأرى ميليسا. لا بد أن كليا ترقد فى نفس السرير الحديدى الضيق فى الركن إلى جوار الحائط (وكأن الحياة الحقيقية تقلد الفن فى هذه النقطة).

التقيت، على أى حال، بأماريل وبلتازار فى الممر واقفين، وقد ارتسم على ملامحهما تعبير غريب بالتطهر، أمام حامل متحرك أتت به إليهما للتو ممرضة نوبتجية. كان عليه عدد من صور أشعة إكس المبللة اللامعة. كان الرجلان يفحصانها فى قلق ووقار، كأنما يفكران فى مشكلة من مشاكل الشطرنج. رآنى بلتازار فاستدار وقد أضاء وجهه. «إنها بخير تماما»، قال فى صوت يكاد يكون محطما، بينما يعصر يدى. ناولته أسنانه، فاحمر خجلا، ووضعها فى جيبه. كان أماريل يرتدى نظارة قراءة ذات حواف كالقرون. استدار من دراسته التى كان منكبا عليها، لهذه الصور المتدلية والتى تسيل منها القطرات وعلى وجهه تعبير غضب جامح. «أى جحيم ملعون يجعلك تتوقع منى أن أفعل شيئا بهذا الخليط»، انفجر وهو يلوح بيده البيضاء المتعجرفة فى اتجاه صور أشعة إكس. وثارت ثائرتى لما أحسست به من اتهام ضمنى، وأخذنا، فى ثانية، نصرخ فى بعضنا البعض مثل باعة السمك، وقد امتلأت عيوننا بالدموع. أعتقد أننا كنا نوشك على

تبادل اللكمات، بسبب السخط الخالص، لولا تدخل بلتازار فيما بيننا. تلاشى للحال غضب أماريل، وسار من حول بلتازار ليعانقنى وتمتم معتذرًا.

«إنها بخير». قال مدمدما، وهو يربت على كتفى مواسيا. «لقد طببناها بطريقة آمنة».

«دع الباقى لنا». قال بلتازار.

«أود أن أراها». قلت وأنا أغبطهما ـ كأنها غدت، وقد أعدتها إلى الحياة، ملكا خاصا لى أيضا، بصورة ما. «هل أستطيع رؤيتها؟».

سمعت وأنا أدفع، أنسل فى حرص إلى الحجرة الصغيرة، أماريل يقول برما:

«إنه لمن الجيد جدا أن يتحدث المرء عن معالجة جراحية بهذه الطريقة الذلقة».

كانت الحجرة هادئة جدا وبيضاء بنوافذها الطويلة. كانت ترقد ووجهها إلى الحائط فى هذا الفراش الحديدى المتعب فوق قوارير صفراء مطاطية. كان لها رائحة الزهور، رغم أنه لم تكن هنالك زهور يمكن رؤيتها، كما أننى لم أستطع تحديد الرائحة. ربما كانت رذاذا صناعيا من رشاشة عطر لا تنسى أبدا؟ سحبت، فى هدوء مقعدا إلى جوار الفراش وجلست. كانت عيناها مفتوحتين تحملقان فى الحائط بتلك النظرة الدائخة التى توحى بتأثير المورفين والإرهاق معًا. ورغم أنه لم يبد ما يشير إلى أنها قد سمعتنى وأنا أدخل، إلا أنها قالت فجأة:

«أهذا أنت يا دارلى؟».

«نعم».

كان صوتها واضحا. تنهدت وهى تتحرك حركة خفيفة، كأنما تعبر عن ارتياحها لحضورى. «إننى سعيدة للغاية». كان فى صوتها نغمة إرهاق توحى بأنه فى مكان ما وراء قيد ألمها الحالى وتهويمها، تتحرك ثقة بالنفس جديدة. «لقد أردت أن أشكرك».

«إن أماريل هو من تحبين»، قلت وأنا أكاد أذرف الدمع. قلت ذلك بطريقة لا إرادية تماما. انفتح فجأة مصراع فى عقلى. أدركت أن هذه الحقيقة الجديدة التى أعلنها، كانت من الحقائق التى عرفتها دائما، لكن دون أن أكون واعيا بهذه المعرفة! أما وقد اتسم الأمر بهذا القدر من الحمق، فقد كان إيضاح الفرق مسألة واقعية. كان أماريل مثل كرت من أوراق اللعب موجود هنالك على الدوام، يرقد أمامى فوق المنضدة،وقد وضع وجهه إلى أسفل. كنت أحس وجوده. لكننى لم أقلب الكارت أبدا. لم يكن هنالك، كما يجب أن أضيف، أى شىء فى صوتى يتجاوز الدهشة العلمية الخالصة. كان بلا ألم، فقط يفيض تعاطفا. إننا لم نستخدم البتة، فيما بيننا، هذه الكلمة البغيضة ـ الكلمة المرادفة للتشوش والمرض. وإن كنت أستخدمها الآن عمدا، فما ذاك إلا للإشارة إلى معرفتى للطبيعة الشاملة للأمر. إنها كانت أشبه بالقول: «يا طفلتى المسكينة، أنت مصابة بالسرطان!».

قالت بعد فترة من صمت: «لقد غدا ذلك الآن فعلا ماضيا وأسفاه». كان صوتها بطيئا حائرا. «لقد كنت أقدر أنك على درجة جيدة من اللباقة، معتقدة أنك قد تعرفت عليه أثناء فترتى السورية! ألم تتعرف عليه حقا؟ لقد حولنى أماريل إلى امرأة، كما أعتقد. أوه، أليس ذلك مقززا؟ متى ننضج جميعا؟ كلا، إلا أننى محوته من قلبى. أنت تعرف ذلك. الأمر ليس

كما تتخيل، فأنا أعرف أنه ليس رجلى. لم يكن هنالك من شىء يغرينى بأن آخذ مكان سميرة. لقد أدركت ذلك وأنا أضاجعه، بالوقوع فى حبه. إن ذاك أمر غريب ومستهجن، إلا أن التجربة حالت دون أن أسىء فهم موقفه من الأخرى، كانت هى الوحيدة وإلى الأبد! رغم أن مكانته تظل مسألة يجب اكتشافها. أحس أننى لم أواجه، فعليا، المشاكل الحقيقية بعد. إنها ترقد هنالك على الجانب الآخر مما نحن فيه من مراحل. ورغم هذا الالتواء والاعوجاج، فقد كان لطيفا أن يكون المرء قربه، حتى وإن كان مسجى فوق منضدة العمليات. كيف يمكن للمرء أن يفسر حقيقة واحدة من حقائق القلب البشرى؟».

«هل أؤجل رحلتى؟».

«كلا، إننى لا أرغب فى ذلك البتة. إننا فى حاجة الآن إلى بعض الوقت أعود فيه إلى نفسى وقد تحررت من الفزع أخيرا. ذلك الذى فعلته أنت على الأقل من أجلى ـ دفعتنى، مرة أخرى، إلى قلب المجرى، وقد أقصيت التنين عنى. لقد ذهب ولن يعود ثانية. ضع يدك على كتفى واعصره بدلا من القبلة. كلا، لا تغير خططك. سوف يعتنون بى هنا جيدا كما تعرف. ولسوف نرى فيما بعد، عندما تنتهى مهمتك أليس كذلك؟ حاول أن تكتب. إننى أحس أن فترة من التوقف ربما تكون بداية مرحلة جديدة لك».

«سوف أفعل!»، إلا أننى كنت أعرف أننى لن أقدم على الكتابة.

«هنالك شىء واحد أود منك أن تفعله. أرجوك زيارة مولد السكوب الليلة، حتى يمكنك أن تخبرنى بكل شىء عنه. إنها المرة الأولى، كما ترى التى يسمحون فيها، بعد الحرب، بالإضاءة المعتادة فى هذا الحى. إنها لمتعة أن يرى المرء ذلك. إننى لا أحب أن تفوتك هذه المتعة. هل ستفعل ذلك؟».

«بالطبع».

«شكرا، يا عزيزى».

ووقَفْت هنالك. قلت بعد فترة من صمت:

«كليا، ما الذى كان يفزعك بالضبط؟».

«إلا أنها كانت قد أغلقت عينيها، وذهبت، فى نعومة، فى النوم. تحركت شفتاها، إلا أننى لم أستطع سماع إجابتها. كان هنالك أثر ضئيل للغاية لابتسامة فى ركنى فمها».

وبزغت فى رأسى عبارة لبورسواردن، «إن أغنى الحب هو ما كان خاضعا لحكم الزمن ومراجعته».

* * *

كان الوقت قد تأخر بالفعل عندما استطعت أن أكتشف، أخيرا، موضع عربة حنطور لتعيدنى إلى المدينة. وجدت فى مسكنى رسالة تقول: إن مغادرتى قد قدم موعدها ست ساعات. كان الزورق الآلى سوف يغادر عند منتصف الليل. كان حميد واقفا هنالك ساكنا تمام السكون، صابرا. كانت أمتعتى قد حملتها سيارة نقل من سيارات الجيش، فيما بعد الظهر. لم يبق هنالك من شىء أفعله غير قتل الوقت حتى الثانية عشرة، وكان علىّ أن أفعل ذلك طبقا للطريقة التى اقترحتها كليا: زيارة مولد السكوب. كان حميد لا يزال واقفا أمامى يرزح تحت ثقل فراق آخر: «إنك لن تعود، فى هذه المرة، ثانية يا سيدى»، قال وهو يطرف بعينه، ناظرا إلى بأسى. نظرت إلى الرجل الضئيل وأنا أعطف عليه. إننى أتذكركم. كان فخورا وهو يعيد من جديد الحديث عن إنقاذ واحدة من عينيه، ربماكان ذلك بسبب كونه الأصغر والأقبح. كانت أمه قد خلعت عينى شقيقه حتى تمنع تجنيده الإجبارى فى الجيش، إلا أن حميد نجا بعين واحدة بسبب نموه الناقص وقبحه. إن أخاه يعمل الآن مؤذنا أعمى فى طنطا، بينما غدا

حميد ثريا بعينه. كانت هى حظه السعيد فى العمل عند الأجانب الأثرياء الذين يدفعون أجرا طيبا.

«سوف آتى إليك فى لندن»، قال فى لهفة وأمل.

«حسنا جدا»، سوف أكتب إليك.

كان يرتدى أفضل ملابسه، بمناسبة المولد ـ العباءة، الحذاء الأحمر المصنوع من جلد مراكشى طرى، وقد وضع فى صدره منديلا نظيفا أيضا. كانت تلك الأمسية إجازته كما أتذكر. كنت وبومبال قد وفرنا مبلغا من المال نعطيه له كهدية فراق. أخذ شيك النقود بين إصبع السبابة والإبهام، محنيا رأسه فى امتنان. إلا أن ما عاد عليه من فائدة، لم يكن بقادر على إيصال البهجة إلى نفسه فى مواجهة ألم الافتراق عنا. وهكذا كرر ثانية: «سوف آتى إلى لندن». معزيا نفسه وهو يهز يديه معا بينما يقول هذه الكلمات.

«حسنا جدا». قلت للمرة الثالثة، رغم أنه يصعب أن أرى حميد الأعور فى لندن «سأكتب إليك. سوف أذهب الليلة إلى مولد السكوب».

«حسنا جدا». وهززته من أكتافه، فدفعه هذا الشعور بالألفة إلى إحناء رأسه وانسالت دمعة من عينه الضريرة لتظهر عند طرف أنفه.

«وداعا حميد»، قلت وهبطت السلم، تاركا إياه واقفا فى سكون عند القمة، كأنما هو فى انتظار إشارة ما قادمة من الفضاء الخارجى. اندفع، فجأة، ورائى ممسكا بى عند الباب الأمامى، ليدفع فى يدى، هدية فراق، كانت هى الصورة التى يعتز بها، لى ولميليسا، ونحن سائران فى شارع فؤاد فيما بعد الظهر المنسى لأحد الأيام.

* * *

[٩]

كان الحى يغط فى الظلال البنفسجية، والليل الهابط يتقدم. سماء من قطيفة ترتجف، يقطعها ضوء آلاف اللمبات الكهربية شديدة التوهج، تجثم فوق شارع التتويج مثل قشرة مخملية، تعلوها، فقط، أطراف المآذن المضيئة التى تنهض فوق جذوعها الرشيقة غير المرئية. تبدو، تتدلى معلقة فى السماء، ترتعش قليلا فى الغبشة كأنها توشك أن تمد قلانسها كالكوبرات. سرت فى تكاسل عبر تلك الشوراع أستعيد ذكراها ثانية، وأنهل (إلى الأبد: ذكريات المدينة العربية) رائحة الأقحوان المطحون، الرث، الطيب، التوت، العرق البشرى والحمام المشوى. لم يصل الموكب بعد. إنه يتشكل فى مكان ما، وراء حى المومسات، بين المقابر، ثم يشق طريقه البطىء إلى الضريح، تحكم حركته رقصة موزونة، يقف فى طريقه عند كل جامع لتتلى آية أو أكثر من الكتاب على شرف السكوب. إلا أن الجانب الدنيوى فى المهرجان كان يتأرجح تأرجحا شديدا، إذ جاء الناس، من الأزقة المظلمة، بمناضد العشاء إلى الشوارع، تضيئها الشموع وتزينها الزهور. إنهم يستطيعون، وهم جلوس هكذا، سماع قطع الأنغام الرئيسية للفتيات المغنيات، اللاتى كن يقفن بالفعل فوق المنصات الخشبية خارج المقاهى، يخترقن الليل الثقيل بألحان الربع نغم التى يغنونها. الشوارع مزينة بالأعلام، والصور الكبيرة ذات الأطر لأطباء عمليات الختان،

تتماوج عاليا بين المشاعل والعمد. رأيت، فى باحة مظلمة، من يصب السكر، أحمر وأبيض فى قوالب خشبية تخرج منها كل رموز الحيوانات والعادات المصرية ـ البط، الفرسان، الأرانب والماعز، وكذلك التماثيل الصغيرة السكرية عن فولكلور الدلتا عزيزة ويونس، العاشقين متشابكين متداخلين ـ والأبطال الملتحين مثل أبى زيد مسلحا، ممتطيا جواده، بين كتائبه. كان يبدو عليها القبح ـ وهى بالتأكيد أسخف كلمة فى لغتنا ـ بصورة بديعة، وقد صيغت بألوان رائعة قبل أن توضع عليها أرديتها الورقية، والمزوقة، ذات الترتر الذهبى، ورصت للعرض فى الأكشاك التى تبيعها، يتفرج الأطفال عليها، فاغرى الأفواه، ويشترونها. السرادقات الملونة نصبت فى الميادين الصغيرة، وكل منها عليه علامته التى تميزه.

كان المقامرون منهمكين بالفعل، أبو الفيران(*) ينادى مرحا على الزبائن، وأمامه انتصب الصندوق الكبير محمولا على حُمر خشبية، وكل من مآويه الاثنى عشر عليه رقمه واسمه، وفى الوسط وقف الفأر الحى الأبيض مدهونا بخطوط خضراء. أنت تضع نقودك على رقم أحد هذه المآوى وتكسب، إن دخل الفأر فيه وتدور نفس اللعبة فى صندوق آخر، ولكن باستخدام حمامة بدلا من الفأر فى تلك المرة. وعندما توضع كل نقود الرهان فوق أرقامها، يُلقى بملء كف من الحبوب فى الوسط، وتدخل الحمامة، وهى تأكل، أحد هذه الأكشاك الصغيرة المرقمة.

اشتريت لنفسى زوجا من تلك التماثيل الصغيرة السكرية. جلست خارج أحد المقاهى أتفرج على العرض المار أمامى فى ألوان رائعة بدائية أصيلة. كنت أود الاحتفاظ بتلك العرائس الصغيرة، إلا أننى كنت أعرف أنها سوف تتفتت أو يأكلها النمل. كانت تلك التماثيل أبناء عمومة صغار

(*) بالعربية فى حروف لاتينية ـ المترجم.

لـ قديس الإقليم(*) أو رجل الخبز المبتل(*) التى تباع فى أسواق الريف الفرنسية، والتى تماثل الرجال المطليين باللون الذهبى والمصنوعين من فطيرة النرجيل والذين انقرضوا الآن. طلبت ملعقة من المستكة لأكلها مع الشربات(*) الباردة الفوارة. كان فى وسعى، وأنا جالس عند زاوية تقع بين شارعين ضيقين، أن أرى المومسات وهن يطلين أنفسهن فى النوافذ العليا قبل أن يهبطن لينصبن أكشاكهن الصارخة الألوان بين المشعوذين والمحتالين. كان «شوال» القزم يغيظهن من كشكه، وهو فى مستوى الأرض، مما يدفع إلى ضحك زاعق لخبطاته الصائبة. كان صوته ضئيلا إلى حد كبير، كما كان فى وسعه أن يقوم بأكثر الخدع الأكروباتية جاذبية رغم حجمه المعوق. كان كثير الكلام، حتى وهو واقف على رأسه، يفصل بين تمتمته ودمدمته بالشقلبة مرتين متتاليتين. كان وجهه مطليا بطريقة تثير الضحك، وشفتاه مرسومتين بابتسامة البهلوان، وفى ركن آخر تحت ستارة تواريه، جلس «فرج» قارئ الطالع بعدة العرافة ـ حبر، رمل وكرة غريبة مغطاة بالشعر أشبه بخصية الثور، فقط مغطاة بشعر أسود، ومومس جميلة متألقة تجلس القرفصاء أمامه. كان قد ملأ راحة يدها بالحبر، وأخذ يستحثها حتى تفتح المندل.

مشاهد صغيرة من حياة الشارع. امرأة ساحرة متوحشة تندفع فجأة فى الشارع، ترغى وتزبد، تطلق لعنات رهيبة، حتى إن الصمت حل بالجميع، وجمد دم كل امرئ. كانت عيناها تتأججان مثل عينى دب تحت شعرها الأبيض المتلبد. ولما كانت مجنونة، فإنها مقدسة بصورة ما، ولم يجرؤ أحد على مواجهة لعناتها البشعة التى كانت تقولها، والتى إن تحققت لحل النحس بهم. اندفع كالسهم، فجأة، طفل رث من بين الزحام وجذبها بشدة

(*) بالفرنسية فى الأصل.

من كمها، وللحال هدأت وأمسكت بيده واختفت فى أحد الأزقة. وأطبق المهرجان على ذكراها إطباق الجلد على الجسد.

كنت أجلس نشوان بالمشهد أمامى، عندما سمعت فجأة صوت سكوبى نفسه عند مرفقى. قال متأملا:

«والآن، أيها العجوز، يجب إن كانت لك ميول ومآرب، أن تمتلك أفقًا للرؤية. إن ذلك سبب وجودى فى الشرق الأوسـط، إن شئت المعرفة....».

«يا إلهى، لقد أفزعتنى»، قلت وأنا أستدير جانبا. كان نمرود الشرطى، أحد رؤساء الرجل العجوز فى قوة الشرطة. ضحك وجلس إلى جوارى، وهو يزيح طربوشه يمسح عرقه!

«هل تظن أنه قد عاد إلى الحياة؟» تساءل.

«أعتقد يقينا بذلك».

«إننى أعرف رجلى سكوبى، كما ترى».

وضع نمرود مذبته أمامه، صفق بيديه طلبا للقهوة. استمر وهو يغمز لى بخبث، يتحدث بالصوت الحقيقى للقديس:

«لقد جرى الأمر الخاص ببدجى على النحو التالى. لم يكن هنالك من مجال فى هورشام، وإلا كنت لحقت به منذ أعوام مضت فى تجارة المراحيض الترابية. كان الرجل عبقريا فى الميكانيكا. إننى لا أبالى الإقرار بذلك. لم يكن له من دخل سوى ما يقدمه له المقلاع الطينى العجوز، كما اعتاد أن يدعوه ضاحكا. إنه يواجه بالعراقيل. إنه محبط. هل أخبرتك، فى أى وقت، عن المرحاض الأرضى الظريف؟ كلا هذا أمر غريب، إذ اعتقدت أننى أخبرتك به. حسنا، لقد كان اختراعا هائلا،

ثمرة تجربة طويلة. لقد كان، كما تعرف، فى إحدى الجمعيات الملكية. نال ذلك بالدراسة المنزلية، إن هذا يوضح لك أى عقل كان لهذا الرجل. حسنا، كان نوعا من الروافع ذات الزناد. كان لكرسى المرحاض شىء ما كالزنبرك. ما إن تجلس حتى يهبط، ولكن ما إن تنهض حتى يلقى، من تلقاء نفسه، بملء جاروف من التربة فى الصندوق الخازن. يقول بدجى، إنه استنبط الفكرة، ذلك أمر لا أستطيع معرفة أبعاده. كان عبقرية خالصة. إن لديك فى المؤخرة مستودعا تملؤه بالتراب أو الرمال، ووقت أن تنهض، ينطلق الزنبرك فى ضربة عنيفة سريعة. إنه يصنع منه ألفين فى العام، إننى لا أبالى بقول ذلك. بالطبع يحتاج بناء تجارة إلى الوقت، إلا أن النفقات العامة كانت منخفضة. كان لديه عامل واحد فقط، لبناء الجزء الأشبه بالصندوق. كان يشترى الزمبركات، يحصل عليها مصنوعة بمطرقة الحداد طبقا لمواصفات خاصة. وكانت تطلى حافتها أيضا بطريقة رائعة للغاية، بأشياء ذات علاقة بعلم التنجيم. كانت تبدو غريبة، إننى أعترف بذلك. كانت تبدو فى الحقيقة كاللغز. لكن تلك التحفة البديعة كانت اختراعا رائعا. وحدثت أزمة، ذات مرة، بينما كنت فى الوطن، فى إجازة مدة شهر، فذهبت لرؤية بدجى. كان يكاد يبكى. كان الرجل الذى يعاونه «توم» النجار، معتادًا على الشراب قليلا، ولا بد أنه أخطأ وضع التروس فى إحدى مجموعات تلك التحف، إذ بدأت تنهال الشكاوى، على أى حال. قال بدجى: إن مراحيضه قد أصابها الجنون فى طول «سوسكس» وعرضها. إنها تلقى بالتراب حولها بطريقة مستهجنة غريبة، ومضرة بالصحة. ثار الزبائن غضبا. حسنا، لم يكن هنالك من سبيل غير زيارة كل أبناء أبرشيته، فوق دراجة نارية، وضبط التروس. كان ما تبقى لى من الوقت قليلا، إلا أننى لم أرغب فى أن تفوتنى صحبته ـ وهكذا أخذنى معه. كانت مغامرة حقيقية، وأنا لا أبالى من ذكرها لك. لقد جن بعضهم

تماما فى مواجهة بدجى، قالت إحدى النساء: إن التروس كانت قوية حتى إن مرحاضها كان يلقى بالطين على امتداد حجرة الاستقبال. قضينا بعض الوقت نهدئها. عاونت بأن مارست تأثيرا ملطفا، لا أبالى بالإقرار به، بينما كان بدجى يقوم بإصلاح الزمبرك. كنت أحكى قصصا حتى أذهب بأذهان الزبائن بعيدا عن هذا العمل الكئيب. إلا أن الأمور استقامت أخيرا، وغدت الآن صناعة مربحة لها من يعضدها فى كل مكان».

رشف نمرود قهوته متأملا. حدجنى بعينه بنظرة ساخرة، وهو فخور بقدرته على التقليد والمحاكاة.

«والآن» قال وهو يلقى بذراعيه: «السكوب....».

مر عبر الشارع جمع من الفتيات المدهونات بالألوان، رائعات مثل ببغاوات استوائية، يكدن يشبهنها ضحكا وثرثرة. قال نمرود «لقد وضع أبو زيد المولد تحت رعايته مما قد يسبب لنا نوعا من الصداع. إن ذلك الحى حى مزدحم، وهو قد أرسل هذا الصباح قافلة كاملة من الجمال الذكور فى هذا القيظ وهى محملة بالبرسيم. أنت تعرف مدى بشاعة رائحتها. فعندما يكون موسمها تظهر لها هذه الزوائد البشعة الهلامية على رقابها، لا بد أنها تثيرها، تتقيح أو شىء من هذا القبيل، إذ إنها تحك رقابها فى العمد والجدران طوال الوقت. لقد اشتبك اثنان منهما فى قتال، واستغرق الأمر ساعات لفض هذا الاشتباك، مما أغلق المكان».

فجأة وصلت إلى الأسماع سلسلة من الضربات الشديدة، قادمة من اتجاه الميناء، وسلسلة من الأسهم النارية اللامعة الملونة وهى تشق لنفسها أخاديد عبر الليل، ثم تذوى وتتساقط بعيدا فى دمدمة وأزيز «آها»، قال نمرود وهو راض عن نفسه:

«هاك الأسطول ينطلق. إننى سعيد أنهم قد تذكروا».

«الأسطول؟» رددت بينما خط طويل آخر من الأسهم النارية تلقى بريشها الرائع عبر الليل الناعم.

«إنهم الأولاد الذين يعملون على السفينة «ميلتون» سفينة صاحب الجلالة»، قال ضاحكا. «لقد حدث وتناولت العشاء معهم الليلة الماضية على ظهر السفينـــة. لقد انبهـر ضابـط السفينة بقصـتى عن تاجـر بحار عجوز نال حظـوة الـــرب. بالطبـع لم أذكر لهم الكثير عن سكوبى، على الأقل فيما يختص بموتـــه. إلا أننـى ألمحت إلى أن بعض الألعـاب النارية سوف يكون عملا مناســبا باعتباره صادرا عن البحارة البريطانيين. وأضفت أيضا. إنها لمحة سياسية تعبر عـــن الاحترام، مما يكســبهم تقدير المتعبدين. لقد خلبتهم الفكـرة، فطلبــوا الإذن مـن الأدميرال لتنفيذها وهاهم ينفذونها!».

جلسنا فترة فى صحبة صامتة نرقب الألعاب النارية والجمع المبتهج للغاية، والذى كان يحيى كل طلقة بصيحات فرحة طويلة مرتعشة «الله! ـ الله»(*) وأخيرا سلك نمرود زوره وقال:

«دارلى، هل فى وسعى أن أسألك سؤالا؟ هل تعرف ما الذى توشك جوستين أن تفعله؟» لا بد أن وجهى بدا خاليا من أى تعبير، إذ إنه استمر دون تردد، «إننى أسألك فقط لأنها اتصلت بى هاتفيا بالأمس وقالت. إنها سوف تخرق التعهد بتحديد إقامتها اليوم، وتحضر إلى المدينة عن عمد، طالبة منى أن ألقى القبض عليها. إن الأمر يبدو غاية فى السخف ـ أقصد مجيئها من كل هذا البعد لتسلم نفسها للشرطة. قالت: إنها ترغب فى فرض لقاء شخصى مع ممليك. إنه أنا من يتوجب عليه، طبقا للتقارير الواردة من ضباط القوة البريطانية، أن يقوم بعمل ذى شأن يشد انتباه ممليك. إن

(*) بالعربية فى حروف لاتينية.

الأمر يبدو كالهراء إلى حد ما، أليس كذلك؟ إلا أننى حددت معها موعدا للقائها فى مركز الشرطة الرئيسى خلال نصف ساعة».

«إننى لا أعرف شيئا عن هذه المسألة».

«كنت سأصاب بالدهشة إن أنت عرفت: وعلى أى حال، دع الموضوع سرا بيننا».

«سوف أفعل ذلك».

نهض واقفا، مادا يده مودعا: «ستغادر الليلة كما أعتقد. حظا طيبا». قال وهو يخطو، يهبط من المنضدة الخشبية الصغيرة. «إن بلتازار، بالمناسبة يبحث عنك. إنه فى مكان ما عند الضريح. يا لها من كلمة». انحنى انحناءة قصيرة متحركا بقامته الطويلة بعيدا فى دوامة الشارع المتلألئة. دفعت ثمن مشروبين، وغادرت سائرا نحو شارع التتويج أتخبط وأصطدم بالناس المحتشدة فى يوم الإجازة هذا.

كانت تتدلى، من كل شرفة، على امتداد الشارع، الشرائط والرايات، وبراويز ضخمة تتدلى منها الأعلام الملونة. كانت القطعة الصغيرة من الأرض المقفرة قد غدت الآن أكثر الصالونات بذخا تحت البوابات المقوسة. خيام ضخمة بتصميمات مطرزة رائعة نصبت مكونة أرضية استعراضية احتفالية حيث يقام الرقص والغناء عندما يصل الموكب إلى منتهاه. المنطقة مزدحمة بالأطفال. دندنة المصلين وجلجلة زغاريد النساء تأتى من ناحية الضريح الذى كان معتم الإضاءة. المتوسلون والمبتهلون يتضرعون إلى دن ـ حمام سكوبى يطلبون الإخصاب. آيات السور القرآنية تتهدج تغزل نفسها فى الليل فى نسيج من صوت رخيم شجى. أخذت أسعى قليلا وسط الزحام مثل كلب صيد أبحث عن بلتازار. أخيرا رأيته يجلس جانبا خارج أحد المقاهى شققت طريقى إلى جواره قال:

«حسنا، كنت أبحث عنك. لقد قال حميد: إنك ستغادر الليلة. اتصل بى هاتفيا يخبرنى بذلك ويطلب عملا وددت بالإضافة إلى ذلك، أن تشاركنى خليط مشاعرى خجلا وراحة بخصوص هذه الحادثة. الخجل من الغباء، والراحة من أنها لم تمت، وقد امتزج كلاهما بالآخر. إننى أكاد أكون ثملا بالراحة، وأكاد أفقد صوابى خجلًا. كان، بالفعل يكاد يكون ثملا، إلا أنها سوف تكون بخير حمدا لله!».

«ماذا يرى أماريل؟».

«لا شىء بعد. وإن كان يعتقد بشىء فإنــه لن يقوله. يجب أن تنال أربعا وعشرين ساعة، من الراحة، قبل أن يتقرر أى شىء، هل ستغادر حقا؟» وانخفض صوته مؤنبا: «يجب أن تبقى وأنت تعرف ذلك».

«إنها غير راغبة فى بقائى».

«أعرف ذلك. لقد صدمت، إلى حد ما، عندما قالت لى. إنها قد طلبت منك الرحيل. إلا أنها قالت: «إنك لا تدرك الأمر. سوف أرى إن كنت لا أستطيع ابتغاءه مرة أخرى. إننا لسنا بعد ناضجين بما يكفى كى يكون كل منا للآخر، سوف نبلغ هذه المرحلة»، لقد اندهشت وأنا أراها على هذا القدر من التألق والثقة بنفسها ثانية. اجلس يا عزيزى الشاب، وتناول معى مشروبا مضاعفا من المشروبات المنعشة. سوف نشاهد الموكب على أفضل ما يكون من هنا، حيث لا زحام».

صفق بيديه بطريقة متقطعة وطلب مزيدا من المستكة.

عندما جىء بالكأسين، جلس ساكنا مدة من الزمن طويلة واضعا ذقنه فوق راحتيه، يحملق فيهما، تنهد وهو يهز رأسه فى حزن.

قلت: «ما الأمر؟»، وأنا أدفع بالكأس فى الصينية، أضعه أمامه بالضبط فوق المنضدة.

قال فى هدوء: «ماتت ليلى!» بدت الكلمات وكأنها تثقله بالأسى. لقد اتصل بى نسيم هاتفيا هذا المساء ليخبرنى، ومن الغريب أن صوته بدا مبتهجا بهذا الخبر. لقد سعى للحصول على تصريح بالنزول وإعداد ترتيبات جنازتها. هل تعرف ماذا قال؟ ونظر إلىّ بلتازار بعينيه الداكنتين العميقتى الفهم والإدراك واستمر قائلا، «رغم أنى أحببتها، وما إلى ذلك، إلا أن موتها قد حررنى بطريقة غريبة. إن حياة جديدة تنفتح أمامى. إننى أحس بأننى قد غدوت أكثر شبابًا ـ لا أعرف إن كان ما سمعته خدعة من الهاتف أو ماذا، إلا أن صوته بدا أكثر شبابًا. كان مليئا بإثارة مكبوتة. إنه يعرف، بالطبع، أننى وليلى كنا أقدم الأصدقاء وأنها كانت تكتب لى طوال هذه الفترة. كانت نفسًا نادرة يا دارلى، واحدة من أندر زهرات الإسكندرية. لقد كتبت لى تقول، أعرف أننى أموت، يا عزيزى بلتازار، ولكن فى بطء شديد. هل تؤمن بالأطباء وما يشخصون، أنت يا من تعرف كل الرجال. إننى أموت مما فى القلب من أحزان، مثل سكندرية حقيقية».

ومخط بلتازار أنفه فى جورب قصير قديم، أخذه من جيب صدر معطفه، ثم طواه فى عناية حتى يشبه منديلا نظيفا، وأعاد وضعه بطريقة متحذلقة. «نعم»، قال ثانية فى وقار: «يا لها من كلمة، أحزان القلب! يبدو (مما قلته لى) أنه بينما كانت ليزا بورسواردن تدبر براءتها من وفاة شقيقها، كان ماونت أوليف يعطى نفس اللطمة لليلى بظهر اليد، وهكذا يدور كأس الحب. كأس الحب المسموم!» وأومأ برأسه بينما يتناول رشفة عالية الصوت من شرابه. ومضى على مهل فى حرص مكثف وجهد أشبه بامرئ يترجم نصا مبهما وغامضا. نعم، تماما مثل خطاب ليزا إلى بورسواردن

تخبره فيه أنه قد حدث أخيرا وظهر الغريب كالضربة القاضية(*) إن جاز القول. تلقت ليلى، كما أعتقد، نفس الرسالة بالضبط. من ذا الذى يدرى كيف يتم ترتيب مثل تلك الأشياء؟ ربما فى ذات الكلمات بالضبط، نفس كلمات الامتنان العاطفى، «إننى أباركك، أشكرك من صميم قلبى، إذ إننى من خلالك استطعت أخيرا أن أتلقى المنحة الثمينة التى لا يمكن أن ينالها أبدا هؤلاء الذين يجهلون قدرها». تلك هى كلمات ماونت أوليف. لقد اقتبستها ليلى لى. حدث هذا بعد أن ذهبت بعيدا كتبتها إلىّ. كان الأمر يبدو وكأنها قد انقطعت عن نسيم، ولم يعد هنالك امرؤ تستدير إليه، امـرؤ تتحدث إليه. ومن ثم كانت هذه الخطابات الطويلة التى تصول فيها إلى الأمام وإلى الوراء، بتلك الصراحة الرائعة والرؤية الواضحة التى أحببتها فيها غاية الحب. لقد أبت كل خداع لنفسها. إلا أنها ـ ليلى ـ وقعت بين مقعدين، بين حياتين، بين حبين. لقد قالت شيئا من هذا القبيل وهى تشرح الأمر لى: «لقد اعتقدت فى البداية، عندما تسلمت رسالته، أنه مجرد ارتباط آخر ـ كما كان فى الماضى مع تلك البالرينا الروسية، لم يكن هنالك أسرار البتة فيما يختص بعلاقاته الغرامية، فيما بيننا، وهذا ما جعل حبنا يبدو صادقا تمام الصدق خالدا تمام الخلود، بطريقته الخاصة. كان حبا بلا تحفظات إلا أن كل شىء غدا واضحا لى، فى هذه المرة عندما رفض ذكر اسمها لى، حتى أشاركه فيها، إن جاز القول! لقد عرفت حينئذ أن كل شىء قد انتهى، كنت أتوقع، بالطبع، فى ركن من عقلى، وقوع هذه اللحظة، أتصور نفسى أواجهها فى نخوة وشهامة.. إلا أننى، لدهشتى، وجدت أن ذلك كان مستحيلا. إن هذا هو السبب فى أننى، ولفترة طويلة، حتى بعد أن عرفت أنه فى مصر، وأنه مشتاق لرؤيتى، لم أستطع أن أفرض على نفسى رؤيته. بالطبع تظاهرت أن مرجع ذلك أسباب أخرى، أسباب

(*) بالفرنسية فى الأصل.

أنثوية خالصة، إلا أن الأمر لم يكن كذلك. لم يكن افتقاد شجاعة بسبب جمالى الذى تحطم. كلا، إذ إننى أمتلك فى الحقيقة قلب رجل. جلس بلتازار للحظة، يحملق فى الكئوس الفارغة بعينين واسعتين، يضغط أصابعه برقة معا. لم تكن قصته تعنى لى غير القليل - باستثناء دهشتى وأنا أتخيل ماونت أوليف قادرا على امتلاك أى مشاعر عميقة تماما، وحيرتى وأنا أتخيل تلك العلاقة السرية مع والدة نسيم.

«عصفور الجنة الأسمر!» قال بلتازار، وهو يصفق بيديه طالبا المزيد من الشراب. «إننا لن نرى مثيلا لها مرة أخرى».

كان الليل حولنا، بما فيه من خشونة يمتلئ تدريجيا حتى الانتفاخ بدمدمة الموكب القادم العميقة. كان فى وسع المرء أن يرى الضوء الوردى للمشاعل بين الأسقف. الشوارع، المكتظة بالفعل، غدت الآن سوداء بمن فيها من بشر. كانوا يطنون مثل خلية نحل كبيرة وقد أصابتهم عدوى المعرفة بقدوم الموكب. فى وسعك أن تسمع الضربات البعيدة للطبول وأزيز الصنوج المتزايد، وهى تحافظ على الحركة الزمنية لإيقاعات الرقص القديمة الدودية التقلصات - خطوة السير بطيئة نسبيا تقطعها وقفات غريبة، حتى تتمكن الراقصات، وقد أمسكت النشوة بهن، من الدوران دون تقيد بالنظم ثم العودة ثانية إلى أماكنهن فى خط المسيرة. الموكب يشق طريقه، عبر ضيق الشارع الرئيسى الذى يكبله، مثل سيل جارف تدفعه قوته ليتجاوز مجراه وثبا، إذ كانت كل الشوارع الجانبية مليئة بالنظارة الذين يجرون بحذاء الموكب يحافظون على سرعتهم معه.

جاء أولا، لاعبو الأكروبات غريبو الأشكال والبهلوانات وقد ارتدوا أقنعة ودهنوا وجوههم، يتدحرجون، يتلوون، يقفزون فى الهواء ويسيرون على أيديهم، يتبعهم صف طويل من العربات المحملة بمن سيجرى

ختانهم وقد ارتدوا ملابس حريرية مزركشة، يحيط بهم من يرعاهم من الأهل، نساء الحريم. كانوا يركبون فى فخار، يغنون بأصوات أحداث يافعين، يحيون جمع الناس: مثل ثغاء حملان الأضاحى. ونق بلتازار، سوف تتساقط القلفات(*) الليلة، كما هو واضح ، تساقط الجليد. إن ما يثير الدهشة هو عدم حدوث تعفن أو انتقال للأمراض. إنهم، كما تعرف، يستخدمون البارود الأسود والجير السائل لتضميد الجراح!

وجاءت الطرق الصوفية المختلفة تحمل الأطر التى تتدلى منها راياتها، والتى تشبه غطاء الخيمة، وقد مالت إلى جانب، وعليها كتبت أسماء الواحد القدوس بخطوط غير متقنة. كانت تنتفض كأوراق فى مهب الريح، يحملها عاليا مشايخ يرتدون جلابيب رائعة، يسيرون فى صعوبة بسبب ثقلها، ومع ذلك كانوا محافظين على استقامة طابور الموكب، ووعاظ الشوارع يتمتمون بأسماء الله المقدسة. وتحلقت مجموعة من حملة المجمرات النحاسية البراقة حول مجموعة من أصحاب المنزلة الملتحين الصارمى الوجوه، الذين يحملون أمامهم مصابيح ورقية ضخمة أشبه بالبالونات. رأينا وهم يعبروننا منسابين على امتداد شارع التتويج فى موجة طويلة من الألوان، كل طرق الدراويش المختلفة وهى تخرج من الظلمة لتبزغ فى النور، تميز كل منها ألوانها. كان يقودهم الرفاعية بقلانسهم السوداء، آكلى العقارب وأصحاب القدرات الأسطورية. كانت صرخاتهم القصيرة العالية كالسعال تشير إلى أن الجلالة قد حلت بهم بالفعل. كانوا يحملقون حولهم بعيون دائخة، والبعض منهم قد مرر أسياخا عبر وجناته، والبعض الآخر يلعق سكاكين حمراء محماة. وأخيرا جاءت الشخصية المرموقة المصقولة، أبو زيد، ومعه مجموعة قليلة من تابعيه فوق أفراسهم وعليها

(*) جلدة الذكر التى تقطع عند الختان ـ المترجم.

أغطية سروج رائعة الزركشة، وقد انتفخت عباءاتهم خلفهم، يشرعون أسلحتهم بالتحية مثل فرسان فى مباراة، وأمامهم تجرى مجموعة مختلطة من الذكور الداعرين، بوجوه مطلية بالمساحيق وشعور طويلة منسابة، يضحكون ويتناقرون مثل دجاج فى باحة مزرعة. أضفت الموسيقى على هذه الكتلة الغريبة غير المتصلة، والمنسجمة رغم ذلك، نوعا من التجانس. إنها تربطها، تقيدها، فى ضربات قلب الطبول وزعيق المزامير الثاقب وصرير الصنج - إنهم يتحلقون، يتقدمون يتوقفون. وتحركت الطوابير الطويلة الراقصة نحو الضريح، مندفعة خلال البوابات الضخمة التى تقود إلى مسكن سكوبى مثل مد فى أقصاه، منتشرة عبر الميدان المتألق فى سحابات من غبار.

عندما تحرك المنشدون إلى الأمام ليتلون الآيات المقدسة، احتل فجأة ستة من دراويش الموالد مركز المسرح،وهم ينتشرون فى حركة مروحية بطيئة مشكلين نصف دائرة. كانوا يرتدون جلابيب بيضاء ناصعة تصل إلى أقدامهم الموضوعة فى شباشب خضراء،وفوق رءوسهم قبعات طويلة بنية أشبه بالآيس كريم. بدأوا الدوران فى هدوء وجمال، «تلك الرءوس الدوارة كمغزل من صنع الله»، بينما موسيقى المزامير تلازمهم برعشاتها الثاقبة. إنهم يتجمعون، يدفعون أذرعهم فى قوة، يضمونها أولا فى سرعة إلى أكتافهم، يفردونها كأنما بقوة طرد مركزية، يمدونها إلى أقصاها، الكف الأيمن يتجه إلى أعلى إلى السماء، والأيسر إلى أسفل إلى الأرض، ويظلون هنالك يدورون كالمغزل بصورة إعجازية، لا تكاد أقدامهم تلمس الأرضية، فى هذا العرض الرائع للأجساد السماوية فى حركتها الأبدية. يستمرون هكذا أسرع فأسرع، حتى ينهك العقل من محاولة مجاراتهم. وفكرت فى أشعار «جلال الدين»، التى اعتاد بورسواردن تلاوتها فى بعض الأحيان والرفاعية فى الحلقات الخارجية قد بدأوا عرضهم فى

مسخ وتشويه أنفسهم. إنها عملية بشعة للغاية لمن يراها، ومع ذلك فهى لا تضير أحدا بصورة واضحة. كانت لمسة الشيخ تُلئم الجراح التى تخترق الوجنات والصدور، هنا درويش دفع بسيخ عبر منخاريه، وهنالك آخر ينقض على رأس خنجر، يدفعه عبر حلقة إلى جمجمته. إلا أن المجموعة المترابطة الأساسية من الراقصين استمرت فيما هى فيه دون أن تحيد عنه، تدور كالمغزل فى سماء العقل.

«يا إلهى»، قال بلتازار من عند مرفقى وهو يضحك ضحكة مكتومة، «لقد فكرت أنه مألوف لدى، إنه المجذوب بشخصه هناك، ذلك الذى عند الطرف البعيد، إنه الذى افترضت أنت سرقته للطفلة وبيعها لأحد المواخير. انظر إليه».

رأيت وجهًا تبدو عليه صرامة إرهاق العالم مكثفة، العينان مغلقتان، والشفتان قد تقوستا فى نصف ابتسامة، والراقص النحيل يدور فى بطء حتى التوقف ليتناول فى جو من المداعبة التى تتسم بالتواضع حزمة من أشواك يشعلها، يدفع بالكتلة الملتهبة إلى صدره فوق اللحم، ثم يبدأ فى الدوران السريع ثانية مثل شجرة تحترق. وعندما توقفت الدائرة عن التطوح والترنح، نتشها مرة أخرى، وصفع بها الدرويش، الذى يليه، على الوجه مداعبا.

إلا أن دستة من الحلقات الراقصة تداخلت الآن وأمسكت بالزمام وفاضت الساحة الصغيرة بالشخوص الدوارة تتلوى. ومن ناحية الضريح، جاءت تلك الدندنة الرتيبة للكلمة المقدسة، تقطعها الزغاريد الحادة للمندورين.

قال بلتازار مسفها: «سوف يواجه سكوبى ليلة ثقيلة، يعد القلفات هنالك فى السماء».

سمعت من مكان ما بعيد صفارة السفينة تدوى فى الميناء، تعيدنى إلى رشدى. حان وقت الذهاب. «سوف آتى معك»، قال بلتازار. وبدأنا معا، ندفع، نراوغ، نشق طريقنا خلال الشارع المزدحم نحو الكورنيش.

عثرنا على عربة حنطور، جلسنا فيها صامتين، نسمع الموسيقى ودق الطبول وهى تتراجع، تتقهقر بينما نجتاز الخط الطويل المتدحرج للموكب البحرى. كان القمر مكتملا يسطح فوق البحر الساكن الذى يغطيه نمش من نسيم رقيق. أومأت أشجار النخيل بهاماتها. خبت بنا العربة فى الشوارع الضيقة الملتوية حتى وصلت أخيرا إلى الميناء التجارى بسفنه الشبحية المتنوعة الساكنة. ومضت أضواء قليلة هنا وهناك. تحركت سفينة ركاب من مربطها وانزلقت ناعمة فوق القناة. هلال طويل من ضوء يتلألأ.

كان الزورق البخارى الصغير الذى سيقلنى لا يزال يحمل بالمؤن ومتاع المسافرين.

«حسنا» قلت «ابتعد يا بلتازار عما يضيرك».

«سوف نلتقى ثانية فى القريب العاجل»، قال فى هدوء. لا يمكنك التخلص منى. اليهودى التائه، كما تعرف. لكننى سوف أكتب إليك عن كليا. سوف أقول شيئا مثل، «عد إلينا سريعا»، إن لم يكن لدى إحساس بأنك لا تود العودة. علىّ اللعنة إن عرفت لماذا. إلا أن ما أنا على يقين منه، هو أننا سوف نلتقى ثانية».

قلت: «وأنا أيضا».

تعانقنا فى دفء. صعد فى حركة مفاجئة إلى عربة الحنطور وجلس فيها ثانية.

«تذكر كلماتي»، قال وقد بدأ الحصان سيره مع ضربة من السوط خفيفة وسريعة. وقفت أستمع إلى ضوضاء حوافره حتى ابتلعها الليل. عدت إلى ما عليّ من عمل لأنجزه.

* * *

[١٠]

كليا الغالية

مضت شهور ثلاثة طوال، لم تصلنى منك خلالها كلمة. لقد كنت عرضة للقلق الشديد لولا ما كان يرسله إلىّ بلتازار الأمين من بطاقات بريدية، فى مواعيد محددة، كل بضعة أيام، فأتشجع بما تحرزينه من تقدم، رغم أنه لم يكن يطلعنى، بالطبع، على أية تفصيلات. لا بد أنك كنت تزدادين حنقا وغضبا من صمتى القاسى، والذى لا تستحقين منه غير أقل القليل. إننى، وبصدق، أحس بخجل مرير، ولا أعرف أى حائل غريب كان يمنعنى، إذ إننى كنت عاجزا عن تحليله أو التصرف بفاعلية حياله. كان أشبه بمقبض حجرة لا يدور، لماذا؟ وتتضاعف غرابة هذا الوضع بمقبض لأننى كنت أحس بكم جميعا، طوال الوقت، إحساسا تاما، كما كنتم حاضرين فى ذهنى حضورا نشطا. لقد أمسكت بك، مجازا، باردة، فاترة، فى مواجهة عقلى النابض كحد السكين. ربما كنت أستمتع بك كفكرة، أكثر منها شخصية حية، لها فعلها فى هذا العالم! أم هى الكلمات وقد بدت خالية من عزاء بسبب المسافة التى تفصل فيما بيننا؟ إننى لا أعرف. لقد بدا لى فجأة، ومهمتى توشك على الانتهاء تقريبا، إننى قد عثرت على لسانى.

إن الأشياء تغير بؤرها فوق هذه الجزيرة الصغيرة. لقد أسميت أنت ذلك، ذات يوم، كما أتذكر، بالمجاز والاستعارة، إلا أن الأمر بالنسبة لى حقيقى للغاية. إن غزونا هو الذى غيرها. من العسير أن تتصورى أن عشرة من الفنيين قد أحدثوا هذا التغيير. إننا نستورد النقود، نغير بها اقتصاديات المكان فى بطء. نزيح العمل متضخم الأسعار، نخلق كل أنواع الحاجيات التى لم يكن السكان المحظوظون يَعُونها من قبل. احتياجات سوف تحطم، فى التحليل الأخير، نسيج هذه القرية الإقطاعية المتين، بما فيها من روابط الدم والضغائن والمهرجانات المبتذلة. سوف يذوب كمالها ويتلاشى تحت تلك الضغوط الغريبة عليها. كانت متينة النسيج للغاية، جميلة للغاية، متماثلة متناسقة مثل عش السنونو(*). إنا نزيحه جانبا مثل صبية كسالى لا يعون الدمار الذى يحدثون. يبدو أن الموت الذى نجىء به للنظام القديم، على غير رغبته، أمر لا مفر منه. إنه يحدث فى بساطة أيضا ـ بعض كمرات من الصلب، بعض أدوات الحفر ورافعة! وفجأة يبدأ تغيير شكل الأشياء ويولد جشع جديد، يبدأ فى هدوء ببعض محلات الحلاقين، لكنه ينتهى بتغيير كل بناء الميناء. سوف يغدو خلال عشر سنين خليطا، لا يمكن تمييزه، من مستودعات البضائع وصالات الرقص والمواخير للبحارة المتحاربين، فقط أعطنا ما يكفى من الوقت!

إن الموقع الذى تم اختياره لمحطة إعادة بث البرامج الإذاعية يقع فوق الجانب الشرقى الجبلى للجزيرة، وليس حيث كنت أعيش فيما سبق. كنت سعيدا بهذا، بطريقة مبهمة فأنا عاطفى، بما يكفى، أمام الذكريات القديمة التى يمتع المرء نفسه بها ـ إلا أنها تبدو أفضل بكثير إن تبادل مركز ثقلها تبدلا طفيفا. إنها تتجرد فجأة وتنتعش، يضاف إلى ذلك أن هذا الركن من

(*) طائر طويل الجناحين مشقوق الذيل ـ المترجم.

الجزيرة لا يماثل أى جزء آخر فيها، إنه واد ينتج محصولا عاليا من النبيذ ويطل على البحر. إن تربته ذهبية برونزية قرمزية. إننى أعتقد أنها مكونة من رمل بركانى. إن النبيذ الأحمر الذى يقومون بصناعته خفيف لطيف براق كأنه بركان هاجع فى كل زجاجة. نعم، هنا تصر الجبال بأسنانها حتى إنه فى مقدور المرء أن يسمعها أثناء ارتجافاتها (العديدة) تطحن تلك الصخور المتحولة إلى مسحوق طباشيرى. إننى أعيش فى منزل صغير مربع الشكل، مكون من حجرتين فوق مخزن من مخازن النبيذ، هنالك ساحة يكسوها الآجر، بها مصطبة تفصل منزلى عن العديد من مثل هذه الأماكن المستخدمة للتخزين، إنها أقبية مليئة بالنبيذ الراقد فى دنان.

نحن فى وسط الكَرْم، يحدنا من كل الجوانب مستطيل يمتد عبر السلسلة الفقرية للتل الأزرق فوق سطح البحر، يقطع القنوات الضحلة للدبال والتربة الثرية بالمواد العضوية بين الكرمات المتماثلة والتى تزدهر الآن. الدهاليز، كلا، طرقات لعبة البولينج(*) وأرضيتها الرمادية البنية، والفتيات الكادحات قد نقبن ومحصن كل ما يساوى ملء فم أو إصبع أو قبضة يد، هنا وهناك تتطفل أشجار التين والزيتون على غابة الخضرة المتموجة، هذا البساط من الكرمات، إنه كثيف إلى حد أنك ما أن تكونى بداخله، قابعة، حتى لا يتجاوز مجال رؤيتك أقداما ثلاثا ، مثل فأر فى حقل حنطة، هنالك، بينما أكتب، دستة من فتيات غير مرئيات يشققن نفقا مثل الخلد، يقلبن التربة إننى أسمع أصواتهن. إلا أننى لا أرى شيئا نعم، إنهن يزحفن هنالك مثل رماة ماهرين، ينهضن، يبدأن العمل مع الفجر، إننى غالبا ما أسمعهن، عندما أستيقظ، وهن يصلن، يغنين أحيانا قطعة من أغنية فولكلورية يونانية! إننى أستيقظ فى الخامسة وتجىء أوائل الطير

(*) لعبة بـ كرات خشبية ـ المترجم.

لتجد فى استقبالها، تحييها، لجنة صغيرة من صيادين متفائلين، يطلقون عليها النيران فى تكاسل، ثم يعبرون إلى قمة التل، وهم يثرثرون يتبادلون المزح والنكات.

هنالك شجرة توت طويلة بيضاء، تلقى بظلالها على شرفتى، تحمل أكبر ثمار رأيتها فى حياتى - إنها كبيرة مثل اليرقات. الفاكهة ناضجة، عثرت عليها الزنابير فسكرت تماما من حلاوتها. إنها تتصرف مثل الآدميين، تضحك فى صخب على لا شىء تسقط، تتنافر تتشاجر...

الحياة شاقة، لكنها طيبة، أى متعة أن يعرق المرء بالفعل وهو يعمل، يستخدم حقا يديه! إننا بينما نجمع الصلب، نرتفع به، لوحا بعد لوح، كالنذور الرقيقة الغامضة إلى السماء، تنضج كروم العنب أيضا، تذكر بأنه بعد زمن طويل من توقف الإنسان عن إضاعة الوقت، بصورة عُصابية، مع الآلات التى تحمل الموت، والتى يعبر بها عن خوفه من الحياة، فإن الآلهة السوداء القديمة، لا تزال هنالك تحت الأرض، مدفونة فى الدبال الرطب للعالم الشيطانى (الكلمة المفضلة عند بورسوارد(١)) إنها تحتل مكانها، إلى الأبد، فى الرغبة البشرية. إنها لن تستسلم أبدا (إننى، فى بساطة، أتحدث بطريقة عشوائية، حتى أقدم لك فكرة عن نوع الحياة التى أحياها هنا).

الشعير الجبلى المبكر يجمع الآن. إنك تلتقى بأكوام منه يابسة سائرة - أكوام لا يبين منها غير زوج من الأقدام أسفلها، تمشى مجهدة عبر تلك الدروب الصخرية. الصرخات المرهقة التى تطلقها النساء، إما نداء على بهائم أو نداء على بعضهن البعض، من جانب تل إلى جانب تل آخر. «وو»، «هوش»، «جناو». وتوضع هذه الأكوام فوق أسطح مسطحة للدق والدرس، باستخدام العصى، حتى يخرج التبن. الشعير! إنها الكلمة التى لا تكاد تقال حتى تبدأ مواكب النمل، سلاسل طويلة من نمل أسود يحاول

حمله بعيدا إلى مخازنه الخاصة. إن ذلك بدوره قد نبه السحالى الصفراء، فتطوف خلسة تأكل النمل، ترقد كامنة تطرف بعينيها وتأتى القطط، وكأنما الأمر متابعة للثمانية السببية فى الطبيعة، لتصطاد السحالى وتأكلها، إن هذه العملية ليست فى صالحها، فالكثير منها يموت من أمراض الإسراف التى تعزى إلى هذه الحماقة والرعونة. إلا أننى أعتقد أن حمى المطاردة تلاحقها. وماذا بعد؟ حسنا، إن أفعى سامة تقتل قطة، ما بين الحين والحين. ويحطم الإنسان بجاروفه ظهر الحية. والإنسان؟ تأتى أمراض الخريف مع بدايات الأمطار، ويتعثر الرجل العجوز فى القبر مثل فاكهة سقطت من شجرة. انتهت الحرب! لقد كان الإيطاليون يحتلون هؤلاء الناس، إلا أن القليل منهم للغاية من تعلم لغتهم ذات اللكنة المحلية.

فى الميدان الصغير نافورة، حيث تجتمع النسوة وهن يعرضن أطفالهن فى فخار وقد زخرفنهم كأنما يعرضنهم للبيع. هذا طفل سمين، ذاك نحيل. ويسير الشبان على امتداد الطريق جيئة وذهابا. ينظرون نظرات حارة خجلة. أخذ أحدهم يغنى فى مجون، «لك وحدك يالوتشيا». إلا أنهن لا يفعلن شيئا غير تطويح رءوسهن والاستمرار فى ثرثرتهن. هنالك رجل عجوز يبدو من الظاهر أصم تماما، يملأ إبريقا. إنه يكاد يكون كمن صعقته الكهرباء إن قيل، «مات ديمترى فى البيت الكبير». إنه يدور حول نفسه كالمغزل، فى غضب جامح «مات؟ من الذى مات؟ آه؟ ماذا؟» إن سمعه يتحسن للحال كثيرا.

هنالك قلعة صغيرة تدعى الآن «فونتانا»، إنها عالية تخترق السحب. ومع ذلك، فهى ليست بالبعيدة، إلا أن المرء يلتقى، وهو صاعد إليها فوق منحدر شديد من رماد محترق جاف لطبقات النهر وسط سحب من ذباب أسود، بقطعان مندفعة من ماعز أسود مثل الشياطين. هنالك فوق القمة، مأوى صغير للفقراء به راهب واحد مختل العقل، مبنى فوق سطح دوار

أشبه بفرن حريق هش. فى وسعك، من هنا، أن تنهلى حتى تثملى من منظر منحنيات الجزيرة العذبة الضبابية المترامية نحو الغرب.

وماذا عن المستقبل؟

حسنا، هذا رسم تقريبى لحاضر يكاد يكون مثاليا، لكنه لن يدوم إلى الأبد. إنه يكاد فى الحقيقة أن يفنى، إذ خلال شهر أو ما يقاربه سوف تنتهى جدواى، ومعها، كما هو محتمل، الوظيفة التى أعتمد عليها فى حياتى المحدودة ـ ليست لى مصادرى الخاصة، وعلىّ أن أبحث عن سبل أخرى. كلا، إن المستقبل يهتز فى أعماقى مع كل اهتزاز للسفينة، مثل شحنة لم يشد وثاقها، إن جاز القول. هل كتب على ألا أراك مرة أخرى، إذ إننى أشك فى عودتى ثانية إلى الإسكندرية. إننى أحس بها تذبل فى أعماقى، فى أفكارى مثل وهم أودعه ـ مثل التاريخ الحربى لملكة ما عظيمة غرقت ثرواتها بين الخرائب والجيوش ورمال الزمن! إن عقلى يستدير غربا أكثر فأكثر، نحو الميراث العتيق(*) لإيطاليا أو فرنسا، هنالك بالتأكيد عمل جدير بالاهتمام ما زال يمكن القيام به بين خرائبهم ـ شىء ما يمكن أن نعتز به، وقد نعيد إليه الحياة؟ إننى أسأل نفسى هذا السؤال. إن الطريق الذى أحب أن أسلكه، على أى حال، وأنا غير مرتبط حتى الآن بأى سبيل محدد، هو ذلك الذى يقود إلى الغرب والشمال. هنالك أسباب أخرى، فشروط عقدى تعطينى حق «العودة إلى الوطن»، كما يسمونه، بالمجان، أن أعود إلى إنجلترا دون أن أتكلف شيئا.... وحينئذ وبمثل هذه الهبة الظريفة التى أسبغتها الخدمة علىّ والتى أكسبتنيها كل تلك الفترة من العبودية، فإننى أعتقد بقدرتى على أن يكون لى سحرى فى أوربا. إن قلبى ليقفز لهذه الفكرة.

(*) بالإيطالية فى الأصل.

إلا أن شيئا ما، فى كل هذا، يجب أن يوجد من يقرره لى. إن لدىّ إحساسا، أعنى، أننى لن أكون أنا هو من يتخذ القرار.

لقد وجدت نفسى، السبت الماضى، حرا ليوم ونصف، عبرت الجزيرة أحمل صرة لأقضى ليلة فى المنزل الذى عشت فيه خلال زيارتى السابقة أى تناقض هذا الذى تواجه به هذه الهضبة المائلة إلى الخضرة، ذلك النتوء الجبلى الوحشى العاصف من البر داخل البحر، والبحار الخضراء الحمضية وخطوط ساحل الماضى النخرة. لقد كانت حقيقة، جزيرة أخرى ـ إننى أعتقد أن الماضى دوما هكذا. هنا عشت ليلة ويوم حياة الصدى أفكر كثيرا فى الماضى، وحركتنا نحن جميعا داخله. الخيالات المنتقاة، والتى تخلطها الحياة مثل مجموعة من أوراق اللعب، تخلطها، تقسمها، تسحبها وتستعيدها. بدا لى أنه ليس من حقى الإحساس بهذا القدر من الهدوء والسعادة. إنه إحساس بالكمال والوفرة ليس به من سؤال بلا إجابة غير ذلك الذى كانت تثيره ذكرى اسمك.

نعم جزيرة مختلفة، منظرها أكثر خشونة وجمالا. إن المرء يمسك بصمت الليل، يحس به وهو يذوب فى بطء ـ كما يمسك الطفل بقطعة من الثلج! دولفين ينهض من المحيط عند الظهيرة. أبخرة زلزال على امتداد خط البحر غياض كبيرة من أشجار ملساء، لحاؤها أسود كجلد الفيل، تعريه الرياح فى ثنيات تكشف عن الجلد الداخلى الطرى الرمادى..... لقد نسيت الكثير من التفاصيل.

يكاد النتوء الصخرى أن يكون بعيدا عن الطريق المطروق، وقد يأتى هنا فقط جامعو الزيتون فى موسمه. وإلا فإن الزوار الوحيدين هم حارقو فحم الأخشاب. إنهم يأتون كل يوم راكبين عبر الغياض قبل الضياء ولركابهم صليل متميز. لقد حفروا أخاديد طويلة ضيقة فوق التل، يزحفون فوقها طوال اليوم، سودًا كالشياطين.

يمكن للمرء غالب الوقت أن يعيش على القمر، وضجة البحر الخافتة وصوت الصراصير(*) الحاد فى ضوء الشمس. لقد أمسكت، ذات يوم، أمام الباب الأمامى لمنزلى، بسلحفاة برية، وعلى الشاطىء هنالك بيضة سلحفاة بحرية مهشمة. وللنباتات ذاتها فقرات قصيرة من عقل متأمل، مثل أنغام موسيقية تنتمى إلى مقطوعة أكبر، لا أعتقد أن المرء سوف يسمعها البتة. والسلاحف البحرية كائنات أليفة ساحرة بلا مطالب. إن فى مقدورى سماع بورسواردن يقول، «أخى الحمار وسلحفاته البحرية. إنه زواج العقول الصادقة!».

أما عن الباقى، فصورة رجل يلقى بأحجار مسطحة، يدفع بها سطح البحيرة الساكن وقت المساء، فى انتظار رسالة قادمة من الصمت.

* * *

ما كدت أدفع بهذا الخطاب إلى رجل البريد، راكب البغل، والذى يأخذ بريدنا إلى المدينة، حتى تسلمت خطابا عليه طابع مصرى، معنون إلىّ فى خط لا أعرفه. كان الخطاب كالتالى.

«أنت لم تتعرف عليه أليس كذلك؟ أقصد الخط على الغلاف؟ أقر بأنى ضحكت وأنا أعنونه إليك، قبل أن أكتب هذا الخطاب: إننى أستطيع أن أرى وجهك وقد غشاه فجأة تعبيرك الحائر، رأيتك تقلب الخطاب بين أصابعك للحظة، تحاول تخمين اسم مرسله».

«إن هذا هو خطابى الجاد الأول الذى أحاول كتابته بيدى الجديدة، بعيدا عن المذكرات القصيرة».

«هذه القطعة المعاونة التكميلية التى زودنى بها أماريل الطيب، بعد

(*) بالفرنسية فى الأصل.

أن غدا الأمر واقعا! لقد أردتها قادرة على الكتابة قبل أن أكتب إليك. لقد أصابني الفزع والتقزز، بالطبع، منها في البداية، كما يمكن لك أن تتخيل. لكنني أحترمها الآن احتراما كبيرا للغاية، هذا الاختراع الرقيق الجميل المصنوع من الصلب والذى يرقد إلى جوارى فى سكون شديد فى قفازه المخملى الأخضر! لا تنافر معها كما قد يتبادر إلى ذهن المرء. ما كنت أصدق القبول بها قبولا تاما على هذا النحو ـ لقد بدا غريبا أن يتجانس الصلب والمطاط مع اللحم البشرى. لكن اليد أثبتت كفاءة تكاد تفوق كفاءة العضو الطبيعى الذى هو من لحم ودم. إن قواها فى الحقيقة، شاملة حتى إنى أخافها بعض الشىء. إنها تستطيع القيام بأكثر الأعمال دقة، بما فى ذلك تقليب صفحات كتاب، بنفس المهارة التى تنجز بها الأعمال الخشنة. إلا أن أكثر ما تستطيع القيام به أهمية ـ آه، دارلى، إننى أنتفض وأنا أكتب الكلمات ـ فى مقدورها أن «ترسم»!.

«لقد اجتزت الحدود ودخلت مملكتى، شكرا «لليد» لا شىء من هذا كان يمكن تدبيره مسبقا. لقد تناولت فى أحد الأيام فرشاة، وإذا بها تخرج إلى الوجود ذات أصالة وسطوة تثيران الحيرة حقا. إن لدىّ الآن خمسا منها، أحملق فيها بدهشة تتسم بالتبجيل والتوقير. من أين جاءت هذه اللوحات؟ لكننى أعرف أن اليد هى المسئولة عن ذلك. إنها «اليد» وحدها التى دبرت إدخالى عبر الحواجز إلى شركة «الأشياء الحقيقية»، كما اعتاد بورسواردن القول. ومع ذلك، فإنها مخيفة بعض الشىء. إن القفاز المخملى الرشيق يحرس سرها حراسة فائقة، إننى إن ارتديت كلا القفازين، فإن شيئا مجهول الهوية فى الحفظ والصون تماما! إننى أراقبه فى حيرة وريبة ما، كما يراقب المرء حيوانا محبوبا، خطرا وجميلا مثل النمر الأمريكى، يمكنك قول ذلك. ليس هنالك من شىء، كما يبدو، لا تستطيع أن تفعله بطريقة مؤثرة، وعلى نحو أفضل مما أفعل. إن هذا يفسر

لك صمتى الذى آمل أن تغفره لى. لقد كنت مستغرقة تماما فى لغة اليد الجديدة هذه والتحولات الداخلية التى جاءت بها معها. لقد انفتحت كل السبل أمامى. كل شىء يبدو اليوم ممكنا لأول مرة.

«ترقد على المنضدة إلى جوارى، وأنا أكتب لك، تذكرة الباخرة إلى فرنسا. لقد عرفت بالأمس، وبشكل قاطع، ضرورة أن أذهب إلى هناك. هل تتذكر كيف اعتاد بورسواردن القول: إن الفنانين كالقطط المريضة يعرفون تماما بالغريزة أى عشب يحتاجون لشفائهم: وأن العشب المر ـ الحلو الذى يكشف لهم عن نفسه لا ينمو إلا فى مكان واحد فقط هو فرنسا؟ سوف أغادر خلال أيام عشرة. هنالك من بين الأشياء اليقينية الجديدة، واحدة رفعت رأسها ـ إنها اليقين أنك ستتبعنى إلى هنالك فى الوقت الذى يناسبك. إننى أتكلم عن اليقين وليس عن النبوءة، لقد انتهت علاقتى وإلى الأبد بقارئى الطالع!

«إننى أكتب لك هذا، لأخبرك، فى بساطة، بالنزعات التى فرضتها اليد علىّ، والتى قبلت بها فى لهفة وافتتان ـ وفى استسلام أيضا. قمت الأسبوع الماضى بجولة زيارات وداعية، إذ أعتقد أنه سيمضى وقت طويل قبل أن أرى الإسكندرية مرة أخرى. لقد غدت، بالنسبة لى، مبتذلة ولا طائل منها. ومع ذلك فإننا لا نستطيع إلا أن نحب الأماكن التى دفعت بنا إلى المعاناة؟ إن جاذبية الرحيل تشيع فى الجو، وكأن التكوين الكلى لحياتنا قد دفعت به بعيدا موجة جديدة. إذ لست أنا الشخص الوحيد الذى سيغادر المكان ـ بعيدا عنه. إن ماونت أوليف، مثلا سيغادر فى غضون شهرين. لقد نال، بضربة حظ، أفضل المواقع فى مهنته، باريس! وبهذه الأخبار تتلاشى كل الأشياء القديمة غير المؤكدة. لقد تزوج سرا فى الأسبوع الماضى! سوف تخمن أنت من تزوج. هنالك أمر آخر يشدد من العزائم بعمق. إنه عودة

بومبال وشفاؤه. لقد عاد الآن إلى «المكتب الأجنبى» فى وظيفة رئاسية، ويبدو أنه قد استعاد الكثير من قالبه القديم، إن حكم المرء عليه من خطابه المسهب الخصب الذى أرسله إلىّ. إنه يكتب: «كيف يمكننى أن أنسى، أنه لا توجد فى العالم نساء غير النساء الفرنسيات؟ إن ذلك أمر غريب، إنهن أكثر إبداعات الخالق القدير بهاء. ومع ذلك... يا عزيزتى كليا، فهنالك منهن الكثير للغاية، وكل منهن أكثر كمالا من الأخرى. ماذا فى وسع رجل مسكين مثلى أن يفعل فى مواجهة مثل هذه الكثرة، فى مواجهة مثل هذا الجيش؟ اسألى، إكراما للرب، أحدا ما، أى أحد أن يأتينا بتعزيزات. ألا يحب دارلى أن يعاون صديقا قديما إكراما للأيام الخالية؟».

«إننى أبعث بالدعوة إليك حتى توليها ما تستحق. سوف ينجب أماريل وسميرة طفلا هذا الشهر. طفلا له الأنف التى ابتدعتها أنا! سوف يقضى عاما فى أمريكا فى وظيفة ما أو أى عمل آخر، وسوف يأخذها معه. سيسافر بلتازار أيضا فى زيارة إلى أزمير وفينيسا. إن أكثر الأجزاء إثارة فى أخبارى، قد احتفظت به، على أى حال، إلى النهاية: جوستين!

«إننى لا أتوقع منك أن تصدق هذا الجزء إلا أنه يجب علىّ، على أى حال، أن أكتبه. بينما كنت أسير فى شارع فؤاد فى العاشرة من صباح ربيعى صاف، رأيتها قادمة نحوى، تتألق فى رداء جميل. فستان ربيعى رائع التصميم، يخب إلى جوارها، فوق الرصيف المترب، يحجل مثل ضفدعة، ممليك البغيض! كان يرتدى حذاء برقبة، ذا جوانب مطاطية مرنة، وطماق يحمل عصا بها عقد ذهبية، ويضع إناء زهور حديث السك فوق رأسه ذات الزغب. انهرت تقريبا. كانت تقوده فى الطريق مثل البودل(*) ويكاد المرء يرى المصفاة الجلدية الرخيصة حول ياقتة. حيتنى فى حرارة فياضة وقدمتنى إلى أسيرها الذى تلخبط خجلا، وحيانى فى صوت

(*) نوع من الكلاب ـ المترجم.

مزمجر عميق مثل ساكسفون جهير. كانا فى طريقهما للقاء نسيم فى الـ «سلكت». هل أذهب أنا أيضا؟ بالطبع يجب أن أذهب. أنت تعرف كم أنا فضولية لا تكل ولا تمل. ظلت ترسل إلىّ بومضات تحتية مسلية دون أن يلحظ ممليك ذلك. كانت عيناها تبرقان بالسعادة، نوع من السخرية الشيطانية. كانت أشبه بآلة مدمرة قوية أديرت فجأة، مرة أخرى. كانت تبدو أسعد وأكثر شبابا من أى وقت مضى. استطعت فقط، عندما ذهبنا لنضع المساحيق على أنوفنا، أن أشهق وأقول، «جوستين! ممليك! ما الذى يجرى فوق الأرض؟» قهقهت وهى تعانقنى بقوة، قالت، «لقد عثرت على نقطة ضعفه(*) إنه متعطش إلى حياة المجتمع. إنه يود أن يتحرك فى دوائر الإسكندرية الاجتماعية، وأن يلتقى بالعديد من النساء البيض»، ضحكت أكثر. «ولكن ما الموضوع؟» قلت أنا فى إعجاب وافتتان. هنا غدت جادة فجأة، رغم وميض عينيها خبثا ذكيا. لقد بدأت ونسيم شيئا ما. لقد قمنا أخيرا بشق فتحة لنا. كليا، إننى سعيدة للغاية، أكاد أصرخ وأصيح. إنه شىء أكبر بكثير فى هذه المرة، إنه دولى، علينا أن نذهب إلى سويسرا العام القادم، من أجل الخير، فى غالب الظن. لقد تغير حظ نسيم فجأة إننى لا أستطيع إخبارك بأية تفاصيل».

«عندما بلغنا المنضدة، فى الدور العلوى، كان نسيم قد وصل بالفعل وأخذ يتحدث مع ممليك. أذهلنى مظهره، كان أكثر شبابا بكثير، ظريفا للغاية، ممتلكا لذاته، أصابتنى غصة أيضا وأنا أرى الطريقة العاطفية التى تعانقا بها، نسيم وجوستين، وكأنهما فى غفلة عن باقى العالم. هنالك بالضبط فى هذا المقهى، وبمثل تلك العاطفة المذهلة، حتى إننى لم أدر أين أولى عينى.

(*) بالفرنسية فى الأصل.

«كان مملیك جالسا هنالك، وقفازه الثمين على ركبته، يبتسم فى رقة. كان من الواضح أنه يستمتع بحياة الطبقة العليا من المجتمع، وكان فى مقدورى أن أرى من الطريقة التى قدم لى بها شيئا مثلجا أنه يستمتع أيضا بصحبة النساء البيض!

«آه لقد بدأت تتعب، هذه اليد المعجزة. يجب أن ألحق هذا الخطاب ببريد المساء. هنالك مئات الأشياء التى علىّ أن أعتنى بها قبل أن أبدأ عملية حزم الأمتعة الثقيلة المملة. لدىّ إحساس أيها الحكيم، أنك أنت أيضا، ربما تكون قد عبرت العتبة إلى مملكة خيالك، لتمسك بها مرة وإلى الأبد. اكتب لى وأخبرنى، أو احتفظ بذلك لجلسة فى مقهى صغير تحت شجرة أبو فروة، فى جو خريفى بلون الدخان إلى جوار السين.

«إننى أخيرا أنتظر فى هدوء تام وسعادة، إنسانا حقيقيا، فنانا». «كليا».

* * *

إلا أنه لم تمض غير فترة محدودة قبل أن تنقشع السحب أمامى، لتكشف لى سر المنظر الذى كانت تكتب عنه، والذى سوف تمتلكه من الآن فصاعدا، ضربة فرشاه تتلوها ضربة فرشاه بطيئة.... لقد كانت تتشكل فى داخلى هذه الصورة الثمينة، تتشكل منذ أمد بعيد للغاية، الصورة بأننى أنا أيضا لم أكن مستعدا كما كانت هى. وجاءت ذات يوم رائق صاف، جاءت دون أى تدبير مسبق، ودون أى إعلان، وببساطة ما كنت أعتقد بها. كنت حتى ذلك الحين مثل فتاة شديدة الحياء، فزعة من ميلاد طفلها الأول.

نعم، لقد وجدت نفسى، ذات يوم، أكتب بأصابع مرتعشة. الكلمات

الأربع (أربعة حروف! أربعة وجوه!)، التى خاطر بها كل حكاء منذ بداية العالم، ليشد انتباه أقرانه من الرجال، إلى دعواه الرشيقة. كلمات تبشر، فى بساطة، بالقصة القديمة لفنان بلغ سن الرشد.

كتبت: «حدث ذات يوم.........».

وأحسست كأن الكون كله يدفعنى برفق، يلكزنى!

* * *

نقاط عمل

قصة حميد عن دارلى وميليسا

* * *

طفلة ماونت أوليف من الراقصة جريشيكن. نتيجة المبارزة. الخطابات الروسية. رعبها من ليزا، حيث إنهم سوف يرسلونها إلى أبيها، عندما تموت أمها.

* * *

ممليك وجوستين فى جينيف. مغامرات نسيم الجديدة.

* * *

صدام بلتازار مع أرناؤوطى فى فينيسيا. نظارات الشمس البنفسجية، المعطف الممزق المملوءة جيوبه بكسر الخبز لإطعام الحمام. المشهد فى «فلوريان». السير المتثاقل للشلل العام. المحادثات فى شرفة البنسيون الصغير فوق الجزء الخلفى المنعزل للقناة. هل كانت جوستين بالفعل هى كلوديا؟ لم يكن فى وسعه التيقن. «الزمن ذاكرة كما يقولون، والفن على أى حال لأحبائهما، ومع ذلك تجنب التذكر. أنت تتحدث عن الإسكندرية. لم يعد فى وسعى حتى تذكرها. لقد تلاشت. إن عملا من أعمال الفن هو شىء أكثر تماثلا للحياة، من أن يكون الحياة ذاتها!» الموت البطىء.

* * *

رحلة «ناروز» الشمالية، ومعركة العصى الكبرى.

«سميرنا». المخطوطات، حوليات الزمن. السرقة.

بعض الحواشى الخاصة بكليا (بقلم بورسواردن)

(ф) (ص ١٢٧) لا تصنع المناهج التحليلية الفرص الكبرى، لكن تصنعها الرؤية المباشرة. هنا حق، لكن كيف؟

* * *

الفن ليس فنا ما لم يهدد وجودك ذاته. هل فى وسعك تكرار ذلك. أرجوك، ببطء أكثر.

* * *

كلما تقدم بك العمر، ورغبت أكثر فى الموت، كلما أمسك بك نوع غريب من السعادة، أنت تدرك فجأة أن كل فن يجب أن ينتهى فى حفل صاخب. هذا ما يدفع المجنون العاجز إلى الغضب. إنهم لا يستطيعون إثارة ذلك الدافع المثمر الذى لا يقــام والمرتبـط بالحاضر، حتى لو كانت أكياس خصياتهم غزيرة الشعر مثل عنب الثعلب.

قصاص صارم! هل تقرأ هنرى جيمس أو تدفع بك الأثقال إلى الموت. لقد جددت اختيارى. إننى أؤمن بالاعتزاز المقدس وعشاء القديس الربانى. إننى لا أنتمى إلى مجرى مدرسة الغرور ولا تلك التى لآباء الصحراء ـ أكلة مناخس الفراغ.

* * *

اللغة ليست عَرَضا للشعر، لكنها جوهره. اللغة الغريبة هى اللب.

* * *

ناسك ينتمى للطائفة الأفعوانية
وعضو يقف منتصبا على نحو أو آخر
عبادة الحية عقيدتى

وسأظل كذلك حتى أبلغ الشيخوخة
الأفعى الممتعة ترمز إلى مئات المفاجآت الفرويدية
وأنا أقوم بالخديعة الهندية
رغم أنها قد غدت طيفا كثيفا للغاية
حتى تنتصب كحبل حقيقى
فإننى أترك هذا لـ «فرقة الأمل الموسيقية»
ليس فى وسعى أيضا التحكم فى الحية
والتعامل معها مثل «باجانينى»
مجرد ساق فاصوليا تسمو قمتها
وأنا مثل جاك لا أستطيع التوقف
يد فوق يد فضولية أتسلق
حتى أسمع أجراس برج الكنيسة
إنها رفقة حلوة المعشر
تسأل إن كان ما يزال هنالك عسل للشاى

* * *

ربما يكون من الأفضل البداية بإعادة كتابة «لاروشيغوكولو»، البداية بشىء مثل القول المأثور «اللذة عفن قليل».

* * *

يجب أن تنقع نفسك فى الماء عميقا، هكذا يقول علم النفس.
عبارة من «بالون»: تتوحش ثيران الجوائز، عندما يُبقى عليها فى الظلام.

* * *

آه، يا مواطنى وزملائى: ما الذى يكسبه الإنسان إن غدا شجرة عناب نفعية. إن ينتفض كل صباح فى سيارته البرهام الكهربية إلى مكاتب المشاهدين؟ إلى أى انحدار يمكن أن ترتفع.

* * *

حتى يغدو المرء شاعرا، عليه أن يحصل على حقل المعرفة الإنسانية والرغبة الإنسانية فى عالمه. نعم، ولكن هذا الحقل يمكن أن تغطيه فقط تنازلات داخلية متواصلة.

* * *

كلما قرأت أكثر عن هؤلاء الفنانين الذين بلغوا حدود المعرفة الإنسانية ـ وهنالك

حد مسموح به لما هو معروف إنسانيا ـ كلما غدا واضحا لى أن البيان يكون أبسط كلما كان أعمق. وأخيرا يصبح مبتذلا. وعند هذه النقطة يبدأ المرء فى فهم الادعاء الدينى بأن المبادرات فقط هى التى يمكن أن تتصل ببعضها البعض، لأنها لا تستخدم الفكرة أو المفهوم، لكنها تستخدم الرمز. بالنسبة لها فإن كل حديث يقوم على مفهوم يصبح طيشا وحماقة. إن فى وسع المرء حقا، أن يتبادل فقط ما هو مفهوم بصورة مشتركة. وطبقا لهذا فإن كل عمل فنى إنما هو طيش وحماقة ـ لكنها حماقة محسوبة.

* * *

الموت مجاز، لا أحد يسعى لحتفه.

* * *

يجب أن تكون هنالك دوما نسمة أمل إذا كنت سوف تتمتع تمتعا كليا بمزاج يأسنا. وتذكر أيضا بأنه حيثما يوجد الإيمان يوجد الشك.

* * *

لا أهمية للفن باعتباره عملا مصرفيا، ما لم يجئ من روح فى مسرحية حرة ـ فإنه يكون حينئذ عملا مصرفيا.

* * *

الرؤية تعويذة.

حواشى فى المتن
شمس ما بعد الظهيرة

(ф) (ص ٤٣) هذه الحجرة الصغيرة، كم أعرفها جيدا؟
الآن تم تأجيرها، والأخرى المجاورة لها
كمبانى أعمال، كل المنزل ابتلعته مكاتب التجار
شركات محدودة، ووكالات شحن السفن
كم هى حميمة، هذه الحجرة الصغيرة!
مرة هنا نهضت أرسكية إلى جوار الباب
وأمامها سجادة تركية صغيرة
بالضبط هنا، ثم الرف بزهريتين
صفراوين، وعلى يمينهما
كلا ـ انتظر فى مقابلهما (كم أسرع الوقت ماضيا)
خزانة الثياب البالية والمرأة الصغيرة
وهنا فى الوسط، توجد المنضدة
حيث اعتاد الجلوس والكتابة
وحولها المقاعد الثلاث المصنوعة من الخيزران
كم كان عدد السنوات... وإلى جوار النافذة هناك
السرير الذى كثيرا ما مارسنا الحب عليه
فى مكان ما لا بد أن تكون كل تلك الأجزاء القديمة فى الأثاث ما تزال تقرقع..
وإلى جوار النافذة. نعم، ذلك السرير
تسلقت شمس ما بعد الظهيرة نصف الطريق الطريق فوقها
انفصلنا الساعة الرابعة ما بعد ظهيرة أحد الأيام
ومر أسبوع ونحن على مثل حال بعد الظهيرة ذاك.
لم أكن أؤمن أبدا
إن تلك الأيام السبع سوف تدوم إلى الأبد

ترجمة حرة عن سى. بى. كافافى

بعيدا للغاية

(φ) (ص ٤٤) هذه الذاكرة الهائمة.... كم وددت
تسجيلها، لكنها تتضاءل...
بقيت منها بصمة بصعوبة...
ترقد إلى الوراء بعيدا للغاية، بعيدا فى شبابى الباكر،
قبل أن تتوهج مواهبى
جلد مصنوع من بتلات ياسمين فى ذات ليلة...
فى أمسية فى أغسطس... لكن هل حقا كان أغسطس؟
بالكاد فى وسعى بلوغها الآن، بالكاد أتذكرها...
تلك العيون، العيون الرائعة...
أو ربما كان ذلك فى سبتمبر.. فى أيام الكلب...
زرقاء بلا جدال، نعم، أكثر زرقة
من نظرة جوهر الياقوت الأزرق.

ترجمة حرة عن سى. بى. كانافى

واحد من آلهتهم

(φ) (ص ٧٧) يتحرك عبر سوق «سيليوكيا»
حوالى ساعة الفسق، هنالك جاء
شاب طويل مثالى الصياغة
مع فرصة جزلة لخلق مطلق الاستقامة
مكتوبة فى نظرته، وقد جذبت رأسه
السوداء المعطرة، بشعرها غير الممشط
نظرات العابرين الفضوليين
كانوا يتوقفون ليسأل الواحد منهم الآخر، من كان.
يونانى من سوريا، ربما، أو غريب آخر؟
غير أن القليلين الذين رأوا أعمق بعض الشىء، انسحبوا جانبا
يفكرون، يتابعون بعيونهم

ليراقبوه وهو ينسل فى صمت عبر البواكى المعتمة
عبر ضوء ظلال المساء
ذاهبا إلى أحياء المدينة
التى تستيقظ فقط ليلا ولها طقوس عربيدة لا تعرف الحياء
منغمسة فى اللذات الحسية التى لا ترحم الجسد أو العقل
تلك القلة التى أدركت تساءلت من يكون من بين هؤلاء
وأى ثروات شهوانية اقتنص عبر شوارع سيليوكيا المعوجة،
ظل زائر من تلك المنازل
المقدسة المبجلة حيث يقيمون

ترجمة حرة عن سى. بى. كافافى

من الذى تسبب فى رفض العظيم (*)

(ф) (ص ١٦٩) يجىء ذاك اليوم العنيد للبعض منا
يطلب أن نصر على رأينا ونقول
باختيار إرادى نعم أو كلا العظمى.
وأيا كان من بداخله الكلمة المؤكدة
فإنه سوف يرد مباشرة ثم يُسمع.
إن سبل حياته سوف تتضح على الفور
وكل الجوائز سوف تكلل طريقه.
غير أن ذاك الآخر الذى ينكر،
لا يمكن لأحد أن يقول بكذبه، إنه سوف يكرر
بصوت أعلى إن ضغط عليه مرة أخرى.
هذا حقه ـ غير أن «كلا» بدلا من «نعم»، مع تلك التفاهات الصغيرة، سوف تُغرق
كل حياته وتخمدها

ترجمة حرة عن سى. بى. كافافى

(ф) (ص ٢٤٣) إن الأصوات المسجلة فى خطاب كابوديستريا قد تمت استعارتها وجرى توسيعها من حاشية فى «حياة باراسيلسوس» «لغرانز هارتمان».

(*) مقتبسة من جحيم دانتى (المترجم).

عن المؤلف

لورانس داريل: شاعر وروائى وأديب رحلات. بريطانى من أصل أيرلندى. ولد فى الهند ١٩١٢. قرر أن يصبح كاتبا بعد أن أنهى دراسته فى إنجلترا. تنقل فى أنحاء مختلفة والتحق بأعمال عديدة كعزف البيانو، وسمسرة العقارات، أقام فى الإسكندرية ـ عاصمة الذكريات كما أطلق عليها ـ ١١ عاما كمراسل صحفى قبل أن يضطر للرحيل عقب العدوان الثلاثى على مصر، لينتقل إلى إنجلترا فى عام ١٩٥٧ ويقيم فيها، حتى توفى عام ١٩٩٠. نال داريل ـ الذى اعتبره هنرى ميلر سيد الرواية الإنجليزية ـ شهرة واسعة بعد روايته الفذة «رباعية الإسكندرية» وبفضلها أصبح يعد ضمن أهم مؤسسى تيار الحداثة الروائية. يقف إلى جوار جيمس جويس ومارسيل بروست.

عن المترجم

الدكتور فخرى لبيب: مناضل يسارى وكاتب ومترجم. من مواليد الفيوم. صدرت له عدة أعمال روائية وكتابات فى تاريخ اليسار المصرى. كما قدم سيرة ذاتية متفردة بعنوان «المشوار». من أشهر ترجمات فخرى لبيب غير رباعية الإسكندرية، رواية أرونداتى روى «رب الأشياء الصغيرة»، و«عريان بين ذئاب» لبرونو أبيتز.



لورنس داريل

واحد من أهم الروائيين الإنجليز وأكثرهم مبيعًا فى القرن العشرين. وكتابه «رباعية الإسكندرية» هو بلا شك أحب أعماله للقراء. وتدور الأحداث فى الإسكندرية خلال الحرب العالمية الثانية. فى هذا العالم البراق والفاسد الذى قارب شفا الانهيار يحاول «ل. ج. دارلى» أن يقنع نفسه بنهاية علاقته مع الجميلة المثيرة «جوستين حوسنانى» ليبدأ رحلة مراوغة للخداع الجنسى والسياسى أطلق عليها المؤلف «بحث فى الحب المعاصر».

"لا يوجد شك فى عظم إنجاز داريل."
چورج شتاينر

"داريل متمكن فى خلق الإثارة. لقد بهرنى من البداية."
وليبور سميث

"إنجاز معجز ومبهر."
ملحق جريدة التايمز الأدبى

"واحدة من أعظم أعمال الأدب الإنجليزى. تلمس مواضيع إنسانية خالدة لا تتغير."
جريدة التايمز

"الكتابة دائما رائعة، ليس فقط فى الفقرات الشاعرية الرائعة، بل أيضا فى التعليقات الذكية الساخرة." فيليب توينبى، جريدة الأوبزرفر

تصميم عمرو الكفراوى

دار الشروق
www.shorouk.com

6 221102 023115